المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

تأليف : عبد الماجد الدريابادى
تقديم : سيد سليمان الندوى
ترجمة: سميرعبد الحميد إبراهيم

64

هذه ترجمة كتاب "سفر نامه حجاز" للعلامة (أو كما يلقب فى شبه القارة الهندية الباكستانية مولانا) عبدالماجد الدريابادى، وتعنى مذكرات الرحلة إلى الحجاز، ويأتى صدورها ضمن خطة مدروسة، تهدف إلى ترجمة عدد من كتب الرحلات المكتوبة بعدد من اللغات الشرقية، حتى تغطى فترات مختلفة من تاريخ العالم العربى والإسلامى.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى

المشروع القومى للترجمة

سفر نامه حجاز

تأليـــف : عبد الماجد الدريابادى

تقديـــم : سيد سليمان الندوى

ترجمة : سمير عبد الحميد إبراهيم

٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : د. جابر عصفور

- العدد : ٦٤٣
- سفر نامه حجاز
- عبد الماجد الدريابادى
- سيد سليمان الندوى
- سمير عبد الحميد إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

سفر نامه حجاز

عبد الماجد الدريابادى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

Ei Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel . : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله ، وأصحابه أجمعين .. وبعد :

هذه ترجمة كتاب « سفر نامه حجاز » للعلامة (أو كما يلقب في شبه القارة الهندية الباكستانية مولانا) عبد الماجد الدريابادى ، وتعنى مذكرات الرحلة إلى الحجاز ، ويأتى صدورها ضمن خطة مدروسة ، تهدف إلى ترجمة عدد من كتب الرحلات المكتوبة بعدد من اللغات الشرقية ، حتى تغطى فترات مختلفة من تاريخ العالم العربى والإسلامى ، وهكذا ترجمت عدة كتب صدر منها :

كتاب « شهور فى ديار العرب » (عن الأردية) للعلامة مسعود عالم الندوى عن رحلة قام بها المؤلف عام ١٣٦٨ هجرية / ١٩٤٩ م ، عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض عام ١٤٢٢ هجرية / ٢٠٠١ م .

كتاب « يابانى فى مكة » (عن اليابانية) لسوزوكى تاكيشى عن رحلة قام بها المؤلف عام ١٣٥٦ هجرية / ١٩٣٨ م مشيرا إلى رحلاته السابقة أيضا فى عامى ١٣٥٢ هجرية و ١٣٥٥ هجرية ، وصدر هذا الكتاب أيضا عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة فى عام ١٤١٩ هجرية / ١٩٩٩ م .

كتاب « يوميات رحلة فى الحجاز » (عن الأردية) للعلامة غلام رسول مهر عن رحلته عام ١٣٤٨ هجرية / ١٩٣٠ م ، وصدر عن دارة الملك عبد العزيز عام ١٤١٧ هجرية / ١٩٩٧ م .

كتاب « رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى فى مصر وفلسطين والشام والحجاز » (عن الأردية) لخواجه حسن نظامى عن رحلته للبلاد المذكورة عام ١٣٢٩ هجرية /

١٩١١ م ، وصدر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ضمن المشروع القومى للترجمة عام ١٤٢٣ هجرية / ٢٠٠٢م .

كتاب « الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية » (عن الفارسية) لمولانا رفيع الدين المراد آبادى عن رحلته عام ١٢٠١ هجرية / ١٧٨٩ م ، وصدر أيضا عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ضمن المشروع القومى للترجمة عام ١٤٢٤ هجرية / ٢٠٠٣ م .

أما كتاب « سفر نامه حجاز » للعلامة عبد الماجد الدريابادى ، فهو من عيون الأدب الأردى ، يتناول فترة مهمة ، إذ كتبه المؤلف عن رحلته للحج عام ١٣٤٧ هجرية / ١٩٢٩م ، مما يزيد من قيمة نشر هذه الترجمة العربية للكتاب ، الذى صدر منذ أكثر من سبعين سنة ، فى شكل مقالات نشرت فى البداية فى صحيفته « سچ » أى الصدق ، التى كانت تصدر بالأردية فى الهند ، ثم أعاد العلامة عبد الماجد الدريابادى ترتيبها ونشرها فى كتاب مستقل .

والعلامة عبد الماجد الدريابادى من علماء الهند الكبار ، ومن الأدباء العظام ، يتميز بأسلوبه الفريد ، أما كتابه « سفر نامه حجاز » أو رحلتى إلى الحجاز ، فقد نال شهرة واسعة فى عموم شبه القارة الهندية الباكستانية ، ولا يزال يطبع حتى اليوم ، وينتظره القراء بشوق ؛ نظرا لأسلوب مؤلفه ، والمعلومات المفيدة التى يتضمنها الكتاب ، ولهذا السبب ولأسباب أخرى ذكرتها هنا فى المقدمة البحثية المختصرة ، اخترت هذا الكتاب لترجمته إلى العربية ، ليصدر ضمن المشروع القومى للترجمة الذى يشرف عليه الأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، الذى يحرص دائما على إثراء المكتبة العربية بكتب صدرت باللغات الشرقية ، بعد أن ظلت الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية دون غيرها تملأ أرفف المكتبات العربية على الدوام.

حرص المترجم على أن تكون الترجمة مطابقة للأصل ، كما حاول بقدر الإمكان أن يكون الأسلوب أدبيا كما هو فى الأصل ،الذى كتبه المؤلف منذ نحو ثمانين عاما ، كما اهتم المترجم بكتابة مقدمة بحثية يحسبها لازمة للقارئ العربى لفهم بعض ما جاء فى الرحلة ، بالإضافة إلى ذكر مصادر ومراجع مختلفة لمن أراد التفصيل .

وقد وضع المؤلف لفصول كتابه عناوين رئيسة بلغت أربعين عنوانا بالإضافة إلى مقدمة العلامة سيد سليمان الندوى ، فضلا عن ثلاثة ملاحق فى نهاية الكتاب ، أما العناوين الجانبية التى جاءت فى الترجمة العربية ، والتى بلغت نحو ٢٧٢ عنوانا ، فهى من صنع المترجم ، وسوف تكون مفيدة لإصدار طبعة أردية جديدة للكتاب بإذن الله .

ولا أملك هنا إلا الشكر والتقدير، أقدمه للأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، وكل من أسهم فى إخراج هذه الكتاب إلى القارئ العربى فى كل مكان.

وبالله التوفيق .

سمير عبد الحميد إبراهيم

العلامة عبد الماجد الدريابادى
وكتابه سفر نامه حجاز
دراسة تحليلية

بقلم المترجم

(١)

المتغيرات السياسية فى العالم الإسلامى وأثرها على العلاقة بين شبه القارة الهندية والجزيرة العربية فى بداية عهد الملك عبد العزيز :

لا شك أن المتغيرات السياسية فى العالم الإسلامى فى بداية عهد المغفور له الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - كان لها أثر واضح على العلاقة بين شبه القارة الهندية وبالتحديد بين مسلمى شبه القارة الملك عبد العزيز، ونقصد بالمتغيرات السياسية هنا وضع دولة الخلافة ، ووضع المسلمين داخل الهند وقيام الملك عبد العزيز بتوحيد أجزاء الجزيرة العربية ودخول الحجاز، فقد تشابكت هذه المتغيرات ، لتتمخض فى النهاية عن علاقة وثيقة بين الملك عبد العزيز ومسلمى شبه القارة عموما.

لقد اندلعت الثورة ضد البريطانيين فى الهند سنة ١٨٥٧ م ، تلك الثورة التى واجهها البريطانيون بالقمع والتنكيل بالمسلمين وقتلهم ونفيهم ، ثم ظهرت حركات توعوية بين المسلمين هدفت إلى الحفاظ على هويتهم داخل الهند ، وهم يئنون من جراء الاحتلال ، فبدءوا يبحثون عن وطن مستقل وهوية مستقلة لم يجدوها فى غير إطار الجامعة الإسلامية ، ومن هنا كانت مساندتهم المعنوية والمادية أحيانا للدولة العثمانية

نابعة من أنها تمثل دولة الخلافة ، وأن السلطان - خليفة المسلمين - هو رمز الوحدة الإسلامية المفقودة .

وهكذا ظهرت فى الهند حركة الخلافة التى تزعمها محمد على وشوكت على[١] وشيخ الهند مولانا محمود الحسن الديوبندى ، ومولانا عبد البارى فرنكى محلى ومولانا أبو الكلام آزاد[٢] والأديب ظفر على خان [٣] والعلامة حسرت موهانى ، وكاتبنا مؤلف الرحلة مولانا عبد الماجد الدريابادى ، وقد انضم إليهم غاندى ، كما انضم إليهم أيضا زعماء حركة تحرير الوطن ، وحركة عدم التعاون مع المحتل التى أطلق عليها « ترك موالات » أى رفض الولاء لبريطانيا.

كان هدف حركة الخلافة هو مساعدة الأتراك حملة لواء الخلافة ، والمحافظة على الحجاز بعيدا عن نفوذ الاستعمار الغربى .

لكن إلغاء مصطفى كمال أتاتورك للخلافة أثار ضجة بين مسلمى الهند ، ومن العجيب أن محمد على زعيم حركة الخلافة الهندية ، تقدم للدفاع عن مصطفى كمال واعتبر - كما ذكر الدكتور جمال حجر [٤] أن ما أقامه من حكم جمهورى لا دينى فى أنقره هو أقرب إلى نظام الحكم فى الإسلام ، كما أيد التجربة التركية عدد من المسلمين الهنود ، وكان الأديب والمفكر الإسلامى محمد إقبال كتب قبل ذلك بسنوات - مشيرا إلى ما سيفعله الأتراك - قصيدة نشرت فى أول دواوينه « بانك درا» أى صليل الجرس جاء فيها[٥] جاك كردى ترك نادان نـ خلافت كى قباسادكى مسلم كى ديكه اورون كى عيارى بهى ديكه

« لقد مزق التركى الجاهل عباءة الخلافة ، فانظر إلى سذاجة المسلم وانظر إلى نباهة الآخرين. » [٦]

ثم أصابه الحزن من تصرفات الشريف حسين فنظم إقبال ما ترجمته :

« انظروا إلى سليل بنى هاشم كيف يبيع كرامة دين المصطفى .. »

تحرك مسلمو الهند معارضين الشريف حسين الذى أعلن نفسه خليفة للمسلمين فى مارس ١٩٢٤ م فى احتفال أقيم فى شرق الأردن ، واعتبروه خائنا

للدين ، وقد نسقت جمعية الخلافة الهندية معارضتها للحسين مع « السلطان ابن سعود » الذى أعلن أنه مسافر إلى مهبط الوحى لبسط أحكام الشريعة ، وأنه بعد الآن لا سلطان فى مكة إلا الشرع .. وقد كانت جمعية الخلافة الهندية تتكلم باسم العالم الإسلامى ، واستمد السلطان ابن سعود من تأييدها له فى الحجاز قوة على قوته ، فشرع يخاطب العالم الإسلامى ، للوصول إلى حل يضمن تحقيق أمن الحجاز(٧) .

ويذكر الدكتور حجر أن خلافات فردية ظهرت بين أفراد جمعية الخلافة ، لكن وفد الخلافة وصل الحجاز بقيادة سيد سليمان الندوى عام ١٩٢٦ م ، وأفاد تقرير الوفد عن مسألة هدم القبور أن القباب التى كانت على القبور هدمت وكسرت ، لكن القبور موجودة سالمة كما شاهدناها ، والقبة التى كانت على قبر حمزة هدمت والمسجد سالم أما مسجد أبى قبيس فقد هدم جزء منه ، فأسف السلطان عبد العزيز لذلك وأمر بترميمه.(٨)

وحاول بعض أفراد جمعيات هندية معينة منع الحجاج من السفر إلى الحجاز حتى يعاد بناء المقابر المهدمة بالوضع والصورة التى كانت عليها !! وتصدى لهم مجموعة من علماء جمعية أهل الحديث ، وعلى رأسهم العلامة أبو الوفاء ثناء الله الأمرتسرى ، الذى حضر مؤتمر جمعية الخلافة الأول فى لكهنو ، وحضر مؤتمر جمعية العلماء فى كلكتا وسافر إلى مكة المكرمة عام ١٩٢٦ م ومثل الجمعية فى المؤتمر الإسلامى العام الذى دعا إليه الملك عبد العزيز.(٩)

وكانت مجلة أهل الحديث قد نشرت مقالا بعنوان رجوع الوفد الهندى إلى الهند وعزم الشيخ الأمرتسرى على سفر الحج وحث الناس عليه (٣ شعبان ١٣٤٣ هجرية ٢٧ فبراير ١٩٢٥ م) وأشادت فى مقال آخر فى ٢٥ من ذى الحجة من العام نفسه بإنجازات السلطان ابن سعود فى الحج كما نشرت فى العدد نفسه مقالا بعنوان مشاهدات الحجاج عن الأمن والأمان فى مكة المكرمة ، وظهرت مقالات أخرى فى السنة التالية تحث الناس على الحج منها مقال بعنوان شد الرحال إلى الحج جماعيا وحجز السفينة بكاملها. (عدد ١٥ يناير ١٩٢٦ م) .

ومن هنا جاء حرص كاتبنا مولانا عبد الماجد الدريابادى أيضا على السفر للحج ، وكتابة رحلته هذه التى يثير فيها بأسلوبه الجميل مشاعر المسلمين ، ويحثهم على أداء هذا الفرض ، ونشرها فى البداية فى سلسلة حلقات فى جريدته « سج » واسعة الانتشار ، ثم أعاد نشرها فى الكتاب الذى نقدم ترجمته هذه إلى قراء العربية.

أما العلامة الشاعر والفيلسوف محمد إقبال فقد أعلن فى مقابلة صحفية عن رأيه فى الأوضاع بالمنطقة فقال :

أنا لا أوافق على فكرة إنشاء إدارة مؤقتة أو طارئة للحرمين الشريفين ، وأرى أن مجرد تقديم هذا الاقتراح إثم كبير، وشر مستطير ، وخطأ فاحش ، وأنا مطمئن تماما للأوضاع الراهنة اليوم بالحجاز، كما أننى أثق بابن سعود وكفاءته ثقة تامة ، وأرى أن سلطان نجد وملحقاتها رجل متنور، ويؤيدنى فى ذلك كل من قابلوا السلطان أو زاروا بلاد نجد ، والعالم الإسلامى اليوم يمر بسلسلة من التغيرات المختلفة ، إلا أن ابن سعود نفسه ينوى عقد مؤتمر للعالم الإسلامى ، وسوف يحضره ممثلون عن الأمة الإسلامية والسلطان سوف يطبق ما يقرره هؤلاء الممثلون .. والإمكانات والظواهر تشير إلى انبعاث حركة شعبية قوية فى العالم العربى ، وقد يقودها ابن سعود . وكتب إقبال قصيدة إلى الملك عبد العزيز فى أخر دواوينه هدية الحجاز [١٠] جاء فيها :

« يا عبد العزيز ! اضرب خيامك فى صحرائك لكن لست بحاجة إلى أن تستعير حبالك من الأجانب فصحراؤك مساؤها يخجل الفجر المتلألئ ، فمساؤك أفضل من فجر الأجانب.» [١١]

وبالرغم من حدوث خلاف داخل جمعية الخلافة على تأييد الملك عبد العزيز ، إلا أن محمد على يصرح بوضوح أن ابن سعود هو أنسب رجل فى نظر مسلمى الهند ، لأن لديه طموحات عظيمة وقد كتب محمد على إلى أحد أصدقائه فى يونيو ١٩٢٨ م (محرم ١٣٤٧ هـ) : « لا نملك إلا الدعاء للسلطان ابن سعود أن يوفقه الله .. وقد قرأت خبرا وأنا على السفينة أن أهل الشام – وحالتهم أسوأ منا – الذين أعلنوا العصيان ضد تركيا ، فكان نصيبهم الخضوع للاحتلال الفرنسى ، هم الآن بحاجة إلى تنصيب ملك عليهم ، ولعلهم يتطلعون الآن إلى السلطان ابن سعود . »[١٢]

وبالرغم من الاختلاف فى الرأى بين محمد على وأنصار الملك عبد العزيز فى الهند إلا أن محمد على كان يحمل للملك عبد العزيز تقديرا خاصا ؛ نظراً لأن الملك عبد العزيز كان من المعارضين لفكرة القومية بالمفهوم الضيق ، وكان من الداعين إلى وحدة العالم الإسلامى وتكاتفه. (١٣)

وقد كتب الأستاذ علاء الدين سومرو فى بحثه عن الأوضاع السياسية فى جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز : « إن ابن سعود صار مبعث أمل العالم العربى الذى وجد قائدا يمكن أن يُعلى كلمة تلك الأمة ، كما أن الكثير من المجتمعات المسلمة الأخرى قد بدأت تتطلع إليه مجدداً إسلاميا ، يُعلى راية الإسلام ويخدم فكرته.»(١٤)

وقد وقفت جمعية أهل الحديث الهندية مؤيدة ومساعدة لابن سعود ، لدرجة أنهم – كما يقول الدكتور ظهور أحمد أظهر – جمعوا تبرعات لابن سعود وأرسلوها إليه خلال مهمته التى قام بها من أجل إنقاذ الحجاز من الفوضى العامة والظلم السائد وإحلال الأمن والسلام بأرض الحرمين الشريفين.(١٥)

ومن جانبه أشاد الملك عبد العزيز بمسلمى الهند ، فقد جاء فى تقرير وفد الخلافة ما يلى :

« تحدث معنا السلطان بكلمات كلها حب وود ، وهو يودعنا ، وقد شكرناه على حسن ضيافته واهتمامه بنا فقال السلطان :

« أنا ممنون جدا لمسلمى الهند ، وأنا أؤكد لكم أننى أثق بمسلمى الهند من بين مسلمى العالم كله وأعتمد عليهم – بعد الله – لأننى أعرف أن جميع جهودهم خالصة لوجه الله ، وأن ما فى قلوبهم على ألسنتهم ، وقد رأيت أيها السادة أن نستفيد من أهل العلم وأهل المعرفة منكم ، ونحن نرحب بإسهاماتكم ، وإسهام كل من لديه الإمكانية المطلوبة .»

وجاء فى التقرير « .. شكرناه كثيرا .. وبعدها عانقنا السلطان بعاطفة جياشة ، وكان وداعا مؤثرا »(١٦)

وقد أشاد سردار إقبال على شاه الذى حضر المؤتمر الإسلامى الذى دعا إليه الملك عبد العزيز ، وقد حضره بطيفة شخصية ، بالملك عبد العزيز وذكر أن بُعد نظر الملك عبد العزيز ، مكنه من إدراك أهمية الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر سنويا ، وقد تمكن بذلك من توظيف هذا الجمع الإسلامى فى التأثير على أكثر من مليون مسلم يعيشون تحت العلم البريطانى فى الهند وحدها ، بالإضافة إلى ١٥٠ مليون مسلم فى البلدان الأخرى . (١٧)

ويقول سردار محمد إقبال أيضا :

« لقد تركت الوفود الإسلامية الحجاز إلى الملك الجديد ليحكم فيه طبقا للقرآن والسنة ، وليقيم الحدود التى فرضها الله فى كل مكان من بلاده الواسعة ، حيث يحكم بالعدل فى هدوء وسلام. »(١٨)

وهكذا رسم الشاعر ظفر على خان صورة ابن سعود فى قصيدته ندى نسيم الحجاز (١٩)

من هنا تكمن أهمية هذه الرحلة التى كتبها المؤلف عن مشاهداته للحجاز ، ولقائه بملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها عبد العزيز بن سعود عام ١٣٤٧/١٩٢٩ م .

(٢)

أهمية الرحلة :

ترجع أهمية هذه الرحلة إلى الفترة الزمنية التى كتبت فيها ، فهى تحكى عن زيارة المؤلف لمنطقة الحرمين الشريفين أواخر سنة ١٣٤٧ هجرية / أوائل سنة ١٩٢٩ م ، وكان قد مضى على دخول الملك عبد العزيز الحجاز عدة سنوات ، وحتى نفهم بعض ما أشار إليه المؤلف فى رحلته من موضوعات تتعلق باستتباب الأمن والأوضاع فى المدينة المنورة ، وفى مكة المكرمة ، وفى عرفات والمزدلفة ومنى ، وأخيرا ما يتعلق بالحكومة وخدمة الحجيج وغيرها، يلزم أن نشير هنا باختصار إلى المسائل والقضايا التى واجهت الملك عبد العزيز فى هذه السنوات القلائل بعد دخوله الحجاز .

يأتى فى مقدمة هذه المسائل والقضايا عدم وجود وسيلة معقولة للكسب ، أمام أهل الحجاز ، نظرا لخلو البلاد من الوسائل الاقتصادية التى تسمح لأهله بالحياة بطريقة عادية ، فمن كان لديه ناقة أو جمل ، كان يظل طوال العام فى انتظار موسم الحج ، كما كان أصحاب والحوانيت ينتظرون أيضا قدوم الحجاج والزائرين ، فإذا ما جاءوا حاولوا أن يكسبوا منهم ما يستطيعون كسبه ، وكانت الأشياء التى تساوى فى الهند جنيها تباع فى بلاد الحرمين بمائة ، ثم تعود الأموال إلى الهند ، وتوزع فى شكل هدايا لها قدسيتها ، كما كانت المقابر والمزارات تقام هنا وهناك ، لجلب الناس إليها ، وسلبهم أموالهم فى شكل نذور وهبات ، أما شيوخ القبائل فكانوا لا يتورعون عن قبول الرشاوى ، للتغاضى عن أعمال سلب القوافل ونهبها على الطريق ، بالإضافة إلى قيام البدو بنهب قوافل الحجاج والزائرين ، ناهيك عن عدم وجود طرق معبدة أو صالحة للسفر والنقل ، فكم من مئات الآلاف من الحجاج كانوا يتحركون بين جدة ومكة المكرمة ، وبين مكة المكرمة والمدينة المنورة مدة تزيد على ١٣٠٠ سنة ، ومع هذا ظلت الطرق كما هى عليه بحالتها السيئة ، هذا إن وجدت طرق بمعنى الكلمة ، وهذه ليست قصة خيالية ، أو حكاية بل هذا واقع ملموس وكما ذكر الشيخ إسماعيل الغزنوى : «إن كل إنسان لديه فكرة عن الأحداث التى تشكل تاريخ الحجاز ، أو شاهد الحجاز قبل دخول جلالة الملك ابن سعود ، يمكنه تقدير هذه الصورة ، ويمكنه أيضا معرفة قدر المشكلات والقضايا التى واجهت حكومة جلالة الملك فيما يتعلق بإصلاح الحجاز ومنطقة الحرمين الشريفين. »[٢٠]

لقد بدأ الملك عبد العزيز فور دخوله الحجاز بإيجاد حلول لتلك القضايا والمشكلات، وفى مقدمتها مسألة الأمن ، حتى شهد له العدو قبل الصديق ، وكانت جريدة أم القرى تعلن على صفحاتها عن أى اعتداء يقوم به الخارجون على القانون ، وتعلن عن أسماء المعتدين وأماكن حدوث الاعتداءات ... إلخ[٢١] وأشار الدكتور حسن الساعاتى - أستاذ علم الاجتماع بجامعة عين شمس - إلى « أن الملك عبد العزيز منذ دخل مكة محرما أخذ فى رسم سياسة الحجاز العليا وعلى رأسها شئون الأمن فيه .. وهكذا أدت وفود المسلمين الحج من عام ١٣٤٤ هجرية / ١٩٢٥ م فى جو من الأمن والنظام ، ولأول مرة ومنذ حقبة طويلة توفر الأمن والطمأنينة ، واستحق عبد العزيز عن جدارة أن

يعلن ملكا على الحجاز الذى أمضى فيه سنتين لم يبرحه خلالهما منذ أن حل فيه ، ولم يهنأ له بال حتى تم تنظيمه وتأمينه من اعتداءات الأخوان ، وتطهيره ممن كانوا يعيثون فى أرضه فسادا .» (٢٢)

ومن الجدير بالذكر أنه فى السنة التى زار فيها عبد الماجد الدريابادى الحرمين ١٣٤٧هـ/١٩٢٩ م صدر أمر ملكى بإحداث إدارة للأمور العسكرية عهد إليها بالنهوض بالوحدات العسكرية الموجودة .(٢٣)

كما قام الملك عبد العزيز بإصلاح نهر زبيدة ، وحل مشكلة المياه ، وقد ورد التصريح بهذا فى الرحلة قيد الترجمة، واهتم بالمستشفيات الموجودة وبدأ بإنشاء مستشفيات ، ومستوصفات ، وعيادات جديدة .

ومن الجدير بالذكر أن أول مرسوم يتعلق بالصحة صدر فى ١٣٤٤/٨/٢٧ هجرية الموافق ١٩٢٦/٣/١١ م بشأن مديرية الصحة والإسعاف للاهتمام بصحة الفرد وصحة البيئة عن طريق تأسيس البلديات والاهتمام بصحة الحجاج والوافدين والمسافرين (برا وبحرا) كما صدر أول تنظيم إدارى بعد ذلك بشهرين ، وهو خاص بعلاج المرضى من الحجاج ، وصدر فيما بعد نظام إدارة الحج ، ونظام تسجيل وفيات الحج ، ونظام التطعيم ضد الجدرى وفى محرم من عام ١٣٤٧ هجرية يوليو ١٩٢٨ م صدر نظام الطبابة والصيدلية. (٢٤)

وبدأ خطة مُحكمة للتعليم وإرسال البعثات إلى مصر وإيطاليا، وبدأ فى إنشاء عدد من الفنادق ، وتعبيد الطرق من أجل الحجاج والزائرين ، وبدأ فى إدخال الإضاءة بالكهرباء وإدخال الهاتف واللاسلكى ، وكل هذا فى بداية دخوله الحجاز ، كما يوضح عبد القادر الدريابادى فى رحلته هذه .

ومن الجدير بالذكر أن الملك عبد العزيز وحد الرسوم وألغى بعض الضرائب وركز على التعريفة فى جباية الزكاة (٢٥) . وفى رجب ١٣٤٦ هجرية / ١٩٢٧م أقيم مصنع الكسوة أمام مبنى وزارة المالية ، وانتهى المصنع من صنع أول كسوة سعودية فى آخر ذى القعدة سنة ١٣٤٦ هجرية (٢٦) . وقد أشار أحمد عبد الغفار عطار فى كتابه

الكسوة والكعبة إلى ذلك ، كما أشار إلى المشروعات المتعلقة بالحج والحجاج ومنها إضاءة الحرم الشريف بالكهرباء وتهويته ، ورصف المطاف وأروقة الحرم المكى بالرخام، وعمل دورات مياه ، وإنشاء خط جديد لعرفات وسفلتته وسفلتة الشارع العام فى منى .

كما أشاد شكيب أرسلان فى الارتسامات اللطاف بالأمن والأمان ، وأثنى على ما تحقق من وسائل حديثة كالسيارات والهاتف واللاسلكى بوصفها وسائل راحة ، لكنه مثل صاحب رحلتنا عبد الماجد الدريابادى يأسف لغلبة النزعة المادية الأوربية على الناس ونسيان الصلة الوجدانية والراحة الروحية ، ويقترح أن تطّرد مشروعات الدولة السعودية العمرانية فى الحرمين الشريفين وفى جدة وينبع والطائف ليدرك أغنياء العالم الإسلامى أنهم لا يرهقون عسرا ، ولا يصادفون فى شىء من اللذات التى يبيحها الشرع حرمانا .. (٢٧)

ومن الضرورى أن نطل على ما حدث من تطوير فى السنة التى كتب فيها عبد الماجد رحلته هذه ، والتى أدى فيها فريضة الحج ، وزار المسجد النبوى فى المدينة المنورة ، حتى يمكن للقارئ أن يقارن بين ما ذكره فى رحلته ، وبين ما نشر فى الجريدة شبه الرسمية أو الرسمية ، أى جريدة أم القرى فى العام نفسه ، بل فى الشهور ذاتها التى كان عبد الماجد يزور فيها منطقة الحرمين .

فقد ذكرت صحيفة « أم القرى » على سبيل المثال فى الحادى عشر من شوّال سنة ١٣٤٧ هجرية / ٢٢ مارس ١٩٢٩ م أنه صدر الأمر السامى بإنشاء بلدية فى بلدة بحرة الواقعة بين مكة وجدة ، فضلا عن دائرتى المستوصف الصحى والبريد التى لا يزال العمل جاريا فيهما ... وقد وضعت مديرية شرطة العاصمة مخافر خشبية فى نقاط مختلفة من شوارع البلدة ، وأقامت شرطيا فى كل منها يشرف على النظام وسير السيارات ، ويساعد الحجاج والغرباء فى قضاء حاجتهم .(٢٨)

وفى ٢٥ من شوال / ٥ أبريل ذكرت أم القرى خبر إقامة دوريات بين المراكز المختلفة ، سواء كانت من الهجانة أو بواسطة السيارات ، وقد وضع لها ترتيب خاص ، ومن وظائفها إعانة المنقطعين من الحجاج ، وإجبار سائقى السيارات على الوقوف لدى مشاهدتهم حاجًا منقطعا أو محتاجا إلى الماء ... وقد صدر الأمر السامى بإقامة

دوريات بين مكة والمدينة فى الأوقات التى يسافر فيها فقراء الحجاج مشيا على الأقدام لزيارة المدينة المنورة وذلك لمساعدتهم وإسعافهم عند الضرورة .[٢٩]

وذكرت أم القرى خبرا عن مراكز الصحة العامة فى أيام الحج فى مكة وعرفات ، وهى تسعة مراكز ، عبارة عن مظلات يوجد فيها طبيب ورجال صحة وكمية من الماء وفيها ما يلزم من أدوية ووسائط لنقل المرضى ، كما يوجد فى منى مستشفى لإمداد المرضى ومعالجتهم ... إلخ ، وذكرت الصحيفة فى العدد نفسه أنه تقرر إقامة مخفر للشرطة فى مدخل مكة على طريق جدة .[٣٠]

وفى الصفحة الخامسة من العدد ٢٢٩ الصادر فى السادس من ذى الحجة أوردت الصحيفة خبر مراكز الصحة العامة والإسعاف المقامة فى أيام الحج فى مكة وعرفات .

ومما يؤكد اهتمام الملك عبد العزيز بضيوف الرحمن لقاؤه بهم بعد الحج فقد ذكرت أم القرى أنه :

« قد أقام جلالة الملك عبد العزيز بن سعود صاحب الحجاز ونجد وملحقاتها – أيده الله – مأدبة ملوكية فاخرة نادرة المثال ... وفى نهاية الحفل نهض الملك وعن يمينه السيد أحمد الشريف السنوسى ، وسعادة كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان ، وعن يساره أمراء البحرين وقطر، وسائر من حضر المأدبة... .»[٣١]

كما وصفت الجريدة (فى العدد نفسه) حج ذلك العام بما يتطابق والوصف الذى ورد فى رحلة عبد الماجد الدريابادى :

« انقضت أيام الحج بسلام ، فأتم الوافدون إلى بيت الله الحرام مناسكهم وعادوا إلى مكة المكرمة ، بعد أن قضوا فى عرفات ومنى أربعة أيام ، وقد بدأت السيارات والجمال تقل فريقا منهم إلى المدينة المنورة ، وآخر إلى جدة لركوب البحر عائدين إلى بلادهم وأوطانهم .. وقد كان موسم حج هذا العام موسم هناء وسلام .

بلغ عدد الحجاج الذين وقفوا فى عرفات ما يقرب من مائتى ألف نسمة منهم تسعون ونيف جاءوا عن طريق البحر .

وامتاز موسم هذا العام بأن كانت المسألة الصحية فيه على غاية ما يرام من ترتيب وانتظام ، وقد بلغ عدد الوفيات أيام عرفات ومنى ٢٤١ نسمة .

والملك ما برح منذ دخل هذا البلد المقدس مجدا فى تأمين راحة حجاج بيت الله الحرام ، وتمهيد السبيل لسلامتهم ، وأنه فى كل عام يصدر أوامره الشديدة للقيام بالمشاريع النافعة التى يشعر بحاجة الحجاج إليها للوصول إلى الغاية المطلوبة .

إن سهر جلالته هذا قد أسفر عن نتائج حسنة ملموسة يشعر بها كل من شهد هذا الدور والأدوار السابقة ، ولكن بما أن الطفرة محال والإصلاح لا يأتى دفعة واحدة فإن جلالة الملك يسير فى إصلاح هذه الديار المقدسة وبخاصة فى تأمين راحة الحجاج بخطوات قد تكون بطيئة ، ولكنها متأنية ثابتة ، وقد كان من نتائج هذا المنهاج أن شعر الحجاج هذا العام بالراحة والطمأنينة ، ما لم يسبق أن شعروا بمثله ، فقد كانت المياه متوفرة جدا .. .. وقد وضعت الحكومة مظلات فى الطريق بين منى وعرفات ، وبجانبها صهاريج للاستقاء حبا فى راحة الحجاج فى ذهابهم وإيابهم .

كما أقامت مستوصفات صحية بالقرب من هذه المظلات ، وفى عرفات ومنى ومزدلفة لإسعاف المصابين ، وكانت سيارات الصحة وعرباتها تروح وتجىء فى الطرقات بين السرادقات لإسعاف المصابين أيضا .

وقد قامت أمانة العاصمة بإنارة الطرقات أيضا لهداية الحجاج فى الليل وكان موظفو التنظيف يقومون بواجباتهم فى الصباح والمساء .

ولأول مرة فى التاريخ رأينا سيارة الرش تسير فى طرقات منى فى كل وقت ترش الأرض بالماء الممزوج بالأسيد فينيك إلى غير ذلك من الوسائل الواقية التى جاءت بالفوائد العظيمة ، فأنطقت ألسنة المسلمين بالدعاء لجلالة الملك وحكومته الفخمة .

وقد اعتاد الملك أن يشرف على نظام الحج فى كل عام بنفسه حبا منه فى راحة المسلمين .. وكان – حفظه الله – يسأل زائريه فى كل وقت وحين عما يشعرون به من النقص فى الترتيبات المتخذة ليصدر أمره الكريم بتلافيه وإصلاحه فى العام المقبل كما شأنه فى كل عام .

وقد رأى جلالته أن طريق منى العام يضيق بالقوافل والمشاة والعربات وغيرها فأصدر أمره الكريم لأمانة العاصمة لاتخاذ الأسباب في العام المقبل لفتح أربعة طرق في منى تخصص واحدة منها للجمال والثانية للعربات والثالثة للبهائم والرابعة للمشاة ، وتعبيدها لمنع الغبار وتوسيع الموجود منها ، وهناك مشاريع أخرى يفكر فيها جلالته ستظهر إلى عالم الوجود في الأيام المقبلة .»[٣٢]

وكان مولانا عبد الماجد الدريابادى قد سافر على ظهر الباخرة « رحمانية » التى أبحرت كما ذكرت صحيفة أم القرى يوم ١٨ ذى الحجة ، قاصدا بومباى وكان على متن السفينة ١٧٧٣ حاجا [٣٣] ، لو كان حمل معه صحيفة أم القرى لقرأ أن الملك عبد العزيز استجاب للمقترحات التى قدمها له فى أثناء زيارة الملك عبد العزيز للمدينة المنورة فى طريقه إلى مكة ، والمقترحات التى ذكرها أيضا لمستشارى الملك عبد العزيز من الهنود ، خلال موسم الحج .

ويلاحظ أن بعض ما ذكره فى الرحلة لم يكن قد رآه بعينه ، بل كان قد سمعه من الآخرين ، ومثال ذلك وصفه لمسجد الخيف ، وصفا دقيقا بالرغم من أنه اعترف بأنه لم يكن فى مقدور أمثاله من أصحاب الهمم الضعيفة الوصول إليه ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا تخفى على القارئ .

والحقيقة أن الكاتب يتصف بالحمية الإسلامية ، وهو يدافع عن الإسلام ، والشريعة الإسلامية ، ولا يتحمل أن يرى أى كتاب أو مقال أو مجلة تطعن أو تثير شيئا فى حق النبى (صلى الله عليه وسلم) أو الإسلام أو الشريعة الإسلامية ، فيستمر فى نقده لمن يسيء إلى الإسلام أو نبى الإسلام ، أو شريعة الإسلام ، حتى يعتذر المؤلف أو الناشر ، وقد دافع عن السنة ضد منكرى الحديث حين ظهرت فتنة إنكار السنة . [٣٤]

لكن الرجل كان فيه عيب أشار إليه الشيخ أبو الحسن الندوى حين قال بأن عيبه أنه يتمسك برأيه أحيانا ولا يستمع لنصح الآخرين » [٣٥] ؛ ولهذا حين كتب العلامة سيد سليمان الندوى مقدمته للرحلة والتى أثبتنا ترجمتها كـ ـى ، ذكر بأنه لا يتفق معه فى بعض القضايا التى وردت فى الرحلة ، فيما يتعلق بالوضع فى الحجاز أساسا

مما يدل على أن العلامة سيد سليمان الندوى فشل فى إقناعه برأى الأغلبية من العلماء ، فيما يتعلق بهذه القضايا وغيرها.

وهو فى الرحلة يعترف بأنه توفرت له أمور لا تتوفر لغيره ، وبأنه لم يتمكن من مشاهدة العيادات الطبية أو مراكز الخدمات الطبية أو .. غيرها ، فقد اقترح إنشاء الكثير من المراكز الصحية ، واعترف بوفرة الماء كما اعترف أيضا بالاهتمام بالصحة ، والقضاء على الأوبئة ، وأشاد بتواضع الملك عبد العزيز الجم ، لدرجة أن من لا يعرفه لا يستطيع أن يميز بينه وبين من معه ، ومع هذا فإن بعض ما ذكره يحتاج إلى مراجعة ، لكن الأمانة العلمية تفرض الحفاظ على النص ، مع الإشارة هنا إلى جهود الملك عبد العزيز فى تطوير الحجاز فى تلك السنوات القليلة ، وقد شهدت منطقة الحرمين بالتدريج -كما أشارت صحيفة أم القرى - تطورا فى جميع المجالات ، استمر فى عهد الملك عبد العزيز وفى عهده أبنائه من بعده ، لتصبح منطقة الحرمين هذه الأيام نموذجا رائعا للمعمار الإسلامى ، وللتطور الحضارى الملتزم .

(٣)

عبد الماجد الدريابادى مؤلف الرحلة

يقف العلامة (أو كما يطلقون عليه فى شبه القارة مولانا) عبد الماجد الدريابادى فى مصاف علماء الهند وأدبائها مثل شبلى النعمانى ، ومحمد إقبال ، ومحمد على جوهر ، وأبى الكلام آزاد ، وسيد سليمان الندوى ، وله دور ملموس ، وفضل لا ينكر فى إيجاد اليقظة بين المسلمين .

ولد عبد الماجد الدريابادى فى بلدة دريا آباد الهندية فى شهر شعبان سنة ١٣١٠ هجرية / مارس ١٨٩٢ م ، تلقى علومه الابتدائية فى البيت ، ثم انتظم فى الدراسة بمدرسة نظامية ، واستمر فى التعليم حتى نال درجة البكالوريوس سنة ١٣٣١ هجرية / ١٩١٢م .

كان عبد الماجد مولعا بالقراءة ، فاتسعت ثقافته ، فى وقت لم ينضج فيه فكره ، فتسرب إليه نوع من الشك الفكرى ، لازمه فترة ، إلى أن وفقه الله إلى الرشد ، فوقف نفسه لخدمة الدين الحنيف ، وذاعت شهرته حتى عُد من كبار علماء الهند المسلمين .

كتب تفسيرا للقرآن الكريم بالأردية والإنجليزية ، فكان تفسيره بالإنجليزية الأول من نوعه ، كما برع فى علم النفس والفلسفة ، وكتب أبحاثا فى موضوعات شتى منها : بشرية الأنبياء فى القرآن ، قصص وقضايا ، حضارة الإسلام تتحدث ، تاريخ الأخلاق فى الغرب ، فلسفة الاجتماع ، فلسفة المشاعر ، خطبات ماجدى ، إنشاء ماجدى ، مقالات ماجد ، مذكرات محمد على ، أربعين حديثًا .

بالإضافة إلى مقالات إسلامية عديدة نشرها فى الصحف والمجلات ، وهى تشكل مجلدات ضخمة .

امتازت كتبه جميعها بأسلوبه الأدبى الجميل وبالجاذبية والسحر والتأثير ، وبخاصة كتابه « سفر حجاز » الذى يعد نموذجا رائعا - كما يذكر الدكتور محسن عثمانى الندوى - لحسن بيانه وقوته ، ورصانته ، مما مكنه من نقل خواطره القلبية إلى قلوب الآخرين مباشرة . (٣٦)

ذاعت شهرة عبد الماجد الدريابادى فى عموم الهند نظرا لعمله بالصحافة ، فقد تولى تحرير عدد من الصحف والمجلات ، وامتلك بعضها ، وشارك فى البعض الآخر ، كما استقل بكتابة أعمدة صحفية فى شتى الدوريات فى فترات مختلفة .

ويذكر أنه كتب أول مقالة له فى جريدة « أوده أخبار » وهو شاب صغير ، ثم بدأ يكتب بالأردية فى همدم ، والناظر، والعصر ، والندوة ، ومعلومات ، وصبح أميد ، ووكيل ، وبشير، وضياء الإسلام ، والإصلاح ، وهمدرد ، وحقيقت ، وغيرها من الصحف والمجلات الأردية ، أما الدوريات الإنجليزية التى كتب فيها فهى : Indian Telegraph وكانت تصدر فى لكهنو ، و Saturday Review وكانت تصدر فى لندن ، و East and West وكانت تصدر فى بومباى ، و Voice of Islam وكانت تصدر فى كراتشى ، و Advocate وكانت تصدر فى لكهنو ، و Muslim Herald وتصدر فى إله آباد ، و Leader وكانت تصدر فى إله آباد وغيرها .

أما الجرائد التى أصدرها فهى سچ ، وصدق ، وصدق جديد ، والأسماء الثلاثة كانت فى الواقع أسماء جريدة واحدة وسچ فى الأردية بمعنى الصدق ، وقد صدرت فى ١٣٤٤ هجرية (يناير) ١٩٢٥ م فى لكهنو ، وتوقفت سنة ١٣٥١ هجرية / ١٩٣٢ م حين انقطع عبد الماجد لتفسير القرآن الكريم ثم عاد وأصدرها باسم صدق عام ١٣٥٤هجرية / ١٩٣٥ م واستمرت حتى عام ١٣٧٠ هجرية / ١٩٥٠م ثم توقفت نظراً لانشغاله بالتأليف من جهة ، ولظروفه الاقتصادية من جهة أخرى ، لكنها عاد وأصدرها بعد غياب أربعة أشهر باسم صدق جديد ، ولا تزال تصدر حتى الآن وبعد وفاته، وكان عبد القوى الدريابادى قد تولى مسئولية تحريرها، بعد أن توفى العلامة عبد الماجد الدريابادى فى سنة ١٣٩٧ هجرية / ١٩٧٧م فى لكهنو ، ودفن فى قريته دريا آباد .

ومن المعروف أن الإقبال على صحيفته كان شديدا ، خاصة بين أوساط المثقفين من العلماء والأدباء والمفكرين وقد زين الصفحة الأولى بالآية ٣٣ من سورة الزمر (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) وكانت الافتتاحية التى يكتبها بعنوان « كلمات صدق » وكانت الصحيفة تنشر المقالات والأبحاث مع التعريف بالكتب وبريد القراء .

وركزت الصحيفة على معالجة قضايا المسلمين وإرشادهم إلى طريق الصواب ، ومكافحة الغزو الحضارى الغربى والتحذير من تقليد المدنية الغربية ، وكذلك مواجهة التقاليد غير الإسلامية والبدع والخرافات ، والاهتمام بنشر الفكر الإسلامى النقى الأصيل ، وركز عبد الماجد على تقديم دعوة القرآن والسنة بلغة سهلة ، وأسلوب مقبول لدى عامة الناس وكان هدف الصحيفة كما كتب هو : (رفع كلمة الحق وخدمة الدين).

كان عبد الماجد الدريابادى واضحا صريحا وملتزما بالأصول ، فقد كتب ناصحا كل من يعمل بالصحافة :

« يجب أن تراعى مشاعر الأغلبية وأنظمة الدولة ، ولكن لا تأخذك المهابة والشعور بالمذلة أو الانهزامية ولا تسلك مسلك التملق والمجاملات الفارغة ... ولا تجد نفسك إحجاما عن الرجوع عما قلت سابقا إذا ظهر غيره ؛ فإن الاعتراف بالخطأ يرفع

المرتبة .. وكل كلمة يلفظها لسانك تسجل عند ربك ، وكل كلمة تخطها بقلمك ، مسجلة عند ربك تحاسب عليها ، فكن أمينا صادقا فى كل ما تكتب وتقول. » فتح عبد الماجد ثلاث جبهات : جبهة ضد البدع التى تفشت بين المسلمين فى الهند ، فواجه عاصفة من المعارضات العنيفة من أصحاب البدع ، لكنه صمد فى وجه الجميع ، كما فتح جبهة ضد غلاة الشيعة ، وكانوا ينشرون مقالات بذيئة تسيء إلى الإسلام والمسلمين ، ففند آراءهم ونقد بموضوعية معتقداتهم ، أما الجبهة الثالثة فكانت ضد أدعياء الثقافة الغربية الذين كانوا ينشرون مقالات تمس تعاليم الإسلام ، ويوجهون النقد إلى مبادئ الإسلام مثل وضع المرأة فى الإسلام ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، والميراث وما إلى ذلك .

كما واجه أيضا زيف الحضارة الغربية من خلال دراسة عميقة كتبها عن حضارة الغرب وفلسفته . (٣٧)

ومن الجدير بالذكر أنه تمتع بحب الناس فى الهند وباكستان ونالت كتاباته شهرة كبيرة ، لما لها من تأثير فى نفوس القراء ، ولما تتضمنه من موضوعات تمس الدين الحنيف والحياة الاجتماعية بكافة جوانبها. (٣٨)

أسلوبه وبيانه

كتب الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه « برانى جراغ » أى المصابيح القديمة فصلا كاملا عن صلته وعلاقته بالعلامة عبد الماجد دريابادى ، فأشار إلى أسلوبه بقوله :

« ماذا أقول عن أسلوب بيانه ، وعن خصائصه الأدبية ؟! لا يمكن أن أجرؤ على الحديث عن هذا .. لكن يمكن القول بأن عبد الماجد مؤسس لأسلوبه هذا ، وقد انتهى هذا الأسلوب بوفاته ! إن الطنز والسخرية أصعب نمط من أنماط الأدب، لكنه نجح فى هذا تماما ، فهو لا يشعرك أبدا بأنه يهجو أو يقدح .. كانت له قدرة فائقة على اللغة ، فأحيانا ما تكون فقرة من الفقرات خاطرة ، وأحيانا ما تكون الخاطرة كتابا كاملا ، وكان أحيانا يستخدم شطر بيت شعر ليكون عنوانا ، ويكون كل ما يندرج

تحت هذا الشطر تفصيلا لهذا العنوان ، وهو فى هذا يدل على ما لديه من ذخيرة أدبية كبيرة ، كما يدل على قدرته على حسن الاختيار ، فمن أين جاء بهذا الشطر ليجعله مثل حجر كريم هو فص فى خاتم ! »

ويذكر الشيخ أبو الحسن الندوى أن عبد الماجد كان من أشهر شخصيات عصره ، فقد كان أديبا ، وصاحب قلم ، ومفسرا للقرآن ، ومترجما لمعانيه ، وعالما يجمع بين الجديد والقديم ، وإنسانا يستفيد من تغيرات عصره ، ومن إمكانياته، ويفيد كذلك ، وصحافيا خبيرا ، وناقدا متميزا وكاتبا ساخرا ، ولهذا فهو يستحق التقدير والاعزاز ، وقد أثبتت جامعة «على كره » الإسلامية أصالتها حين كرمته ، كما أن الاعزاز والتقدير الذى ناله العلامة عبد الماجد الدريابادى من الحكومة المركزية أو الحكومة الإقليمية هو إعزاز للحكومة ذاتها ودليل على حسن اختيارها ، ولا يضيف هذا شيئا فى عظمة العلامة عبد الماجد وعزته :

فمادح الشمس مادح لنفسه.[٣٩]

كان العلامة عبد الماجد الدريابادى يهتم كثيرا باللغة العربية والأدب العربى ، وكان يأمل فى أن يترجم تفسيره إلى العربية ، وهكذا كتب إلى الشيخ أبى الحسن الندوى فى شوال سنة ١٢٧٠ هجرية / ٢٣ مايو ١٩٥٦م رسالة جاء فيها :

« إننى أتوق إلى أن يترجم بعض أجزاء تفسيرى إلى اللغة العربية ، وقد فكرت فى وقت من الأوقات بأن يقوم بهذا مولانا مسعود عالم رحمة الله عليه ، والآن لو وجدت وسيلة لذلك فإما يتولى هذا الأمر مولوى عبد الله عباس أو محمد الرابع أو أى صديق آخر تراه مناسبا لذلك .» [٤٠]

فى يناير ١٩٥٨م التقى عبد الماجد الدريابادى فى لاهور بعدد من الأدباء والمفكرين العرب ومنهم الدكتور عبد الوهاب عزام ، وعبد الحميد الخطيب .

كان حريصا على تعليم الأطفال اللغة العربية من خلال منهج صحيح ، وهكذا نقد كتب الأطفال المصرية التى كانت تدرس فى ندوة العلماء ، وبخاصة كتاب حكايات الأطفال لكامل الكيلانى . فقد كتب إلى الشيخ أبى الحسن الندوى خطابا فى منتصف عام ١٩٤٢ م جاء فيه :

« وقع نظرى الآن على كتب دراسية ابتدائية ، تتميز بلغتها السهلة ، وهى قصص عن القطة والقرد .. تأذيت كثيرا ، فالكتاب مملوء بالصور ، وربما العبارات ليست كما ينبغى ، ومن الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة توجد صور للأحياء ، ومن بداية الكتاب حتى نهايته لا يوجد ذكر لاسم الله ، أو اسم رسول الله ، قصص وحكايات غثة على طريقة حكايات العفاريت القديمة والجن والحوريات .. إن الكتب المصرية لا يمكن أن تكون مفيدة أبدا لطلاب الندوة من وجهة نظر تعليمية .»[٤١]

ويعلق الشيخ أبو الحسن الندوى قائلا إن ذلك كان سببا فى أن يقوم الشيخ الندوى نفسه بتأليف « قصص النبيين » للأطفال.

لقد تفرد العلامة عبد الماجد الدريابادى بأسلوبه كما ذكر الشيخ أبو الحسن الندوى ، ذلك الأسلوب الذى يتسم بروعة فى البيان وسلاسة فى اللغة ، وحلاوة ووضوح فى التعبير ، وصلابة وسلامة فى الفكر ، ويلاحظ فى كتاباته أنه يميل إلى الإيجاز ، والابتكار مع الصراحة التى يمازجها نوع من التندر الهادف أو السخرية ، والنقد البناء ، فقد كان ملتزما دائما بجانب الإصلاح والإرشاد فى كل ما يكتب ، ولم تمنعه عن قول كلمة صريحة هيبة الشخصيات ، أو مراعاة المصالح ، ولا الصلات الودية ، أو غير ذلك من تجانس فكرى ، ولهذا كان لكتاباته وقع وتأثير فى أوساط المثقفين ، فضلا عن عموم المسلمين ، وما يزيد أسلوب بيانه أهمية أنه لم يمازجه قط أى نوع من الابتذال أو المساس بالشخصية ، أو التعصب العقدى ، بل غلب عليه النقد الإيجابى البناء.[٤٢]

وقد وصف الأديب الهندى الناقد رام بابو سكسينة فى كتابه تاريخ الأدب الأردى أسلوب عبد الماجد بهذه العبارة :

« عباراته غنية بالمعلومات ، وهى تنهج مسلك الاعتدال والعلمية ، وتذخر بالألفاظ القوية الجذابة. »

والحقيقة أن عبد الماجد الدريابادى صار له أسلوبه المتميز وطابعه الخاص ، وصار أسلوب تحريره وبيانه جزءا من شخصيته ، لا يفارقه أبدا - كما يذكر الشيخ

أبو الحسن – لدرجة أنه حين ترجم كتاب « تاريخ الأخلاق فى أوربا » وهو موضوع يصعب ترجمته نظرا لصعوبة وجود المصطلحات الفنية فى الأردية ، نجح نجاحا كبيرا فى الترجمة ، فالكتاب المترجم لا يوجد فيه صعوبة تذكر على القراء ، كما أنه حين ألقى الخطاب الافتتاحى لمؤتمر الخلافة فى لكهنو ، فمع أن الاجتماع كان اجتماعا دينيا سياسيا ، إلا أن الخطاب غلب عليه الطابع الأدبى أكثر فاكثر ، وبدلا من أن يكون خطابا سياسيا صار وثيقة أدبية ، ونموذجا أدبيا رائعا يشهد على روعة أسلوب عبد الماجد ، وسمو بيانه.

(٤)

سفر نامه حجاز :

بعد الانتهاء من الحج والزيارة كتب العلامة عبد الماجد كتابه سفر حجاز، وهو لا يفوق فقط أى كتاب كتب عن هذا الموضوع من ناحية الأسلوب والتحرير بل يتميز تماما عن الكثير من الكتب التى كتبت فى هذا الموضوع [٤٣] ، ويذكر الشيخ أبو الحسن الندوى أن هذا كان أول كتاب للعلامة عبد الماجد يقرأه بشغف وانهماك كاملين « ... بل وظللت أقرأه بنفس الشغف ، فقد ظهر فيه قوة بيانه ، وجزالة ألفاظه وحسن أسلوبه الذى مزج فيه بين الأدب وبين مشاعره وخواطر فؤاده .»

وإذا كان الطابع الأدبى قد ساد كتابات عبد الماجد الدريابادى فى البداية ، فقد بدأ الطابع العلمى يغلب عليها بعد اختلاطه بشبلى النعمانى ، إلا أن الروعة الأدبية وحلاوة الأسلوب ظلت سمة كل كتاباته بما فى ذلك رحلته « سفر حجاز » .

ومن الجدير بالذكر أن كتابه هذا كان فى الأساس مجموعة مقالات كان ينشرها فى جريدة سچ ، ولهذا حمل الكتاب الطابع العام لكتابات عبد الماجد فى الصحيفة ، والتى كان يوجهها إلى إرشاد الناس إلى أضرار الحضارة الغربية ، وإلى سطحيتها ، مع تقديم الغذاء الذهنى والحسى للقراء ، وكان يطلق على الحضارة الغربية مصطلح « يأجوجى تمدن » و« دجالى فتنة » ، كما كان يهتم بنشر أشعار أكبر إله آبادى

وغيره ، ويكتب لها شروحات رائعة ، يستفيد منها القراء ، وهكذا أثبت فى رحلته كثيرا من أشعار الشعراء بالفارسية والأردية .

ولا يمكن فــهم بعض مــا ورد فى هـذه الرحلة دون الإشــارة إلى بعض الأدباء والمفكرين المعاصرين للعلامة عبد الماجد الدريابادى ، الذين ورد ذكرهم فى الرحلة ، ودون الإشارة لحركة الخلافة أو مؤتمر الخلافة فى الهند ، فقد كان من بين قادتها شيخ الهند العلامة محمود الحسن الديوبندى ، والعلامة عبد البارى فرنكى محلى ، والعلامة أبو الكلام آزاد ، والأديب ظفر على خان ، والعلامة حسرت موهانى ، وصاحب الرحلة العلامة عبد الماجد الدريابادى ، والزعيم الصحافى والأديب محمد على مع أخيه شوكت على ، وقد أخرج هؤلاء غاندى من عزلته وضموه إليهم ، فانضمت حركة الخلافة ، وتحرير الوطن إلى حركة «ترك موالات » أى عدم التعاون مع الإنجليز ، واتحد المسلمون والهندوس فترة من الزمن إلى أن تمكن الحاكم البريطانى العام اللورد ايدنغ اليهودى الأصل من تدبير المؤامرات للقضاء على هذا الاتحاد سنة ١٩٢٣ م .

كان محمد على جوهر الذى ولد فى رامبور سنة ١٨٧٨م ودرس فى عليكره وأكمل دراسته العليا فى أكسفورد من أهم الشخصيات فى حركة الخلافة ، كان صحافيا ، وخطيبا وشاعرا ، أُختير رئيسا لمؤتمر الخلافة فى يوليو ١٩٢٩ م ، وقاد الوفد إلى بلدان أوربا وقد توفى ودفن بالقدس سنة ١٩٣١ م .

وكان عبد الماجد الدريابادى قد استخدم صحيفة سج فى خدمة حركة الخلافة (ما بعد سنة ١٩٢٢ م) ، فهو عضو فى الهيئة المركزية لحركة الخلافة ، كما اختير أيضا رئيسا لمؤتمر الخلافة الذى انعقد فى لكهنو سنة ١٩٢٧ م ، فكانت صحيفته من أنشط الصحف الداعية لفكرة الخلافة .

وقد ساعد عبد الماجد الدريابادى محمد على فاشترك أحيانا فى هيئة تحرير صحيفة همدرد مع الأديب عبد الحليم شرر والقاضى عبد الغفار ومحمد فاروق ، واحتشام الدين الذين كانوا يعملون تحت إشراف محمد على .

وقد قام عبد الماجد بمساندة ومعاضدة محمد على فى ترتيب صحيفة همدرد وإخراجها ، بل تقديم حصاد قلمه لها .

ارتبط عبد الماجد أيضا بالعلامة سيد سليمان الندوى ، فقد واظب عبد الماجد على دعم مجلة معارف بمقالاته ، كما تولى إدارتها حين سافر سليمان الندوى إلى أوربا ، كما أشرف على هيئة التحرير عندما هاجر سليمان الندوى إلى باكستان .

وارتبط بالعلماء الذين أسهموا بمقالاتهم فى صحيفة سج مثل مناظر أحسن كيلانى الذى ورد اسمه فى الرحلة كثيرا ، ومثل الشيخ عبد البارى الندوى ، وقد ورد اسمه فى الرحلة أيضا ، وقد عمل أستاذا للفارسية فى كلية بونا بالدكن ، ثم عمل فى كلية الكجرات فى أحمد آباد ، وانتقل بعد ذلك للعمل بالجامعة العثمانية ومن أهم كتبه « الدين والعلم » ، وقد توفى سنة ١٩٧٦ م ، أما الشيخ محمد سليم الكيرانوى المكى الذى ورد ذكره أيضا فى الرحلة ، فكان يصدر صحيفة باسم « ندائى حرم » أى نداء الحرم ، كانت لسان حال المدرسة الصولتية ، ألف بعض الرسائل التى صدرت عن المدرسة الصولتية منها « مكة المكرمة » .

توفى الشيخ محمد سليم أواخر سنة ١٩٧٧م ، ودفن فى مقبرة المعلا بجوار الشيخ رحمة الله الكيرانوى .

فشلت حركة الخلافة التى رفعت شعار تأييد الخلافة وصيانتها ، وضرورة بقاء الجزيرة العربية بعيدة عن يد الاستعمار ، وتحرير البلاد ، وذلك بسبب سقوط الدولة العثمانية ، وبسبب بعض الخلافات الداخلية ، وخيانة غاندى وانسحابه من حركة « ترك موالات » أى عدم التعاون مع الإنجليز (٤٤) ، بالإضافة إلى تغير الخارطة السياسية لجزيرة العرب بعد ظهور قوة جديدة تمثلت فى الملك عبد العزيز الذى تمكن من توحيد أجزاء الجزيرة العربية ، وتأسيس المملكة العربية السعودية، وسيأتى تفصيل ذلك .

ومن ثم وضع عبد الماجد الدريابادى اهتمامه بعد انتهاء حركة الخلافة فى دعم حزب الرابطة الإسلامية وأيد فكرة قيام باكستان ، ثم ابتعد كلية عن السياسة بعد ظهور الهند وباكستان ، وركز على كتابة موضوعات إصلاحية دينية واجتماعية ، مع نشر تعليقات سياسية أحيانا عن قضايا المسلمين .

كان من الضرورى الإشارة إلى تلك الشخصيات التى ورد ذكر معظمها فى هذه الرحلة التى كتبها عبد الماجد مستخدما كل إمكانياته الأدبية التى جعلت لكتابه هذا

مكانة فى الأدب الأردى ، فحين يأتى ذكر « الرحلة إلى الحرمين الشريفين » على لسان أحد ، فإن سفرنامه حجاز للدريابادى يأتى على قائمة كل ما كتب فى هذا الموضوع ، نظرا لأسلوب صاحبه ولمضمون الكتاب نفسه ، الذى صار مرجعا للمثقفين والأدباء، ولعامة الناس أيضا ممن يرغبون فى أداء فريضة الحج ، أو التعرف على منطقة الحرمين فى تلك الفترة ، أو التمتع بأسلوب العلامة عبد الماجد ، فهو يستخدم القافية والسجع والاستعارة والتشبيه ، ويستخدم الألفاظ والتراكيب النادرة ، ليذكر القراء بأدباء الأردية الكبار مثل : رتن ناته ومحمد حسين آزاد وغيرهما .

لقد كتب العلامة عبد الماجد رحلته هذه منذ أكثر من سبعين سنة ، بعد أن عبر وادى الشك الفكرى ، ولم يكن قد مضى على ذلك وقت طويل ، لهذا كان الشعور بالندم يسيطر عليه ، بل يلهب أحاسيسه الإيمانية ، ولهذا جاءت تعبيراته فى رحلته ، لترسم له صورة العبد العاجز الآثم ، الذى يحلم بأن تعود الأمة كلها إلى ربها ، وألا يصيبها اليأس من رحمة الله الذى لا يرد أحدا من على باب رحمته ، فالمسلم يجب ألاً يقنط من رحمة الله .

لم تكن رحلته هذه طلبا للعلم ، أو طلبا للنزهة والاستجمام ، أو طلبا للشهرة أو الرفعة ، بل كانت من أجل تزكية النفس ، وتجليتها من الصدأ الذى أصابها وإعلان التوبة إلى الله ، وطلب المغفرة .

وهكذا كانت هذه الرحلة كتابا تضمن عريضة أسف وندم على حال الأمة الإسلامية ، وعلى ما أصابها من تخلف ، ومن ذل ، من جراء خضوعها للاحتلال من جهة ولتأثير الحضارة الغربية الزائفة من جهة أخرى ، وهو يأمل أن يتوحد المسلمون مثلما هم متوحدون حول الكعبة الشريفة ومثلما هم متجمعون فى الروضة الشريفة ، مهما اختلفت ألسنتهم ، ومهما اختلفت ألوانهم ومهما اختلفت أوطانهم ، ومهما اختلفت عاداتهم وتقاليدهم ؛ لأن للمسلمين مركزًا واحدًا هو الحرم ، يضمهم ويوحدهم ، ويغبطهم عليه غيرهم .

لقد أبدع المؤلف كثيرا ، وأثار القراء وخاصة فى بعض أبواب هذه الرحلة مثل : الوداع ، المدينة ، ديار الحبيب ، الرحيل وغيرها ، هذا بالإضافة إلى وصفه الجميل

لسواد مكة المكرمة وللمدينة المنورة وللبادية ، وتعمقه فى ذكر الوقائع التاريخية والمعلومات الجغرافية ، وهو حين يصف مقبرة البقيع أو المعلا فهو يذم البناء على القبور والقباب وغيرها ....

لقد نشر العلامة عبد الماجد الدريابادى - كما ذكرنا من قبل - ذكريات رحلته هذه فى البداية فى حلقات مسلسلة فى صحيفة سچ ، فكتب له أديب الأردية حسرت موهانى خطابا فى أول مارس ١٩٣٢م مشيرا إلى أنه كان قد قرأ هذه المذكرات وأنها تفتقد عنصر الترابط ، لكنه لحسن الحظ رآها مرة أخرى فى شكل كتاب أحضره له صديقه ظفر الملك ، فسر سرورا عظيما واكتحلت عيناه بهذا الكتاب ، ثم كتب : جزاكم الله فى الدارين ، لقد اغرورقت عيناى بالدموع أكثر من مرة ، فالحمد لله على ذلك » (٤٥)

والحقيقة أن الأثر الذى تتركه هذه الرحلة على قراء الأردية عبر عنه أيضا العلامة مسعود عالم الندوى صاحب كتاب «شهور فى ديار العرب » (٤٦) هكذا :

« استغرقت منذ الصباح فى قراءة رحلة حج الأمير شكيب أرسلان (الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) ماذا أقول عن حسن لغة وبيان أمير البيان ، لكن الرحلة تفتقد إلى الحرقة ، لقد قرأت كثيرا من رحلات الحج لكن الأثر الذى تركته رحلة العلامة عبد الماجد الدريابادى على القلب والعقل لا تستطيع بلاغة الأمير شكيب أرسلان أن تمحوهُ .» (٤٧)

وفى الختام أدعو الله العلى القدير أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأمل أن تكون الترجمة العربية على مستوى النص الأصلى ، حتى يكون للكتاب المترجَم قوة التأثير فى قلوب وعقول قراء العربية .!

وبالله التوفيق .

سمير عبد الحميد إبراهيم

الهوامش

(١) انظر ، مولانا أسد القادرى ، مولانا محمد على جوهر ، قاضى بيبلى كيشنز لاهور ١٩٨٦ وأيضا رئيس الأحرار ملخص لما كتبه عبد الماجد الدريابادى عن مولانا محمد على جوهر بقلم عبد المجيد قريشى أردو دائجست يناير ١٩٨٧ وأيضا اردو دائجست يناير ٢٠٠٢ م .

(٢) انظر ، دكتور عبد المنعم النمر : مولانا أبو الكلام أزاد ، ص ٢٤٢ وما بعدها وص ٢٧٥ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ م .

(٣) انظر ، سمير عبد الحميد : الأدب الأردى الإسلامى ، الصفحات المتعلقة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ط أولى .

(٤) فى بحثه بعنوان : الحجاز فى الفكر السياسى لمسلمى الهند ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية مجلد ٣٩ عام ١٩٩١م / ١٩٩٢ م ص ١٩٥ .

(٥) كليات إقبال الأردية بانك درا ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٦) انظر ترجمة القصيدة ، سمير عبد الحميد محاضرة عن رمضان فى الأدب الأردى ،النادى الأدبى بالرياض ١٩ رمضان ١٤٢٣ هجرية (غير منشورة) .

(٧) انظر ، المختار من مجلة المنار ، صفحات من مواقف الملك عبد العزيز وصور من جهاده ، إعداد وتعليق عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل شيخ ، كتاب جمعية الخلافة إلى سلطان نجد ص ٧٦ وما بعدها - نقلا عن المنار ج ٦ المجلد ٢٥ .

(٨) الريحانى نقلا عن حجر ص ٢٠٤ ، انظر علماء الهند والملك عبد العزيز ، سمير عبد الحميد العقيق مجلد ١١ ع ٢١ ، ٢٢ رجب - ذو الحجة ١٤١٩ هجرى ص ٦٥ وما بعدها عن علاقة جمعية الخلافة بالملك عبد العزيز وانظر التفاصيل فى صفحات من تاريخ الملك عبد العزيز فى المصادر الأردية لسمير عبد الحميد ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد الرابع والعشرون شوال ١٤١٩ هجرية .

(٩) انظر ، عبد الرحمن الفريوانى : العلامة أبو الوفاء الأمرتسرى ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد الرابع والعشرون شوال ١٤١٩ هجرية ص ١٦٠ .

(١٠) انظر ، سمير عبد الحميد : الملك عبد العزيز فى المصادر الأردية ، مجلة جامعة الإمام شوال ١٤١٩ هجرية عدد خاص .

(١١) انظر ، سمير عبد الحميد : إقبال وأرمغان حجاز ، المكتبة العلمية لاهور، الطبعة الثانية ١٩٩٩م ، وأيضا سمير عبد الحميد إبراهيم : هدية الحجاز ، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ٢٠٠٢م .

(١٢) مولانا محمد على كى يورب كى سفر كتب خانه بنجاب لاهور ديسمبر ١٩٤١ م ص ٤٧ - انظر سمير عبد الحميد : الجزيرة العربية فى أدب الرحلات الأردى ، ص ٢١٣ ، جامعة الإمام ١٤١٩ هجرية ١٩٩٩ م.

(١٣) سمير عبد الحميد : الجزيرة العربية فى أدب الرحلات الأردى ص ٢١٤ .

(١٤) بحوث المؤتمر العالمى عن الملك عبد العزيز الذى عقد عام ١٤٠٦ هجرية / ١٩٨٥م ط جامعة الإمام مجلد رقم ١، ١٤١٩ هجرية.

(١٥) ص ٣١ الملك عبد العزيز بن سعود ومسلمو شبه القارة ، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية فى مائة عام الرياض شوال ١٤١٩ هجرية يناير ١٩٩٩ م .

(١٦) قادرى . مفتى محمد عبد القيوم : تاريخ نجد وحجاز ، لاهور ١٣٩٨ هجرية تقرير وفد الخلافة ص ٣٠٠ وما بعدها .

(١٧) نشأة المملكة العربية السعودية - نقلا عن حجر ص ٢١٧ ، وانظر المختار من مجلة المنار ، ص ١١٥ نقلا عن ج ٧ مجلد ٢٦ .

(١٨) المصدر السابق .

(١٩) لمزيد من النماذج الشعرية انظر علماء الهند والملك عبد العزيز ، وأيضا الدكتور سيد رضوان : الملك عبد العزيز وظفر على خان ، مقالة ضمن بحوث مؤتمر الملك عبد العزيز ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامى ، ص ٣٦ . وسمير عبد الحميد : الأدب الأردى الإسلامى : الصفحات المتعلقة بظفر على خان .

(٢٠) انظر ، جلالة الملك ابن سعود وخدمة الحرمين الشريفين ، ص ٤ وما بعدها ، ط ١. مرتسر الهند ١٩٢٥ م .

(٢١) انظر ، أم القرى ٢٩ ذى الحجة ١٣٤٧ هجرية / ٧ يونيو ١٩٢٩ ، ص ٢ ؛ حيث وردت قائمة بالاعتداءات والمنهوبات فى شهور شوال وذى القعدة وذى الحجة بذكر اسم المعتدى والمنهوب ومكان الواقعة .

(٢٢) د. حسن الساعاتى : سياسة الملك عبد العزيز لحفظ الأمن فى المملكة العربية السعودية ، بحوث مؤتمر الملك عبد العزيز المجلد الثالث ط جامعة الإمام ص ٩٩٨ .

(٢٣) بحوث المؤتمر العالمى عن الملك عبد العزيز بحث للواء عقيل ضيف الله القويعى بعنوان : القوة العسكرية فى عهد الملك عبد العزيز ، ط لجامعة الإمام ، ١٤١٩ هجرية ص ١٠٥٦ .

(٢٤) لمزيد من التفاصيل انظر دكتور يوسف عبد الله الحميدان ودكتور محمد أحمد العيسى : الإنجازات الصحية فى عهد الملك عبد العزيز ، بحوث المؤتمر العالمى مجلد ٢ ص ٥٩٢ .

(٢٥) انظر ، بحوث المؤتمر، د صالح بن محمد الشعيبى : السياسة المالية فى عهد الملك عبد العزيز مجلد ٢ ص ٦٢٠.

(٢٦) المصدر السابق ص ٦٩٥ .

(٢٧) نقلا عن د صالح الشعيبى : السياسة المالية فى عهد الملك عبد العزيز . بحوث المؤتمر ، مجلد ٢ ص ٧٠٣ .

(٢٨) ص ٢ من العدد المشار إلى تاريخه فى السطور السابقة.

(٢٩) أم القرى العدد ٢٢٣ السنة الخامسة ٢٥ شوال .

(٣٠) عدد ١٦ ذى القعدة .

(٣١) أم القرى العدد ٢٣٠ السنة الخامسة الصادر فى ١٧ ذى الحجة .

(٣٢) ص ٣ من العدد ٢٣٠ .

(٣٣) أم القرى ٢٢ ذى الحجة ١٣٤٧ هجرية ٣١ مايو ١٩٢٩ م .

(٣٤) انظر ، سمير عبد الحميد : فتنة إنكار السنة فى شبه القارة الهندية ، مكتبة دار السلام بالرياض .

(٣٥) بو الحسن الندوى برانى جراغ جلد دوم مكتبه فردوس لكهنو ١٤١٦ هجرية / ١٩٩٥ ص ١٦٧ .

(٣٦) د. محسن عثمان الندوى ، مقال بالأردية بعنوان « مولانا عبد الماجد الدريابادى اسم خالد فى دنيا العلم والأدب » مجلة كاروان أدب ، يوليو ١٩٩٨م ، ص ١٧٢ وما بعدها .

(٣٧) سمير عبد الحميد إبراهيم : الأدب الأردى الإسلامى ، جامعة الإمام ، ص ٥٤٨ وما بعدها .

(٣٨) سليم الرحمن الصحافة الإسلامية فى الهنـد ، رسالة ماجستير مقدمة لجامـعة الإمام محمد بن سعود غير مطبوعة ، وأيضا عبد الماجد ، آب بيتى مكتبة فردوس لكهنو ١٩٧٨م وأيضا عبد السلام خورشيد صحافت باكستان وهند مين ط الاهور.

(٣٩) أبو الحسن الندوى ، برانى جراغ جلد دوم ص ١٥٥ .

(٤٠) برانى جراغ ص ١٥٨ .

(٤١) المصدر السابق١٥٧ .

(٤٢) سليم خان ، الصحافة الإسلامية فى الهند ص ٢٣٦ .

(٤٣) برانى جراغ حصه دوم ص ١٤٦ .

(٤٤) انظر ، إحسان حقى باكستان ماضيها وحاضرها ص١٢٨ .

(٤٥) دكتور تحسين فراقى قسم اللغة الأردية بجامعة البنجاب ذكر بأن لديه هذا الخطاب . انظر مقاله بعنوان «سفر حجاز .. ايك بى مثل سفر نامه » رحلة الحجاز رحلة فريدة كاروان أدب عدد خاص عن أدب الرحلة أبريل ٩٩٩١- مارس ٢٠٠٠ م ص ٤٥٨ .

(٤٦) مسعود عالم الندوى : شهور فى ديار العرب ، ترجمة : سمير عبد الحميد إبراهيم ، طبع مكتبة الملك عبد العزيز ١٤٢٢ هجرية / ٢٠٠١ م .

(٤٧) انظر ، أيضا صفحة ١٤٤ ، ١٤٥شهور فى ديار العرب .

تقديـــم

بقلم العلامة سيد سليمان الندوى

منذ ذلك العهد حين شاء رب العباد أن يعمر هذا الوادى الـ : « غير ذى زرعٍ » ويجعل فى هذه البقعة من العالم أول بيت له ، ويأمر أول أحبابه إبراهيم عليه السلام بأن ينادى عشاق الدنيا أجمعين ، حتى يجعلوا من الدروب والطرقات ، ومن الجبال والهضاب والمرتفعات ، مجمعا لهم ، مرة واحدة كل عام ، منذ ذلك العهد ، والله وحده يعلم كم من أناس قدموا إلى هذا المكان ، ثم مضوا !! وكم من أحباب رب العزة جاءوا إلى هذا المكان بحثا عن محبوبهم ، ثم عادوا !! وكان كل من رأى شيئا يحاول أن ينقله إلى الآخرين أيضا ، وكان كل من ذاق طعم متعة ولذة ، يحاول أن يحكى عنها للآخرين أيضا .

لقد كشفت الدنيا عن « جلوة الطور » مرة واحدة ، ومع هذا ما زلنا نردد حكايتها على مر الأيام ، حكاية الحسن والعشق، وسوف تظل تتردد على الدوام ، لكن هذه « الجلوة » تنكشف لعباد الله كل عام ، فإذا ما رويت حكايتها فى كل بلد ، وبكل لغة ، وبكل طريقة ، وبكل أسلوب ، عاما من بعد عام ، فأى عجب فى هذا ؟!!

لقد حقق المسلمون إنجازات فى علوم الدنيا وفنونها ، لكن ما حققوه على درب « دينهم » و « ملتهم » ظل ماثلا فى خدمة كل علم وفن ، وماثلا فى خدمة كتاب الله ، وتطبيق ما جاء فيه من أحكام ، لقد جعل المسلمون من علم الجغرافيا علما واسعا يحيط بعلوم أخرى كثيرة ، ففى كل جانب من جوانب الكرة الأرضية ، وفى كل ناحية من نواحى هذا العالم ، وحيث انتشر نور الإسلام ، تقدم المسلمون إلى حيث يسرى هذا النور ، لكن جميع محاولاتهم تلك ، وجميع نشاطاتهم تلك، كانت عملا بقوله تعالى

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ (آل عمران ١٣٧) ثم تملكتهم بعد ذلك عاطفة الشوق ، فجعلتهم لا يقر لهم قرار - وأثارت فيهم مشاعر قوية ، تدفعهم إلى الخروج من ديارهم ، فصارت جميع مشكلات السفر بالنسبة لهم مدعاة للراحة ، وبدت لهم وسيلة للمتعة .. لقد كانت عاطفة الشوق هذه بسبب النداء العام الذى سُمع على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام « وأذن فى الناس بالحج ... الآية » .

حين صدر هذا النداء ، لبت مئات الألسنة فى كل زمان هذا النداء : لبيك ... لبيك ... وحين يحين الموسم المشهود ، يترك هؤلاء جميعا بيوتهم وأهليهم ، وعيالهم وذويهم ، ويتخلون عن الراحة والدعة ، وينشغلون بإعداد راحلتهم للسفر المقدس ، فيطوون الصحراوات ويقطعون الأودية ، ويعبرون الأنهار والبحار ، وهم يرددون : « لبيك اللهم لبيك .. » ليصلوا إلى بادية الحجاز ، ليطفئوا عطش أرواحهم ، بزيارة هذا الوادى الـ « غير ذى زرع » .

لقد كان الهدف المنشود لجميع الرحالة المسلمين الكبار ، وكانت كعبتهم المقصودة ، هى تلك البقعة الطاهرة ، فقد خرجوا من أوطانهم بقصد الحج والزيارة ، فشاهدوا عجائب الطرق وغرائبها ، ومناظر البلاد الخلابة ، وأحوال الأمم العجيبة وظروفها الغريبة ، ثم وصلوا إلى هذه البقعة الطاهرة، فأدوا الفريضة ، ثم مضوا إلى ما بعد ذلك .. فساحوا فى البلاد ، وتفسحوا فى الديار ، ثم إذا ما أتيحت لهم فرص أخرى ، عادوا من جديد إلى هذا المركز المطهر ..

كان من بين هؤلاء ابن حوقل ، والبغدادى ، والإصطخرى الفارسى ، والحكيم ناصر خسرو ، وابن جبير الأندلسى ، وابن بطوطة المغربى وغيرهم ممن عقدوا نيتهم على أن يكون سفرهم موجها أساسا إلى البقعة الطاهرة ، وحين استهوتهم متعة السفر ، وحلاوة الترحال ، أخذوا يطوّفون فى جميع بقاع الدنيا ، يتمتعون بما يشاهدون ، ثم سطروا فيما بعد ما شاهدوا فى كتب الرحلة .

فى كل عام يفد آلاف الحجاج من جميع أنحاء العالم الإسلامى على هذا المكان ، يمضون على خط مستقيم من جميع الدوائر المحيطة بالكرة الأرضية ، ثم يعودون من حيث جاءوا ، ومن بين هؤلاء يقوم العشرات من الأدباء كل عام بالكتابة عن

مشاهداتهم ، كلٌ بلغته ، وهكذا يمكن أن نتصور كم يضاف كل عام على ذخيرة هذه الدنيا مما يكتب من المشاهدات !!

ومن الهند يسافر إلى مكة المكرمة سنويا عشرون ألف حاج على الأقل [1] . ولابد أن يكون من بينهم بضعة أناس يمتلكون ذوقا أدبيا ، يقومون بكتابة ما يصادفهم فى سفرهم ، ويكشفون عن مشاعرهم وأحوال قلوبهم ويعبرون عن أحاسيسهم ، ثم ينشرون ما يكتبون ، حتى يطلع عليه الآخرون ، وحتى يستفيد بعض من هم بحاجة إلى معلومات من تلك الكتابات .

وربما كان الشيخ عبد الحق محدث الدهلوى هو أول عالم جليل فى الهند يكتب عن رحلته إلى الأراضى المقدسة ، فقد كتب سنة ٩٩٨ هجرية (١٥٨٩م) ذكريات رحلته ، وقدمها هدية إلى أهل وطنه بعنوان « جذب القلوب إلى ديار المحبوب » [٢] . وقد بين الشيخ عبد الحق محدث الدهلوى لأهل الهند ، ما كان قد رآه هناك . وجاء من بعده شاه ولى الله المحدث الدهلوى ، فرسم على صفحات كتاب بعنوان « فيوض الحرمين » وغيره من الرسائل صوراً بديعة لمشاهداته الروحانية فى الأراضى المقدسة.

وإذا كنا بصدد الحديث عن أدب الرحلة فيجدر هنا أن نشير إلى أحد تلامذة شاه ولى الله الكبار ، وهو مولانا رفيع الدين مراد آبادى ، الذى سافر إلى الحرمين الشريفين سنة ١٢٠٢ هجرية ، ثم كتب عن سفره كتابا بعنوان « أحوال الحرمين » [٣].

وفى زماننا هذا .. يعود من بين حجاج الهند بعض العلماء، فيكتبون عن رحلتهم ، ويكون من بينهم أدباء أيضا ، ويكتب هؤلاء عما أعجبهم ، وعن غير ذلك من جوانب متعددة ، ونشير هنا بصفة خاصة إلى رحلة القاضى سليمان البتيالوى « سبيل الرشاد » ورحلة الأديب برنى بعنوان: « صراط الحميد » .

أما صديقنا رقيق القلب ، مرهف الحس العلامة عبد الماجد الدريابادى ، فقد تعرضت حياته لانقلاب تدريجى ، وصل مداه - على ما أعتقد - أو اكتمل فى سنة ١٣٤٠ هجرية حين سافر إلى الحجاز..

لقد سافر إلى الحج ليشاهد بأم رأسه ، ما كان قد قرأه فى الكتب ، ثم بدأ يسطر فى صحيفة « سچ » (بجيم مثلثة) أى الصدق [٤] ، ما رآه رأى العين ، وما طرأ عليه من مشاعر قلبيه، وتأثرات روحانية ، وقد سطر ذلك كله ، فى شكل رسائل ، كان يرسلها إلى الصحيفة المذكورة ، لتشكل فى النهاية هذا الكتاب ، الذى تضمن مجموعة تلك الرسائل أو المقالات .

كانت الرحلات التى كتبت من قبل ، تتناول إما عالم العواطف فقط ، وإما تسجيل الوقائع ، كما كان بعضها يعد كتابا إرشاديا يتناول مسائل فقهية تتعلق بالحج ومناسكه ، وكان بعضها مقتصراً على ذكر مناسك الحج فقط ، ليعين المسافرين على أداء فريضة الحج ، لكن هذه الرحلة التى كتبها العلامة عبد الماجد الدريابادى ، وإن كانت لا تختلف فى خصائصها عن كل ما ذكرناه ، إلا أنها « مجمع » جذاب لكل هذه الخصائص سابقة الذكر ، ففى أبواب الرحلة المختلفة ، نرى المؤلف مؤرخًا حينًا ، وفقيها حينًا آخر ، نراه أحيانًا محدثًا ، وأحيانًا صوفيًا ، ونراه شاعرا مرة ، وسياسيًا مرة أخرى ، والخلاصة هى أن هذا الكتاب يتضمن كل شىء قد يتعرض له الحاج فى جميع أحوال سفره ، وفى جميع ظروف تحركاته .. يتضمن الكتاب وقائع السفر ، مسائل الحج والمناسك ، والأدعية فى الأماكن المختلفة ، بالإضافة إلى إرشادات مهمة فى أثناء السفر .

وقد كتب المؤلف أيضا عن الأحوال الداخلية للحجاز : ووسائل التنقل والسفر من مكان لآخر ، والماء والإيجار ، والبيوت والإقامة فى الأماكن المختلفة ، كما ذكر المطوفين ووكلائهم ، ووصف الطرق والأحوال الداخلية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والأماكن المقدسة ، والآداب المتبعة حيالها ... كل هذه المعلومات وغيرها يجدها القارئ فى هذا الكتاب . إلا أن قيمة الكتاب الأصلية ومكانته الحقيقية - من وجهة نظرى - ترجع إلى أمرين :

الأمر الأول : هو قوة بيان المؤلف وأسلوبه الرائع ، فقد كتب رحلته هذه بأسلوب سهل جدا ، وببساطة شديدة ، فأظهر بذلك غاية الحسن وكماله ، بعد أن استخدم الألفاظ السهلة ، والتراكيب البسيطة ، بالإضافة إلى الخيال الشعرى ، وهذه أمور تكفى للدلالة على أهمية هذا الكتاب من ناحية الأسلوب الإنشائى.

الأمر الثانى : هو ما يتضمنه الكتاب من التعبير عن المشاعر والوجدان ، وهو أمر واضح فى كل فـقرة من فـقرات الكتاب ، بل فى كل عبارة وردت فى هذا الكتاب ، مما يوضح أن المؤلف مرهف القلب رقيق المشاعر ، لهذا كان ينثر على صفحات كتابه قطعا من قلبه !!

وأنا بدورى أعتبر أن هذا من بركات سفر الحجاز ، مما جعل قلمه يعبر عن مكنون قلبه ، ومما جعل الروح تضع الجسد فى قالب بحيث يصبح الباطن ظاهرا والمحجوب منكشفا ، والمخفى مرئيا !! وآمل أن يكون هذا الكتاب هو أكثر مؤلفاته فائدة ، وأن ينال الشهرة الكبرى من بين كتبه .

وأشير هنا إلى أننا لا نتفق معه تماما فيما يتعلق بموقفه السياسى حيال قضية الحجاز، ولا يمكننا أن نعترض على رأيه، وهو بكتابته لهذه الصفحات إنما يؤدى خدمة جليلة للغتنا ، ولأدبنا ولتاريخنا ، ولجغرافيتنا ، ولفقهنا ؛ فقد رسم صورة جذابة رائعة لمختلف مناظر ، ومظاهر ، اللفظ والمعنى ، والروح والجسد ، يمكن لكل صاحب فكر ، ولكل صاحب ذوق أن ينال منها نصيبا ، طبقا لفكره وذوقه .

إن مفكرنا الفاضل ، وأديبنا الجليل ، يمتلك طابعا دينيا ينضج يوما بعد يوم ، لدرجة أنه يبدو الآن وقد خرج من درب التسامح والتصالح الكلى الصوفى الواسع إلى زقاق التشدد الفقهى الضيق .. يا له من أمر عجيب أن يشكو صديق ، شيخ ، تعلم فى المدارس القديمة ، من مغالاة صديق تخرج فى المدارس الجديدة ، ﴿وتِلْكَ الأَيَّام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ .

أدعو الله تبارك وتعالى أن ينعم على كاتب هذه الصفحات بالأجر الجزيل ، وأن يوفق القراء الكرام أعظم توفيق .

سيد سليمان الندوى

الهوامش

(١) يشير إلى عدد الحجاج سنة ١٩٢٩ م .

(٢) انظر ، سمير عبد الحميد : الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردى ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الصفحات المتعلقة .

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر ، مقدمة المترجم فيما يتعلق بصحيفة سج .

الــوداع[1]

فريضة الحج والحث على أدائها :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٦) ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ (البقرة : ١٩٧) ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ٦٩- ٧٩) .

عن عائشة أنها قالت : « يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟! قال : لا ، لكن أفضل الجهاد حج مبرور » (البخارى) . وعن ابن مسعود (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : **« تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة »** : (الترمذى) . وعن أبى إمامة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : **« من لم تمنعه من الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس ، فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا ، وإن شاء نصرانيا .»** (مجمع الفوائد)

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . »

هذا الوداع ليس بوداع شهر رمضان السنوى ، بل هو وداع لقراء صحيفة « سبج » من خادمهم مدير « سبج » !!

---

(١) نقلا عن صحيفة « سبج » بتاريخ ٨ مارس ١٩٢٩ م (حاشية المؤلف) .

إن حج بيت الله فرض عين على كل مسلم إذا ما توفرت عدة شروط ، تماما مثلما الصلاة فى أوقاتها الخمسة فرض على كل مسلم ، والصلاة فريضة واجبة الأداء ، ولا يدفع الإنسان فى سبيل أدائها نفقة أو تكلفة ، ولا يبذل من أجلها تعبا ، ولا يتحمل عناء ..

لكن ماذا عن عدم أداء فريضة الحج ؟

تمضى ساعات العمر .. تمر سريعة ، وتمر الأيام ، وتتحول الأيام إلى أسابيع ، والأسابيع تتحول إلى شهور .. وتتحول الشهور إلى سنوات .. ولا يفكر الإنسان أبدا فى أداء هذه الفريضة ، ويعلم الله كم ورد فى أيات القرآن الكريم ، وكم ورد فى أحاديث الرسول الصادق الأمين من تأكيد على فرضية أداء الحج ، وكم مرة ورد الوعيد لمن يتقاعسون عن أداء فريضة الحج ، لكن غفلة القلب ، وشقاوة النفس ، وجدال العقل ، كل هذه تتلاعب بالإنسان ، تقدم له المشورة ، وتحاول أن تقنعه بأن هذه الأحكام ليست موجهة له، إنما هى موجهة لأناس آخرين غيره ، ولا علاقة له بهذه الأحكام .. ويعلم الله كم من الفرص القيمة فى العمر قد ضاعت ، وما ضاع من العمر فى هذه الدنيا لا يمكن أن يعوض .. وما ضاع كان نتيجة الغفلة ، ونتيجة البلادة ، وانعدام الإحساس والشعور ، ونتيجة لقسوة القلب ، الذى ملأته الظلمة ، وخرج منه النور ...

إنهم يسافرون فى طول الهند وعرضها أسفارا عديدة ، قد تكون ضرورية ، وقد تكون غير ضرورية ، لكن السفر إلى مكان واحد ، والمثول هناك بين يدى رب العالمين ، لا نصيب لهم فيه ، وينقضى العمر فى الاهتمام بالدوران حول القصور و« الفلل » والساحات والعمائر الضخمة ، لكن دورة القدر تحرمهم من أن يدوروا حول البقعة الطاهرة ، التى تستحق أن يطاف حولها العمر كله ، والتى تستحق أن يضحى الإنسان بروحه من حولها ، كما تضحى الفراشة التى تدور حول الشمعة ...

يسيحون فى جميع أنحاء البلاد ، لكنهم لم يوفقوا فى أن يشرفوا بزيارة بيت رب العباد ، فى زيارة البقعة المشرفة التى تحسدها السماء على رفعتها ، تلك البقعة التى

وقف عليها خليل الله ، مناديا ، بتوحيد ربه ، تلك البقعة التى لا تزال آثار أقدام حبيب الله (صلى الله عليه وسلم) باقية على ذرات رمالها .

التخطيط للرحلة :

إن حكاية المحرومين حكاية طويلة .. لكن رحمة البارى لا حساب لها ، وفضل الله لا حدود ، يأتى إليه أعتى المجرمين ، يحملون دفاتر أعمالهم السوداء ، لكن قطرة واحدة من بحر كرمه ، تحيل هذه الدفاتر إلى صفحات بيضاء .. يأتون إليه وهم يبكون ، ويرتعدون ، ثم يعودون من حضرته مبتسمين ضاحكين .. فما أصدق ما قال الشاعر بالفارسية :

« قطرة من ماء رحمتك تكفى يا إلهى

لتغسل كتاب سيئاتى الأسود . »

وما أصدق ما قاله الشاعر بالأردية :

« كنا نظن أن أعمالنا السوداء زادت عن الحد

لكننا وجدنا كرمك يفوقها بمراحل . »

وفى النهاية .. إن من تتحول رحمته إلى أمطار كرم ، فتحيل الحقول الجرداء ، آنا من بعد آن إلى خضرة يانعة ، وحدائق غناء ، اقتضت مشيئته أن يكون من نصيب إنسان حُرم من العمل ، إنسان ميت القلب ، أن يتشرف بزيارة حرمه والطواف حول بيته ، مسجد رسول الله ، وأن يتشرف أيضا بزيارة مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقبره المطهر .....

وهكذا انعقدت النية ، وهكذا تم التخطيط ، وانطلقت لأول مرة من شفتى عبارة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ... » الله .. الله .. أين ذلك الإنسان الكالح الوجه الذى طالما زلت أقدامه ، أين هو من تلك البلاد المقدسة ، المطهرة ، المنورة .. أين هو من مكان سجود الأطهار الملائكيين ..

لكن كل شيء مرهون بشأن الربوبية العجيب ، فقد سمى نفسه رب العالمين ، لم يقل فقط رب الأتقياء الصالحين الذين وصلوا إلى مراتب الكمال ! فشأن الربوبية يكون أيضا مع الأشرار مثلما يكون مع الأخيار ، ويكون أيضا مع الفجار مثلما يكون مع الطيبين ، ويكون أيضا مع السيئين ، ومع أسوأ السيئين .. فحين تهب ريح الربيع ، فهي تعطر أيضا بأريج ورود البساتين والرياض حشائش المراعى وعشبها :

« يا من أنت ملاذ الضعفاء والمذنبين

عذرنا أننا نأمل في كرمك ورحمتك . »

وخلاصة القول إن النية انعقدت ، وشهور الحج ثلاثة : شوال ، وذو القعدة ، والعشرة الأول من ذى الحجة « فالحج أشهر معلومات » فاليوم الذى ينتهى فيه شهر رمضان المبارك هو اليوم الذى يبدأ فيه موسم الحج ، وإن شاء الله سيكون خروجى من البيت فى غرة شوال ، وفى الثالث من شوال ، فى تمام الساعة العاشرة ليلا سنأخذ القطار السريع من مدينة لكهنو إلى مدينة بومباى ، ومن المتوقع أن يصل القطار إلى بومباى فى الخامس من شوال ، وقد عزمت على السفر على أول سفينة من سفن « شركة مغل البحرية » لأقوم فى البداية بزيارة ديار الحبيب والتشرف بالدعاء عند الروضة الروضاء ، وأبقى هناك ما قسمه الله لى من أيام ، ثم أتوجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فى بداية ذى الحجة . وأنوى العودة – إن شاء الله – بعد أداء فريضة الحج ، فلو كان فى العمر بقية رجعت إلى الوطن فى العشرة الأولى من محرم ..

هذا ما عزمت عليه من جانبى ، وتحقيق ما ينوى العبد عمله متوقف على مشيئة الله عز وجل ، فليس كل ما يبغى العبد يدركه ، لكن رب العباد هو وحده الذى يفعل ما يشاء ، فما قيمة هذا العبد ، إن هو إلا قبضة من تراب ، وما هى إرادته ، إن هى إلا حق لمن يملك الحياة والموت ، ومن لديه مفاتح العافية والسلامة ... فانظر إلى شأن كرم المولى عز وجل ، فأمنيتى أن يكون لى نصيب فى العودة برفقة الشيخ العلامة مناظر أحسن ، العالم الجليل والأديب المرهف ، وبرفقة بعض الأحباء والأخلاء ، إن شاء الله العزيز ...

وهنا أتساءل .. هل يمكن أن تصدر صحيفة « سچ » خلال هذه الفترة ؟! للأسف ! لا يمكن صدورها بشكل يبعث على الاطمئنان ، لهذا أجد نفسى مضطرا لإيقاف صدورها لمدة ثلاثة أشهر أو أكثر قليلا ، فمن المتوقع أن يصل خادمكم كاتب هذه السطور فى منتصف شهر يونيو ، وبعد أن يستريح أسبوعا أو أكثر يمكنه معاودة إصدار الصحيفة مرة أخرى فى بداية شهر يوليو ، لكن من الضرورى أن يتم تجميع مقالات أعداد الصحيفة من منتصف مارس إلى آخره ، وسوف يقوم مولوى ظفر الملك بهذا فى أثناء غيابى ، تبعًا لذلك فسوف يتحمل القراء الأعزاء ، مشقة الانتظار لثلاثة أشهر فقط ، ولا بد أن تكون هذه المدة طويلة جدا ، بالنسبة للأخوة من محبى صحيفة « سچ » ولكل من يحسنون الظن بها ، وإننى أعرف تماما أنهم سيعانون كثيرا من هذا الانتظار ، لكن مدة تأجيل صدور الصحيفة ، ليست بالطويلة على كل حال ، ولما كان استمرار صدور الصحيفة فرضا مهما وضروريا ، فإن تأجيل أدائه لثلاثة أشهر يصيبنى بالغم والحزن ..

لا أظن أنه من الممكن أن يغلبنى الشوق للكتابة فى أثناء السفر! لكن إذا حدث وغلبنى الشوق إلى الكتابة ، فإن صحيفة « همدرد » (دهلى) اليومية لها الحق فى نشر ما أكتب على صفحاتها .

رجاء ونداء :

من آداب سفر الحج أن يعتبر الإنسان هذا السفر أنموذجا لسفر الآخرة ، وأن يتصور لباس الإحرام « كفنا » ، وأن يطلب عند السفر من جميع معارفه وجميع رفاقه ، ومن كل من لهم به علاقة أن يعفوا عنه ، ويسامحوه على ما قد يكون قد بدر منه من أخطاء فى حقهم ، ولما كنت لا أستطيع أن ألتقى بقراء صحيفة « سچ » كل على حدة ، فإننى أطلب منهم العفو والسماح ، فالله وحده يعلم كم من التقصير فى أداء حقوقهم صدر من مدير « سچ » ، والله وحده يعلم كم من الناس تأذوا مما نشر على صفحاتها ، إننى أطلب من الجميع وأرجوهم أن يسامحوا كل ما قد يكون صدر عن هذا العبد الفقير ، خادمهم ، من أخطاء ، صغيرة كانت أم كبيرة ، سواء كانت

– فى ظنهم – عن قصد أم عن غير قصد ، وأن يسامحوه من أعماق قلوبهم ، بكل صدق ، من أجل الله ، ملك الملوك ، الذى سيغفر لهم أيضا خطاياهم ، فبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال قائمة !

بعد طلب العفو هذا ، لى طلب آخر لدى أخوة صحيفة « سچ » وهو ألا يحرموا هذا الخادم من دعائهم ، وأن يطلبوا من الله الذى يستجيب لدعاء عباده جميعا: الزاهد والفاجر ، أن يطلبوا منه أن يجعل حج هذا المذنب حجا مبرورا ، وأن تكون زيارته زيارة مقبولة !

أمرنا بهذا : « اعقلها وتوكل » ، وهو يرشدنا أيضا بقوله : « فتزودوا فإن خير الزاد التقوى » وهنا قد لا نجد حتى ظل التقوى ، والعون والمدد إن كان هناك عون ، فهو ممن رحمته بلا حساب ، وممن كرمه بلا حدود ، من رؤوف رحيم ، بعدها إن كان هناك طلب متاع أو رغبة فى متاع ، فهو داء أهل القلوب ، فما أسعد من كان هذا الزاد من نصيبه !

« انظر إلى همة شأن الكرم

كيف يتكرم على صاحب الصحيفة السوداء

كيف ينعم عليه بالسفر والترحال

إلى الأرض التى تهوى إليها الأفئدة » .

لا أريد أن أنقل هنا كلام الشعراء ، فالشعراء لهم شأن آخر فى مثل هذه المناسبات ، لكنى أتطلع إلى نفسى ، فأجد قلبى يضطرب ، وهمتى لا تطاوعنى ، وقد لا يعبر الشعر عن الحقيقة الواقعة ، يا إلهى ! إن ما يطمع فيه كل مسكين، موجود فى يدك ، ومساعدة كل مفلس بيد كرمك ، اللهم لا ترد محروما لجأ إلى بابك ، واحفظه من قهرك وغضبك ، حتى لا يرجع خالى الوفاض ، بعد أن يكون قد وصل إلى عتبات بيتك المكرم ، اللهم نور بصيرته ، حتى لا يحرم من رؤية صاحب البيت ، بعد أن يصل إليه ، وحتى لا يتيه فى المكان ، بعد أن يكون قد وصل إليه ، واشمله برعايتك ، واجعل له نصيبا من زيارة أنوار جمال رب البيت مع زيارته للبيت ، يا مالك العباد ! يا من تبشر اليائسين بالبشرى الطيبة، يا من تسد حاجة المحتاجين والمعوزين ، يا من تضع

الترياق على جروح القلوب المكلومة ! يا إلهى ! عبدك العاصى يفر إليك ، يشرف بوضع جبينه على جدران بيتك ، ويشرف بزيارة روضة حبيبك محمد ، فاقبل دعاءه ، فأنت مجيب الدعاء .!

يا إلهى ! أنت القدوس الواحد الأحد ، بيدك العفو عن ذنوبنا ، ذكّرنا الكلام الطيب ، فأنت الرحيم وأنت الرفيق ، علينا الدعاء ، ومنك الإجابة ، نرجوك يا إلهى ونخافك ، لو ارتكبت ذنبا فأنت تغفره ، أنت الغفار لكل الذنوب والأخطاء ..

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر

(١)

بدء السفر - بومباى

الاستعداد للسفر:

يأتى العيد كل عام ، لكن هذا العيد ، ليس مثل عيد كل عام ، فهناك مَنْ قلبه مشتاق إلى أن يضع الجبين فى روضة حبيب ، وهناك من يحسِب الأيام ليشرف بالمثول فى روضة حبيب ... انتهى رمضان ، وجاء العيد ، مضت ساعات الانتظار ، وحلت سانحة الإيفاء بوعد الرؤية ، وصالٌ من بعد الهجر ، ورواء من بعد عطش ، لقد كان أمره محددًا منذ الأزل بهذا القانون ، والقانون حدد الوقت بنهاية الشهر المبارك ، فجعل نهاية الشهر المبارك بداية لموسم الحج « الحج أشهر معلومات » وهو يبدأ من آخر صيام ، وآخر إفطار ، وآخر تراويح ، وآخر سحر .. شهر مبارك ، مبارك من أقام لياليه ، مبارك من قضاها فى الدعاء والتبتل ، مبارك هذا الشهر ، ومبارك هذا الجوع ، ومبارك هذا العطش ، ومبارك كل فقير مسكين ، ينتظر هذا اليوم الذى سيمضى فيه، يطوف ويسعى ..

« فرحة العيد فى رؤية وجهك

فمكان عيدنا نحن الغرباء هو دربك .»

لم يكن السفر من أجل النزهة أو الفسحة ، كما لم يكن من أجل تحصيل العلوم وتكميل الفنون ، ولم يكن من أجل بحث علمي أو أدبى ، أو من أجل تنقيب عن آثار، أو تقصى حقائق التاريخ ، لم يكن السفر من أجل متنزهات كشمير وشمله ، ولم يكن السفر من أجل لندن أو باريس أو من أجل أكسفورد، أو كيمبردج ، ولم يكن

السفر إلى المكان الذى تلقى فيه الخطب والبحوث ، أو تصدر فيه البيانات والقرارات ، بل كان السفر والترحال إلى أرض قاحلة ، تغطيها الرمال المحرقة ، فى فصل الصيف ، تحت سماء ، شمسها محرقة ، لم يكن السفر إلى الفنادق أو المتنزهات أو الشلالات أو البساتين أو الرياض الخضر ، بل كان السفر إلى أودية جافة صخرية ، إلى أودية لا ماء فيها ولا كلأ ، لا يوجد فيها غير النار والغبار، يحوط بمن فيها من كل جانب ، وهناك مسلم مذنب ، متوجه إلى شفيع الأمة ، وإلى رب البيت العتيق .. العبد متوجه إلى بلاط مولاه ، عبد يفر تعبا مهزوما خجلا إلى مالكه .. الذرة كلها أمل فى أن تنال شيئا من حرارة الشمس ، والقطرة كلها رغبة فى أن تتمتع بوصل البحر اللامتناهى ، وعقل « قبضة التراب »[١] يفكر فى أن يوضع اسمه فى قائمة النور الطاهر ، ومن لم يكن شيئا ، يظل يصيح، يريد أن يتعلق بستائر بيت الكل ، بيت الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الأمل يحدوه فى أن يرى النور ، فانظر يا إلهى إلى هذه الهمة ، وانظر إلى هذا العبد الفقير ..

صدر الحكم من لدن من حكم ، وصدر الأمر من صاحب الأمر بالحضور إلى حضرته، وبأن يُحمل زاد الطريق ، فقال : وتزودوا... ، وشرح لنا معنى زاد الطريق فقال : إن خير الزاد التقوى .. لكن هنا قحط ، لهذا حرمنا هذا الصنف من الزاد ، اليد خالية من هذا المتاع ، ومن هذا الزاد ، زاد هذا الطريق ، القلب مضطرب ، وأقدام الإرادة مرتجفة ، لكنى تذكرت فجأة أن الله القدير الرحيم ، الذى يحيل الظلمة كل يوم إلى نور ، ويخلق من الفضلات والأسمدة العفنة الورود والرياحين ، والفاكهة والثمار والمحاصيل وغيرها ، القادر على أن يحى الموتى ، أليس بقادر على أن يجعل عباده المذنبين ينعمون بنعمة الحضور إلى بيته؟ ، أليس بقادر على أن يملأ حجر الضعفاء المساكين بجوهر المراد ؟! هذا ليس ببعيد على كرمه وفضله ! هل هو فقط رب الطيبين والأطهار والأتقياء ، ومالكهم ووارثهم ؟ هل من أصيبوا بالغفلة سيحرمون دائما - لا قدر الله - من لطفه ورحمته ؟!

عقدت عزمى ، ولملمت همتى المحطمة ، وقويت قلبى المضطرب ، وتماسكت قدماى المرتجفتان .... وكنت قد توجهت قبل عدة أيام إلى حيدر آباد للقاء بعض أهل القلوب ،

من خيرة العباد ، فأسعد بصحبتهم ، وأهنأ بحديثهم ورفقتهم ، لأظهر الشوق فى قلبى ، وكنت قد زرت قبل ذلك محبوب إلهى نظام الدين فى دهلى ، أطلب منه الإذن ، وفى شهر رمضان المبارك ، كنت قد تلقيت تشجيعا من شيخين جليلين فى ديوبند ، وتهانه بهون ، وبعد هذه التأييدات الغيبية لو فكر أى متعوس وتردد ، وتلجلج ، فهو ليس بإنسان ، وإنما يستحق أن يصنف ضمن الجمادات .. وكان بعض الأصدقاء من أعظم كره ولكهنو وحيدر آباد ، قد أرسلوا لى بعض ملاحظاتهم عما يجب أن يعده الإنسان فى مثل هذا السفر ، طبقا لتجاربهم. (٢)

فى غرة شهر شوّال وبعد صلاة الظهر ، وبعد الانتهاء من الأدعية المسنونة والمأثورة ، خرجت من البيت ، ومن المسجد قمت بوداع الشيخ محمد جشتى نظامى ، وقرأت الفاتحة للأموات من بعض الشيوخ الآخرين .

كان مسلمو هذه المنطقة – مثلهم مثل مسلمى جميع أنحاء العالم – منشغلين بالعداء والسب والشتم والإساءة لبعضهم ، وبالرغم من أن اليوم كان يوم عيد ، لكنى لم أستطع أن أبارك لهم هذا اليوم .

لكن سبحان مقلب القلوب .. كان كل فريق من هؤلاء قد استعد لوداع العبد الفقير ، مواطنهم المسكين ، وبالرغم من مشاغل يوم العيد ، وأشعة الشمس المحرقة فقد جاءوا جميعا مشيا على الأقدام مسافة تصل إلى ميلين أو أكثر ، وهذا لم يكن بالأمر الهين لإثبات شدة المحبة ..

وداع الأهل والأحباب :

كانت مدينة لكهنو أول منازل السفر بعد مغادرتى لمسقط رأسى ، ونظرا للعلاقة التى تربطنى بهذه المدينة فهى تعد بمثابة مسقط رأسى أيضا .

كنا قد وصلنا إليها فى الليل ، فى غرة شوّال ، وفى يوم الجمعة الثالث من شوّال (١٥ مارس) ومنذ ظهر هذا اليوم استمر قدوم المشايخ والأصدقاء حتى لحظة تحرك القطار فى الساعة العاشرة ليلا .. كانت الهدايا تقدم ، والطعام يوضع ، ويرفع ،

أما المودعون فكانوا من القضاة والمحامين المشهورين بالمدينة ، وكانوا من الأطباء ومن رؤساء تحرير الصحف ومديرو المجلات، وعلماء الندوة ، وأساتذة الكليات الإنجليزية وطلبتها ، وأسرة « فرنكى محل » برمتها ، وجميع الأحباب بشكل عام ، لا أدرى هل من صاحب عقل يستطيع أن يعدد أسماءهم هنا ، وإلا كنت أعددت فهرساً بأسمائهم.

إن الوداع الذى حظيت به من الكبار والصغار ، ومن العلماء وغيرهم من عموم الناس ، وداع مملوء بالحب والإخلاص ، لا يسهل على المرء أن يمحوه من ذاكرته .

ورد فى الأحاديث النبوية أن السفر فى يوم الخميس والسبت سفر مبارك ، وبناء عليه اخترت وقت مغادرة القطار لمحطة « درياباد » بحيث يكون موافقا لغروب شمس يوم الأربعاء ، بينما يكون الليل بداية يوم الخميس ، على أن يكون وقت مغادرة مدينة « لكهنو » ليلة يوم السبت .

مرت عدة ساعات ... وعند محطة « بهوبال » قدم عدد كبير من الأصدقاء والأحبة ، بل بعض الأحبة الذين سبق لهم أن ودعونى من قبل ، مما أكد لى على مدى محبتهم لى ، وعطفهم وودهم ، ولا أملك للرد على هذه المشاعر الطيبة سوى الدعاء لهم بالخير ، فماذا أملك غير هذا ؟! وفقهم الله جميعا فى الدنيا والآخرة .

مدينة بومباى :

الأحد السابع عشر من مارس : وصلنا فى الصباح إلى مدينة بومباى ، لم تكن بومباى بمكان سهل بالنسبة للجهلة من الناس ، لا أعنى بذلك الأميين من أهل القرى ، فإن أفضل متعلم من المدينة ، إن لم يكن لديه صديق أو أحد معرفة ، فإنه إذا وصل إلى بومباى لأول مرة ، يتيه فيها ويضيع!

أسست فى بومباى عدة استراحات للحجاج ، وهى طيبة ومريحة ، يمكن لأى إنسان أن يقيم فيها مجانا ، تقع استراحة الحاج شهبندر التجار صابو صديقى يرحمه الله على بعد عدة فراسخ من المحطة الكبيرة « فيكتورية ترينس » وهى مجاورة تماما ، إن لم تكن لصيقة بسوق « كرافرد ماركيت » الذى توجد فيه بضائع الدنيا كلها ، وهذه

الاستراحة أكثر الاستراحات راحة ، والمسئول عنها هو مولوى حضرة الله ، وهو مثال للطيبة والكمال ، والنور المحيط بوجهه مرآة لطهارة باطنه ، أما نائبه فيدعى « منشى عبد الستار » أو عبد الستار الكاتب ، وهو من محبى صحيفة « سچ » وممن يدعمونها غيابيا ، وقد فكرت أن تكون إقامتى فى هذه الاستراحة ، فكان والدى - يرحمه الله - قد أقام فيها مع والدتى فى أثناء سفرهما للحج سنة ١٩١١ م ، لكن المحطة الكبيرة « فيكتورية ترينس » بعيدة ! ولم يكون نور الصباح قد ملأ الكون بعد ، حين ظهر فجأة على محطة « بهائى كله » شيخنا العلامة شوكت على [٣] مع رفاقه ، فأمروا ، بل أشاروا بأن نصل إلى محطة « فيكتورية ترينس » ، ومن ثم نذهب إلى مقر « دار الخلافة » ، فلم يكن فى استطاعتى رفض حكم رائد حركة الخلافة!

لم تكن « دار الخلافة » استراحة للمسافرين ، بل هى اسم يطلق على مكتب « لجنة الخلافة المركزية » .. الحمد لله ! فقد صار لجمعية الخلافة مبنى خاص بها ، بدلا من صرف مبالغ كبيرة على إيجارات المبانى .

يقع هذا المبنى على بعد فرسخين من محطة « بهائى كله » فى مكان يقال له « لولين » وقد ترجمها البعض (جاذب الأرواح) فيالها من ترجمة جميلة معبرة ، وهو يتكون من طابقين ، وفناء فسيح ، والجو هادئ ، إن امتلاك مثل هذه العمارة فى بومباى « ضربة حظ » !

فى الجزء الأسفل من المبنى المركزى توجد مكتبة جمعية الخلافة ، ومكتب جريدة الخلافة ، بينما يوجد المكان الذى ينزل فيه العلامة شوكت على فى الطابق العلوى ، بالإضافة إلى « غرفة الاستقبال » المزينة والمزركشة ، المعدة من أجل كبار الضيوف « المتمدينين »! بالإضافة إلى بقية الغرف ، وهنا لا يجب أن يتبادر للذهن هذا السؤال : ما علاقة جمعية الخلافة بكل هذه الزخارف والزينات ؟! أليس هناك فرق بين خلافة الصحابة ، وجمعية الخلافة ، ونحن الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى ؟!

فى الطابق العلوى من المبنى الآخر ، وعلى جانب منه يوجد مكان إقامة الشيخ العلامة محمد عرفان ، وهى غرفة فى غاية البساطة ، بل هى صورة معبرة عن البساطة

الإسلامية ، والطابق الأرضى فى المبنى المركزى يشتمل على غرفتين ، أخليتا من أجل إقامة عائلتنا ، فيمكن للنساء أن يسترحن فيهما باطمئنان وسكون ، بينما يتجول الرجال هنا وهناك فى النهار، وفى الليل ينام بعضهم فى الفناء ، بينما ينام البعض الآخر فى الشرفة ، وبعضهم استولى بالقوة على غرفة الشيخ عرفان .

كانت برقية العلامة شوكت على قد وصلتنا فى لكهنو ، وجاء فيها أن أيا من البواخر الجيدة لن تتحرك فى بداية شوال ، وحين وصلنا إلى بومباى أدركنا أن علينا الانتظار عدة أيام أخر ، بالإضافة إلى الأيام التى كنا نتوقع أن ننتظرها هنا ، فزاد هذا الأمر من لوعة الشوق ولهيبه، ومن اضطراب القلب وحنينه إلى ديار الحبيب ، لكن الداعى أرسل حكمه وأوامره : لا تهرعوا ..! لا تسرعوا ! خذوا أنفاسكم ، واستريحوا على الدرب ، تمهلوا ! أبطئوا الخطو على الدرب وصولا إلى بيت الله ...

فقلنا : كيف لقلب المسافر أن يهدأ ؟!!

تعد بومباى من أكبر مدن الهند « اليأجوجية » [٤] والسادة الأفاضل الذين لم يشرفوا بزيارة لندن أو باريس أو نيويورك أو شيكاغو عليهم أن يشاهدوا نموذجا منها فى بومباى ، ففى كل ناحية تشاهد تلك المبانى العالية التى تطاول السماء ، وترى الأسواق المكتظة بالمعاملات التجارية ، وانشغال أصحاب المحلات ببيعهم ، بالإضافة إلى كثرة أماكن اللهو والمتعة ، وكثرة الأضواء المتلألئة ، ناهيك عن الأدخنة والأبخرة المتصاعدة ، وصخب المصانع والمعامل ، وضجيج الآلات ، بالإضافة إلى ضجيج القطارات ، والترام ، والسيارات ..

العويل والصراخ والصياح من الليل حتى الصباح ، ومن الصباح حتى المساء ، صراخ فى صراخ ، ودخان متصاعد لا ينقطع ، ومشاحنات ، و تعارك ومشاجرات .. هذا يدفع ذاك ، ومن هو فى الوراء يدوس على من هو أمامه ، لا يهمه شيئا .. هوس واضطراب ، وعدم مبالاة يأجوجية ، وقلق يتزايد لحظة بعد الأخرى ، وفرار هنا، وفرار هناك ، الكل يسرع ، والكل يجرى ، والكل يصرخ ، والكل يعوى .. ضوضاء .. صخب .. اضطراب ، لا هدوء بالنهار ، ولا سكينة بالليل .. ويسمون هذا كله فى

العصر « اليأجوجى» باسم « التطور والحضارة » ، ومما يثير العجب والحيرة والتساؤل أيضا هو أنه بالرغم من هذه الغلبة اليأجوجية ، لماذا أقيمت كل هذه المساجد ، ويمثل هذا الجمال الرائع ، والرونق والبهاء الفائق ؟! وكيف يشاهد هنا كل هؤلاء المصلون ، وكل هؤلاء المسلمون المتدينون ؟!

الهـوامـش

(١) قبضة التراب كناية عن الإنسان .

(٢) هم العلامة سيد سليمان الندوى ، والبروفسر هارون شروانى (الجامعة العثمانية) ومولوى ظفر الملك علوى والعلامة الشيخ شاه محمد إلياس برنى فلهم الشكر جميعا (حاشية المؤلف) .

(٣) شوكت على . انظر ما ورد عنه فى مقدمة المترجم .

(٤) اليأجوجية إشارة إلى الدول الاستعمارية ، وربما يخص المؤلف إنجلترا ، ويذكر « العصر اليأجوجى » فيقصد به عصر الاستعمار وسيطرة الدول القوية على الدول الضعيفة، ويشير هنا إلى أثر الاستعمار البريطانى على مدينة بومباى .

(٢)

بومباى - الباخرة

أفراد القافلة :

رفقاء السفر جزء مهم من الرحلة ، وفى سفر الحج يكون هذا الجزء المهم هو الأهم !

منذ عقدت العزم على السفر إلى الحج ، كانت زوجتى أيضا على أهبة الاستعداد ، والاستعداد لا يعنى مجرد الاستعداد باللسان ، ولا يقتصر على الاستعداد باللسان ، بل قامت بوضع مجوهراتها وحليها جانبا ! وقامت بتجهيز المال، وكانت السيدة العفيفة الطاهرة والدة جان بهادر شيخ مسعود الزمان المحامى قد أعدت عدتها منذ مدة ، ومن أجل راحتى أمرت باصطحاب « خادم » يرعى شئون بيتى ، وكانت قد طلبت من أخت فاضلة من رامبور مرافقتها ، وبناء على طلبى قام شقيقها - الذى يتولى منصبا مهما فى حكومة رئاسة حيدر آباد - بالاستعداد للسفر معها بأسرع ما يمكن ، ليكون مرافقا لها ، وهكذا كانت قافلتى الأصلية تتكون من ستة أفراد ، سيشتركون معا فى طعامهم وشرابهم ، وكان برفقتنا أيضا سيدة محترمة من لكهنو هى أرملة « النائب » نهال الدين أحمد يرحمه الله ، برفقة أخيها الشيخ حيدر على قدوائى ، بالإضافة إلى مولوى عبد البارى الندوى (الأستاذ بالجامعة العثمانية) الذى قدم برفقة والديه مع أربعة أشخاص آخرين ، وضمت هذه القافلة أيضا الشيخ العلامة سيد مناظر أحسن، شيخ الحديث بالجامعة العثمانية ، وهو غنى عن التعريف بالنسبة لقراء صحيفة « سچ » .

وهكذا أصبحنا ستة عشر مسافرا ، لكن قافلتى الأصلية كانت ستة أشخاص فحسب ، إن رفقة سفر الحج رفقة تحتاج إلى تدقيق وتمحيص ، فقد ينفرط عقد الصداقة بين أصدقاء العمر فى هذا السفر ، بعد أن تكون قد ربطتهم صداقة متينة طول الحياة ، وقد سمعت أيضا أنه قد يحدث فى أثناء هذا السفر خلاف بين الأخ وأخيه ، وبين الأب وابنه ، وبين الشيخ ومريده ، وخوفا من هذا الأمر ، احتطت كثيرا منذ البداية فى ألا تكون القافلة كبيرة ، وأن يقوم من هم برفقتى ، بإدارة شئونهم بأنفسهم ، وتدبير أمورهم وحدهم .

إننى أناشد - مخلصا - جميع العازمين على الحج مستقبلا ، بأن لا يجعلوا من صديق لهم أو عزيز لهم رفيقا فى سفرهم هذا ما لم يثقوا بأنه يمتلك صبرا غير عادى ، وتفانيا ، وأنه يتحلى بصفات الطاعة والانقياد ، كما أن فصل أمور الطعام والشراب ، بل المأكل والملبس ، والإقامة ، يعد من الواجبات الضرورية .

شراء مستلزمات القافلة :

فى البداية تمكنت - بحمد الله - من أن أخفى نفسى عن الناس ، لكن الإقامة طالت ، ومن هنا بات صعبا علىّ أن أظل هكذا متخفيا .. وفى النهاية .. وذات يوم قدم إلىّ شخص برسالة مفادها أن ممثل صحيفة « انديا ديلى ميل India Daily Mail » يريد أن يلتقى بكم ، ومعه آلة تصوير ، أى أنه سيقوم بنشر صورة العبد لله ، عجيب الخلقة ، مع بيانى الصحفى ، حتى تظهر للقراء من أصحاب الفكر المستنير ، وكأن هذا تفسير جديد لتوقعات الشاعر أكبر[1] ، ليتم نشره ليبقى على مر الزمان :

« فهم العشاق أيضا أسلوب التجارة

فلاحظوا بالله عليكم هذه المصيبة

آهاتى وتأوهاتى تنطلق من صورتى

يقولون يا قيس : تأوه ! تأوه ثانية تأوه

حتى تظهر تأوهاتك فى الصورة !!»

ومع الرسالة التى وصلتنى كانت هناك إشارة أيضا إلى (المصروفات المقررة) فكتبت ردا على الرسالة جاء فيه : إن نشر مقابلة صحفية لا علاقة له بالتقاط الصورة !

والحقيقة أنه منذ بدء السفر ، أقلعت تماما عن قراء الصحف ، لدرجة أننى وبالرغم من إقامتى فى مكتب صحيفة «الخلافة» لم تمتد يدى إلى تلك الصحيفة حتى اليوم ، كما إننى لم أر حتى شكل صحيفة « همدرد » ، وعلى كل حال تمكنت من الفكاك من هذه المصيبة ، لكن الحب الذى أنزله الله فى قلوب محبى صحيفة « سچ » جعلنى أفكر، كيف يمكن فى النهاية أن أظل بعيدا عن أنظار هؤلاء المحبين ، الذين أنزل الله فى قلوبهم حب هذه الصحيفة .. وفى النهاية بدأ ترددهم على العبد الفقير .. كانوا ينتهون من أعمالهم ثم يأتون عندى ، فيأخذوننى إلى بيوتهم ، يقدمون لى الطعام ، ويكرموننى ، ومن بين هؤلاء صديقى العزيز معين الدين حارث خريج الجامعة الملية العظيم ، الذى يصدر صحيفة يومية الآن ، فقد قام هو وشاب يدعى أحمد عبد الله غريب من آل ميمن بترتيب دعوة لى ، كانت أنموذجا لكرم الضيافة الشيرازية ، بينما قام حاجى قاسم نور محمد تشابهرا التاجر المعروف باستضافتى أيضا ، ولا أدرى لماذا يحسن الحاج قاسم نور محمد الظن بصحيفة « سچ » ؟! الله يعلم ! وكان الرجل قد جاء عندى ، وقدم لى كثيرا من الهدايا ، ثم أقام تلك الدعوة الكبيرة ، التى ضمت عددا كبيرا من الأحباب ، كما حمل بنفسه حتى السفينة سلة كبيرة مملوءة بالفاكهة ، وفى كل مرة ، وفى كل مناسبة كان يقول إنه لا يقدم شيئا ، بل يشعر بالفخر لخدمته لنا ، وهو يعتبر ما يفعله هذا سعادة ما بعدها سعادة .!

أقمنا فى بومباى اثنى عشر يوما ، كنا كلما عقدنا الأمل على أن السفينة ستغادر اليوم ، اكتشفنا خيبة الأمل ، واكتشفنا فى المساء خطأ الخبر الذى ذاع بيننا فى الصباح ، وهكذا كنا نكتشف خطأ خبر كل صباح حين يحل المساء ! قضينا هذه الأيام .. اثنى عشر يوما .. فى الإعداد لمستلزمات السفر، وشراء بعض الضروريات ، ففى الحجاز تتوفر الآن جميع الأشياء الضرورية من كل نوع ، كما أن الطعام متوفر فى السفينة ، ويتم فى العموم ترتيب أمور الطعام ، ولهذا يجب عدم حمل الكثير

من الأمتعة ، وأخذ ما قل منها ، وإلا فإن هذا سيكلف كثيرا من الأموال التي تدفع للحمالين ، ناهيك عن تحطم ما بداخل الأمتعة، وما قد يصيبها من كسر أو تخريب .

وهكذا عقدت العزم على أن يكون متاعنا قليلا جدا ، وأن نأخذ ما خف حمله ، وبهذه النية خرجت لأشترى هذه الضروريات من أسواق بومباى ، لكن ما العمل ؟ إننى أضع فى اعتبارى مستلزمات ستة عشر مسافرا ، وهكذا استمر الشراء من هنا ومن هناك ، حتى كوّن ما اشتريناه حملا كبيرا : الفراش ، وقطع من القماش (فلو كان مع الإنسان قطعة قماش ملونة أو أكثر ، فهذا يسهل عليه أمور كثيرة) أما الأدوية المجربة ، الخاصة بالدوار والغثيان ، وسوء الهضم ، والحمى وغيرها فقد كنت حملتها حين خرجت من بيتى ، لكن بقية الأدوية الأخرى اشتريناها من بومباى .

إن مستلزمات السفر تختلف من شخص لآخر ، ومع هذا فإن المستلزمات التالية مفيدة بشكل عام ، ويمكن شراؤها من بومباى : ملابس الإحرام ، كرسى للجلوس على سطح السفينة (كرسى من القماش) حافظ للماء (ترموس) حصيرة (مفيدة جدا) ، بطارية للإضاءة ، فانوس ، حقيبة يد ، موقد ، فحم ، براد شاى ، إناء لوضع الماء ، حليب مجفف ، شاى ، فاكهة ، وغيرها ومن يصعب عليه النوم على الأرض يمكنه حمل مرتبة قطنية رقيقة .

ساعدنى فى شراء كل هذه المستلزمات شهبندر التجار محمد روشن ، ووالده ميان سراج أحمد ، اللذان وقفا وقتهما الثمين وسيارتهما لخدمتنا نحن الغرباء هنا ، وذلك لعدة أيام ، ولعدة ساعات ، وقد ساعدانا أيضا على شراء كل شىء بأثمان معقولة جدا .

إن الحج وسفر الحج مجاهدة بمعناها الصحيح ، فالإنسان يضغط على نفسه بشدة ، كما أن العبد يتعلم حقا معنى العبودية بكل جوانبها ، ومن معجزاته أن عزم الإنسان وإرادته على فعل شىء تتحطم حينا من بعد حين ، ولا يسلم أى برنامج مهما فكر فى وضعه بدقة وتمعن من التغير والارتباك ، فحين خروجنا من دريآباد ، كان قصدنا أن نأخذ سيارة نقل شاحنة ، لنقرأ الفاتحة فى الطريق حين نمر بمزار أحد

الأتقياء الدعاة إلى الله فى « بانسه » ، ثم نصل بعد ذلك إلى لكهنو ، ومن العجيب أن سيارات النقل هذه تخرج من درياآباد بأعداد كبيرة وبكثرة ، لكن فى ذلك اليوم بالذات ، لم تتحرك سيارة واحدة ! وتأخر القطار كثيرا لدرجة أنه لم يكن أمامنا وقت كاف للنزول فى الطريق وزيارة بلدة « بانسه » .. هذا حدث فى بداية السفر !

كنا قد صممنا على التحرك فى الليل يوم الثالث من شوال ، وفى العصر وصلتنا برقية من بومباى تفيد بأن السفينة ستتأخر ، وتطلب منا تأجيل السفر عدة أيام ، فى ذلك الوقت أرسلت برقية جوابية أطلب فيها المزيد من التفاصيل ، وانتظرت حتى ظهر اليوم التالى دون وصول رد ! فأردت الاتصال هاتفيا بمكتب جمعية الخلافة ، لكنى أبلغت بأن الحرارة مقطوعة ، والخلاصة أننا ظللنا مترددين مذبذبين حتى قبل مغادرتنا بعدة ساعات !

وهكذا يحدث الشىء نفسه فى بومباى ، ففى كل يوم يصلنا خبر مؤكد من مكتب الباخرة ، لكن يصلنا بعد ذلك خبر آخر يفيد بأن الخبر السابق غير صحيح وغير مؤكد .

الإنسان مظهر كامل للأنانية ، له إرادة ، لكنه لا يملك هذه الإرادة ! فالإنسان المغرور الجاهل يخرج قاصدا الحج ، ثم هو أيضا يريد أن يُغلّب ويُحكم إرادته ، لكنه يعترف بعد ذلك بعجزه ، ويقر بعدم قدرته ، ثم هو أيضا يريد أن يثبت قدرته وسطوته ، إلا أن درس العبودية ، ودرس المذلة يستمر ، ومع هذا فهو يحاول أن يثبت سطوته وأنانيته ، فإن لم يتعلم الإنسان التواضع والعجز والانكسار فى هذا السفر فمتى يتعلم؟!

الشيخ عبد الله الفضل النجدى :

ظلت جماعتنا بكاملها فى ضيافة دار الخلافة مدة اثنى عشر يوما ، والضيافة هنا ليست ضيافة بالمعنى المعروف ، لدرجة أننا استخدمنا ميزانية دار الخلافة ! على العكس من ذلك ، فقد كنا ندفع فواتير طعامنا وشرابنا ، وعند المغادرة قمنا بتصفية

جميع حساباتنا ، بحيث لم يَبق على أحد منا قرشٌ واحدٌ ، بل على العكس قام أكثر الضيوف بدفع مبالغ أكثر من المستحقة عليهم ، هبة منهم لميزانية الخلافة ، فلم يكن من السهل أن يتوفر لنا ، ما توفر هنا فى أى فندق من فنادق بومباى ، فقد كان مولانا شبوكت على حريصا على رعايتنا والاستفسار عن حالنا ، وبسببه تمت جميعها معاملاتنا بسهولة كبيرة ، والكلمات هنا تعجز عن التعبير عن شكره ، والامتنان لمعروفه ، أما صديقى زاهد على خان فقد كان هنا أكثر من والد ، ومولانا عرفان المسئول المالى لجمعية الخلافة ، والسيد قمر محرر صحيفة الخلافة ، يستحقون جميعا أكثر من تقديم الشكر ، لما شملونا به من رعاية وطيب معاملة .

هناك سؤال يجول بخاطر معظم الحجاج ، وهو أين يحتفظ هؤلاء بما معهم من مبالغ مالية ؟ ذلك لأنه لو وضع كل شخص ما معه فى جيبه الخاص، فإن هذا يجعله قلقا طول الوقت ، يفكر فى الحفاظ على هذه المبالغ ، ويخشى من ضياعها ، إلا أنه يوجد فى الهند عدد من الوكالات تقوم باستلام المبالغ المالية ، ثم تسلمها للحجاج كاملة فى الحجاز ، ومنها وكالة قديمة مشهورة هى وكالة « حاجى على جان » فى دهلى ، وهى من أقدم وأشهر الوكالات ، لها فروع منتشرة على نطاق واسع ، ولها ممثلون يتصفون بالأمانة والثقة ، فى كل من مكة والمدينة ، لكننا لم نكن بحاجة إلى ذلك ، فقد سلمنا معظم ما معنا من مبالغ مالية إلى شهبندر التجار المعروف محمد عمر بهائى خازن جمعية الخلافة ، وهو من مشاهير تجار بومباى ، ومحله فى شارع « ناكديوى » وقد تسلمنا منه خطابات موجهة إلى مندوبيه ووكلائه فى جدة والمدينة المنورة ومكة المكرمة ، وقد سلمنا مبلغا قليلا إلى الشيخ إبراهيم عبد الله الفضل (ومحله شارع نيوكوئنس) وهذه وسيلة موثوق بها أيضا ، فالشيخ عبد الله الفضل نجدى الأصل ، كما أنه من خاصة المقربين للسلطان ابن سعود ، وأخوه الشيخ عبد الرحمن الفضل من تجار جدة المشهورين ، وأخوه الثانى محمد الفضل هو نائب الحاكم فى مكة المكرمة، وقد التقينا بالفضل فى بومباى ، وهو ينوى الحج أيضا هذا العام ، وسيسافر بعد مغادرتنا بومباى بعدة أيام .

كما يمكن لبعض الناس أيضا أن يسلموا أموالهم إلى قبطان السفينة على سبيل الأمانة .

سفن نقل الحجاج :

توجد ثلاث شركات ملاحية تشرف على السفن التى تنقل الحجاج من بومباى وكراتشى :

- مغل لاين
- غازى
- شوسترى

يمتلك المسلمون شركتى غازى وشوسترى ، لكن لا يمكن القول بأنها شركات مساهمة (مشتركة) خاصة ، فشركة شوسترى شركة صغيرة جدا ، وقد كانت شركة مغل لاين مملوكة فى وقت من الأوقات للمسلمين ، والآن يمتلكها كلية وكيلها صاحب « ترنر ماريسن اند كمبنى » والحقيقة أن جميع السفن تقوم أساسا بشحن البضائع ، وتظل تقوم بهذا العمل معظم أوقات السنة ، وفى موسم الحج يتم تحويل أماكن شحن البضائع إلى أماكن « لشحن » المسافرين ، وهكذا فبدلا من أن تحمل السفن بالأمتعة ، والبضائع التى لا روح فيها ، يتم تكديسها بذوات الأرواح من الحجاج .

يدير شركة ترنر ماريسن مديرون ستة ، من بينهم مسلم واحد ، أما الخمسة الآخرون فهم من الإنجليز ، وهناك فروع للشركة يبلغ عددها ٢٣ فرعا ، تنتشر فى أماكن مختلفة من « رنكون » إلى السويس ، وفى خليج البنغال ، وبحر الهند ، والخليج العربى(٢) ، وبحر العرب، والبحر المتوسط ، ومعظم العاملين بها من الإنجليز ، لكن لها وكلاء من المسلمين فى البحرين ، وبندر عباس ، وبوشهر ، وجدة ، وكراتشى والكويت ، والمكلا وغيرها .

يدعى وكيل الشركة فى بومباى « مستر براون » وهو إنجليزى ، يمتدحه الناس ويثنون عليه وعلى أخلاقه ، وتمتلك الشركة ثمانى سفن ، والشركة من حيث عدد السفن ، ومن حيث الترتيبات والتجهيزات العامة ، أكبر من بقية الشركات الأخرى وأفضل منها ، وقد طوينا سفرنا فى إحدى سفن هذه الشركة .

كانت بعض الشركات تقوم بتخفيض تعريفة السفر إلى حد كبير جدا نتيجة المنافسة الشديدة ، إلا أن هذا الأمر لا يحدث الآن ، ولا يجب أن يتوقع حدوثه مستقبلا ، فأجرة السفر واحدة فى كل الشركات ، وهى محددة بشكل رسمى كالآتى :

- أجرة الدرجة الثالثة ١٩٥ روبية ذهابًا - عودة
- أجرة الدرجة الثانية ٤٥٠ روبية ذهابًا - عودة
- أجرة الدرجة الأولى ٥٥٠ روبية ذهابًا - عودة

وتكون التذاكر صالحة للعودة خلال مدة ١٨ شهرا .

يطالعك فى وقت تسلم التذاكر منظر يشبه منظر مهرجان كبير أو حفل ، وهو يشبه تجمع الناس على شراء تذاكر الدرجة الثالثة فى محطات القطار ، الصفوف نفسها ، والتدافع نفسه ، والتشاحن ، مظهر للحيوانية ، ولا مكان للإنسانية ، والغلبة للأقوى ! ناهيك عن معركة الحصول على جواز السفر ، وهى أشد من سابقتها .. لكن يجب أن نعترف بأن وجود جمعية الخلافة كان بالنسبة لنا آية من آيات الرحمة ، فقد كانت رعاية العلامة شوكت على وأعضاء جمعية الخلافة الآخرين سببا فى حل كل صعوبة واجهناها ، فقد تسلمنا جوازات سفرنا وتذاكرنا ونحن جالسون فى بيوتنا!!

الهوامش

(١) هو الشاعر المعروف أكبر إله أبادى ولد أواخر سنة ١٨٤٦ م وتوفى ١٩٢١ م واعتمد أسلوب النقد الساخر فى التعبير عن أفكاره ومشاعره . انظر نماذج من شعره فى كتاب « الحب الذى كان وقصائد أخرى » ترجمة : سمير عبد الحميد ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، ٢٠٠٣ م

(٢) فى الأصل : الخليج الفارسى .

(٣)

السفينـــة

السفينة « أكبر » :

يعلم الله كم مرة تغير موعد إبحار السفينة ، فقد كان الخبر يصلنا مباشرة من مكتب الشركة ، فهناك فى مكتب ترنر ماريسن ، كان قارى محمد بشير أعظم كرهى - وهو رجل كفء - يقف على أهبة الاستعداد طول الوقت من أجل خدمتنا ، لكن كل خبر وصلنا منه ، لم يكن صحيحا ، فقد تم تأجيل موعد إبحار السفينة مرة من بعد أخرى ، والخطأ فى هذا أيضا يقع علينا بشكل خاص ؛ لأننا نتيجة جهلنا ، وعدم خبرتنا ، كنا نقيس مواعيد سفينة الحجاج على مواعيد القطار . إن صيانة السفينة وإعدادها للإبحار يخضع لمؤثرات كثيرة ، يكون تقديرها بشكل صحيح ، وقبل عدة أيام ، خارجا عن سلطات رؤساء الشركة ؛ لهذا لا يمكن تحديد وقت معين بشكل قاطع قبل ذلك بكثير .

على كل حال قبل يوم أو أكثر عرفنا بأن السفينة « أكبر » سوف تبحر يوم ٢٨ مارس ، وهى سفينة ليست بالقديمة ، فقد تم بناؤها سنة ١٩٢٤ م وهى فى حالة متوسطة بين سفن الشركة ، يبلغ وزنها ٤٠٤٣ طنا ، وقد سافر عليها وفد جمعية الخلافة ، ووفد جمعية العلماء سنة ١٩٢٦ .

بعد تحديد يوم المغادرة ، وإعلان وقت الإبحار، تحول يأس الحجاج وقلقهم إلى فرح وسعادة ، بينما كنا نحن قد مللنا الانتظار ، وطال علينا امتحان الصبر ، واختبار القدرة على التحمل ، بما فيه الكفاية ، وتلاشى الأمل الذى عقدناه حين خرجنا من

البيت على أمل الوصول إلى الأراضى المباركة فى النصف من شوال ، وهكذا مرت علينا ليلة ما بين السابع والعشرين ، والثامن والعشرين ونحن فى شوق واشتياق .

سوء ترتيب الإجراءات الصحية :

اليوم الخميس ٢٦ شوال / ٢٨ من مارس

كان من المقرر أن تتحرك السفينة ليلا ، لكن وصلت الأوامر للحجاج بأن يضعوا أمتعتهم فى السفينة فى الساعة الثامنة صباحا ، وأن يتواجدوا هم أنفسهم فى تمام الساعة الثالثة عصرا من أجل أن يتم « رشهم بالبودرة » ، على أن يكون ركوبهم السفينة قبل المغرب .

وتنفيذا لهذا الأمر ، أرسلت الأمتعة صباحا ، واستغرق إرسالها وقتا طويلا ، بينما كان الحجاج الآخرون قد وصلوا مبكرين فحجزوا أماكن طيبة ، أحاطوها بأمتعتهم !! لقد فرض الله الحج حتى يتعلم الإنسان كيف يكون إنسانا ، وأن يتعلم درس العبودية والإيثار وإنكار الذات ، لكن عباد الله هؤلاء على العكس من هذا ، زادت أنانيتهم ، وزاد حبهم لأنفسهم ، وكان كل شخص يفكر كيف سيدفع الآخرين؟! وكيف سيخيف الآخرين ؟! وبأى طريقة سيمكنه الحصول على مكان أطيب من مكان أخيه ؟! دون أن يراعى مطلقا حقوق الآخرين ، أو ما قد يصيبهم من أذى وألم .. وعلى كل حال يمكن أن ينجح من يستخدم قوة يديه ورجليه أو من يعطى شيئا لعمال وموظفى السفينة حتى يسهلوا له الأمر !

حضرنا عصرا إلى مكان « رش البودرة » وهو يقع على بعد فرسخين من مبنى عمارة « برنس دوك » .. ماذا يمكن أن يقال فى وصف المنظر هناك ؟! فجماعة الحجيج فى ذلك الوقت لم تكن جماعة من البشر ، بل كانت قطيع غنم أو خراف ، يحركه يمينا وشمالا عسكرى الشرطة ، وموظف المستشفى ..

سمعت أن حكومتنا الفاضلة قد أقامت فى بومباى هيئة لرعاية الحجاج ، وها نحن قد شاهدنا اليوم الصورة الجديدة والفريدة لمعنى « الرعاية » .. لا أقول

« عوام كالأنعام » فالحجاج المحترمون ، والحجاج من أصحاب المقام العالى ، وممن يحملون تذاكر الدرجة الأولى ، يقفون حيارى تحت لهيب الشمس ، مضطربين ، قلقين ، يتمايلون هنا وهناك طبقا للاتجاه الذى يدفعهم فيه الآخرون ، والنساء المسكينات حالهن حال ! فلم يكن هناك من هم أسوأ حالا منهن ! هذا عقاب يصدر من جانب الحكومة « اليأجوجية »[1] على جريمة ارتكبها هؤلاء الناس ، لأنهم بدلا من أن يسافروا إلى لندن وباريس وروما وفينا وأكسفورد وكيمبردج وغلاسكو وأدينبره ونيويورك وواشنطن ، سافروا إلى صحراء جرداء ، واتجهوا بشوق عارم إلى واد غير ذى ذرع !!

ورد فى الحديث النبوى أيضا ما معناه أن الحج كان موجودا أيضا على زمان يأجوج ، لكن أى سلوك سلكته الحكومة اليأجوجية مع الحجاج ؟ وماذا تعرض له الحجاج من أذى ؟ هذا لا يحتاج إلى سماع ، بل يحتاج إلى مشاهدة ، ولا يحتاج إلى قراءة بل يحتاج إلى رؤية ، ولا يحتاج إلى كلام بل يحتاج إلى تجربة .. حقا إن كل أذى ، وكل تعب ، وكل مشقة فى سبيل الله تعنى الراحة بعينها ، وكل مهانة فى سبيل الله هى العزة بذاتها ، ولكن القوى اليأجوجية تفخر اليوم بقوة ساعدها ، وبطش يدها .. فاستمع ! إن هذا الامتحان ليس امتحانا لصبر من خرجوا فى سبيل الله ، وامتحانا لضبطهم النفس ، وامتحانا لتواضعهم ، وإنكارهم لذاتهم ، بل هو مدعاة لأنْ يتوجهوا بالدعاء للحليم خالق السماوات والأرض !

سافر شوكت على ليلة أمس إلى دهلى ، ويتولى اليوم المسئولية نيابة عنه خليفته زاهد سلمه الله ، وقد انتهينا من معركة «رش البودرة » وركوب السفينة ، بمساعدة زاهد، وقد صدقنا اليوم المقولة الفارسية : « يقوم الابن بإكمال ما قد يعجز عنه الأب » حفظ الله هذا الشاب الذكى ورعاه ، وجعله مسلما مخلصا لدينه .. كنا نشاهد أعضاء « جمعية خدام النبى » يسقون الحجاج الماء المثلج والعصائر ، يقومون بعملهم هذا بكل حب وإخلاص وتطوع ، يا ليت « هيئة رعاية الحجاج » الرسمية الحكومية الغنية ، يوجد بداخلها مثل هذا التعاطف ومثل هذه الإنسانية .

(١) إشارة إلى الحكومة البريطانية .

بعد انتظار عدة ساعات دخلنا إلى مكان الفحص والمعاينة الطبية ، ويتم هذا بشكل صورى .. يقيسون النبض ، وتنتهى المعاينة فى ظرف ثانيتين !! وعند انتهاء وقت العصر كان جميع الحجاج قد ركبوا السفينة ، وقد وصل المجموع الكلى للمسافرين على ظهر السفينة إلى حوالى ١٥٠٠ مسافر ، ومنذ ذلك الوقت حتى الساعة الحادية عشرة ليلا وقت إبحار السفينة فرض على هذا الجمع الغفير من البشر ، الذى يضم الشيوخ والأطفال ، والأصحاء والمرضى ، والأقوياء والضعفاء ، فرض عليهم جميعا أن يتوقفوا عن قضاء حاجتهم « الإنسانية » ! مع أن سطح السفينة كان مثل ساحة الجنة لمن لا يحتاج إلى قضاء حاجته طول هذه المدة !

لا شك أن هناك أماكن كثيرة على ظهر السفينة ، لقضاء الحاجة والتبول ، لكنها كانت مغلقة ، ولا يمكن أن تفتح ما لم تتحرك السفينة ، وقد سمعت أن هذه الاحتياطات قد اتخذت لمنع تلوث شاطئ البحر بالقاذورات البشرية! وهكذا استمرت دورات المياه والمراحيض فى السفينة مغلقة ، وإذا عرفنا أن الوقت المحدد لرش البودرة كان الساعة الثالثة ، وأن بعض الحجاج الفقراء خرجوا من أماكن إقامتهم فى الساعة الثانية ، أدركنا أن تسع ساعات مضت على « مثانة » هؤلاء المساكين الضعيفة !! هل القارئ بحاجة إلى تصريح أكثر من هذا ؟!

فى الساعة الحادية عشرة تماما تحركت السفينة ، وبدأت تبتعد ببطء عن الساحل .. رويدا ، رويدا ، وبينما كنا نتطلع ناحية المدينة ، إذا بالمبانى والعمارات تختفى عن أنظارنا ، ولم يبق منها غير أضوائها..

الله ! الله ! يا لها من لحظات ! ويا له من وقت ! ويا له من منظر ! لا أتحدث عن حركة السفينة ، فلتتحرك كما شاءت ، لكن ماذا أقول عن حال حركة القلب؟!

الوطن يبتعد أكثر فأكثر كل لحظة ، تركنا خلفنا كل اهتمامات الوطن ، كانت زوجتى بلا شك معى ، لكن هناك البنات ، وهناك والدتى ، وهناك أخى ، وهناك أختى ، وهناك جميع الأحباب والأصحاب ، هناك زملائى العاملون معى ، وهناك ، وهناك ، لكن بحمد الله ليس فى القلب قلق على أى منهم .!

أيها الأصدقاء ! أيها الأحبة ! فى أمان الله ، يا ذرات تراب الوطن ! فى أمان الله ! الوداع ، أترككم جميعا فى رعاية المولى ، مالك كل شىء ، أستودعكم الله ، أترككم فى حفظ الله ورعايته .. الكريم الرحيم الذى يتجه هذا المسكين - كاتب هذه السطور - إلى بيته الآن ، ليضع جبينه على باب بيته المطهر .. فاغفر له يا إلهى ذنوبه وخطاياه ، واستر عيوبه .. اللهم استر عيوبكم .. اللهم ارفع شأنكم .. اللهم اعف عن ذنوبكم ..

لبيك اللهم لبيك ، اللهم إليك توجهت ، وعليك توكلت ، ووجهك أردت ، فاجعل ذنبى مغفورا وحجى مبرورا وارحمنى ولا تخيبنى ، واقض بعرفات حاجاتى ، إنك على كل شىء قدير.

متاعب حجاج الدرجة الأولى والثانية :

قال الشاعر حافظ الشيرازى :

« الليل مظلم حالك السواد

والخوف شديد من الأمواج والدوامات

ومن مثل هذه العوائق والمخاطر ..

كيف يعرف من هم على الساحل بحالنا ؟ »

لكن الحقيقة هى أن الليل ليس بمظلم ، فالنهار مضىء أيضا ، وليس هذا وقت الخوف ، أو وقت تلاطم الأمواج ، لكنه وقت سكون البحر ، ولا توجد دوامات ، ولا يوجد تلاطم أمواج ، فالماء ساكن والبحر هادئ تماما ، وحال سفينة الحاج يمكن أن يقدرها فقط من هم على ظهرها من حجاج ، وما يمر على الإنسان لا يمكن لغيره أن يعبر عنه .

إن التسهيلات التى تمتعنا بها فى سفرنا بالقطار ، تسهيلات لا يمكن أبدا أن تتحقق على ظهر هذه السفينة ، إلا فى الخيال، وأنا هنا لا أتحدث عن ركاب الدرجة

الثالثة ، ربما خلق هؤلاء الناس لكى يتحملوا المشقات والمتاعب والمصاعب ، بل أذكر ركاب الدرجة الثانية ، بل الأولى ، فقد شعر هؤلاء الناس بأنهم خرجوا من بيوتهم من أجل العبادة ، من أجل المجاهدة ، من أجل إذلال النفس وتعليمها التواضع ، وأنهم ذاهبون الآن ليجعلوا من أنفسهم أناسا آدميين لا آلهة ..

السفينة « أكبر » تعد من السفن الطيبة ، الجزء الأسفل منها مثله مثل عربات قطار البضائع ، وهذا هو « أسفل السافلين » ويقابله « أعلى العليين » أى السطح العلوى من السفينة ، وهو خاص بالموظفين الإفرنج الكبار، والقبطان ، وكبير الموظفين والمهندسين وغيرهم ، ثم هناك كبائن صغيرة جدا ، ليس فيها مراوح ، ولا تهوية ، وليست مزودة بدورة مياه ، ولا حتى بحوض لغسيل الوجه .. سرير فوق ، وسرير تحت، هذا ما يقال عنه « كبائن الدرجة الثانية » التى أُجرتها ضعف أجرة الدرجة الثالثة .

وكبائن الدرجة الأولى أيضا ضيقة وبسيطة ، لكن الإقامة فيها أفضل إلى حد ما ؛ ففيها مروحة ، لكن ليست مزودة أيضا بدورة مياه أو بحوض لغسيل الوجه ، وإذا ما اقتضت الضرورة بالمسافر أن يتبول فعليه فى كل مرة أن يطوى مسافة بعيدة حتى يصل إلى دورة المياه المشتركة ، التى يشترك فيها ركاب الدرجة الأولى والثانية معا ! ثم لا فرق هنا بين الناس والرجال .. مكان واحد يكفى الجميع ! وفى مثل هذه الحالة لو قام كل مستخدم لدورة المياه بوضع يده على الباب حتى لا يفتح لمدة عشر دقائق ، فهذا أمر يثير الحيرة ، بل إن مسألة الطهارة هنا تكون مستحيلة ، أو صفرا! فبدلا من إبعاد الوساخة والقاذورات يظل الإنسان يفكر طول الوقت فى ألا تصاب ملابسه بالنجاسة ، هذا هو مستوى الراحة التى يتمتع بها ركاب الدرجة الأولى!!

متاعب حجاج الدرجة الثالثة :

قال الشاعر :- .

« من كان هذا ربيعه ، فلا تسأل عن خريفه ! »

فإذا كان يمكن أن تقدر الخريف من تقديرك للربيع ، فليس من الصعب أن تقدر حالة ركاب الدرجة الثالثة ، بعد أن وقفت على أحوال الدرجة الأولى !

من « أسفل السافلين » في السفينة ، وحتى الدرجة الثانية والأولى كل هذا من أجل ركاب الدرجة الثالثة ، لكن إعطاءهم درجة فيه تحقير للفظ « درجة » فما هي هذه الدرجة ؟! قطيع من الخراف والماعز ، وبدلا من أن يكون قطيعا بلا لسان فقط ، فهو قطيع من البشر بلا لسان ، وربما بلا روح ، أناس اسودت بشرتهم ، يتجمعون هنا وهناك ، فوق وتحت أكوام القمامة ، ومجمع القانورات والوساخة ، وبين روائح وأبخرة طهي الطعام ، وارتفاع سحب الدخان ، لدرجة أن العين تفقد طبيعتها والأنف يفقد حاسته ، ويجلس أمام الجميع ... ليس الأطفال الصغار بل الآباء والأعمام والشيوخ ، وقد وضعوا جميع أنواع الخجل في طي النسيان! يتبولون .. ويقضون حاجتهم دون خجل أمام بعضهم

يصعب على الضوء أن يصل إلى أي مكان ، ويصعب على الهواء أن يمر من بين هذا الزحام بل الركام ، أما دورة مياه الدرجة الثالثة وأحواض الغسيل ، فلا يمكن لنفس بشر أن تتصور حالتها .

أما « الديك » السفلي للسفينة حيث توجد كبائن الدرجة الأولى ، فهو في الواقع الشرفة الخاصة بالدرجة الأولى والدرجة الثانية ، لكن ركاب الدرجة الثالثة قاموا بإعطاء بعض المال للحمالين أو لموظفي السفينة ، فاستولوا عليها ، وهم يتمتعون بالإقامة فيها ، ويعتبرون من سعداء الحظ بين المسافرين .

كان الحصول على الماء العذب في البداية صعبا وبمقدار محدد ، ثم تم تعيين أوقات للحصول على الماء العذب ، وهذا هو حال الخشب المستخدم في طهو الطعام ، وهو يوزع مجانا على ظهر السفينة ، أما القتال والنزاع الذي ينشب وقت توزيع الماء والخشب فحدث ولا عجب ، الرأس تناطح الرأس ، أما ما يتعرض له العجائز والضعفاء وكبار السن ، وسط هذه القيامة القائمة ، وما يشاهد من مناظر فهو أمر لا يمكن سماعه ... لكن يجب أن نأخذ من خلق الله هؤلاء درس الصبر ، ومن يشاهد هذا المنظر لابد أن يصاب بالخوف والهلع ، ويشعر بالحزن والأسى ، لكن هؤلاء الناس

جبلوا على هذا ، فلا حاجة لهم بمصباح كهربائى ، ولا طمع لديهم فى مروحة ، ولا رغبة لهم فى كوب ماء بارد ، ولا يتمنون كوب عصير حلو .. لكن هناك من بينهم من يتلو القرآن الكريم ، وهناك مجلس وعظ ودين ، وهناك من شغل بغسل ملابسه بيده ، وهناك من يصنع الخبز على الصاج ، والجميع بلا استثناء لا يفكرون فى شيء .. على وجوههم هدوء وسكينة ، ليس عندهم همٌ ، ولا حزن ولا غمٌ ولا قلق ، وما يقومون به من فوضى يثير الكراهية والنفور ، لكن صبرهم هذا يدعو إلى أن نغبطهم على ما هم فيه ، وشكرهم هذا يستحق التعظيم والتقدير ، وهمتهم هذه جديرة بالثناء.

درس الصبر والمجاهدة :

كم نسى المغرور، المتنطع ، المتمرد ، العاصى ، الغافل نفسه هنا! كم نسى قدره! ونسى أن يدرك حق الإدراك حقيقته ، فسفر الحج ، مدرسة للإيثار والفداء ، مدرسة للتواضع والخنوع ، ليس فيه قدر ذرة من غرور أو تكبر .. إن الأنانية تظل باقية فى كل لحظة ، وفى كل مكان ، وحب النفس يملأ القلب فى كل لمحة ، ومعظم مصائب السفر أمور خيالية ، من صنع أدمغتنا ، ومن بنات أفكارنا ، أما القليل من المتاعب التى هى متاعب فعلية ، فهى تتحول على درب من يمضى فى هذا السفر إلى دعة ، ويتحول الألم إلى راحة ، إن أساس كل ضلال هو فى هذه العاطفة بداخل الإنسان ، تلك العاطفة التى تجعله يرغب فى مشاهدة الجميع يأتمرون بحكمه ، والإسلام جاء ليصحح عبادة هذا الباطل ، فمعنى الإسلام هو أن تجعل مرضاتك تابعة لحكم مرضاة خالقك ، وفريضة الحج هى وسيلة أو آلة استكمال هذا الهدف ، فلو ظهرت بعض العثرات والأمور غير المناسبة ، فيا لسوء الحظ !. إذا ما أظهرت عدم الصبر عليها والجلد فى مواجهتها ! ألا ترى إذا تعلق قلبك قليلا بأحد فى هذه الدنيا .. كيف تتحول أشواك زقاقه إلى ورود؟! .. لكن هذا هو محبوب الأحبة ، وهو صاحب تاج كل محبة ، فإذا تعرضت وأنت تمضى على طريقه إلى بعض الأذى ، أو إلى بعض العثرات ، أو إلى ما يخالف مزاجك ، أو إلى ما لم تكن تتوقع ، فماذا يمكن أن يكون سوى ذلك الكلام الذى يشيع على الألسنة ، وينشر على صفحات الجرائد !!

(٤)

السفينة - البحر

سفر فى الدرجة الأولى بتذكرة الدرجة الثالثة

التأم شمل القافلة ، فصرنا ستة عشر مسافرا ، وقد سبق أن أوضحت حال الدرجة الثانية ، وهكذا يتضح أن حجز تذكرة للدرجة الثانية على سفن الحجاز ما هو إلا جهل ، فلا يجب أن نقيسها على الدرجة الثانية فى القطار ، فتلك الراحة والطمأنينة التى تجدها فى القطار، هى هنا مجرد حلم وخيال، والفرق بين مبلغ ٤٥٠ روبية ، ومبلغ ٥٥٠ روبية ، ليس بكبير ، فمن لديه قدرة ، عليه أن يشترى تذكرة درجة أولى وإلا فعليه أن يقنع بالسفر على الدرجة الثالثة .

بالنسبة لنا حجزنا أربع تذاكر للدرجة الأولى ، والتذاكر الباقية، وهى اثنتا عشرة تذكرة كلها فى الدرجة الثالثة ، وكان من بينها تذكرتى وتذكرة زوجتى ، فلم تكن الميزانية تسمح بغير الدرجة الثالثة ، وهكذا كان قرارنا أن نطوى سفرنا على بركة الله كما تيسر لنا ، وعلى كل حال علينا أن نتحمل ونصبر مثلنا مثل الآلاف من خلق الله ! لكن انظروا الآن إلى تقدير العزيز الحكيم ، كان شوكت قد رافقنى إلى مكتب ترنرماريسن ، فقدمنى لهم بأسلوبه المعروف ولغته الرائعة ولهجته المشهورة ... آه ! من يستطيع أن يجاريه فى القدرة على الكلام !! إن ما فى قلبه يجرى فورا على لسانه ، فكانت النتيجة أنه بعد مدة قصيرة دفعت أنا وزوجتى أجرة الدرجة الثالثة ، ومع هذا نسافر على الدرجة الأولى !! وفى مكتب الشركة فرشوا أمامنا خريطة السفينة « أكبر » وتم تخصيص كبينتين لرفاقنا من ركاب الدرجة الأولى ، وقام مسئولو الشركة

بتخصيص كبينة لى ولزوجتى فى أعلى منطقة فى السفينة ، وهى كابينة يتمناها جميع ركاب الدرجة الأولى ، ففى هذه المنطقة العلوية لا يوجد سوى كبار الموظفين الإنجليز ، وقد كانت هذه الكابينة فقط هى الوحيدة الخالية ، وهى ملاصقة لكابينة القبطان ، فكانت من نصيبنا نحن أصحاب الحظ السعيد ! وهكذا بأقل تكلفة حصلت على أعلى مكان ، مكان جيد التهوية ، فصار ما حدث مصداقا للقول الشائع « نفقة أقل ومقعد فى العلالى ! »

فضل الله وكرمه :

انظروا إلى عون الله ! وانظروا إلى فرج الله ! كيف تتم مساعدة الضعفاء والمحتاجين ، وكيف يتعثر حظ الجبناء ، ويخيب تدبيرهم ! ففى السفينة كلها كنت أنا أقل الناس همة وأقلهم محاولة ، لكنى فى الوقت نفسه كنت أكثر من نزلت عليه أمطار الرحمة الإلهية والعناية الربانية ، فانظروا كيف كان كرمه ، وانظروا كيف كان عطفه على العبد الفقير ، وانظروا كم أسعدنى وأفرحنى !!

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً .﴾
صدق الله العظيم (الإسراء : ٢٠)

انظروا كيف تحاول الأم تدليل طفلها المريض حتى يتناول الدواء ، وكيف تحاول إغراء طفلها الذى يهرب من المدرسة حتى يعود إليها ، ثم انظروا إلى من فاقت رحمته كل رحمة ، وزادت شفقته على كل شفقة ، فرحمته تفوق كل رحمة كل أمومة ، فهو العليم بأحوال عباده ، يدرك أن الجهال من خلقه قد يكونون مثل الطفل العنيد ، قد ينخدعون ويضلون عن سواء السبيل :

« يا إلهى ! تتيسر الحاجات بفضلك

لا أذكر أحدا غيرك أطلب منه أن تتيسر أمورى

لا توجد مرارة أكثر من ذوق مرارة فراقك

لا أجد الحماية إلا فى ظلك

تملك كل ما تفعله أيدينا ،

وتملك كل مكان تقودنا إليه أرجلنا

وتحمى كل روح تشعر بعدم الطمأنينة »

أهمية اختيار رفقاء السفر :

إن المتعة فى السفر أو التعاسة فيه، أمر يتوقف على رفقاء السفر بشكل خاص ، فلو كان هناك تجانس بين رفقاء السفر ، صار السفر سفرا سعيدا ممتعا ، وإذا لم يكن هناك تجانس بين رفقاء السفر ، فإن تعاسة السفر ستكون مطابقة لمدى عدم التوافق ، فالسفر بالسفينة فى البحر ، حيث الانقطاع الكامل عن العالم الخارجى بأكمله ، وهو انقطاع قد يستمر مدة أسبوعين أو أكثر ، عندها تصبح مسألة التدقيق فى اختيار الصحبة والرفيق ، من أهم الأمور ، وقد سبق أن ذكرت من تضمهم قافلتنا ، فهى تضم الحكيم عبد الخالق والد مولوى عبد البارى الندوى ، وصحبته مفيدة جدا ، فهو لم يكن مجرد شيخ عابد زاهد ، لكنه أيضا كان طبيبا حاذقا ، ذا خبرة ومهارة ، حمل معه فى هذا السفر صندوقا مملوءا بالأدوية المجربة[١] ، وكان تعرض الإنسان للمرض فى أثناء السفر أمرا متوقعا فى أية لحظة ، وقد احتاجت القافلة كلها إلى الحكيم عبد الخالق وإلى أدويته المجربة ، وقد دعا الجميع له بالخير والبركة .

أما الشيخ العلامة أحسن فقد كان نموذجا للتعاطف والتآخى ، ومثالا للعلم والفضل ، والذوق والحماس فى كل مناسبة ، وعلى كل شاكلة ، ويعلم الله كيف كان لوعظه الطيب، وخطبه البليغة ، وشعره المؤثر من أثر على قلوب الناس ، وأثر بليغ فى تجديد إيمان الناس ، وترقيق قلوبهم ، وكان قد رافقه حبيبه مولوى لطف الله مونكيرى (بكاف فارسية) (خلف مولانا شاه محمد على مونكيرى يرحمه الله) مع جماعته من بومباى .

التقيت على السفينة أيضا فى هذا السفر بنصير الدين أحد قضاة مقاطعة « بيهار » برفقة نجله ضمير الدين ، وهو عضو نشط من أعضاء جمعية الخلافة فى مقاطعته ، وقد تبادلنا الأحاديث فترة ، كما كان من بين المسافرين على السفينة أيضا مولوى عين الحق ، وهو قاض متقاعد ، عمل قاضيا فى المحكمة الابتدائية أو محكمة القضايا البسيطة [٢] . وكان فى وقت من الأوقات « بيهاريا » أى ينتمى إلى مقاطعة بيهار لكنه صار الآن « لكهنويا » أى ينتمى إلى لكهنو ، وكان الرجل من بين أولئك الناس الذين التقوا بوالدى رحمة الله عليه ، وقد حج مرتين من قبل ، وهذه هى الحجة الثالثة له.. حين رأيته ، تراءت لى قدرة الخالق : بساطة فى اللباس ! قناعة نفس ما بعدها قناعة ! لم أصدق أن مثل هذا الرجل حاصل على أعلى الدرجات العلمية : ليسانس فى الآداب ، وليسانس فى الحقوق ، وأنه تقلد أعلى المناصب الحكومية !

ومثله أيضا كان معنا المحامى مولوى رفيع الدين الذى ينتمى إلى غازى بور ، كنت أغبطه كثيرا على قيامه الليل ، وعلى بساطته ، وتواضعه الجم ، وعاطفته الدينية القوية ، وميله إلى أداء العبادات .

وهناك شخصية أخرى من أكثر الشخصيات جاذبية ، وأقصد تشودهرى محمد على (تشمرو) وهو « بلدياتى » أى من بلدتى ، ومن يعرف من الناس شخصية هذا « الباشا » الذى يضحك ويُضحك الناس من حوله ، قد يتعجبون ويتساءلون فى الوقت نفسه : لماذا يهتم هذا الرجل - والله وحده أعلم - بالسفر للحج ؟! لكن من ذا الذى يعترض على كرم أكرم الأكرمين ؟! إنه قادر على كل شىء ، يوجه عباده إلى حيث يشاء ، وينعم عليهم بما يشاء !

وآخر من أذكرهم هنا ربما يكون الممثل الوحيد لجماعة الشيعة فى الهند ، وكان مسافرا على هذه السفينة لأداء مناسك الحج مع زوجته السنية المتدينة ، وهكذا أزالت صحبة هؤلاء الرفقاء والجلساء ، وحشة السفر وغربته ، وأظهرت لى شأن الوطن وعظمته .

دوار البحر :

سمعت أن الشكوى من دوار البحر والغثيان والقيء شكوى عامة على ظهر السفينة ، وأن معظم المسافرين يعانون من الدوار والدوخة ، لدرجة أن حالة البعض منهم قد ساءت كثيرا ، وكنا قد حملنا معنا كثيرا من الليمون (المجفف) حتى نتجنب التعرض لدوار البحر ، كما كان البعض قد حمل معه أيضا « التمر هندى » ومن المعروف أن معظم الفواكه الحمضية ، مفيدة فى حالات القيء ودوار البحر ، وقد حمل بعض الناس أقراصا تعرف باسم mother seigatsantisea sickness وهى غالية الثمن بشكل خاص ، وقد اشتراها البعض من بومباى ، وحملوها معهم هنا ، لكن الحمد لله ، فمعظم الناس لم يضطروا إلى استخدام هذه الأشياء على الإطلاق ، ويرجع سبب ذلك – كما قال الخبراء فى السفر البحرى – أن الجو جاف ولطيف ، وأمواج البحر هادئة تماما ، إذ يعد شهر مارس وأبريل من الشهور المناسبة السفر البحرى ، فالبحر فى هذه الفترة يكون هادئا وساكنا ، ولا شك أنه فى موسم الأمطار، وبالتحديد فى بدايته وفى نهايته ، يشتد تلاطم الأمواج فى البحر ، فترتفع الأمواج القوية عالية وتضرب السفينة ، فتتأرجح السفينة كأنها أرجوحة تميل على جانبها الأيمن تارة ، وعلى جانبها الأيسر تارة ، وترتفع إلى أعلى ثم تهبط ، مما يثير الجهاز الهضمى للإنسان ، فيصاب الإنسان بالدوار والغثيان إلى حد القيء .

الحمد لله ! ظلت سفينتنا فى أمان من كل هذا ، ولم يصب فيها إلا عدد قليل من الناس ، ولم يظهر على أحد ما يستحق الشكوى ، وهناك أمر عرفته بالتجربة ، وهو أن امتلاء المعدة ، وخلو المعدة ، كلاهما مضر فى هذه الحالة ، فمن ناحية هناك ضرورة تقتضى الحرص على الابتعاد عن الطعام الثقيل ، عسير الهضم ، ومن ناحية أخرى لا يجب أن يظل المرء جائعا تماما ، وبدلا من هذا على المرء أن يتناول الطعام مرة واحدة أو مرتين ، بدلا من أن يملأ معدته تماما أو يتركها فارغة تماما ، ولو استخدم طعام الإفطار نفسه مع الشاى عدة مرات فى اليوم فإنه ينجو بإذن الله من دوار البحر وما يسببه من أعراض مرضية ، وأجدد التأكيد على أمر آخر وهو أن ركاب الدرجة الثالثة المساكين محرومون من هذه النعمة ، وأقصد هنا أنه يجب على المرء بقدر

الإمكان – وهذه تجربة ذاتية – ألا يركز نظره كلما أمكنه ذلك على جوانب السفينة ، بل عليه أن يركز على أبعد نقطة فى البحر، إلى حيث الشواطئ البعيدة .. عندئذ لن يصاب بالدوار ، ولن يشعر بالدوخة التى يعانى منها عادة من يركز نظره على حافة السفينة .

طاقم السفينة الإفرنجى :

إن كل فرد من أفراد حكومة الإفرنج ، يعتبر نفسه حاكما بأمره ، وأى إفرنجى مهما كان ، ومهما كانت مرتبته ، لا يمكن أن يكون خاضعا لأحد أو محكوما لأحد ، أو خادما لأحد ، بل هو سيد ، ويظل سيدا ، وسفينة الحجاج لا يمكن أن تكون استثناءً من هذه الكلية ، ومن الواضح أن هذه الشركات تعيش على أموال الحجاج ، والهدف من وجودها هو خدمة الحجاج ، ومع هذا فإن جميع من يتولون المناصب العليا فى الشركة هم جميعا من الإفرنج ، فالقبطان إنجليزى ، ورئيس الموظفين إنجليزى ، ونائبه إنجليزى ، والمهندس إنجليزى ، والميكانيكى إنجليزى ، ومسئول الاتصالات اللاسلكية إنجليزى ، ونائبه إنجليزى وهلم جرا ! وهناك من غير المسلمين من يتولون جميع المسئوليات الأخرى الصغيرة والكبيرة ، وسلوكهم مع الحجاج هو سلوك « الإفرنج البيض » نفسه مع غيرهم من « المحكومين السود » ، والعلاقة فى كل مكان هى العلاقة القائمة بين « السيد » و« المسود » وربما كان من بركات صحبة الحجاج الطويلة أن صار السلوك فى جملته مهذبا ولطيفا ، كما كانت الشدة أقل نسبيا .

إن أكبر مسئول على ظهر السفينة ويطلق عليه « القبطان » أو « الكابتن » رجل إنجليزى مثقف ، وهو مهذب وبسيط جدا ، يتعاطف مع الحجاج بشكل خاص ، وبالرغم من أننى لا أرغب منذ مدة فى التحدث مع الإفرنج إلا أننى تحدثت مع الكابتن « ب هـ وارد » كثيرا ، كما أن « كبين » رئيس طاقم السفينة شاب مهذب أيضا وقد دارت بيننا أيضا أحاديث متنوعة ، ولما كان باب كابينة القبطان ملاصقا لباب كبينتى ، فكثيرا ما كنت مضطر إلى أن ألجأ إليه فى كثير من الأمور .

مطعم إسلامى على السفينة « أكبر » :

ظلت مسألة طعام الحجاج منذ البداية هى أهم المسائل على سفينة الحجاج ، إن موظفى السفينة المنوط بهم العمل على ظهر السفينة ، ليسوا من أجل خدمة عامة المسافرين ، بل هم من أجل خدمة ركاب الدرجة الأولى فقط ، ثم إن الأسعار المقررة للطعام غالية ، وطريقة طهو الطعام تكون طبقا للمذاق الإنجليزى ، ولهذا ثبت أن هذا الطعام مثله مثل عدمه بالنسبة للحجاج ، ومن هنا اضطر كل حاج إلى أن يحمل معه الطعام ، وجميع لوازم الطبخ : الدقيق ، والعدس، والأرز ، والسمن ، والبهارات ، بالإضافة إلى المواقد والأوانى والفحم أو الخشب المستخدم لطهو الطعام ، ويعلم الله أى أشياء أخرى فى قلب الزكائب والأجولة والخرائط التى يحملونها معهم على ظهر السفينة ، مما يسبب لهم متاعب ومشقات لا تحتاج إلى وصف أو بيان .

أما هذه السنة فقد تقرر - بفضل من الله - القضاء على هذه المشكلة برمتها ، فقد قام الحاج شهبندر التجار عمر بهائى تشاند بهائى بالإشراف على شركة تسمى « شركة إمداد الحجاج بالطعام الإسلامى Muslim Pilgrims Food Supply Company»

قد قامت هذه الشركة منذ العام الحالى بافتتاح مطاعم لها على ظهر سفن شركة ترنر ماريسن ، وهكذا كان على السفينة « أكبر» ، « مطعم إسلامى » ، أسعاره معتدلة بل رخيصة ، وفى متناول يد الجميع ، كما أن الطباخين العاملين فى المطعم ، وكذلك من يقدمون الطعام هم من المسلمين ، ومن الصعب على أى مطعم أن يرضى مذاق جميع الزبائن ، كما أن هذا المطعم افتتح حديثا جدا ، ولا بد أن يكون لقلة التجربة أو نقص الخبرة ، دور لا يمكن تجاهله ، ومع هذا فالمطعم المتطور كان مرضيا جدا ، على قدر ما يتوفر له من إمكانات ، كما أن مديره ومساعد المدير كانا يعملان جاهدين على طمأنة الحجاج ، وإدخال السرور على قلوبهم ، بكل ما يملكان من طاقة ، ومن المؤسف أن المسئولين فى الشركة لم يقوموا بعمل الدعاية اللازمة للمطعم ، واقتصر نشر خبر افتتاح المطعم على عدد قليل من الصحف ، ولم يصل هذا الخبر إلى عامة الحجاج ، وإلى حجاج القرى ، ولهذا حمل الناس - حسب العادة - جميع الأدوات الخاصة بالطهو من بيوتهم ، بالإضافة إلى الطعام نفسه ، وظلوا يطهون الطعام بأنفسهم ،

وإننى أقترح أن يقوم الحجاج الكرام مستقبلا بالإشراف بأعداد كبيرة على هذا المطعم الإسلامى (شريطة ألا تنفض هذه الشركة بعد أن تصير فريسة لغفلة المسلمين العامة وبلادة الإحساس) وسوف يكون فى هذا سهولة لهم أيضا ، وتوفيرا لأموالهم ، إلا أنه من الضرورى أيضا أن يحمل كل حاج معه مئونة معقولة من الطعام ، ومعدات بسيطة للطهو ، لاستخدامها عند الضرورة ، فالاعتماد الكامل على المطعم يظل أمرا خاطئا ، كما أن أصحاب المعدة الضعيفة لا يجب عليهم الاعتماد أبدا على أى مطعم ، أما أولئك الميسورون ، ومن اعتادت معدتهم ، وذوقهم على الطعام الغربى ، فيمكنهم تدبير أمر طعامهم من المطعم الإنجليزى الموجود فى السفينة ، وتكلفة الطعام فيه هى فى الغالب ثلاث روبيات يوميا .

وصف المسافرين للحج وانتماءاتهم العرقية :

كان عدد المسافرين على ظهر السفينة نحو ألف وخمسمائة مسافر بالإضافة إلى طاقمها وموظفيها الذين يتراوح عددهم ما بين مائة ، ومائة وخمسين موظفا ، وهكذا كنا قرية صغيرة على ظهر هذه السفينة ، كان أكثر المسافرين على السفينة من القرويين البنغاليين الذين ينتمون بشكل خاص إلى البنغال الشرقى ، وهؤلاء المساكين ونظرا لضعف أجسامهم وعقولهم معا صاروا – عن غير قصد – مبعث إزعاج للآخرين ، وهناك عدد قليل من المسافرين من منطقة بيهار ، وعدد قليل من مقاطعة « يو بى » ومثلهم من مالابار ، وهناك مسافرون آخرون من الكجرات وبمباى ، ويوجد من بين المسافرين نحو مائة أو مائتى مسافر من الشباب أو الأقوياء الأصحاء المتعلمين ، ومن بينهم ميسورو الحال ، ومنهم أصحاب المراكز المرموقة ، وأصحاب الجاه والعز ، لكن معظم المسافرين ، هم بصفة عامة من المساكين، ومن كبار السن ، ومن العجائز، والضعاف والمرضى والفقراء ، وهم يجهلون القراءة والكتابة ، ولا منصب لهم ولا مكانة ، نكرات داخل مجتمعاتهم ، لم يتركوا بأنفسهم الدنيا ، لكن الدنيا هى التى تركتهم .. هل حج بيت الله هو الفرض الذى تبقّى على هؤلاء المساكين ؟!

أما أولئك الناس الذين يقطنون فى القصور العالية ، والذين يسكنون فى « القِلل » المزينة المحاطة بالحدائق والبساتين ، والذين يركبون السيارات الفاخرة ، ويمتلكون حسابات فى البنوك العامرة ، ويتقاضون مرتبات شهرية تصل إلى ما بين ألفين وأربعة آلاف روبية ، والذين يمتلكون المزارع والإقطاعيات ، ولديهم شهادات عالية من جامعات أوربا والهند ، والذين هم محامون مشهورون ، وأطباء معروفون ، ومهندسون ذائعو السمعة ، ومحررو صحف ناجحون ، ومن نالوا الألقاب العالية ، ومن ينتمون إلى عائلات الحسب والنسب وعائلات النواب الحاكمة ، وأعضاء المجالس النيابية، ومن ذاعت شهرتهم على خشبات المسرح ، وشاشات السينما ، ومن برعوا فى كل فن من فنون الإفرنج ، ومن يرسلون أبناءهم إلى لندن وباريس وبرلين وڤيينا وأكسفورد وكيمبردج .. فلعل فريضة الحج قد سقطت عنهم جميعا!!

الهوامش

(١) انتقل إلى رحمة الله في أثناء تدوين الرحلة (حاشية المؤلف) .

(٢) التي تنظر في قضايا الديون وما شابه ذلك .

(٥)

البحر - كامران

لطف الله وكرمه بين السماء والماء :

كانت السفينة قد أبحرت من بومباى فى تمام الساعة الحادية عشرة ليلا ، فى يوم التاسع والعشرين من مارس ، وهكذا مضى علينا الليل بشكل أو بآخر ، وحين استيقظت في الصباح ، نظرت من حولى ، فإذا بى أرى عالما من الماء يحيط بى من كل جانب ، وحيثما وليت وجهى لم أكن أرى سوى الماء ، ولا شيء غير الماء ، كيف كان يتيسر لى أن أرى مثل هذا المشهد فى حياتى ، فالأنهار الكبيرة التى شاهدتها حتى الآن لا يمكن مقارنتها بالبحر المحيط! فمن الصباح حتى الظهر ، ومن الظهر حتى المساء ، ومن المساء حتى الليل ، ثم الصبح ، لا تتوقف السفينة فى مكان ، ولا تأتى فى طريقها محطة ، الفضاء يحيط بها فى كل وقت ، وفى كل اتجاه ، منظر واحد ، ومشهد واحد ، قائم على حاله، يطلع النهار ، ويغيب ، يأتى الليل ويمضى ، دون أن تأتينى رسالة ، أو تصلنى صحيفة ، دون أن يأتى « كيس » البريد المملوء بالخطابات ، فلا خبر عن صديق ، ولا عن حبيب ، لا نعرف شيئا عن حال أهلنا ، ولا عن حال غيرهم ، بيتنا الطينى ، تركناه من خلفنا ، نبتعد عنه فى كل لحظة ، نتركه وراءنا .

لكن ذلك البيت الذى سماه « صاحب اللامكان » (أى من لا يحده مكان) بيته المُطهّر ، يقترب منا لحظة بعد لحظة ! يمكن أن ننفصل أو نتحرر من الأرض ، لكن لا يمكن أن ننفصل أو نتحرر من السماء ، فالسفينة هناك تصارع الهواء والماء ، بينما سفينة القلب فى صراع بين اليأس والأمل، تغرق أحيانا ، وتطفو أحيانا (لا قدر الله

لها أن تغرق) والقلب الآن فرح مسرور بحظه السعيد ، فهو منجذب من مكان إلى مكان ، بجاذبية من لدن الفرد الصمد ، وهو أيضا يرتعد فى خوف من أن يشاهد الحرمان ، ويواجه سوء الحظ ، هل يمكن أن ينال النجاة الآن أيضا ؟ أم لا يمكن ! فأبو جهل وأبو لهب ظلا إلى آخر العمر بجوار هذا البيت المطهر ، ثم لم ينالا شيئا ! ومنافقو المدينة ، شرفوا يوميا برؤية رسول الله وحبيبه (صلى الله عليه وسلم) ، لكن قلوبهم المتحجرة لم تتأثر بحرارة الإيمان ! وظلت قاسية لا تلين!

لكن لماذا هذا التوهم ؟ ولماذا هذا الفكر المضطرب ؟ إنه كريم ، فهل يمكن أن يرد أحدا عن عتباته ؟ ضيفا دعاه إلى داره؟! جاءه خافض الرأس معلنا الطاعة ؟! إن سعة رحمته ورحابة كرمه لا تفرق بين من يستحق أو من لا يستحق الرحمة ، فهو كريم يهب ويعطى ويُنعم ويعطف ، فهو المعطى المنعم الرحيم ..

هول المحيط :

لم تمض ساعة أو ساعتان ، لا بل لم يمض يوم أو يومان .. لكن مضى أسبوع كامل ! لم نر فيه أثرا ليابسة ، لا أقول لوحوش الغابة ، ولا أقول لحيوانات الصحراء ، لكن حتى الطيور فى السماء ، لم نر لها أثرا .. بل كل ما هناك ماء هنا ، وماء هناك ، من خلفنا ماء ، ومن أمامنا ماء ، على يميننا ماء ، وعلى شمالنا ماء ، على مرمى الأفق ماء ، وفوقنا السماء الزرقاء ، ومن تحتنا البحر بلونه الأزرق .!

شعرت الآن بأن الأرض سحبت بساطها من تحتنا ، وانتهى من ذهنى تماما الإحساس بالمدن الكبرى ، المقامة على سطح الأرض ، وبولايات البلاد ، وبالقرى وبالغابات وبالجبال وبالشوارع ، وبعربات القطارات ، وقمم الجبال ، تلك التى كانت سعتها ، وكثرتها ، وعظمتها ، وهيمنتها متمثلة داخل العقول والأذهان حتى الآن ، وماثلة أمام العيون ، وفى مخيلتنا .. الآن عرفت أننى لست أمام بحر قدرة الخالق بل شعرت بأننى أتطلع إلى نفسى ، أننى أمام مخلوق آخر ، مخلوق حقير ، لا يساوى شيئا ، فسبحان الله ! الله جل جلاله!

تصاب العيون بالتعب، وهى تنظر وتنظر إلى المحيط الذى يبدو كأنه لن ينتهى أبدا ! وهو محيط واحد من بين خمسة محيطات فى هذه الدنيا ، وهو ليس بأكبر المحيطات ، بل هو من أصغر اثنين من بينها ، ثم من الواضح أنه لا يبدو للنظر بأكمله فى وقت واحد ، بل يتراءى منه للعيون جزء صغير ! الله أكبر إذا كان لهذا الجزء وهو أصغر جزء ، هذه الهيبة ، وهذه الرهبة ، فماذا يحدث من مشاهدة « الكل » ..

سبحان الله ، اليوم هذا المحيط المهيب المرعب الموحش وجميع محيطات الأرض فى قبضة « يأجوج » ، يسمح لمن يريد بأن يسير فيها سفنه ومراكبه ، ويمنع من يريد من أن يستفيد من هذا النموذج الفريد للإبداع الإلهى !

إذا كان الأمر متوقفا على السيطرة على خلق الله ، فهذا أمر معروف ، لكن الأمر تطاول إلى أن وصل إلى المحيطات والبحار ، والى الموانئ ، وإلى السفن وكل ما عليها من بضائع وأمتعة ، وإلى الإدارة البحرية ، وإلى ربابنة البحر، وإلى الطوربيدات ، والصواريخ والمتفجرات ، فكل هذه تصيح قائلة : إن « الأمر » و« الحكم » (نعوذ بالله) ليأجوج ، فإذا كنت - والحال على ما هى عليه - تسمع قول أحد الصادقين بأن « يأجوج ومأجوج سوف يشربان من ماء المحيط » فلماذا الانتظار إلى وقت آخر فى المستقبل من أجل تحقيق هذه النبوءة ؟!

موعظة لكل جبار وطاغية :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (الكهف ١٠٩)

قال الفؤاد : هذا هو البحر الذى وردت الإشارة إليه فى كلام رب العزة ، فلو كان هذا البحر مدادا ، وكان هناك بحر مثله أيضا ، وصار مدادا ، فإن هذا المداد سيظل قاصرا عن كتابة كلمات بحر القدرة الإلهية الذى لا تحده حدود !

لكن لماذا لا يكون هذا المداد مستقبلا مدادا جديدا ، فالمداد الآن أيضا مداد جديد ! فهو أزرق مثل الحبر الأزرق ، وبحر قدرته وإبداعه الذى لا تحده حدود نموذج نادر! فبالإضافة إلى أنه بدا للأنظار ذات يوم أن هذا المحيط اللامتناهى بأمواجه الموحشة التى تضرب هنا وهناك ، سيتحول ماؤه إلى شعلات من النار ، وستتحول الأمواج إلى لفائف رهيبة من الدخان ، فى ذلك اليوم الذى يصيب الغرور « يأجوج » ويفخر بما لديه من سفن حربية ، وغواصات بحرية ، فيندفع لهيب النيران من آبار بتروله ، ومن خزانات بتروله ، وتنطلق شمطاء تتبختر وهى تحرق ، وحين تشتعل نيران الطمع والهوس وحب السيطرة على البلاد والعباد ، وحب الاستبداد والاستعمار، سوف ترى بنفسها فى هذه الدنيا المادية نموذجا للجحيم ! فى ذلك اليوم الذى قال عنه رب العباد : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ فهذا هو تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ، ولا يحتاج الأمر إلى تقليب صفحات التفسير أو الرجوع إلى كتب أهل اللغة ، بل سيرى العالم والعامى أيضا بعينيهما الحقيقة ماثلة ، لا المجاز !!

اليوم أمام « يأجوج » مهلة ، فهو اليوم يفعل كل ما يشاء ويرغب ، يُخيف قلوبنا ، ويُرعب عقولنا ، وأذهاننا ، ويُرهب أعيننا ، ويُشل أسماعنا ، بما هو عليه من تطور ، وبما لديه من حضارة وعلم ، وبما لديه من فنون وآداب ، وبما يمتلك من أعداد كبيرة من المهندسين والأطباء ، وبما لديه من مدافع وبنادق ورشاشات ، وبما يمتلك من خزائن امتلأت بالطائرات والدبابات ، لكن هذه المهلة لن تستمر إلى الأبد ، فمن يدرى فلعل وقت رفع الستار يحين قريبا !

عذاب « الاستحمام الرسمى » فى كامران :

الخميس الرابع من أبريل ، تراءى لنا عصر اليوم من بعيد ساحل جبلى ، كانت العيون فى شوق عارم لرؤية العمران ، وهكذا اعتبرنا هذه العلامة الضبابية البعيدة على وجود العمران غنيمة كبرى ، فبدأ الجميع يفركون عيونهم ، ثم يضعون النظارات المعظمة ، ويتطلعون فى محاولة لاكتشاف ما تراءى لهم على البعد ..

وفى الليل مرت السفينة دون توقف بالقرب من عدن ، وفى الخامس من أبريل يوم الجمعة ألقت السفينة بمرساها فى « كامران » عند الساعة الثامنة صباحا .

كامران جزيرة صغيرة ، يبلغ عدد سكانها حوالى أربعة آلاف نسمة ، وكانت قد انتقلت من قبضة تركيا إلى قبضة الإنجليز بعد الحرب العالمية ، يقيم فيها حاكم إنجليزى ، ممثلا للإدارة العسكرية البريطانية British Military Administration والسفن التى لا تتوقف فى عدن ، تكون أول محطة لها فى جزيرة العرب هنا فى كامران ، التى كان اسمها الأصلى « قمران » لكن ربما بمناسبة أن هذه الأرض هى أول علامات التوفيق ، لهذا جرى اسمها على ألسنة عامة الناس « كامران » وهى كلمة تعنى التوفيق .

وفى كامران يتم الفحص الطبى للحجاج أو ما يطلق عليه « قرنطينة » أو كرنتينه، وهذا يعنى أن الحاكم البريطانى مهتم بأرواح وصحة رعاياه المساكين ، فبالرغم من أن كل حاج خرج من بيته حاملا شهادة التطعيم ضد الجدرى ، وحاملا شهادة الفحص الطبى ، وبالرغم من المعاينة الطبية أيضا وقت ركوب السفينة فى بومباى (أو كراتشى) إلا أنه يتم إيقاف السفينة هنا فى كامران ، ويُجبر الحجاج على «الاغتسال» و« الفحص الطبى » .. ويا ليت المسافرين الإنجليز ينالون عشر العشر من هذا التعاطف الشديد والرحمة المجزاة !

ألقت السفينة بمرساها فى مكان يبعد عن الساحل مسافة ميل أو ميل ونصف ، ويتم نقل الحجاج من هذا المكان إلى الساحل بالقوارب ، لهذا كان علينا أن نقطع مسافة فرسخين أو ثلاثة من الساحل حتى مكان « الغسل » ، وهكذا أُنزلنا من السفينة ، وتم إيصالنا إلى ذلك المكان .

ولما كانت « كامران » بمثابة حمام « الحجاج » ولما كان الاغتسال والاستحمام يكون عادة مدعاة للسرور والانبساط ، لكن هذا « الغسل » أو « الاستحمام الرسمى » الذى يتم تحت إشراف كبار الأطباء وعظمائهم تحول إلى آلة للألم والتعب والأسى والغضب ، بدلا من أن يكون وسيلة فرح وسرور ، وراحة

وسعادة .. فالحاج يترك معظم متاعه على ظهر السفينة ، يحمل معه منه القليل فقط ، ويُؤخذ بداية إلى شرفة « المغسل » فيتم إجلاسه هناك ، وحين يأتى دوره يُدخل مع الجميع إلى غرفة واسعة ، وتُنزع عنه جميع ملابسه عدا قطعة صغيرة تصل إلى ما تحت الصرة ، يبقيها عليه وقت الاستحمام ، ويظل هكذا إلى ما بعد الاستحمام ، فيظل مبللا هكذا حتى يجف جسمه .. وجميع هذه المستلزمات هى عند خبراء علم الطب يمكن أن تتم ، والإنسان يستر جسمه فقط بهذه القطعة الصغيرة - قدر الكف - من القماش ، وهم من تجهل عقولهم وأدمغتهم مفهوم « الستر » ، وهم الذين تنتشر بينهم عادة الاستحمام أمام بعضهم عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، فلو كان هؤلاء قد راعوا المشاعر الشرقية والمشاعر الإسلامية إلى هذا الحد ، وسمحوا للحجاج بهذا القدر من الستر ، فهم بهذا فى غاية الكرم ، وإذا لم يراعوا ذلك ، فماذا عساهم يفعلون ؟!

لقد غمرونى برعايتهم الخاصة وعطفهم الكبير ، فسمحوا لأصحاب الحظ الطيب مثلى بأن أستر نفسى بقطعتين من القماش بدلا من قطعة واحدة..

والخلاصة أنه بعد أن يستر الإنسان جسمه بقطعة القماش الصغيرة ، تُفتح صنابير الحمام على رءوس الجميع ، على أن يتم ذلك مرة بعد أخرى ، فى المرة الأولى ماء فيه دواء ، وفى المرة الثانية ماء بارد صاف دون دواء ، وهكذا يتم الاستحمام الرسمى ، وبعد الاستحمام بالماء البارد يتم إدخال الحجاج فورا إلى غرفة ثانية يطلق عليها « غرفة الملابس » حيث توجد مراوح كهربائية توجه ناحية الحجاج الخارجين من الحمام البارد ، بأجسامهم المرتعدة ، وأسنانهم تصطك من البرد ، وذلك لتجفيف أجسامهم ، ومن هنا لا يجب أن يستر الحاج جسمه بشىء ، حتى ولو بقطعة القماش الصغيرة! ويظل هكذا فى مواجهة هواء المروحة الكهربائية حتى يجف جسمه ! ويحاول معظم الحجاج الذين لا يكون لديهم قطعة قماش أخرى جافة ، يحاولون بشكل أو بآخر ستر أجسامهم بقطعة القماش المبتلة !

مسرحية الاغتسال .. كوميديا أم تراجيديا ؟!

هذا ما يسمونه « الرعاية الصحية » !! هذا هو تدبير « الحاكم » من أجل الحفاظ على أرواح الحجاج وحياتهم ! هذه هي طريقة الاستحمام التي تتم تحت إشراف كبار الأطباء من الحاصلين على أعلى الدرجات العلمية من كليات الطب في الهند وأوربا ، وممن يحصلون أيضا على أعلى المرتبات والبدلات !!

لكن صورة « عملية الغسيل » هذه لم تكتمل أمام القراء ، فبعد الوصول إلى الغرفة الثانية الخاصة بالملابس ، تبدأ عملية البحث عن « الملابس » أي تلك الملابس التي نزعها الحجاج من على أجسامهم قبل « الغسل » ، وتلك « الفوط » التي وضعها عشرات الحجاج مع ملابسهم حتى يتم رشها بالبودرة ، فهي كلها توضع في مكان واحد ، مكونة كومة ضخمة ، وعلى كل حاج أن يبدأ البحث عن ملابسه وسط هذه الكومة الضخمة !

وقد تحولت هذه الغرفة إلى « غرفة غسيل » وتخيل أنك أمام كومة ضخمة من الملابس المبتلة ، بينما كل حاج منشغل بالبحث عن ملابسه ، وهو يحاول ستر جسمه بقطعة القماش المبتلة ، وهو يعاني من برد الهواء الذي توجهه إليه المراوح الكهربائية !! وهكذا تتحول الملابس بقدرة قادر إلى كومة من الفضلات !! وهذا لا يهم ، لكن الأمر الخطير هو أن الإنسان نفسه تحول في ذلك الوقت إلى كومة من الفضلات !! تصوروا هذا المنظر !! وارفعوا أيديكم بالدعاء للحاكم «الإفرنجي » العطوف الشفيق ! ويظل كل حاج يبحث عن ملابسه مدة خمس أو عشر دقائق ، وبعدها لو وجد جميع ملابسه دون أن يضيع منها شيئا ، فإنه يرتدي الملابس المبتلة على جسمه المبتل ، من ثم يجب أن ينقل الحجاج إلى « مواقف مغطاة بالخشب والقش » وهي تبعد على أقرب تقدير مسافة نصف فرسخ، وإلا فهي في العادة تبعد مسافة فرسخ !

وهكذا فالحجر الصحي أو « القرنطينة » ، الذي يكون عادة من أجل دفع المرض هو في كامران محاولة لجلب المرض ، ولعل القارئ يصاب بالحيرة إذا سمع بأن هذه المحاولة تنجح في عمومها ، فمن بين حجاج سفينتنا ، لا أقول ثلاثة أو أربعة ، فالله

وحده يعلم بعدد من رجع من كامران مصابا بالمرض ، فقد أصيب أحد الحجاج بضيق التنفس ، كما أصيبت حاجة من بين حجاج لكهنو بالحمى الشديدة ، وانتهت الإصابة بالوفاة ، كما لم ينج أحد من الإصابة بنزلة البرد والزكام وارتفاع درجة الحرارة .

مصائب النساء فى الاغتسال الرسمى :

إن ما سبق وصفه من قبل ، كان يتعلق بمكان غسل الرجال ، وهو فى حد ذاته غنيمة ، أما المصيبة الأصلية فهى فى مكان غسل النساء ، فالمسئولات عن إدخال النساء إلى الحمام ، وتحميمهن قد تم اختيارهن من بين اللواتى يمتلكن شكلا مخيفا ، وطبقا لما يتميزن به من خشونة ، وسلوك شرس ، وليس من السهل أن ينشر على صفحات الجرائد ما صدر عنهن ، وما طالته أيديهن من أجساد السيدات الشريفات اللواتى يتصفن بالحياء والخجل !

لم يقتصر الأمر وقت الاستحمام على ارتكاب جميع أنواع الشدة والقسوة والسلوك السيئ المنافى للآداب ، لدرجة أن جميع نساء قافلتنا اللواتى خرجن من الحمام ، خرجن مضطربات باكيات نائحات !!

وكأن المسئولين أرادوا أن يذيقوا العذاب ، لكل مؤمن ومؤمنة ، حمله الشوق للذهاب إلى بيت الله ، حتى لا يهتم هؤلاء فيما بعد ، بأى متاعب أو مصاعب قد تواجههم مستقبلا ! وإلا فلو حدث هذا فى مناسبة غير هذه ، لأى امرأة من نسائنا ممن لا ينطق لسانها بالكلام ، فلن تقف صامتة ساكتة تجاه هذا السلوك ، كما لن تقف مكتوفة الأيدى ، فسوف تستخدم يديها وربما رجليها أيضا ! وقد سمعت أنه تم تشكيل لجنة للحج من أجل حل مشكلات الحجاج والقضاء عليها ، وكان ذلك بناء على طلب من بعض أعضاء البرلمان المسلمين ، ونأمل أن يقوم الحجاج الكرام بذكر تجربتهم الذاتية فى « كامران » بالتفصيل ، وألا يتقاعس المسئولون أبدا ولو للحظة واحدة عن محاولة القضاء على مثل هذه المهازل التى تحدث فى « كامران » .[1]

القرنطينة العجيبة.. استعداد لوقوع البلاء :

لكن مثل هذا التعب ، ومثل هذه المصيبة استمرت تحط على أصحاب القلوب ، المسافرين للحج من الهند مدة طويلة، فظلوا يتعرضون لبلاء القرنطينة فى كل من بومباى وكامران، وإذا قلنا بأن هذه القرنطينة هى بالنسبة للحجاج مثل « السجن مع الأشغال » كما أنه حين يبدأ الناس هنا ذكر ما يتعرضون له من متاعب ومشاكل ، يقولون لهم : يا سيد ! إن سفر الحج لا يعنى النزهة أو السياحة ، إنه من أجل تزكية النفوس وتجليتها ، إنه مجاهدة كبرى ، ولهذا وبقدرة قادر أقاموا القرنطينة ، حتى تتم تصفية القلوب مما يعتورها من الظلمة والتلوث ، عن طريق الآلام الجسدية والمتاعب الروحانية !

والهدف من إقامة القرنطينة فى كامران هو أن يكون الحجاج مستعدين للحياة فى أرض الجزيرة العربية ، وأن تنشأ بداخلهم صلاحية نيل البركات ، وهذا هو ما يطلق عليه « التجلية » فأى عمل من أعمال « الحكيم المطلق » لا تخلو من الحكمة، وما قاله هذا العظيم صحيح تماما ، فسواء ابتعدت الأمراض عن الجسم أو ظلت متلبسة به ، وسواء خفت كثافة البدن أو ظلت عالقة عليه ، فإن كل حاج عليه أن يمر – رغما عنه – بهذه المجاهدة العظيمة من خلال هذه القرنطينة العجيبة ، والأعجب منها « الغسل » والاستحمام الرسمى ، فسوف يكفِّر هذا الأمر الكثير من الذنوب ، وسوف تتطهر الروح من الكثير من الشوائب والأوساخ!!

الهوامش

(١) فى أواخر سنة ١٩٢٩ م قام بعض الحجاج الكرام بحكاية ما جرى لهم أمام لجنة تحقيقات الحج وعارضوا معارضة شديدة وجود الحجر الصحى فى كامران وكان من نتيجة هذا الاحتجاج القوى أن تقرر أنه ليس من الضرورى لكل سفينة من سفن الحجاج المرور بالحجر الصحى فى كامران ابتداء من سنة ١٩٣١ م ولكن يترك هذا حسب الظروف ، وجهود السيد مير نيرنك (أنباله) فى هذا المجال تستحق الشكر والاعتراف بالجميل .

(٦)

كامران - الإحرام

وساطة الدكتور قاسم تشوهان أنقذتني :

إلى أين أخذنا الحديث عن كامران.. ما يحدث فيها على كل حال يحدث بناء على حكم الإرادة الإلهية، وليس هناك من مفر سوى الصبر ، وليس هناك من وسيلة أفضل من الشكر ، لكن ما ورد هنا كان نوعا من « ذكر أحوال الدنيا » أما « ذكر أحوال العبد لله » ، فقد كان أمرٌ ما حدث في كامران ، مثله مثل بقية منازل السفر الأخرى ، لا يخلو من المتعة نسبيا .

فبينما كان قاربنا يقف على الساحل ، وصل أيضا في اللحظة نفسها القارب البخاري (اللنش) الرسمي الخاص بالطبيب ، وعند الساحل تم التعارف بالدكتور « قاسم تشوهان » وهم يقولون إنه المدير الطبي المسئول أو كبير الأطباء ، وهو هنا «الكل في الكل» ، وقد سبق وسمعت عن أوصافه الحميدة ، وخصاله الطيبة من بعض أصدقاء حيدر آباد ، وهكذا كان لطيفا معنا بشكل عام ، فبينما يُسمح للآخرين بقطعة قماش واحدة ، لتغطية الجسم سُمح لي بقطعتين ، وبينما يضطر الآخرون لانتظار الغسل أكثر من ساعة ، ساعدني في الدخول إلى الاغتسال بسرعة دون انتظار ، وبينما يُؤخذ الآخرون للانتظار تحت مظلات من البوص والخشب ، سمح لي بالذهاب ، والانتظار في مبنى مشيد بالإسمنت ، يدفع للانتظار بداخله رسم معين ، لكني أعفيت أيضا من دفع هذا الرسم ، وإنني أقترح ، اقتراح صديق لصديق ، بأنه إذا سمح لهذا

الطبيب بسلطات أوسع ، فسيكون مفيدا جدا له وللجميع ، فجميع الأطباء الذين يعملون تحت إمرته ، مثل الدكتور حاجى جان وغيره كانوا يعاملون الحجاج معاملة طيبة ، والدكتور فقير الله رجل خيّر جدا .

يطلق على الحاكم السامى للجزيرة لقب « الحاكم العسكرى البريطانى » ، والحاكم الحالى يدعى « ويكم» وهو برتبة « كابتن » وهو رجل على خلق ، وودود .

بعد أن اغتسلت الغسل الرسمى ، خرجت وأنا أضع قطعة القماش المبتلة على جسمى أستره بها ، واتجهت إلى « غرفة الملابس » ، وبينما كنت أبحث عن ملابسى وجدت أحد الإنجليز يقف بجوارى ، فسألنى بالأردية : هل كل شىء على ما يرام؟! وكان بجوارى أيضا الدكتور « تشوهان » فقال له : هذا يعرف الإنجليزية ! بعدها تبادلنا الحديث بالإنجليزية ، وكنا نتابع الحديث بين الحين والآخر ، وقد تحدثنا معا دون تكلف فى كل شىء ، ابتداء من السياسة المعاصرة ، وانتهاء بالحديث عن زوجته وأولاده ، لقد تحدث الرجل فى كل الأمور التى خطرت على باله ، وتطرق أيضا إلى الحديث عن الأخوين شوكت على ومحمد على ، ويعلم الله بأى قلب سيسمع « الأخ الأكبر » هذا الخبر ، فقد تحدثنا عنه كثيرا بالخير ! كما تحدثنا عن « الأخ الأصغر » وصحيفة « همدرد » .

وصف معسكر كامران :

أقيم فى المعسكر مسجد صغير صلينا فيه الجمعة ، كانت هذه أول صلاة فى أرض الجزيرة العربية ، وأول جمعة أحظى بها هنا ..

ظل « سوق » المعسكر منصوبا حتى العصر ، ولا يوجد فيه غير الخبز الجاف والشاى ، وقبيل المساء بيع اللحم ، وكان ثمنه غاليا جدا ، ومن أنزلوا معهم معدات الطهو من السفينة ، هم فقط الذين تمكنوا من طهو اللحم .

فى جانب من جوانب المعسكر يوجد خمسة أو ستة مراحيض ، وفى الصباح حين يجتمع الجمع الغفير الذى يصل عدده ما بين ١٥٠٠ إلى ألفى إنسان ، فى الهجوم على هذه المراحيض ، عندئذ يستحق منظر الصراع عليها ، ومنظر النط والخبط و « الشقلبة » أن يُشاهد ! وبخاصة أن من بين هؤلاء رجالا ، لا علاقة لهم بالمدنية ، أو التحضر، أو التهذيب ، وسط نساء وفتيات يغلفهن الحياء والخجل ، ينتمين إلى أسر شريفة ملتزمة بالحجاب..

لكن ما جدوى الشكوى من هذا الأمر ؟! ولم الشكوى منه؟! فهذا المعسكر فى النهاية ، وقبل كل شيء هو معسكر الحجاج ! ولماذا يتوقع الحجاج الفقراء من حكومة « يأجوجية » أن تعمل على راحتهم ؟! لقد قرروا لهذا العمل رسوما يطلق عليها « رسوم قرنطينة كامران » وحدّدوها بمبلغ ١٥ روبية ، وهكذا يجب الاهتمام براحة الناس فى هذا الزمن ، زمن التنوير ، وزمن أصحاب الفكر المستنير ، لكن فى هذا الزمن لماذا يختار الناس السفر من أجل الحج والعمرة والطواف والسعى والزيارة والعبادة؟!

وكما يقول الشاعر :

« من كان دينه وقلبه عزيزين عليه

لماذا يذهب إلى زقاق محبوبه ؟ ! »

أحاطوا المعسكر بسياج من حديد على شكل نجوم ، ولا يمكن لأحد أن يضع قدمه خارج المعسكر ، ويوجد فى كامران مكتب بريد إنجليزى أيضا ، وهكذا كتب كثير من الناس رسائل وأرسلوها إلى الوطن عن طريق هذا المكتب .

قضينا الليل فى المعسكر ، وفى صباح يوم السادس من أبريل سمح لنا بالخروج من « سجن الإفرنج » أو قل « قرنطينة الإفرنج » ، ونظرا للعناية الخاصة التى أحاطونا بها ، فقد كان نصيبنا أن نذهب إلى السفينة فى أول قارب ، واستغرق إيصال جميع المسافرين إلى السفينة نحو أربع ساعات ، وعند الساعة العاشرة تقريبا تحركت السفينة من ميناء كامران .

نتائج القرنطينة المرض والوفاة :

بدأ الإهمال الذى تفشى فى كامران يظهر للعيان ، وبدأت آثار الاحتياطات السيئة التى تمت تحت إشراف الأطباء الخبراء! فيما يتعلق بـ «الغسل الرسمى » أو « الغسل الأميرى » تظهر على الملأ ، فمنذ البداية وقبل مغادرة كامران ، وحتى بعد مغادرتها ، والآثار لا تزال ماثلة للعيان .. فقد بدأت الأعراض المرضية المختلفة تظهر على المسافرين ، كم منهم أصيب بالكحة المستمرة ! ، وكم منهم ارتفعت درجة حرارته ! وكم منهم أصيب بالزكام الشديد ! وكم منهم وقع فريسة للحمى الشديدة! والسيدة التى تنتمى إلى لكهنو ، وسبق أن أُصيبت بالحمى إصابة قاتلة ، لبت نداء ربها ، بعد عدة أيام ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد تعرض مولوى عبد البارى لأعراض ضيق النفس الشديد ، وداهمته هذه الأعراض أكثر من مرة ، والخلاصة أن كل من تراه ، لابد وأن يكون قد أصيب بمرض ما تذكارا لمروره على جزيرة كامران ، وهذه هى نتيجة « الرعاية الصحية الحكومية » ، وهذه ثمرة تعاطف الحاكم المحترم مع الحجاج !.

كانت الأمواج هائجة مائجة إلى حد كبير حين اقتربنا من كامران ، ولهذا فحين تحركت السفينة ، بدأنا نشعر باهتزازها أكثر وأكثر ، فابتلى معظم الناس بالدوار والغثيان ، لكن لم تكثر الشكوى والحمد لله ، ومع حلول الليل بدأت الأمواج فى الهدوء.

فرحة الحجاج بالوصول إلى يلملم :

كانت السفينة ستمر من أمام يلملم ، ميقات أهل الهند فى يوم السبت السابع من أبريل الموافق للسادس والعشرين من شهر شوال ، ومصطلح ميقات يطلق على المكان الذى يقوم فيه العازمون على حج بيت الله بخلع ملابسهم العادية ، وارتداء ملابس الإحرام ، وحين وصلت السفينة مقابل يلملم أطلقت صفارتها القوية لتنبيه الحجاج ..

آه ! لا تسأل عن مدى السرور الذى عم جميع الحجاج ! كانت السفينة ستصل مقابل يلملم فى الساعة الخامسة عصراً، وقد أطلقت صفارة السفينة فى هذا الوقت ، لكن الحركة دبت فى الحجاج جميعا منذ الصباح ، فمنهم من كان يقوم بالحلاقة، ومنهم من كان يغتسل ، ومنهم من كان يرتدى ملابس الإحرام البيضاء الجديدة ، بسرور وفرح وبهجة ، ومنهم من كان يصلى النفل .

كان على ظهر السفينة كثير من المطوفين ، جاءوا من بومباى ، فبدءوا بدورهم يساعدون الحجاج على لف رداء الإحرام ، وبدءوا فى تلقينهم نية الإحرام ، واستمر الجميع فى تغيير ملابسهم ، وارتداء ملابس الإحرام، وارتدى الجميع ملابس الإحرام عند الظهر تقريبا ، وكانوا يرفعون أيديهم بالدعاء ، إلى الله تعالى بوجوه مستبشرة ، وصاروا جميعا كمن لفتهم الأكفان البيضاء! وهكذا عمرت القلوب بالفرح والسرور، بينما كان كل منهم يبارك للآخر ، وبدأت الأصوات ترتفع بنداء التلبية : لبيك اللهم لبيك ..

ملابس الإحرام الزى الرسمى للدخول إلى بيت الله :

هل رأيت هذا ..؟ أينما تطلعت وجدت فروق اللباس وتفاوت الزى قد تلاشت ! كنا نسمع قولهم بـ« أن الناس باللباس » أى يعرف الناس بلباسهم ، وتعرف رتبتهم ومنزلتهم بزيهم ، لكن كيف تطبق هذه القاعدة اليوم ؟! كيف يمكن معرفة الخادم من المخدوم اليوم ؟ وكيف يمكن التمييز بين السيد والغلام ؟! بالأمس كان يمكن أن نميز بين هؤلاء ، فمنهم الكبير ومنهم الصغير ، ومنهم الغنى ومنهم الفقير ، ومنهم الرئيس ومنهم المرءوس ، ومنهم الميسور ومنهم المفلس ، ومنهم العالم ومنهم العامى الجاهل ، ومنهم المشهور ، ومنهم المغمور ، ومنهم العامل والفرّاش فى المكتب ومنهم المدير ، ومنهم المحافظ الذى يرأس محافظة بأكملها ومنهم الرعايا ، لكن ! كيف يمكن أن تميز هذا من ذلك اليوم ؟!

الآن ذابت جميع الفوارق ، وانتهت جميع الفواصل ، وتلاشت جميع الحدود ، لم يعد هناك حاكم أو محكوم ، لم يعد هناك أمير أو فقير ، الجميع سواسية ، والجميع على صفحة دنيا الخلق متساوون ، فالجميع رعاياه !! ها قد بدأت حدود بلاط مالك الملك ، حيث لا يكون هناك صغير أو كبير ! ، لم يعد هناك أمير ، ولا وزير ، ولا حاكم ، ولا عالم ، ولا باشا ، ولا بيه ، ولا زعيم ، ولا قائد ، فالكل عبيد، عبيد لله ، الكل مسكين ، محتاج لله ، عباد لا حول لهم ولا قوة ، الآن لا عمامة ، ولا « برنيطة »، لا طاقية ولا طربوش ، ولا بالطو ، ولا ثوب ، ولا رباط عنق ولا بنطلون ، ولا قميص ولا بيجامة .. فقط قطعتان من قماش غير مخيطتين !! وعلى كل لسان نداء التلبية للرحمن ، لبيكَ اللهم لبيك !

فقط قطعتان من قماش على جسد كل حاج ، فهذا ليس قصر نائب الملكة ، وهذه ليست مأدبة صاحب الفخامة ، وهذه ليست دار القضاء العالى ، هنا لا ضرورة للملابس السهرة الكاملة ! ولا حاجة لفستان السهرة ، تلبسه السيدات !! ولا حاجة لجوارب أو قفازات !! فالجميع فى حضرة الله ، الجميع فى حضرة صاحب القدرة ، صاحب العزة والجلال ، مالك أرواح البشر جميعا ، ابتداء من حاجب المحكمة إلى القاضى المحترم ، والطبيب ورئيس الشرطة والمأمور وقيصر روما ، وملكة بريطانيا ، ورئيس وزراء فرنسا ، ورئيس الجمهورية الأمريكية ، وموسولينى إيطاليا ، وجورج بريطانيا ، ومصطفى كمال ، وجواهر لال نهرو، وأرواح الجميع وحياتهم على حد سواء..

إن من عجائب دخول هذا البلاط ، وتفرده واختلافه عن بقية البلاطات ، أن الدخول إليه لا يكون حسب ما يضعه الناس على رءوسهم من أغطية مذهبة ، فالعزة هنا لا تعتمد على الملابس الزاهية البراقة ، إذ المطلوبون فقط لدخول هذا البلاط هم من يرتدون أكفانهم .. قطعتين من قماش غير مخيطتين. !!

إن الأحياء الذين يرتدون ملابس الموتى ، يتذكرون هذا اللباس ، ومن زينوا أجسامهم به لن يمس أجسامهم أبدا لباس الدنيا ، مباركون هؤلاء الذين لبسوا لباس الموت فى الحياة الدنيا ! ومباركون أكثر هؤلاء الذين أماتوا أنفسهم فى الحياة ! اليوم ليس لباسهم هذا لباس الموتى ، بل صارت أنفاسهم أيضا أنفاس الموتى ، فلا رفث

ولا فسوق ولا جدال فى الحج لأن شأن من يبتلون بالنزاع والشجار والشهوات والرغبة هو شأن الأحياء ، ولا يبتلى أحد من الموتى بالرفث والفسوق والجدال.!!

اختلاف بين جماعة الحجاج :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك ، إله حق لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير بيديك ...

بعد الصلاة ارتفع نداء التلبية على كل لسان ، بينما هذا يقوم ، وهذا يجلس ، وهذا يمشى ، وهذا يدور ، وهذا يصعد، وهذا يهبط ، ويلتقى هذا بذاك ، والنداء مستمر .. وهنا تغبط الملائكة المؤمنين !! فليس هناك اليوم من هم أسعد من الحجاج وأكثرهم فرحا !!

فالمحبوب الذى تركنا بيوتنا من أجله ، وتركنا وطننا من أجله ، وتركنا أصدقاءنا من أجله ، وتركنا الأحبة من أجله ، وتحملنا جميع مشقات السفر من أجله ، وطوينا الرحلة من أجله ، يفتح لنا الآن بابه ، ويسمح لنا بدخول بلاطه ، فمن ذا الذى هو أسعد حظا اليوم من الحجاج ؟ ومن ذا الذى هو أكثر فرحا وسرورا منهم ؟ ألف وخمسمائة حاج كلهم تقريبا فى ملابس الإحرام ، لا شك أن هناك بعض المجانين ممن لم يرتدوا ملابس الإحرام فى ذلك الوقت ! وهذه الجماعة يتزعمها واحد من جمعية خدام البيت ، كان قد عقد النية قبل الخروج على أن يصل إلى جدة ، ويتجه من هناك مباشرة إلى المدينة المنورة ، فينوى حج بيت الله ويحرم من الميقات هناك .

نقل عن حضرة يزيد البسطامى أنك إذا زرت المدينة المنورة ضمن الحج ، فهذا خلاف الأدب ، وهو غير جائز ، بل يجب عليك أن تحرم إحراما جديدا لسفرة مستقلة .. حسنا هذا كلام الناس أصحاب المراتب العليا !! لكن إذا نال أحد المسلمين السعادة ، نوى الحج من هذه المنطقة ، من حيث نوى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ونال حظا من الإحرام بالحج من ذلك المكان ، حيث نوى المرشد الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ، فلا مجال لأحد للحديث فى هذا الأمر ، لا من حيث الشريعة ولا من حيث الطريقة ، ولا من

حيث الظاهر أو الباطن ، ولا من حيث الفقه الحنفى أو الحنبلى ، لو وجد من يتحدث فى هذا فهو راجع إلى مسلكه وراجع إلى ذوقه !!

ظلت جماعة خاصة من المطوفين (يرحمهم الله ويهديهم سواء السبيل) على ما هى عليه ، رافقونا من بومباى ، أثاروا أمورا كثيرة من وصولنا إلى كامران ، فقالوا بأن أحدا من الحجاج لن يجد وسيلة مواصلات تنقله مباشرة إلى المدينة المنورة ، وأن الحكومة السعودية قد أغلقت الطريق فى وجه الحجاج للسفر إلى المدينة مباشرة ! لهذا يجب على الجميع الإحرام من يلملم بقصد التوجه مباشرة إلى مكة ، وكان على رأس هذه الجماعة مطوفنا عبد القادر إسكندر ، وربما كان الرجل فى زمن من الأزمان عربيا أو تركيا ، لكنه منذ سنوات عدة صار لكهنويا ، وقد رافقنا على السفينة من بومباى ، خدع بظرفه وبلطفه كثير من أحبابنا الطيبين ، لكننا وللحق وقعنا فى شراكه .

تأثر الجميع بما أثاره المطوفون، وهكذا أحرم الجميع هنا ، لكن ظلت هناك مجموعة صغيرة لم تنخدع بما أثاره المطوفون ، وظلوا على نيتهم السابقة ، وعلى أنهم سوف يحرمون للحج بعد زيارتهم للمدينة المطهرة .

كانت أحوال الحجاز الحالية « سر من الأسرار العلوية » أسمعنا إياه المعلم عبد القادر إسكندر ، وكانت هذه أولى حكاياته التى أسمعنا إياها ، وإننى أهيب بجميع العازمين على الحج ، وأصر على هذا ، بأن لا يحسنوا الظن كثيرا فى صدق مطوفيهم وفى إخلاصهم ، ويجب عليهم أن يتحققوا من مصادر أخرى عما يذكر لهم من معلومات.

(٧)

جـــــدة

الوصول إلى جدة :

اليوم الاثنين الثامن من أبريل ، وهو يوم الوصول إلى جدة .. لا تسأل عن شوق القلوب واشتياقها اليوم !

بدأنا حزم الأمتعة منذ الليل ، وتجمع الحجاج فوق سطح السفينة منذ الصباح الباكر ، وعيونهم تتطلع ناحية الساحل ، وبينما كانت السفينة تقترب من الساحل ، كان لون الماء يتحول من الزرقة إلى الخضرة ! وظهرت الشعب المرجانية بكثرة ، وبعد طلوع الصباح شاهدنا أحد القوارب تتجه ناحية السفينة ، كان فى القارب قبطان عربى ، وكان هناك قبطان عربى آخر على الساحل يتولى إرشاد السفينة ، حين وصل القارب إلى السفينة قفز القبطان العربى إلى السفينة ، ووصل إلى مكان قبطان السفينة ، ومنذ تلك اللحظة صار قائد السفينة ومرشدها بل ومالكها أيضا أحد العرب ! ولعل هذا من مشيئة من بيده الأمر ، صاحب القضاء والقدر ، حتى يعيد الاتزان إلى الأمور، فوضع واجب الإرشاد والهداية فى أثناء الدخول إلى الجزيرة العربية فى يد قيادة عربية .

وبين الساعة الثامنة والثامنة والنصف ، بدأت مبانى جدة تظهر واضحة للعيان ، مع أن المدينة كانت لا تزال تبعد عنا مسافة ميلين ونصف أو ثلاثة أميال ، وألقت السفينة بمرساها عندما دقت الساعة التاسعة تماما .

كان الوضع فى جدة يختلف عما كان عليه الوضع فى بومباى ، فليس فى جدة رصيف تقف عنده السفينة ، لماذا لا يبنون الأرصفة ؟! أليست جدة فى النهاية مرسى لسفن الحجاج [1] ؟!

سلوك الحجاج عند توقف السفينة :

توقفت محركات السفينة عن الحركة تماما ، عندئذ دبت على السفينة حركة من نوع آخر ، صراخ ونداءات ، صخب وهرج ومرج ، اندفاع وتدافع ، جرى وهرولة .. من الواضح أن السفينة لن تهرب إلى مكان ما ! فقد توقفت محركاتها ، لأنها ستقف هنا ولن تتحرك ، كما أن أرض جدة لن تغوص فى البحر ، أو تختفى من على وجه الأرض ، لكن من أين يأتى الصبر لهؤلاء ؟ وكيف يمكن لأحدهم الانتظار ؟! لقد أقاموا « جسرين » فقط لنزول المسافرين ، وعلى هذين الجسرين تجمع جمهور عدده ١٥٠٠ إنسان!! كل منهم فى شوق عارم ، ليكون أول من تطأ قدماه أرض العرب ! وكل شخص يحرص على أن ينزل أمتعته أولا ، وهكذا كان كل إنسان يدفع الآخر ، بينما يحاول البعض أن يَنْسَلَّ من بين الكتل البشرية ، بينما البعض ينسل بخفة إذا ما وجد فرجة بين جماعة من الناس ، فيندفع بشدة ، وبدا كأن الجميع قد واتتهم قوة خفية لم تكن لديهم من قبل !

كانت هذه حال الأقوياء والأشداء ، أما الضعفاء ، والمرضى ، والأطفال والعجائز والشيوخ ، فلا تسأل عن حالهم ! فلا يعرف عنهم شيئا سوى الله العليم ،البصير، السميع ، الخبير ، فمن يدرى حال هؤلاء غيره ؟!

كانت السفينة عالما عجيبا ، كلٌ يقول : نفسى .. نفسى ، وكانت كل ناحية من السفينة كأنها محشر للفوضى والاضطراب .. يا خسارة ! هذه هى حال الناس الذين خرجوا من أجل أن يتعلموا درس الإيثار ، وإنكار الذات ! إنهم يواجهون مثل هذه المواقف فى هذا السفر، حتى يتعلموا الصبر وضبط النفس ! إنهم يواجهون تلك اللحظة التى تفرض عليهم أن يساعدوا الآخرين ، ويقدموا لهم يد العون ، وأن يتحملوا ما قد

يقع عليهم من ظلم من الآخرين، ، لكن ماذا أقول غير أن الله تعالى أخبر فى كتابه الكريم بأنكم أنتم الذين تظلمون أنفسكم : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير .» صدق الله العظيم

رعاية خاصة من المسئولين :

بعد أن توقفت السفينة ظهر قاربان بخاريان ، كان فى أحدهما بعض مسئولى الشركة البحرية « ترنرماريسن » وفى الآخر بعض ممثلى الحكومة السعودية ، بالإضافة إلى مسئولى القنصلية الإنجليزية ، وقبل أن يسمح الأطباء وغيرهم للمسافرين بالنزول ، قام هؤلاء بإكمال الأوراق الرسمية ، وإكمال تحصيل الرسوم المطلوبة ، واستغرق هذا الأمر وقتا طويلا .

كان القاضى عزيز الدين الذى ينتمى إلى « سيدن بور » مركز « باره بنكى » (وهى بجوار محافظتنا) يعمل فى مكتب ترنرماريسن ، وهو من بين المسئولين الكبار الذين يأتون هنا كل عام ، سمعته يحكى لبعض الحجاج عن هذه الإجراءات التى يجب أن تتبع عادة ، وهو يسافر على هذه السفن ضمن عمله الرسمى ، وقد تعرفت عليه بينما كان يخرج من غرفة القبطان ، ولا يمكن أن يقدر مدى سرور غريب مسافر، يلتقى بغريب مسافر آخر ، من نفس بلده ، إلا من خاض مثل هذه التجربة !

استقبلنى بلطف ، ورحب بى فى أدب جم ، وبعد عدة دقائق التقيت بشخص آخر أعلى منه رتبة وأكثر منه نفوذا ، وهو منشى (أى الباشكاتب) إحسان الله الذى يعمل منذ مدة فى القنصلية الإنجليزية فى جدة ، وهو الآن الموظف المسئول عن شعبة الحجاج ، وقد سمعت عنه حكايات ، وروايات مختلفة ، كلها تؤكد سماحته وفضله ، كما عرفت أن الجميع عادة يستفيدون مما له من سلطة وتأثير ، وهو رجل على دراية بالأمور ، يطالع الصحف والمجلات وغيرها ، وقد اكتشفت أنه يعرفنى ، فقابلنى بوجه بشوش ، وكان بعض الأحباب قد أعطونى اسمه ، وأعطونى بطاقة تعريف ، لكن بعد هذا اللقاء الطيب ، شعرت بأنه لا داعى مطلقا لتقديم مثل هذه البطاقات ، وقد نصحنى

هذان الرجلان الفاضلان بأن أترك جماعتى أى قافلتى مع متاعنا كله على ظهر السفينة ، وأن أذهب معهم فى القارب البخارى (اللنش) الحكومى ، وتقرر فى النهاية أن يكون الأمر كذلك ، فتركت قافلتى على ظهر السفينة ، وركبت (اللنش) الخاص بشركة ترنر ماريسن فى صحبة القاضى عزيز الدين ، متجهين إلى الساحل ، وكان معنا فى (اللنش) قبطان سفينتنا «بى إتش وارد» ، وتشودهرى محمد على ردولوى أيضا .

العربية الفصحى فى جمرك جدة :

لم نكد نضع أقدامنا على اليابسة حتى أشاح عنا القاضى عزيز الدين ، وانطلق مع القبطان دون أن يشير علينا بشىء ! واتجه من فوره إلى مكتبه ، وتركنا نحن الغرباء الجدد إلى ما قسمه الله لنا ! كنت وحيدا ، وكان مع تشودهرى بعض النسوة ، وبعض الأمتعة أيضا ، وبدأ مختلف موظفى الهيئة البحرية يوجهون لنا أسئلة مختلفة ، وفى هذا الوقت بدأنا نشعر بغربة اللغة بشكل عملى ، وكان هؤلاء الناس لا يستطيعون التحدث لا بالفارسية ، ولا بالإنجليزية ، ولا بالأردية ، إذن ما بال العربية هنا ؟! وما بالك بلغتى العربية ؟! هكذا بدأت أتهته .. غلط فى غلط ، عبارات مكسرة ، وكلمات مقعرة ، ونصف جملة على جملة .. المهم حاولت أن أنطق والسلام .. أى كلام ! عندئذ قال هؤلاء الناس عنى بأنه نحوى ! ولم يعترفوا بعباراتى التى قلتها لهم بالعربية الفصحى ! فسلمتهم جواز سفرى ، وهو مفيد جدا فى مثل هذه الظروف ، وعلى كل حال كان علىّ أن أمر على جميع موظفى وعمال الجمرك ، لم تكن لدى أمتعة ، كنت أعلق فقط حقيبة صغيرة تتدلى على عنقى ، كان فيها بعض الرسائل وبعض الأشياء الضرورية، فقام موظفو الجمرك باستخدام كل ما لديهم من مهارة تفتيشية ، وظلوا يقلبون فقط فى الأوراق ثم وضعوا الختم الأحمر !

أما بالنسبة لتشودهرى خان، فكان معه صندوق أمتعة ، وأشياء أخرى ، ولهذا كان من الطبيعى أن يتم استجوابه لفترة أطول ، وفى الغالب يُفتح الصندوق ، ويفحص ما بداخله ، وهذا ما حدث ، وهكذا وضعوه على جانب ، ومن هنا صرت وحدى ، دون رفيق صرت وحيدا فى هذا المكان الغريب ، دون أن يكون لى مرشد أو رفيق ! وبعد

مدة قليلة عانيت فيها من الحيرة والقلق الكثير ، وجدت أحد موظفى وكيلنا يأتى ويأخذنى إلى بيت الوكيل ، ولم تكن المسافة بأبعد من فرسخين أو ثلاثة ، لكنها مسافة يجب أن تطوى على أرض جزيرة العرب ، وفى وقت الظهيرة ! وقد شعرت بأن المسافة طويلة جدا ، ربما كان ذلك لغربة المكان !

سلطات المطوف (٢) ووكلائه :

فى سفر الحج ، فإن « العقل الكلى » لكل حاج ، هو « مطوفه » ، يعلمه كل ما يتعلق بالحج وأموره ، لقد كانت حكومة الحجاز(٣) قد سمحت للهند بأن تعين مئات بل آلاف « المطوفين » (٤) ، وحين يصل الحاج إلى مكة ويضع قدمه فيها ، فإن كل خطوة فى حياته هنا ، تكون مقيدة بسلطات المطوف(٥) : ترتيب السكن فى مكة ، أمر الطواف ، والسعى ، وترتيب الطعام فى منى وعرفات والمزدلفة ، وأمر الأضاحى ، وترتيب وسائل النقل والسفر الداخلى .. الخلاصة كل صغيرة وكبيرة ، يتم ترتيبها من خلال المطوف نفسه ، وفى جدة يوجد مندوب أو وكيل لكل مطوف ، يطلق عليه اصطلاحا « وكيل » ، وللوكيل فى جدة جميع صلاحيات وسلطات المطوف فى مكة المكرمة ، فقبل نزولنا على الساحل ، وقبل أن نطوى مرحلة الجمارك ، ومرحلة الرسوم، سُئلنا : من هو مطوفكم ؟ وحين قلت بأن اسمه « عبد القادر إسكندر » ، ظهر فجأة وكيله فى جدة « صالح بسيونى » فالتقط جوازات سفرنا ، واستولى عليها ، كما استولى علينا أيضا ، وضمنا إلى كل من كانوا فى حوزته من البشر ، إذن فوكيل إسكندر الذى هو فى الأصل محمود بسيونى ، رجل تقدم به العمر ، فلا يستطيع أن يتحرك من بيته ، لهذا يكلف صالح بسيونى ولده ، وهو شاب فى مقتبل العمر بالعمل نيابة عنه ، ولما كان محمود بسيونى قد أقام فى الهند مدة لهذا فهو يفهم الأردية جيدا ، ويمكنه أن يتكلمها بشكل أو بآخر ، إلا أن ولده مصطفى بسيونى يخجل من أن يتكلم بالأردية ، لكنه مفيد للحجاج ، وأفضل كثيرا من والده فى مساعدتهم وتهيئة سبل الراحة لهم ، وهو الذى جاء بى إلى مكتب الوكيل .

بعد مدة لم تطل وصلت قافلتنا إلى هذا المكان ، ومع الظهر كان الدراويش الأربعة بكل من فى صحبتهم قد تجمعوا فى بيت الوكيل !

وصف مدينة جدة :

إذا ما قارنا جدة بمدن الهند ، فهى ليست بالمدينة الكبيرة، إذ يبلغ عدد سكانها ١٥ ألف نسمة تقريبا ، لكن لمدينة جدة أهمية كبيرة ؛ نظرا لموقعها الجغرافى ، وسوق جدة كبير جدا ، ويمكن أن تجد فيه كل شىء ، والأسعار هنا ليست مرتفعة ، وعملات جميع البلاد متداولة هنا ، ومقبولة عند الجميع ، كما أن عملات الهند الفضية تستخدم أيضا هنا ، لكن العملات الصغيرة « الفكة » المصنوعة من « النيكل » لا تقبل هنا ، ويمكن تحويل العملة الهندية إلى العملة الحجازية بسهولة كبيرة .

والمحلات التى تقدم الطعام موجودة بكثرة ، وهى تجذب الجميع وتغريهم بأن يملئوا بطونهم بالطعام ، ويمكنك أن تجد مطعما جيدا إذا ما بحثت قليلا ، لكن أسعاره لا تكون فى متناول يد الجميع ، ويوجد مكتب بريد ، كما يوجد مستشفى ، ويرسل البريد من جدة إلى الهند ثلاث مرات فى الشهر ، لكن لا يمكن مقارنة مكتب البريد هنا ، بمكاتب البريد فى الهند ، فكل عمل هنا يعتمد على التوكل ، والبركة ! ولا يوجد اهتمام معقول بأمور النظافة ، وكثرة الذباب هنا خبرها شائع بشكل خاص .(٦)

هذه بداية حدود جزيرة العرب ، وعبارة جزيرة العرب جذبتنى للحديث عن شدة الحرارة ، مع أن الحديث عن هذا الأمر تحصيل حاصل ، لكن يوجد الثلج بالرغم من ارتفاع ثمنه ، ونحن قد عرفنا قيمة الماء من قبل على ظهر السفينة ، وهكذا حين وصلنا إلى جزيرة العرب ، يمكننا القول بضرورة إصلاح عادات الإسراف فى استخدام الماء ، تلك العادة المتفشية فى الهند .

فى جدة محطة لتحلية مياه البحر ، لكن تكلفتها عالية ، أما الماء الممزوج بطعم الملوحة فهو كثير ، وشكل البيوت هنا شبيه بشكل البيوت فى بومباى ، حيث إن طراز الفناء الواسع فى وسط البيت ، يجعل من الفناء فناء بالاسم فقط ، ويوجد بيوت تتكون من أربعة أو خمسة طوابق ! وهى تنقسم إلى غرف ، وقد ساعد هذا التقسيم على وجود العديد من النوافذ والشبابيك، والشىء المتعب هنا لأهل الهند هو المراحيض ، فلا يوجد هنا تلك الجماعة من الناس التى تقوم بتنظيف المراحيض مما يتركه الناس بعض قضاء حاجتهم ، والنتيجة أنهم حفروا بئرا عميقة وسط البيت ، تتجمع فيها فضلات رفع الحاجة ، وهكذا تنتشر الرائحة العفنة إلى بقية أجزاء البيت .!

أما اللغة ! اللغة العربية الحالية ، فلا علاقة لها بلغة القرآن الكريم العربية ، إلا أن اللغة الأردية ، مفهومة هنا إلى حد كبير ، ولهذا فمن يعرف الأردية يمكنه أن يتعامل مع الآخرين بسهولة .

وفى وقت هجوم الحجيج ، يتحول كل بيت هنا إلى بيت ضيافة ، يستقبل المسافرين ، وهناك آلاف من فقراء الحجاج يجلسون فى الشوارع ، وفى الأزقة والحوارى ، وقد أقامت مملكة آصفية حيدر أباد ، ورئاسة بهوبال ، ورئاسة تونك أربطة (أى دور ضيافة) فى كل من مكة والمدينة المنورة ، ولو أقيم فى جدة رباط أو أكثر للحجاج الهنود ، ووضعت إدارتهما فى أيد خبيرة ، فسوف يسهل هذا أمر إقامة جماعة كبيرة على الأقل من الحجاج .

فى وسط مدينة جدة ، وبين أهلها لا يغيب العنصر الهندى تماما ، فممن يعملون بالتجارة هنا ، ومن محافظة بومباى ، وبخاصة من منطقة الكجرات ، ومنطقة كاتهياوارا ، يوجد كثيرون نعرفهم من هيئتهم ، أما إقليم البنجاب فهو ممثل هنا بالعاملين فى القنصلية الإنجليزية ، وفى شركات السيارات ، وتطالعك أيضا وجوه أناس من بومباى وبيهار وأوده ، يعملون فى مكاتب الشركات البحرية .

جدة بوابة جزيرة العرب ، وهى أول مدينة من مدن الحكومة الإسلامية ، ومهما كان الأمر ، ومهما يُقَلْ ، فهى مدينة المسلمين ، وبالتالى فهى مدينتنا أيضا ، ومدينة من هم منا ، ونحن منهم ، لكن يا مالك العزة ! هل تسمح لهذا الحقير ، عبدك المسكين !

إن قلبى يرتجف الآن ، حين أقول « منا » و« منهم » ، ويتلجلج لسانى ، لقد نسينا منذ زمن قرطبة ، ونسينا منذ زمن غرناطة ، لكن الأمر لا يتعدى الأندلس فقط ، فالبصرة كانت لنا ، وبغداد كانت لنا ، وحلب كانت لنا ، وبيروت كانت لنا ودمشق كانت لنا ، وبيت المقدس كانت لنا ، والقاهرة كانت لنا ، ومن قبلها كانت لنا شاهجهان آباد (دهلى) ، وأكبر أباد كانت لنا ، ولاهور كانت لنا ، ولكهنو كانت لنا ، وكانت لنا مرشد آباد ، وعظيم آباد ، ودهاكه كانت لنا ، وبيجابور كانت لنا ، وكرناتك كانت لنا .. واليوم لم يعد منها مدينة لنا .. لم تعد منا ، ولم نعد منها !

ثم ها هى جدة ، أدعو الله ألا يصيبها مكروه ، وألا يقربها أى « يأجوج » ، وألا ترتفع عليها رايته ، لكنى يا إلهى أخشى أن تكون فى شوارع جدة ، وأسواقها ، وعلى جدران منازلها ملامح عظمة « يأجوج » .. فالأسواق مملوءة بالبضائع.. لكن من أين؟! من بلدان الإفرنج ، والمحلات مملوءة عن آخرها بالمشتريات .. لكن من أين ؟! من بلاد الإفرنج ، والبيوت وما فيها من أين ؟! .. من بلاد الإفرنج ، والملابس التى على الناس من أين ؟!

... العقول مرعوبة ، والقلوب مفلوجة ، فكيف يمكن أن نُفهم القلب ، وماذا نقول لأنفسنا حتى نخدعها؟!

فى مدينة إسلامية .. فى بلد الإسلام والقلب يرتعد ، إننى بحاجة إلى أن أنير العيون بزيارة أحد المحدثين ، وأُلهب قلبى بنظرة كرم لأحد الشيوخ الأتقياء الورعين ، وأنفض عن نفسى غبار تعب المسافر بدرس أو فتوى فى حلقة أحد الفقهاء المبجلين ! لكن آه ! لم يتيسر لى هذا كله حتى الآن ، لم أحقق أمنيتى فى هذا المكان ، وكل رغبة بداخلى لا تزال مدفونة دون أن تتحقق ، فليكن ما يكون ! .. جلست فى المسجد بعض الأوقات ، لكنى لم أشاهد فى أى وقت منها كبار أهل المدينة وعمدائها ، وردد القلب بحسرة قول الشاعر « أكبر » (٧) :

« فى البرلمان كثير من السادة

وفى المسجد لا يوجد سوى الفقراء من عباده ! »

وهكذا فالأمر لا يقتصر على الهند فقط ، وعلى الفقراء الجالسين على شاطئ جمنا ، أو على ساحل البحر الأحمر ، فمن يعمرون أى مسجد أينما كان ، هم من فقراء عباد الرحمن.. !

الهوامش

(١) تغير الوضع بعد ذلك فقد شرع الملك عبد العزيز بعد دخوله الحجاز ، بدراسة سبل تقديم الخدمات للحجاج ، والبدء فى مشروعات تهدف إلى راحة الحجاج القادمين بحرا وبرا ، وهكذا أصدر أوامره بإنشاء ميناء جدة وأرصفة للسفن القادمة إلى جدة.

(٢) فى الأصل المعلم ، وقد رأينا فى الترجمة التعبير عن كلمة المعلم بالمطوف التى تستخدم عادة ، والمطوف هو من تلقى العلم والتعليم فى أروقة بيت الله الحرام ودرس على مشايخ مكة وعلمائها ، وهو مرشد الحجاج وخادمهم ، يتوارث بعده أولاده وأحفاده هذه الخدمة ، وقد صدر نظام المطوفين بالأمر السامى رقم ٧٢٦٧ بتاريخ ١٣٦٧/١١/٣ هجرية وهناك مصطلحات تحدد وظائف الطوافة منها : رئيس الطائفة ، والمعلم ، والأمين ، والصبى . انظر فؤاد عبد المجيد عنقاوى : مكة الحج والطوافة ، ص ٣٢٥ وما بعدها ، المجلد الأول ، ط أولى مكة المكرمة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤ م . وانظر أيضا تنظيمات أرباب الطوائف ، المجلد الثانى من بحوث مؤتمر الملك عبد العزيز، ط جامعة الإمام ص ٦٨٩ وما بعدها .

(٣) كان اسم حكومة الحجاز هو الاسم الرسمى الذى يذكر فى تلك الفترة فى جريدة أم القرى ، ففى ذلك الوقت لم يكن الملك عبد العزيز – طيب الله ثراه – قد أعلن رسميا قيام المملكة العربية السعودية

(٤) فى الأصل المعلمين .

(٥) فى الأصل المعلم ، انظر حاشية رقم ٢ .

(٦) كانت هذه هى الحال فى جدة من قبل ، وقد أشار معظم من كتبوا عن الأسواق إلى هذا الأمر ، إلا أن الوضع تدريجيا إلى ما نشاهده الآن من اهتمام شديد بالنظافة ورقابة محكمة على محلات بيع المواد الغذائية ومراقبة المطاعم وغيرها .

(٧) الشاعر أكبر إله آبادى سبق ذكره من قبل ، وهو من شعراء الهند المجيدين ، عاش فى الفترة التى عاش فيها محمد إقبال وكانت بينهما علاقة طيبة ، وهو من شعراء الإصلاح ويمتاز شعره بالنقد اللاذع لمساوئ المجتمع ولمساوئ الاستعمار البريطانى .

(٨)

جـــدة - طريق المدينة

السكن فى جدة :

أنزلنا صالح بسيونى فى بيته الخاص ، وتنتشر هنا البيوت المكونة من عدة طوابق ، وهكذا بيته ، فهو يتكون من عدة طوابق أيضا ، وكان مقامنا فى الطابق الثانى الذى يتكون من حجرتين ، إحداهما كبيرة والأخرى متوسطة ، فخصصنا الحجرة الكبيرة للنساء ، والمتوسطة للرجال ، ووضعنا معظم الأمتعة فى الطابق الأول .

من المعروف أن حجرتين لا تكفيان لإقامة ست عشرة مسافرا ، ونظرا لعدم وجود فناء فى البيوت هنا ، فالإنسان يشعر أكثر بالحرارة الشديدة ، لكن هذا أيضا يعد من الجحود بنعمة الله ، فهناك مئات بل آلاف من عباد الله ليس لهم نصيب من نصف هذا المكان أو حتى من ربعه ، ومع هذا يرضون بما قسمه الله لهم صابرين شاكرين ، فيجلسون تحت أشعة الشمس المحرقة ، يفترشون الأرض ، فى الشوارع والطرقات ، يضعون فرشهم ، ويجلسون عليها ، وهم فى النهاية بشر ، وهم أيضا حجاج بيت الله ، وهم أيضا غرباء عن المكان ، وهم أيضا خرجوا فى سبيل الله ، وتركوا أقاربهم وأصدقاءهم وأحبابهم ، وهم جميعا ليسوا من المفلسين أو المعدمين ، وقد يتساءل البعض : أليس لدى هؤلاء رغبة فى الراحة ؟ أليس لديهم إحساس بحرارة الصيف المحرقة ؟!

مساحة مدينة جدة ليست كبيرة ، ولا توجد مساحات خالية كبيرة بين المبانى ، فالمبانى متقاربة من بعضها ، كان السوق قريبا من المكان الذى نقيم فيه ، كما لم يكن مكتب البريد بعيدا عنا كثيرا ، أما المسجد فكان مجاورا لنا تماما.

بالصدفة كان اليوم هو يوم نقل البريد إلى الهند ، كنت قد كتبت عدة خطابات ، فلم ألقها فى صندوق البريد بل سلمتها لمدير المكتب يدا بيد .

السلطان ابن سعود والشيخ محمد نصيف :

كان أمامنا مبنى مهيب فخم ، عرفت فيما بعد أنه بيت الشيخ محمد نصيف ، وهو من كبار أهالى مدينة جدة وعظمائها ، ومن أثريائها أيضا ، كان أحد أصدقائى فى بومباى قد سلمنى رسالة له ، حتى أقابله وأعطيها له إذا ما اقتضت الضرورة ، وهكذا حملت الرسالة ، وذهبت إليه وقت الظهر برفقة مولانا مناظر أحسن ، فالتقى بنا ورحب بنا ترحيبا عربيا ، وأكرمنا كرما حجازيا ، والشيخ لا يعرف الأردية ، ويتحدث بالعربية فقط ، وهكذا دار الحديث بينه وبين مولانا مناظر أحسن باللغة العربية .

يمتلك الشيخ نصيف مكتبة عظيمة الشأن ، وقد رتبت مجلدات الكتب بشكل جميل فى « دواليب » كبيرة ، وبعد تبادل الأحاديث عرفنا أن هذه الكتب ليست مجرد زينة على الأرفف ، بل هى فى عقله ودماغه أيضا .

صلينا صلاة الظهر جماعة فى بيته خلف إمام نجدى ، كنت قد التقيت هنا بشخص قال إن هذا الإمام هو حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقال أيضا إنه من مشاهير علماء نجد ، وقد استفسر منه العلامة مناظر عن بعض الأمور ، إلا أن أجوبته لم تكن على المستوى الذى توقعناه ، وقد سمعت أن السلطان ابن سعود حين قدم إلى جدة ، نزل هنا فى بيت الشيخ محمد نصيف ، وفى سنة ١٩٢٦ م نزل وفد الخلافة الذى قدم من الهند ، ضيفا على السلطان ابن سعود ، أيضا فى بيت الشيخ محمد نصيف، كنا نشعر بالتعب من قضاء الليل فى بيت بسيونى فالغرف فى بيته تفتقر إلى التهوية ، ولهذا طلبنا من الشيخ نصيف أن يسمح لنا بأن نقضى الليل عنده فى الهواء

الطلق حيث الأرائك المريحة ، فسمح لنا الشيخ بكل سرور ، متلطفا علينا بكرمه ، وهكذا قضينا نحن الاثنين الليل فى راحة تامة شاكرين للشيخ كرمه ، حامدين لله فضله .

تغيير العملة :

بعد وصولنا جدة ، احتجنا إلى مبلغ من المال ، من أجل ترتيب السفر إلى المدينة المنورة ، كان عمر بهائى تشاند بهائى قد أعطانا إيصالات لشخصين فى جدة هما: الشيخ جمال الدين ، و « شهبندر » بتنى ، فالتقينا بهما : الأول رجل كفء ، وأكثر من ذلك أنه أدى مهمته معنا بتعاطف كبير ، فلم يعطنا فقط المبلغ المطلوب فورا ، بل قدم لنا أيضا مشورته الطيبة ، وهى مشورة لازمة لأمثالنا ، فأوضح لنا أنه لا يوجد فى الحجاز أفضل من العملة الإنجليزية ، ولهذا فالتعامل يجب أن يكون بالجنيه الإنجليزى، وهكذا غيرنا المبلغ إلى العملة الإنجليزية أى الجنيه الإنجليزى ، وحملنا المبلغ فى أيدينا ومضينا ، ونحن فى قلق شديد.

كانت قوافل الجمال تسير بين مكة المكرمة والمدينة والمنورة ، والآن بدأت السيارات تمضى على الطريق بكثرة، ولهذا قررنا السفر إلى المدينة بالسيارة ، ولما كان أى تحرك هنا فى الحجاز مرتبطًا بإذن المطوف أو وكيله ، كما أنه لا يمكن الاتفاق على أمور السفر ، وركوب السيارات دون وساطته ، ولما كانت مصالح الوكلاء تقتضى بالطبع إبقاء الحاج أطول مدة فى جدة ، لهذا فإنهم يحاولون المماطلة حين يستلزم الأمر السفر ، واستئجار السيارات ، وهذا ما بدأ يحدث لنا .!

الحاج عبد الله رضا زينل :

إن منشى إحسان الله (نائب القنصل المسئول عن حجاج الهند) شخص مفيد جدا لحجاج الهند ، كنت قد تعرفت عليه فى السفينة ، فذهبت إليه والتقيت به عصرا فى بيته ، رحب بى كثيرا ، وغمرنى بمحبته وعطفه ، وحسن أخلاقه ، كان من الصعب

أن يهتم بنا وكيل مطوفنا ؛ نظرا لهجوم الناس عليه ، وكثرة الوافدين إليه ، وقد أصابنا باليأس الشديد ، فيما يتعلق بإمكانية تأجير سيارة للسفر إلى المدينة المنورة ، لكن حين التقينا بمنشى إحسان الله ، وذكرنا له هذا الأمر ، أخذ الهاتف ، واتصل على الفور بالوكيل ، وفجأة تغيرت لهجة الوكيل بل تغيرت « أخلاقه » من هذه اللحظة ، وبدأ يوجه اهتماما خاصا بنا ، بل وزاد هذا الاهتمام بدرجة ملحوظة ، وهكذا تم الاتفاق على مسألة السفر ، ووعدنا بأن تكون السيارة جاهزة فى اليوم التالى .

يدعى الحاكم الأعلى المقيم فى جدة ، والمعين من قبل الحكومة السعودية ، الشريف الحاج عبد الله رضا زينل ، وهو نفسه وكيل شركة ترنرماريسن فى جدة ، وهو يعتبر من التجار الأثرياء جدا ، وابن أخيه محمد على زينل ، يتاجر فى اللؤلؤ ، ويبلغ رأس ماله المستخدم فى هذه التجارة مئات الآلاف من الروبيات ، وكان قد اهتم بأمرنا فأعطانا رسالة تعارف إلى عمه ، وهكذا ذهبنا إلى العم عند العصر ، بصحبة منشى إحسان الله ، وكانت لجنة الحج منعقدة فى ذلك الوقت ، وكان الوكلاء يتعرضون للسب والشتم ، ويعاقبون على سوء سلوكهم تجاه الحجاج .

شاهدنا السيد زينل ، ما شاء الله ، لحية بيضاء ، وجه نورانى ، صورة من الشرف والنور، قابلنا الرجل بكل تواضع ، واحترام ، وسألنا إن كنا نواجه أية مشاكل ، أو متاعب ، وكنت قد وجدت فى جدة شخصين فقط يمكنهما التحدث بالعربية بطريقة صحيحة ، ونفيسة ، أحدهما الشيخ نصيف ، والثانى الحاج عبد الله زينل ، أمّا غير ذلك مما سمعته من كل إنسان التقيت به ، فيعلم الله ، هل هو بالعربية أم بلغة أخرى غيرها .!

فى المساء أخذنا منشى إحسان بسيارته فى نزهة على ساحل البحر ، ثم ذهبنا إلى بيته وهناك صلينا المغرب ، أما صلاة العشاء فقد صليناها فى المسجد المجاور لمحل إقامتنا .

الشيخ عبد الرحمن محمد الفضل :

الثلاثاء التاسع من أبريل : كان الوكيل قد وعد بتجهيز سيارة لنا اليوم ، لكن هذا الوعد لم يكن كافيا لنطمئن إليه ، فلو لم ينجز وعده اليوم ، فلن يصيبه أى ضرر ، لكنه سيضيّع علينا يوما دون داع ، ولن نتأخر فقط يوما عن زيارة المدينة المنورة ، بل سينقص يوم من مدة إقامتنا هناك ، كانت جميع توسلاتنا للوكيل بلا فائدة ، وغير مؤثرة على الإطلاق ، وباءت جميع محاولاتنا معه بالفشل.

وهكذا التقيت صباح اليوم برفقه العلامة الشيخ مناظر أحسن بالشيخ عبد الرحمن محمد الفضل ، وهو شقيق عبد الفضل الموجود فى بومباى ، وهو من مشاهير جدة ، ومن حاشية السلطان ابن سعود أيضا ، لقد بدا رجلاِ طيبا جدا ، دار الحديث معه دون تكلف ، وببساطة شديدة ، وبحرية أيضا ، عن جمعية الخلافة، وعن الأخوين شوكت على ومحمد على ، وعن جمعية خدام الحرمين ، وعن قضايا كثيرة تتعلق بالهند ، وهو يمتلك شركة نقل باسم « شركة الحرمين » .

بعد أن لاحظ الشيخ أننا فى عجلة من أمرنا ، وأن لدينا رغبة شديدة فى السفر بسرعة إلى المدينة المنورة طمأننا كثيرا ، وأخبرنا بأنه سوف يؤكد على الوكيل بأن يدبر لنا سيارة نقل (شاحنة) اليوم ، وأن قافلتنا سوف تتحرك إن شاء الله فى المساء .. وهكذا لم يجد الوكيل أمامه مفراً !

وهكذا تقرر أن نتحرك مساء اليوم ..

وهنا أشير إلى ما تقرر رسميا بالنسبة لتعريفة السفر ، فالأجرة المقررة رسميا للسفر ذهابا خمسة عشر جنيها للشخص ، لكن التنافس بين شركات السيارات جعل الأجرة تصل إلى عشرة جنيهات (إنجليزية) للشخص (تقريبا ١٣٥ روبية) ذهابا وإيابا ، كان شاه لطف الله المونكيرى ومعه جماعته المكونة من خمسة أفراد على استعداد لمصاحبتنا أيضا ، وهكذا صار عددنا واحداً وعشرين مسافرا ، ومن هنا تقرر أن نركب فى سيارتى نقل (شاحنتين) ، فى كل منها ثلاثة عشر مقعدا ، وقد خصصهما لنا الشيخ فضل أى ندفع ثمن تذاكر ١٢١٢ راكبا مقابل ٢٦ مقعدا .!

طريق جدة - المدينة :

كان القرار هو التحرك فى المساء ، وعند المغرب بالضبط وصلت شاحنتان عند باب البيت ، وبدأت مرحلة أخرى امتدت حتى العشاء ، شملت ركوب المسافرين ، ووضع الأمتعة ، وإعطاء الهبات للحمالين ، ودفع أجرة السفر ، والحصول على الإيصالات ، وإكمال الأوراق المتعلقة بالحكومة والبلدية وغير ذلك من أمور انتهينا منها وقت العشاء ، فعندما ارتفعت أصوات المؤذنين بالأذان كانت قافلتنا تتحرك من بوابة المدينة .

الطريق من جدة إلى المدينة المنورة طريق تمضى عليه السيارات بهدوء ، تتهادى ، وتسير ببطء ، لتقطعه فى يوم ونصف أو يومين ، أما البعير فتقطع هذه المسافة فى عشرة أيام ! ، وقد أقيمت بعض المنازل بين مسافة وأخرى ، أما المنازل التى تتوقف عندها السيارات فى الغالب فهى معروفة وهى : طوال ، وقديمة ، ورابغ ، ومستورة ، وبئر درويش ، وبئر حسان ، ومسيجد[1]، وفى كل منزل من هذه المنازل تتوفر محلات بيع المياه العذبة ، والشاى والقهوة ، وفى معظم المنازل يوجد الطعام واللحم المطبوخ أو السمك المسلوق ، لكن للحم مذاقًا يتناسب مع مذاق البادية ، ولا يتناسب مع الذوق الهندى ، بالرغم من أن كل شىء لذيذ فى حالة الجوع ، وفى بعض المنازل يوجد ماء عذب لذيذ مثلما هى الحال فى منزل رابغ ، وعلى العكس من ذلك فى منزل بئر حسان ، وعلى كل حال يوجد ما يمكن أن يطفئ نار الجوع فى كل مكان ، لكن إذا اهتم أحد بالذوق ، فلا يجب عليه أبدا أن يعتمد على ما يوجد من طعام فى هذه المنازل ، بل عليه أن يحمل معه ما يناسب مذاقه ، ما يعجبه من طعام ، ويمكنك الحصول على البطيخ فى بعض المنازل ، كما يمكنك الحصول على التمر فى البعض الآخر ، وفى المنازل الكبيرة يمكنك أن تجد مكانا للنوم ليلا أو الاستراحة نهارا ، ويكون المكان مزودا بالفُرُش والوسائد المريحة ، وذلك بأجر مناسب ، ولا يمكن الاحتفاظ بالأشياء المطبوخة باللحم لمدة طويلة ، فهى تفسد بسرعة فى فصل الصيف ، وهكذا فلو تيسر البسكويت والخبز المجفف والزبدة وغيرها ، فيمكن حل مسألة الطعام بسهولة ويسر .

ماذا أقول عن الطريق ؟! وما معنى أن يكون الطريق ممهدا أو غير ممهد ؟! أو يكون جيدا أو غير جيد ؟! ماذا نقول ؟ إن السيارة تمضى فتصنع الطريق ، وتتكون

المدقات التى تشكل ممراتها فيما بعد طريقا تمضى عليه السيارات الأخرى .. والمحير هو أن الحكومة السعودية التى تهتم كثيرا بالإشراف على السيارات (ربما لأنها تحصل منها على عوائد كثيرة) لم توجه أى اهتمام إلى تعمير الطرق ، كما لم تهتم بها (ربما لأن الطرق لا تشكل دخلا بل تعنى إنفاق المال ولا شىء من وراء هذا الإنفاق سوى الإنفاق) مع أن أى عربة لا يمكن أن تسير إلا على طريق ممهد ، ونتيجة لسوء حالة الطرق (٢) ، تصطدم الشاحنات ببعضها ، وتتعرض السيارات لمخاطر الحوادث المفاجأة ، وهذا ليس توقعا بل كثيرا ما تقع مثل هذه الحوادث ، وقد تعرضنا نحن أنفسنا لهذا الأمر ، فالشاحنة التى تقل النساء غاصت فى وقت الظهيرة فى الرمال ، ولم ندر بما حدث ، واضطررنا إلى نقل المسافرين حتى انتهت المشكلة .

مشاعر قلبية فى الطريق إلى المدينة :

تحركت الشاحنات .. وبدأ السفر فى جوف الليل المظلم ، إلى أين السفر ؟! من أين يبدأ السفر ؟! من يدرى؟ وبأية لغة يجيب لو درى؟! إنها رحمة من الله أن يوفقنى لزيارة روضة رسوله الحبيب ، ومسجد رسوله الحبيب ، أن يوفق هذا العبد الذى اسودت صحيفة أعماله ، فصار سوادها أسود من سواد الليل ..

إننى ذاهب إلى مسجد رسول الله ، مسجد من صار نجما لامعا أنار ظلمات ليل الجهل ، والذى ظهر فى وقت كانت ستائر الظلمة قد غطت صفحة الدنيا ، وانتشرت فوقها سحب السواد ، فحمل معه النور والضياء ..

لماذا يضطرب القلب وتتلاحق دقاته ؟ لماذا تدمع العين ؟ ولماذا يجف الحلق واللسان؟ أنت لا تقف أمام من بيده ميزان العدل والإنصاف ؟ من فصل الحليب عن الحليب ، والماء عن الماء .. أنت ذاهب إلى حضرة من هو رحمة ومرحمة ، إلى من كان يستر عيوب الآخرين ، إلى من يلقب بشفيع المذنبين ، المذنبين كلهم وليس الأطهار منهم والطيبون فقط ، فهو منقذ جميع المذنبين ، ومعين جميع الخطائين!!

هـذا كلـه صـحيح ، ومع هذا فالقلب لا يتمالك نفسـه ، ولا يسـتطيع السيطرة على نفسه .. فشهـوات النـفس، وخباثات الداخـل ، وفسـادات القلـب بدأت تظهر واحدة بعد الأخرى مكشـوفة واضـحة ! ، وبدأت سـتائر لباب الرياء والنفـاق تتـمزق لحـظة بعد لحظة ..

بعد الخروج من جدة بدأت الرمال تظهر لنا ، والطريق فى معظمه طريق رملى ، وقـبل الوصـول إلى المدينـة ، وحـين يتـبـقى مـن الطريق ثلثـه تبـدأ سـلسلة الجـبـال ، ويتـحول الطريق إلى طريق صـخرى ، ونتيـجة لعدم اسـتـواء الطريق ووعـورته ، تهـتز الشـاحنة اهـتـزازا شـديدا ، مما يصـيـبنا بالتـعب، والقـلق فى الوقت نفسـه ، عندئذ ينطق القلب :

أيها المرائى ! إن حقيقتك تتضح اليوم ، أيـها المنافق! هل تغير جلدك اليوم ! لقد كنت فى حفلات الإنشاد والمواويل ، كنت فى عالم الشعر، إذا ما جاء ذكرك فى صـحراء يثرب ، تجرى خلف الناقة ، أو إذا مـا جاء ذكر التمرغ فى رمال صـحـراء المدينة وسط التلال ، كنت تهز رقبتك يمينا وشمـالاً ، وتبدى تمتعك كثـيرا ، وتصـيـر من أولك إلى آخرك صورة للشوق والأمـانى ، ثم أنت اليوم هنا تجد نفسك أمام هذا المنظر ، أو تجد المنظر أمامك ، ليس صـورة أو خيالا ، بل حقيـقـة تتراءى أمـام عينيك ! فلماذا إذن لا تكحل عـينيك بهـذا التـراب؟! ولماذا لا تتـمـرغ فى هذا التـراب ؟ ! ولماذا لا تغـرس الأشواك فى قدميك ؟ ولماذا .. ؟ ولماذا ..؟

إن دعوى محبة الرسول التى تطلقها على اللسان دعوى كبيرة ، كم كنت تذكر ذلك فى مـحافل الأصـدقاء والمعتقدين ، وكم كنت تتحدث عن عشق صـاحب المدينة ، والآن انكشـف زيف جـميع الدعاوى ! وبينمـا تقـتـرب رويدا رويدا من مـركـز النور ، يُكشـف النقاب عن أصـل كل شىء .. يا غلام النفس الخبيثة! هل كنت تظن أن سـتـارة النفـاق والرياء ستظل هكذا مسدلة دون أن ترفع؟!

المسافرون إلى مدينة رسول الله :

يعلم الله كم من الشاحنات مثل شاحنتنا ، كانت تمضى مملوءة بالمسافرين إلى ديار الحبيب ، وكم من آلاف البشر كانوا يمضون على ظهور قوافل البعير ، وكم من مئات البشر كانوا يسافرون مشيا على الأقدام ، كنا نراهم ومن بينهم نساء ورجال ، ومن بينهم عجائز وأطفال ، ومن بينهم فقراء وأغنياء ، منهم البنغالى واليمنى ، ومنهم البنجابى والدكنى ، ومنهم الكجراتى والحجازى ومنهم النجدى والمصرى ، ومنهم السودانى والجاوى ، والصينى والبورمى والبخارى والأفغانى والمراكشى .. هؤلاء جميعا تركوا أوطانهم وتركوا أحبابهم ، ومضوا على هذه الرمال المحرقة، تحت أشعة الشمس الملتهبة ، تركوا بساتين كشمير ورياض شمله ، تركوا المصايف والشلالات ، وجاءوا هنا ليعانوا مشقة الجوع والعطش ، ويغبروا وجوههم بالتراب ..

أين ذلك الطريق الذى كان يفخر حاتم طىء زمانه ، حاكم رامبور رئيس كلب على خان ، بأنه سار عليه ؟! وأين ذلك الجدار الطاهر الذى وضعت عليه حاكمة بهوبال سلطان جهان بيغم جبهتها ؟! وأين ذلك الزقاق الذى تمنى ملك المملكة الآصفية مير عثمان على خان من صميم قلبه أن يكنسه بنفسه ؟!

إن القلوب تتأذى من التأويلات العلمية ، التى يروجها الحاسدون مثل أبى جهل وأبى لهب ! يا ليت من يحاولون تشويه سيرة محمد الطاهرة بقياساتهم النجسة القذرة ، يا ليتهم يأتون هنا ، يخرجون من بيوتهم ليشاهدوا بأنفسهم ، فالبرغم من عصر « اليأجوجية » وبرغم غلبة الدجالين ، فهل هناك فى أية جامعة من جامعات العالم ، وفى أية كلية أو أكاديمية ، أو فى أية مكتبة أو فى أى معمل أو قاعة محاضرات لخبير فى علمه ، أو أية حلقة درس لأستاذ متمكن ، هل فى أى منها جاذبية تتساوى مع جاذبية هذا المكان الطاهر ، حيث يرقد جسد هذا الأمى الطاهر الذى هو أكثر خلق الله حمدا لله ، فهو أحمد ، والذى مدحه ربه فقال بأنه محمد ؟!

الهوامش

(١) ذكر المؤلف المنازل بين جدة والمدينة المنورة فى ملحق منفصل فى آخر الرحلة .

(٢) كان ذلك فى بداية دخول الملك عبد العزيز الحجاز وقد بدأ الملك عبد العزيز نفسه يوجه إلى الاهتمام بالطرق فقد أشارت جريدة أم القرى إلى ذلك فى أعداد متفرقة ، بل أشار إلى ذلك القنصل اليابانى الموجود فى بور سعيد حين ذكر أن الملك عبد العزيز قد شرع فى التخطيط لإنشاء شبكة طرق ضخمة وأن اليابان يمكنها الاستفادة من ذلك فى تصدير السيارات للملكة وكان ذلك فى هذا العام الذى وصل فيه مؤلف الرحلة للأراضى المقدسة . انظر بحث العلاقات اليابانية السعودية واستشراف المستقبل ، بحث لسمير عبد الحميد ، ندوة العلاقات السعودية اليابانية طبع ضمن بحوث الندوة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٢٤ هـ .

(٩)

المدينة المنورة

الفرح بزيارة مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ما أطيب ما قال الشاعر :

« يصل عبير الأرواح إلى روحى

ها هى مياهى تعود إلى نهرى ! »

اليوم هو الحادى عشر من أبريل ١٩٢٩ ، يوم الخميس غرة ذى القعدة ١٣٤٧ هجرية .. كم هو مبارك هذا الصباح ! فاليوم تتحقق أعظم أمنية فى حياتى ، اليوم سأصير ذرة شمس ، اليوم سأصل إلى سيدى ! إلى روضة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، اليوم سينال هذا المذنب العاصى شرف السلام على شفيع الأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

من العجيب أن يطلق نساء الهند على شهر ذى القعدة صفة « خالى » [١] ، لكن من كان من نصيبه أن يسعد كل هذه السعادة ، وأن يشرف بكل هذا الشرف ، فى هذا الشهر « الخالى » ، فبماذا عساه أن يصف مثل هذا الشهر؟! ربما يقتضى السجع ، ونحن اليوم فى يوم الخميس ،الذى نقول له فى لغتنا « جمعرات » أن نقول بأن الشهر شهر الهبات ، ويوم « الجمعرات » أى الخميس هو أيضا يوم الهبات ، وكل خميس يكون هكذا عادة ، وما ناله الإنسان هنا ، وما يخطر على قلبه هنا ، ليس هبات الشيوخ أو هبات الأتقياء، بل هبات المذنبين ، هبات أصحاب الأعمال السيئة ، سمها ما شئت!!

الوصول إلى ضواحى المدينة المنورة :

قضينا الليل فى منزل « بئر حسان » وفى الصباح الباكر تحركت القافلة ، وفى الساعة السابعة ، استرحنا قليلا فى مسجد ، كانت أنوار أرض طيبة وآثارها ، قد بدأت تبدو لنا منذ الصباح الباكر ، ومن تبدو له الأنوار الروحية ، ماذا يبقى له من مسرات الجو المادى !! لقد شعرنا بأننا فقدنا أبصارنا ، والمسألة هنا ليست مسألة حسن العقيدة ، بل مجرد ضرورة ثبات الحواس والإدراك .

فى الساعة التاسعة توقفنا عند منزل آخر لعدة دقائق ، بعده لن تكون هناك منازل ، سوى المنزل المقصود ، سوى الهدف المنشود ، والآن يمكن القول بأن ضواحى المدينة المنورة بدأت تضمنا بين جنباتها .. فقد بدا منظر النخيل الجميل أمامنا ، ونسمات الهواء العليل اللطيف بدأت تستقبلنا ، وبدأ الجو الجميل والمنظر الرائع يحتفى بوصولنا ، دربٌ تحفه الخضرة لم يسبق أن رأيناه فى أى مكان ! وبدلا من وديان الرمال والصحارى ، بدأت الخضرة الغناء تريح أبصارنا ، كان طريق ممهدا ورائعا ، لدرجة أننا شعرنا بأننا لسنا فى جزيرة العرب بل كأننا كنا مسافرين على أحد الطرق المعبدة داخل الهند ، كنا نتطلع إلى عقارب الساعة .. الساعة العاشرة .. العاشرة والربع .. العاشرة والنصف ... وبينما كانت الدقائق تمر ، كانت مشاعر الشوق والاشتياق تتزايد ، كان البعض يمسك بيديه كتيبا يتضمن إرشادات عن المناسك وآداب الزيارة ، يقلب صفحاته ، ويتوجه إلى خالقه بالدعاء ، وكان البعض الآخر يدعو الله بنفسه بما يتذكر من دعاء ، دون حاجة إلى كتاب ، وكل قلب يحتضن ما بداخله ، يخفى ما به من حال وأحوال ، لم يكن هناك من قلب مضطرب غير ساكن ، وكانت عيون البعض مغرورقة بالدموع ، بينما عقول البعض الآخر معمورة بنشوة اللذة والفرح والسرور ، كل حسب ما يكابده ، وكل على قدر مشاعره .!

وصف حالة القافلة :

كانت القافلة كلها صورة مجسمة للذوق والشوق ، حتى سائقنا النجدى تحول اللحظات من « نجدى » إلى « وجدى » فقد غلبه التأثر ، ورق قلبه ، أما مولانا مناظر فالبرغم من محاولته التماسك وضبط النفس ، حتى لا ينخرط فى البكاء ، إلا أنه لم يتمالك نفسه فانفجر باكيا ..

وهكذا تحول الإنسان إلى حالة من السعادة الكبرى ، أنسته العقل ، أبعدته عن كل علم ، لم يعد يدرك أنه يبكى ، لم يعد يدرك أن داخله مملوء بالسرور، لم يعد يدرك حتى حظه ونصيبه الطيب بالحضور إلى روضة رسول الله ، ولم يعد يشعر بالحزن والأسى على ما ارتكب فعلا من ذنوب ومعاص.. فقط وجد نفسه وسط هذه المشاعر المعقدة والأحاسيس المتشابكة ، فتوجه إلى الله خالقه ومصوره يناجيه :

يا إلهى ! هل هذه يقظة ؟! أم هو حلم ؟! أين هذا العبد الحقير الذى لا يساوى قبضة تراب من هذه الأرض المباركة الطاهرة ؟! أين هذا العبد الذى جاء من تلك البلاد البعيدة أين هو من أرض المدينة الطيبة السعيدة ؟! أين هذا العبد مسود الوجه من روضة سيد الأنبياء المنورة ؟! أين هو من تلك الأرض الطاهرة التى تفخر الملائكة إذا نالت شرف السير على ترابها؟! أين هذه من هذا الإنسان الضال التائه الذى تجرأ على أن يصل إلى هذا المكان ؟! لقد قال الشاعر عراقى إن الأرض تصرخ ، تتأذى كثيرا من سجدة الإنسان النجس غير الطاهر:

« حين سجدت على الأرض جاء نداء من الأرض

لقد خربتنى بهذه السجدة

فهى سجدة رياء ، سجدة تخلو من الإخلاص » (٢)

فإذا كانت سجدة المرائى على الأرض ، تجعل الأرض تشعر بالأذى ، فما بال أقدام المرائى ، تمشى على صدر هذه الأرض المقدسة ، ماذا سيطرأ عليها يا إلهى؟!

الطهارة :

أيها الأحبة والشيوخ ! هذا ليس بشـعر ، ولا هو بمعجزة خيالية ، ففى أبى داود وصحيح مسلم على لسان حذيفة رضى الله عنه ما معناه .. بينما كنت فى الطريق ، وكنت بحاجة للغسل ، إذا بى أرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمامى ، فتقدم نحوى (فأهوى إليه) لكنى وجدت نفسى وحدى (فحاد عنه) وبعد الانتهاء من الغسل ، وحين ذهبت إليه (صلى الله عليه وسلم) فسألنى فقلت ، فى ذلك الوقت لم أكن على طهارة ..

وهكذا أيضا عبّر أبو هريرة عن حاله أيضا ، فيقول ما معناه التقيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الطريق وكنت آنذاك بحاجة إلى الغسل ، فحدت عنه وبعد أن اغتسلت حضرت إلى مجلسه المبارك.(٣)

الله ... الله .. من من الناس يحتاط هكذا ؟! فحذيفة وأبو هريرة (رضى الله عنهما) اللذان تطهرا بصحبتهما لسيد الأطهار ! ووصلا إلى درجة تجعل غير الأطهار يتطهرون بظلهما ! يريد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يقابلهما بنفسه، لكنهما بدلا من أن يسرعا إليه ، يعودان أدراجهما ، حتى لا يقابلانه وهما على غير طهارة ، وحتى لا يواجهان هذا النور الأكمل ، وهما على غير طهارة ، فإذا كانت هذه هى حال حذيفة وأبى هريرة (رضى الله عنهما) ، عندما كانا على غير طهارة ، وكان هذا هو إحساسهما .. فيا حاملى راية الدين المتين ! يا من تفتون فتاوى الشريعة الإسلامية ! أية فتوى يمكن أن تصدرونها لمن هم على غير طهارة دائمة ومستمرة؟! ليسوا على غير طهارة جسدية بل روحية ، ليست ظاهرية بل باطنية ، لا يمكن إزالتها بقليل من الماء ، وحتى لو غاصوا فى أنهار الماء وفى البحار فلن يطهروا منها ، وستظل عالقة بهم وبداخلهم !!

الوصول للمدينة المنورة :

يقتضى الأدب أن ينزل المسافر على مشارف المدينة المنورة ، وأن يدخل المدينة راجلا ، كانت فتوى شوق القلب تقضى بأن ننتهى من قضاء الحاجة ، ونغتسل ونغير ملابس السفر المتربة، ثم نمضى إلى المدينة المنورة مشيا على الأقدام ، لكن ركوبتنا

لم تكن على هوانا ، وعربتنا لم تكن ملكا لنا ، ومهما حاولنا أن نكرم السائق ، وأن نتلطف معه بجميع الأشكال ، لكنه لم يستمع لقولنا ، ولم يمض طبقا لرغبتنا، فقانون الحكومة والالتزام بأوامر الحاكم ، يقتضيان بأن تتوقف السيارات فى الأماكن المحددة لانتظار السيارات ، وأن ينزل المسافرون فى الأماكن المقررة لنزولهم ، ولا يمكن تجاوز هذه الأماكن بمترين قبلها أو مترين بعدها... وهكذا وبينما كان الحديث يدور دقت الساعة الحادية عشرة ، وظهر سواد المدينة أمام أعيننا ، فصاح السائق قائلا : المدينة ! المدينة ! وبدأنا نشاهد الأشجار الخضراء ومبانى المدينة :

تراب يثرب أسعد من الدنيا وما فيها

يا لنسمات المدينة العليلة التى تجذب القلب !

مقام المصطفى فى قلب المسلم

وشرفنا وعزنا من اسم المصطفى

اللهم هذا حرم نبيك فاجعله لى وقاية من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب .. بدأت السيارات تستعد للتوقف ، وبدأ بعض المسئولين الرسميين يوجهون أسئلتهم المعتادة للسائقين ، كما بدأت جماعة العمال تمطر أهل القافلة بالأسئلة !

محطة السكة الحديد :

كانت هذه الأسئلة فى الغالب توجه دائما إلينا : من أية مدينة جئتم ؟ كم عددكم ؟ فى أى رباط ستقيمون؟ وكنا نجيب عادة على هذا النوع من الأسئلة بسهولة ..

عند صلاة الظهر بالضبط ، وعند الساعة الثانية عشرة بتوقيت الهند السادسة بتوقيت الساعة العربية هنا ، دخلت قافلتنا من سورة المدينة ، ووصلت الشاحنات إلى محطة الانتظار ، أمام محطة السكة الحديد ، وتوقفت ، ومحطة السكة الحديد هذه كانت جزءا من خط سكة حديد الحجاز المشهور ، والذى كان قد أنشئ فى عهد الأتراك ، ومبناها واسع جدا وفخم جدا ، وكانت القطارات القادمة من الشام

تصل هنا فى يوم من الأيام ! ، والقطارات وقضبان السكة الحديد لا تزال موجودة ، لكن إذا ما قارنا هذه القطارات بقطارات الهند ، فيمكن القول بأنها قطارات من النوع الصغير ، الذى يسير على الخطوط الصغيرة ..

بسم الله ، ما شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ! رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ، اللهم هذا حرم رسولك ، فاجعله لى وقاية من النار ، وأمانا من العذاب وسوء الحساب ، اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وارزقنى من زيارة رسولك (صلى الله عليه وسلم) ما رزقت أولياءك ، وأهل طاعتك ، وخلصنى من النار واغفر لى وارحمنى يا خير مسئول !!

كانت المحطة على بعد ميلين من المسجد النبوى ، وقد بنى الأتراك هنا مسجدا أيضا ، قيل إن اتجاه القبلة فيه غير صحيح ، ولهذا تقف جماعة المصلين فيه بانحراف قليل ، وجدنا كثيرا من الحمالين الراغبين فى حمل أمتعتنا ، كما وجدنا وسيلة ركوب للشيوخ والنساء والأطفال والعجزة ، وهى شبيهة بتلك الوسيلة الموجودة فى حيدر آباد ، ويطلق عليها هنا اسم « عربية » ، وهنا سواء استأجرت أجيرا أو عربة للركوب أو ما شابه ذلك ، فلا بد أن تتفق أولا على الأجرة ، وإلا حدث شجار ونزاع لا يليقان ، ويفتقدان كل أنواع الأدب واللياقة ، لدرجة أن بعضهم يلجأ أحيانا إلى السب والشتم .

الأربطة الهندية فى المدينة :

يوجد فى المدينة جماعة محترفة شبيهة بجماعة المعلمين فى مكة ، تتولى ترتيب إقامة الزائرين ، كما تتولى تلقينهم آداب الزيارة أيضا ، ويطلق على هؤلاء اسم « مزور » وقد تم توزيع مدن الهند على هؤلاء المزورين ، ولهذا سئلنا حين دخلنا المدينة هذا السؤال : من أية مدينة جئتم ؟

ولا يأتى من المزورين للقاء القافلة إلا القليل ، لكن لا بد أن يأتى مندوبوهم وموظفوهم لاستقبال القافلة ، ويلتزم كل مزور بترتيب أمور إقامة قافلة كل مدينة من مدن الهند ، وهذه هى الطريقة العامة بالنسبة للزائرين والسافرين ، وبالإضافة

إلى ذلك أنشئت فى المدينة أربطة ، قام بإنشائها بعض أهل الخير من حكام الهند ورؤسائها ، وعلى سبيل المثال يوجد بالمدينة رباط « تونك » ، ورباط « بهوبال » ورباط « حيدر آباد » .

لم نصل إلى رباط تونك ، لكننا سمعنا الجميع يثنون عليه، أما رباط بهوبال فيبعد عن الحرم مسافة نصف فرسخ، وبالرغم من أن المبنى ليس واسعا جدا ، لكنه بحالة جيدة ، ويمكن أن يقيم فيه عدد قليل من الناس فى راحة وهدوء ، وهناك مبنيان على الأقل أقيما بدعم من إمارة حيدر آباد ، أحدهما يقال له « رباط حسين بى » ، والآخر يقال له « مبنى حسين بى » وربما يوجد مبنى آخر بالإضافة إلى هذين المبنيين ، ومبنى حسين بى أو مكان حسين بى ليس بالفسيح ، لكنه بحالة طيبة ، أما رباط حسين بى فهو واسع جدا ، وهو مبنى متعدد الطوابق ، لكنه متهالك ، ويحتاج إلى ترميم وإصلاح ، ويقوم على أمر عمارات حيدر آباد الشيخ جعفر الداغستانى ، وهو شخص معقول ، على خلق طيب ، ويقوم أيضا بأعمال التزوير للحرم .

كانت إقامتنا جميعا بترتيب من جانب رئاسة حيدر آباد ، فقد أقمنا فى مبانى الرئاسة الرسمية ، بعد أن سلمنا الخطاب الذى كتبه لنا « أختر يار جنك بهادر » المسئول عن الأمور الدينية فى « المملكة الآصفية » إلى الشيخ جعفر الداغستانى نفسه .

الشيخ جعفر الداغستانى وتدبير السكن :

يذكر كبار الشيوخ والعلماء أنه من المستحب عند الوصول إلى المدينة المنورة ، زيارة الروضة المقدسة فى البداية ، لكن هذا النصيب ، يمكن أن يناله فقط أصحاب النصيب الطيب ، فقد كان ضمن قافلتنا واحد وعشرون شخصا معظمهم من الشيوخ كبار السن ، ومن العجائز أيضا ، وبالطبع كان أول ما فكرنا به هو ترتيب مكان إقامتهم ، وحمل هذه الأمتعة كلها ، وإيصالها إلى مكان الإقامة.

بعد أن أنزلنا الأمتعة من الشاحنة قمنا بالصلاة أربع ركعات نفل فى المسجد المقابل لموقف الشاحنات ، ثم تولى أصحاب « العربيات » تحميل الأمتعة على عرباتهم ، بينما تحركنا نحن على أرجلنا ، وقد واجهنا فى البداية غربة المكان ، وغربة اللغة ، وغربة الطريق ، لكن بعد قليل وبعد السؤال ، وصلنا إلى مبنى أو مكان حسين بى ، فعرفنا أن الداغستانى قد ذهب ليصلى الظهر فى الحرم ، ولم يعد بعد ، والله وحده يعلم متى يمكن أن يعود ! فأين يمكن أن تجلس النساء كل هذا الوقت ؟ لأنهن يجلسن فى حر جزيرة العرب الشديد ، فأين يمكن ترتيب أمر انتظارهن فى وقت الظهيرة الشديد الحر هذا ؟

بينما كانت هذه الأسئلة وغيرها تدور بخاطرى ، ظهر رجل من شرفة المبنى ، وصاح مناديا اسمى! .. تحيرت ! من هذا الذى يعرفنى هنا ؟! وبينما أنا كذلك نزل هذا الرجل، واقترب منى ، فعرفت أنه منشى (الباشكاتب) أمير أحمد علوى الكاكورى ، وهو يقيم هنا منذ عدة أشهر ، كان لقاؤه فى هذا الوقت نعمة غير متوقعة ، كان هو نفسه ضيفا ، فصار مضيفا لنا !! ومنشى أمير أحمد علوى أديب ممتاز ، وصاحب قلم رفيع ، ومؤلف لعدد من الكتب الأدبية ، لكن قليلا من الناس هم الذين يعرفون أنه ليس فقط صاحب قلم بل هو صاحب « قلب » أيضا .

بعد قليل التقينا بالدكتور عبد الرحمن ، من محافظة بيهار الذى يعالج مرضاه بطريقة المداواة المعروفة باسم الهوموباثيتيك ، وترسله رئاسة حيدر أباد إلى الحجاز منذ سنوات ليكون فى خدمة الحجاج ، وهو رجل على خلق عظيم، قلبه واسع ، يتسع ليس فقط لخدمة حجاج بيهار بل لخدمة الحجاج الآخرين من محافظة أوده ، وبينما نحن على هذه الحال وصل الداغستانى ، وتقرر أن يقيم فى هذا المكان أى فى « مبنى حسين بى » خمسة من قافلة مولوى لطف الله المونكيرى ، على أن ننتقل نحن الستة عشر لنقيم فى « رباط حسين بى » .

آداب الزيارة :

ضاع وقت الظهر فى الانتهاء من هذه الترتيبات ، وضاع أول وقت العصر أيضا ، وهكذا بدلا من أن نصلى الفرضين فى الحرم ، صليناهما فى البيت ! ، وهكذا خشينا أن يفوتنا – معاذ الله – المغرب أيضا ، فذهبنا على الفور للحلاقة ، واغتسلنا ، وغيرنا ملابسنا ، وجعلنا نفكر فى الذهاب إلى الحرم الشريف ، كان الجسم مشغولا بمثل هذه الترتيبات ، لكن القلب ... لا تسأل عن حالة القلب .!!

فى جميع الكتيبات الإرشادية المتعلقة بآداب الزيارة ، ورد أن أول شىء يفعله الإنسان هو الغسل ، ثم التطيب بالطيب ، ثم ارتداء الملابس الجديدة ، لكن هذه الكتيبات الإرشادية لم تذكر كيف يمكن السيطرة على القلب ؟ كيف تكون حالة القلب فى تلك الآونة ؟ هل يكون فرحا مسرورا ؟ أم هل يكون حزينا مغموما؟ هل تطرأ عليه الحيرة ؟ هل يدق خوفا من الهيبة ؟ هل يطير فرحا وشوقا ؟ ثم ماذا ؟ وماذا ؟

من يمكن أن يخبرنا بالإجابة عن كل هذه التساؤلات ؟ ومن أين يأتى بألفاظ تصلح للإجابة عنها ؟ اللسان مخلوق من اللحم ، واللسان يمكن أن يعبر عن الكلام ، لكن الذى يعبر عن القلب هو فقط لسان القلب ، فكيف يمكن يا إلهى أن يتحول حديث القلب إلى حروف وكلمات على صفحات الورق:

« ليس هنا من يخبرنا ، فبماذا نخبركم نحن ؟ »

الهوامش

(١) هكذا يوصف شهر ذى القعدة ، لأنه لا توجد فيه مناسبات احتفالية يحتفل بها أهل شبه القارة الهندية مثله مثل بقية الشهور.

(٢) هذه الأبيات بالفارسية .

(٣) ورد في البخارى « حدثنا بكر عن أبى رافع عن أبى هريرة أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لقيه فى بعض طريق المدينة ، وهو جنب فانبجست منه ، فذهب فاغتسل ثم جاء فقال أين كنت يا أبا هريرة قال كنت جنبا فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة فقال : سبحان الله إن المؤمن لا ينجس » (البخارى شرح الكرمانى ج ٣ دار إحياء التراث العربى بيروت ص ١٤٦) .

(١٠)

الروضة النبوية

شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للأمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:٦٤) صدق الله العظيم .

هذا ليس اجتهاد فقيه من الفقهاء ، يمكن أن يقبل الرد والقدح ، وهذا ليس كشفا لأحد الشيوخ ، فيحتمل الخطأ والخداع ، وهذه ليست رواية لحديث ، يمكن التكلم فى إسناده ، بل هذه آية من آيات كتاب الله ، التى تعنى ببساطة أن أولئك الذين ظلموا أنفسهم يا رسول الله! لو جاءوك ، وطلبوا من الله أن يغفر لهم ذنوبهم ، وكان الرسول أيضا فى جانبهم ، فتشفع لهم ، فسيجد هؤلاء الناس أن الله تواب ورحيم .

وكأنه أمر للمذنبين ، الذين ظلموا أنفسهم ، بأن يطلبوا العفو والمغفرة من الله ، لكن لا يجب أن يجلسوا هكذا فى بيوتهم ، بل عليهم أن يأتوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأن يطلبوا منه أن يدعوا لهم ، ويستغفر لهم ، ومن الظاهر أن هذا الحكم خاص بجماعة بعينها ، كانت موجودة زمن النبى (صلى الله عليه وسلم).

ما كان أسعد هؤلاء الأشخاص الذين نالوا نصيب إطاعة هذا الأمر ، الذين حضروا إلى رسول الله ، الذين سجدوا لله متضرعين خاشعين يطلبون العفو ، وتشفع لهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيضا فاستغفر لهم ..

ولكن نحن فى القرن الرابع عشر الهجرى ، فإذا أمر أى فاسق أو فاجر فى هذه الأمة أو أى مذنب بأن يأتمر بحكم الله ، ويطيع قوله تعالى « جاءوك » ! فهل باب السعادة والهداية هذا انغلق فى وجه هؤلاء حتى يوم القيامة ؟ ألن يكون لهم من نصيبهم سوى الحرمان واليأس .. ولا شيء غير ذلك ؟!

آداب الزيارة :

حين يغادر فصل الربيع الروضة ، ولا يفوح منها أريج الأزهار والورود ، تعتبر زجاجات الطيب غنيمة كبرى ، وهكذا فاليوم إذا قطع إنسان آلاف الأميال ليصل إلى ديار الحبيب ، طمعا فى شذا عطر الحبيب ، وإطاعة لحكم «جاءوك » ، ثم يأتى ليخر ساجدا ، يمسح الجبين ، ليس بالحبيب ، ولكن بعتبات الحبيب ، من أجل أن يذرف الدمع على ما اقترف من ذنوب وسيئات ، ليجدد بيعته ، ويجدد إيمانه ، حتى يتلافى مظالم نفسه ، ويطلب المغفرة ، فهل يُفتى بأن هذا الشخص يرتكب بدعة ؟ وبأنه يرتكب « الشرك ».؟

هنا حيث صلى أعبد العابدين لله صلاة من بعد صلاة ، هنا حيث صلى آخر صلواته ، هنا حيث تكمن أسرار العبد والمعبود ، هنا حيث خرجت آخر أنفاس الحياة الناسوتية ، هنا حيث كانت الأرجل تهتز رهبة وخشية ، هنا حيث كانت الجباه تلتصق فى السجود ذوقا وشوقا ، هنا حيث رفع يده المباركة بالدعاء للمذنبين من أمته ، هنا حيث يرقد جسده المبارك المطهر ، هنا على هذه الأرض بعظمتها وجلالها وببركتها ونورانيتها ، هنا حيث المكين المقدس والمكان المقدس ، هنا إذا ما وضعنا الجبين على هذا المكان ، فقيل إن هذا « شرك » و « بدعة » فالعلم عند الله وحده : أى مقام .. وأى مكان نلجأ إليه ، يمكن أن يكون مطابقا لعقيدة « التوحيد» و « السنة » ؟!

رأى المحدثين فى الشفاعة :

لم يكن الحافظ بن كثير من « مبتدعى » القرن الثالث الهجرى أو الرابع الهجرى ، بل كان من محدثى القرن السابع والقرن الثامن ، ذكر فى تفسيره الذى نشره مع تفسيره « نواب صديق حسن خان » (رحمه الله) الموحد المشهور بالهند ، والذى نشر الآن بأمر من السلطان الموحد المشهور السلطان ابن سعود سلطان نجد والحجاز ، ذكر نقلا عن العتبى أنه قال بينما كنت أجلس بالقرب من تربة الرسول (صلى الله عليه وسلم) المباركة ، إذا بأعرابى يأتى ، ويقول : يا رسول الله ، سمعت أن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء ٦٤) وهكذا حضرت إليك ، وأطلب المغفرة لذنوبى ، وأتشفع بك عند الله ، وبعد ذلك قرأ بيتين من الشعر فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، يقول العتبى ، فغلبنى النوم فرأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى المنام فقال لى : اذهب إلى الأعرابى وبشره بأن الله غفر له. (مجلد ٢ ص ٥٠١ طبعة المنار بمصر ١٣٤٣) [(١)]

وهناك روايات متشابهة أيضا منها رواية أبى حيان الأندلسى فى تفسيره البحر المحيط التى نقلها عن على (كرم الله وجهه) (م ٣ ص ٦٨٣ ط مصر ١٣٢٨ هـ) وسواء كانت هذه الروايات بجميع جزئياتها صحيحة أم غير صحيحة ، لكن يمكن أن نخرج منها بأن هذه العقيدة الحسنة ، ليست بدعة ظهرت اليوم ، لكن « الموحدين » قد ابتلوا بهذا المرض منذ عدة قرون .!

زيارة للمسجد النبوى أم للروضة النبوية ؟!

آراء الفقهاء :

لكن .. لماذا يخوض الإنسان فى هذا البحث ويربك نفسه بمسألة هل يجب عقد النية على زيارة الروضة المقدسة أم المسجد النبوى ؟ فالإنسان بفطرته يحب الجدال ، ويحاول أن يلوى عنق الكلام المستقيم ، فالأمر الواضح الجلى أن الهدف هو زيارة النبى

(صــلى الله عليه وسلم) ، ومن الواضح أنه لا يمكن مشاهدته مشاهدة العين بالعين ، لهذا تكـون زيـارة هذا الجزء من المكان حيث يوجد « المكين » ، المكان الذى له علاقة أكثر بـ « المـكين » ، الذى ينـتسب إليه المكـين ، والأكثر قربا ، والذى تكون زيارته بالقـدر نفسـه أحـب وأهـم ، ســواء كان ذلك حجرة عائشـة (رضى الله عنها) ، أم المصلى والمنبر، فأى شـىء نال الامـتياز والفـخر ، إنما نالهـما لأنه يتعلق بذات النبى (صلى الله عليه وسلم) ..

لا نزاع فى هذا ! ولا يوجد حتى سبب للنزاع والاختلاف الذى ظهر فيما بعد ، ليس اختلافا فى الأصول ، وليس اختلافا فى عقيدة ، إنما هو اختلاف فى طبيعة تذوق الأمور، فـالبعض يرى احـترام هذه الأمـاكن التى كانت خـاصة بركـوع وسـجود سـيد الأنبياء (عليه الصـلاة والسـلام) ، ولهذا قدموا احـترام المسـجد النبوى على كل شىء عند عقد النية على الزيارة ، ورأى البعض أن سيد الشهداء والصديقين ، حين كان على ظهر هذه البسيطة فى حياته الطيبة ، كان التراب الذى دفن فيه له مكانة رفيعة ، وهو التراب الذى يوارى الآن جسده المبارك ، ولهذا رأوا أن هدف سفرهم إلى المدينة المنورة هو زيارة قبره المبارك ، وقد قرر فقهاء الحنفية ، وهم فى ذلك منصفون ومصيبون ، بأن يجمع بين نية زيارة المسجد النبوى وزيارة قبره المبارك ، وزيارة قبره الشريف مندوبة بل قيل واجبة لمن استطاع .. ولينو معه زيارة مسجده الشريف (الدر المختار) فـإذا نوى زيـارة القبـر فلينـو معـه زيارة مسـجد رســول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) (الفتاوى العالمكيرية) .

وصف المسجد النبوى :

إن المسـجد النبـوى ، والروضة المبـاركة ، ليسا باسمين لمبنيين منفصلين ، وهما لا ينفصلان عن بعضهما ، فمبنى المسجد واسع وفسيح ، وهناك مساجد فى الهند أكبر منه ، وربما فـى بلدان العـالم الأخرى ، لكن من ناحيـة الحسـن والجمـال ، ومن ناحيـة المحبة ، ومن ناحية الزخرفة ، والجـاذبية ، لا يوجد على ظهر الأرض مسـجد يضـارع هذا المسجد النبوى ، وهكذا فالقلب يتمنى أن أجلس فى صحن المسجد كل الوقت ..

الله .. الله ! مسجد أى حبيب هذا ؟! كيف يفد الأحبة هنا وقد لفهم الشوق ! فالحب يرفرف بجناحيه على لبنات المسجد، وعلى كل حجر فى جدرانه ، وعلى الأسمنت ، وعلى ألوانه ، على كل شىء فيه !

دماغ من هذا الذى يستطيع أن يقيس المسجد النبوى ؟! وعقل من هذا الذى يقدر على أن يُعاين طوله وعرضه ؟! لكنى على كل حال قرأت فى الكتب أن طول المسجد الحالى ٦٠٠ قدما ، وعرضه ٤٨٠ قدما ، والقبلة فى الناحية الجنوبية ، وفى الأمام والخلف أُنشئ حوالى عشرة محاريب أو أحد عشر محرابا ، زينت بزخارف جميلة ونقوش بديعة ، الواحد منها أجمل من الآخر ، بعدها يأتى صحن المسجد الواسع ، وعلى يمين الصحن وعلى شماله ، على الجانبين وبمحاذاة الصحن توجد محاريب طويلة، والمحراب الجانبى مخصص للنساء ، بينما تشاهد هنا وهناك على جدران المسجد نقوش تتضمن آيات من القرآن الكريم ، وعبارات من بعض الأحاديث النبوية ، وأسماء الله الحسنى ، وأسماء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأسماء كبار الصحابة (رضوان الله عليهم) .

والمحراب الكبير يسمى المحراب العثمانى ، وقد بناه الخليفة الثالث عثمان (رضى الله عنه) منذ عهد النبوة ، وبين هذا المبنى والروضة المباركة (حجرة عائشة الصديقة) يوجد المكان المسمى بـ « روضة الجنة » ، وطبقا للحديث الصحيح فإن نحو ٢٥٠ أو ٣٠٠ مصلٍّ يمكنهم الصلاة معًا فى هذا المكان ، وفى هذه المنطقة يوجد محراب النبى ، ومصلى النبى أى المكان الذى كان يقف فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إماما للمسلمين فى الصلاة ، والمصلى الأصلية أخفيت خلف جدار ، وظهر منها فقط المكان الذى كان يضع فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قدميه المباركتين ، والآن من حالفه الحظ وقف فى هذا المكان وصلى فيه ، فإن رأسه بطبيعة الحال ستسجد فى المكان الذى شهد آثار أقدام النبى (صلى الله عليه وسلم) ..

الله أكبر ! ما أعظم هذا الجمال ، يا لكرمه الواسع ! يعلم الله .. كم من المذنبين ينالون رحمته وغفرانه بشفاعة نبيه الكريم !!

تطور عمارة المسجد النبوى :

أين هذه المصروفات والنفقات زمن العهد النبوى ؟! أرض ضيقة ، غاية فى البساطة ، ثم توسعة المسجد النبوى فى عهد فاتح الشام وإيران عمر (رضى الله عنه) ، ثم حدثت ترميمات للمسجد فى عهد عثمان الغنى (رضى الله عنه) ، والمبنى الحالى بزخارفه وجمالياته أشرف عليه السلطان عبد الحميد خان (يرحمه الله) ، وأجزل الله العطاء لجميع خدام الحرم النبوى .(٢)

يوجد حاليا للمسجد خمسة أبواب ، اثنان فى الجانب الغربى : باب السلام وباب الرحمة ، وواحد فى الجانب الشمالى وهو الباب المجيدى الذى بناه السلطان عبد المجيد خان ، وفى الجانب الشرقى باب النساء وباب جبريل ، ويوجد « بستان » فاطمة فى الصحن ، وهو متصل بالمحراب الشرقى ، حيث توجد أشجار النخيل الخضراء ، ومن تحتها أو فى ظلها بئر ، اشتهر بعذوبة مائه وحلاوته ، وقد قامت الحكومة بتقطيع أشجار النخيل وتنظيف المكان ، كما أغلقت البئر ، ووضعت عليه قفلا .

ويقال إن الخدام كانوا هنا بالمئات والآن قل عددهم كثيرا ، وكان الأغوات فى السابق أصحاب نفوذ كبير ، لكنهم الآن بالإضافة إلى قلة عددهم ، فقدوا كثيرا من نفوذهم وسلطاتهم السابقة ، ويوجد لهم مكان خاص واسع ، أو أريكة يجلسون عليها ، وهى بين باب جبريل وباب النساء ، ويقال إن هذا المكان هو مكان أهل الصفوة (رضى الله عنهم) ، وعلى أعمدة المسجد ، يلاحظ وجود علامات تحديد المسجد فى العهد النبوى .

الروضة الشريفة :

فى الجانب الجنوبى والشرقى للمسجد وتحت المحاريب توجد الروضة المقدسة بقبتها الخضراء ، والتى أرضها حسب قول المحدث الجليل القاضى عياض المالكى بلا نزاع وبلا اختلاف - أطهر - وأفضل بقعة على وجه الأرض (ولا خلاف

أن موضع قبره (صلى الله عليه وسلم) أفضل بقاع الأرض) وحسب قول فقهائنا[٣] هى أفضل من الأرض والسماء ، والكعبة والعرش والكرسى (فما ضم أعضاءه الشريفة فهو أفضل بقاع الأرض بالإجماع حتى من الكعبة ومن العرش) – لباب المناسك ، وإنه (أفضل مطلقا حتى من الكعبة والعرش والكرسى) – الدر المختار.

أين يمكن البحث عن كلمات للتعبير عن لغة العاطفة فيما يتعلق بتلك البقعة المطهرة ، التى ذكرها بهذا الشكل المحققون والمحدثون وحتى الفقهاء من الأصوليين ، وكيف يمكن لمن رأى أن يشرح للآخرين ما رآه ؟ إن خيال الشاعر ارتفع وارتفع حتى قال :

« فرحة العيد يوم شاهدت وجهك

فهنا مكان عيدنا نحن الغرباء المساكين »

لكن من يُرى وجهه لا مقارنة له بالفرح ، والتى تمت التضحية على زقاقه بآلاف الأعياد ، كيف نبحث عن ألفاظ ، وفى أية لغة من لغات العالم نبحث عن ألفاظ للتعبير عن هذا البيان ، وإلى لغة أى أديب من الأدباء يمكن أن نلجأ للعون والمساعدة :

« فى كل ناحية يضىء وجه يوسف .. مثله مثل القمر

هذه جنة ، حتى لو كانت قعر بئر

فى كل مكان كان القلب سعيدا منتشيا

سواء فوق الأفلاك أو فى قعر الأرض

هذا المكان أطيب وأسعد من الدنيا والآخرة

حيث ضمنى معك الحب وجمعتنى بك المحبة . »

حجرة عائشة (رضى الله عنها) :

كان الجميع يعرف أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد انتقل من عالم الناسوت إلى عالم الآخرة من حجرة عائشة (رضى الله عنها) ، وقد ووري جسده الأطهر اللحد فى ناحية من هذا المكان ، وهكذا فمن الأدب أن يتحول الإنسان ناحية الشمال ، فهنا أيضا يرقد الصديق والفاروق .

لقد جرت فيما بعد تغييرات على حجرة عائشة (رضى الله عنها) ، لدرجة أنها صارت تحتل ثلاثين أو خمسة وثلاثين قدما من مساحة الأرض المباركة ، وألحق بها بناء غير واسع ، وربما جعلت على شكل مستطيل ، بدلا من أن تكون على شكل مربع ، تمييزا لها عن الكعبة المشرفة ، وقد أحيطت الجوانب الأربعة كلها بجدران مصنوعة من شبكة من الحديد والصلب ، وفى جنوب وشرق وشمال هذه الجدران المصنوعة من شبكة حديدية ، يوجد باب أيضا ، لكنه مغلق دائما أمام عموم الناس ، إلا أنه يفتح فى مناسبات خاصة جدا للخدام وغيرهم ، وداخل الشباك الحديدية يوجد أساس مملوء بالرصاص فوقه أربعة جدران من الأسمنت الصلب المتين ، يحيط بشكل كامل بحجرة عائشة (رضى الله عنها) ، ولا يوجد هنا أى باب ، وفوق هذا البناء غلاف ، والقبة الخضراء ، تظلل هذا البناء ، الذى يضم بداخلها الحجرة الأصلية التى هى بحالتها منذ العهد النبوى ، والتى أُعيد بناؤها فيما بعد ، وهى أيضا مغلقة من جميع النواحى ، وفوق الجزء العلوى من الجدران الأربعة المصنوعة من شبكة حديدية ، يوجد غلاف أخضر جميل ، موضوع عليها منذ العهد التركى ، ويكون اتجاه الكعبة من المدينة المنورة ناحية الجنوب ، ولهذا جعل باب الروضة الشريفة أو لنقل الباب الرئيس للروضة الشريفة جهة الجنوب ، وهذا ما يطلق عليه « مواجهة شريف » أى المكان فى مواجه « وجه النبى » (صلى الله عليه وسلم) .

وداخل هذا البناء توجد حجرة أخرى متصلة بحجرة عائشة (رضى الله عنها) ، بنى بداخلها ما يشبه المزار ، ويقال إن فاطمة الزهراء قد دفنت فى هذا المكان ، وهناك روايات أخرى شهيرة تقول بأن هذا المزار لسيدة أخرى تدعى الزهراء ، وأن هناك تشابه فى الأسماء ليس إلا ..

كـان القـلق يزداد بعد الوصـول إلى المدينة المنورة ، وكـان القلب لا يقـر له قـرار مـنذ الوصـول إلى المدينة المـنورة ، لهـذا حـاولت الوصـول إلى الروضـة المبـاركة بأسرع مـا يمكن ، ولكن مع هذا الشوق الممزوج بالذوق ، وبالرغم من هذا التمنى ، كان قدم الهـمة يـتأرجح ، وكانت الإرادة تتوقـف ، بل تتكسر ، وتتحطم .. يا إلهى! ما هذا السر الدفين ؟!

الهوامش

(١) ورد فى تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير مجلد ١ ط ٢ دار عالم الكتب بالرياض ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م ص ٦٣٥ النص التالى :

ذكر جماعة منهم الحكاية الشهيرة عن العتبى قال : كنت جالسا عند قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ «وقد جئتك مستغفرا لذنبى ، مستشفعا بك إلى ربى ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبتنى عينى ، فرأيت النبى (صلى الله عليه وسلم) فى النوم فقال : يا عتبى : الحق الأعرابى ، بشره أن الله غفر له.

(٢) انظر ما كتب عن توسعة الحرم النبوى وبخاصة للدكتور محمد العوفى .

(٣) أى فقهاء الحنفية وقد استشهد المؤلف بما ورد فى الدر المختار .

(١١)

القبة الخضراء

خوف ورهبة :

حين صارت قمم جبل الطور مهبطا للتجليات الإلهية ، لم يستطع أطهر الطاهرين ، وأشجع الشجعان موسى الكليم أن يتمالك نفسه ، وكتاب الله الكريم يشهد بأنه فقد وعيه ، وفى ليلة المعراج حين كشف النقاب عن الجمال ، وحسب ما جاء فى الروايات ، فإن ذلك العبد الكامل ، الذى هو أيضا أكمل من الملائكة ، والذى خلق بداخله القلب القوى ، والإرادة الثابتة ، بدأ يشعر بأنه وحيد ، واقتضت الضرورة أن يتمثل أمامه « رفيق الغار » (رضى الله عنه) ، فبدا له حتى يطمئن ..

هذه هى سيرة من هو أطهر من الملائكة ، وأنور من الملائكة ، فإذا كانت قبضة التراب هذه ، وكلها كثافة وغلظة ، وإذا كان هذا العبد الحقير الذى هو فى الظاهر وسخ ، وفى الباطن وسخ ، حين فكر فى أن تطأ قدميه المرتجفتين مسجد رسول الله المطهر ، وأن يتقدم ناحية الروضة المنورة، وواتته الهمة ليطأ بقدميه أعظم مكان لتجلى الرحمة والجمال ، عندئذ لو غاص قلبه ، وغاص فى بحار من الخوف ، نتيجة الإحساس بالمسكنة والذل ، فلماذا الحيرة إذن ؟ ولماذا نعتقد خلاف ما هو متوقع ؟ ولماذا تضحكون و«تتمسخرون» على حال هذا المسكين الضال الذليل الحقير ؟!

العلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى :

لم يتبق على أذان المغرب سوى دقائق ، وشاء القدر ، والحظ الطيب أن ألتقى عند باب النساء ، بأحد الهنود الأفاضل ، وهو العلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى ، شقيق العلامة الشيخ حسين أحمد (خليفة حضرة شيخ الهند رحمه الله) الذى يتردد القلم فى وصفه !

لقد ترك مدينته منذ عشرين سنة أو أكثر ، وقدم إلى ديار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وترك حين ترك وطنه ، ذكريات الوطن ، كان قد أخذ البيعة والإجازة من العلامة الشيخ كنكوهى (بكاف فارسية) ونال من فيض الشيخ المبجل حاجى إمداد الله المهاجر المكى ، وهو يقوم على خدمة خلق الله من الصباح حتى الليل ، وهو أنموذج كامل للإيثار والاستغناء ، والتواضع والانكسار والتفانى ، هكذا كنت قد رأيته فى الهند ، وهذا هو النموذج الذى شاهدته عليه فى الهند .

أما النموذج الثانى له ، فقد رأيته عليه بعد أن أنعم الله علىّ بالوصول إلى هذه البلاد المقدسة ، فتم التعارف بيننا بسرعة ، وبدأ صوت الأذان يجلجل فى الفضاء ، وتذكرت بعض أشعار الشاعر مؤمن ، وأفقت على الواقع ، فلم أكن فى دنيا الخيال مثلما كان الشاعر ، وانتبهت إلى أننى فى « بيت الحبيب » ، ولست فى « بيت الخليل » ، ولو وجدت أى معين لى فى هذه اللحظة ، مهما كان ، فهو نعمة ما بعدها نعمة ، حاولت أن أجعل القلب يتماسك ، وأن أجعل القدم تثبت، وبينما كان المؤذن ينتهى من الأذان ، حركت قدمى ، ومن باب جبريل دلفت إلى داخل الحرم ، ومع أنها خطوات معدودة ، لكن الله وحده يعلم كيف قطعتها فى دقائق ، وفى ذلك الوقت لم يكن هناك ... لا إحساس بالوقت ، ولا إدراك للمسافات ، ولا دراية حتى بالزمن ، ولا خبر بالمكان !!

آداب دخول الحرم النبوى :

يقولون إن دخول الحرم من باب جبريل أفضل ، وهذه الأفضلية قد ظهرت هكذا من تلقاء نفسها دون أى قصد ، وحين وضعت قدمى فى داخل الحرم قرأت هذا الدعاء:

« اللهـم افتح لى أبـواب جنتك وفضلك ، وارزقنى من زيارة رسـولك (صلى الله عليه وسلم) ، كما رزقت أولياءك ، واغفر لى وارحمنى يا أرحم الراحمين ».

كانت هذه أول مرة أضع فيها القدم هنا ، فكيف يمكن أن أتمالك عقلى وحواسى ، لأقول هذا الدعاء ، أو أى دعاء خاص ، إن الإنسان فى حالة الوجد ، وهو غير مدرك لما حوله ، تجرى على لسانه كلمات الدعاء لمجرد أنه يحفظها ، ولا حيلة له فى أن يردد دعاء بعينه ، وهكذا وحين أفقت مما أنا فيه ، أدركت أن الصلاة قد بدأت ، وخلال دقيقتين أو أربع كان الإمام قد انتهى من الركعة الأولى ، فنهضت ودخلت فى الجماعة .

وانتهت الصلاة بالنسبة لى بشكل أو بآخر ، كانت هذه أول صلاة أصليها هنا حيث تعدل الصلاة خمسمائة صلاة ، وألف صلاة .. الله ! الله! انظروا إلى عظمة الكريم الرحيم ، وانظروا إلى رعايته لعباده وتشجيعه لهم .. انظروا لمن وهب وأعطى ! وانظروا أية رتبة أعطى ..

« انظروا إلى هذه الدرجة ! وانظروا إلينا ! »

كان الوقت وقت صلاة المغرب ، وصلاة المغرب تُصلى بعد غروب الشمس ، لكن مَنْ شمس نصيبه تطلع فى هذا الوقت ، ومن فجر رفعته يبزغ فى هذا الوقت ، هل يقول أيضا بأن هذا الوقت هو وقت الغروب ؟! وهل يعتبر هذا الوقت وقت الغروب؟!

وصف الصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

انظروا ! انتهت الصلاة ، انتهى الفرض ، وانتهت صلاة السنن ، وبدأت الألسنة تصلى وتسلم فى كل ناحية على باب الروضة المطهرة : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ .

فإذا صلى العباد وسلموا على الروضة المباركة لمن يصلى عليه الله ، ومن تصلى عليه الملائكة ، فأى حرج فى هذا ؟! الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، الصلاة والسلام عليك يا نبى الله ، الصلاة والسلام عليك يا سيد المرسلين ، الصلاة والسلام

عليك يا رحمة للعالمين ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنك عبده ورسوله ، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة وجاهدت فى الله حق جهاده ، يا رسول الله إنى أسألك الشفاعة وأتوسل بك إلى الله تعالى .»

الأصوات تنطلق من كل ناحية وصوب ، الحروف نفسها ، الكلمات نفسها ، ومن كل جانب تسمع النداءات ، انظر إلى الجموع المتجهة إلى « مواجهة شريف » هؤلاء لا يقفون الآن تجاه القبلة ، ليسوا فى جانب الكعبة المشيدة من الحجارة بل هم الآن فى جانب بابه المطهر الذى هو كعبة القلوب ، وقبلة الأرواح ، حيث تطوف الطهارة بذاتها من حوله .. نحيب إنسان يذيب الكبد ، وعلى شفاه كل إنسان ، صراخ وأنين ، كل إنسان أسير حاله ، وكل ذى نفس غارقة فيما تهوى ! هذا يوم المذنبين ، ويوم الخطائين الذين وصلوا إلى شفيع المذنبين :

« كلما سجدت ، وسجدت ..

كلما ارتفع الجبين أكثر ، فأكثر »

إن لم نؤمن هنا أيضا ، فإلى أين نذهب ، وإذا لم نخضع هنا ، فأين يمكن أن نضع الرأس خضوعا ومذلة ؟! ، إن الوعد الذى ذكر فى كتاب الله « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك .. » « الآية » ليس مجرد ألفاظ فقط !!

زيارة النبى صلى الله عليه وسلم :

هنا يدور كل شىء ، يحدث كل شىء ، يوجد كل شىء : الفاسق مع المشرك ، الفاسق مع المتقى ، الجميع مشغولون بالدعاء ، متجهون ناحية « مواجهة شريف » ، الأمة تقف مكشوفة ، حيرانة ، مشدوهة ، من فرط الهيبة والجلال ، مضطربة ، فقدت حواسها ، صامتة ، ساكتة ، تقف وحدها ، لا دعاء على اللسان ، ولا أمنية فى القلب ، من الرأس إلى أخمص القدم طرأ عالم من الحيرة .!

يا إلهى ! هذا حلم أم واقع ! أين هذا العبد الذليل ، قبضة التراب ، أين هو من هذا العالم الطاهر .. حيث كان يحضر أبو بكر وعلى (رضى الله عنهما) حيث كانا يجلسان ، حيث كان عمر (رضى الله عنه) يرتعد ، يتلجلج وهو يتكلم ، حيث كان حضور الأمين جبريل باعث فخر له وشرف ..

هنا يقف عبد الماجد ابن عبد القادر الدريابادى ، بقلبه المتسخ ، بقلب هو أوسخ القلوب ، يقف دون تكلف ، يقف دون أن يرتعش ! الدماغ حيران والعقل مضطرب ، واللسان صامت ، يعض أصابع الندم ، لا تطاوعه الكلمات ، ولا تتحرك الشفاه ، هنا تعرض الطلبات ، لا يتذكر الدعاء ، ولا يأتى على ذهنه شعر « جامى »[1] فى مدح رسول الله ، أية ولولة فى القلب وقت الذهاب .. ؟! وأية همهمة تلك وقت الخروج ..؟! فى ذلك الوقت فشلت جميع الخطط ، وضاعت الهمم ، واختفى الأنين فجأة ..

كنت أتمتم ، بل أتهته بما أتذكر ، كان ذلك بعض سور القرآن الكريم أو بعض الآيات الكريمة ، أو بعض الأدعية التى كانت تأتى على ذهنى دون محاولة منى أو تفكير ، بل دون فهم أو إدراك ، كانت الألفاظ تتردد على لسانى مثل درس حفظه طفل أخذ يردده ، ثم يعيد ترديده مرة أخرى . .

« العين تتعانق من حركة الرموش »

الشرطة وهيئة الأمر بالمعروف :

على جوانب الجدران الثلاثة ، المصنوعة من الشباك الحديدية ، يقف الجنود السعوديون ، ولا يوجد طريق سهل للوصول إلى الجانب الرابع أى الجهة الشمالية .

تظل أبواب المسجد النبوى مفتوحة منذ آخر وقت التهجد حتى بعد صلاة العشاء ، وبين هذه الأوقات يتم تغيير الحرس، وفى الجهة الجنوبية حيث توجد « مواجهة شريف » يتخذ الحرس احتياطات أكثر صرامة ، ويعين للحراسة هنا أربعة

(١) هو عبد الرحمن الجامى شاعر فارسى معروف .

جنود ، يقفون طول الوقت ، ويكون السماح بالزيارة بشكل عام من هذا الجانب فقط ، ولا يسمح بالزيارة من الناحية الغربية .. وبعد الدخول من باب جبريل، يكون طريق الوصول إلى « مواجهة شريف » من هذه الناحية ، ولا يسمح بالزيارة من هذا الجانب أيضا ...

يوجد بعض رجال الشرطة مهمتهم منع الناس من ارتكاب ما يخالف الشرع فى أثناء الزيارة ، لكن طبيعة رجال الشرطة وأمزجتهم مختلفة ، معظمهم ذو مزاج حاد ، ومتشدد وقلوبهم جامدة لدرجة أنهم لا يتورعون عن دفع الناس بشدة وعنف ، بل ضربهم بالخيزران ، بل لا يتورعون عن الإمساك بالنساء ودفعهن بشدة ، وهناك من الشرطة من هم على عكس هذا ، تراهم طيبى القلب ، متسامحين ، يرون الزوار وهم يفعلون ما يتنافى مع القانون ، فلا يقولون شيئا ، بل يخفضون رءوسهم ، ويستغرقون فى تلاوة القرآن الكريم ، وبعضهم يرى ما يفعله الزوار فيتحول من رقته إلى شمع مذاب .

بالإضافة إلى رجال الشرطة ، يوجد أيضا بعض من يشرفون عليهم ، كما يوجد ثلاثة أو أربعة من رجال هيئة الأمر بالمعروف ، يمسكون فى أيديهم بالخيزران أو العصا الغليظ يلوحون بها ، ويقومون بكل ما يملكون من قوة باستخدام ألسنتهم وأيديهم لتطبيق « الشريعة النجدية الحقة » فى حدود هذا الحرم المبارك !

المزورون وطريقة عملهم :

لا تخلو « مواجهة شريف » فى أى وقت من الأوقات من المشتاقين للزيارة ، وفى هذه الأوقات يحدث - بالطبع - هرج ومرج ، وفوضى وجلبة وضوضاء ،ويزيد الزحام والهجوم فى بعض الأوقات ، لدرجة أن المصلين بداخل المسجد ، وحول المحراب العثمانى المنشغلين بالسنن والنوافل لا يجدون فرصة على الإطلاق للزيارة ، بل ينجون بأنفسهم فى بعض الأوقات ، ويخرجون .

يتولى أمر الزيارة عموما جماعة يطلق عليها «المزورون» والطريقة العامة للزيارة أن يأتى كل مزور بجماعته، ثم يقرأ الصلاة والسلام بصوت عال، فيردد الزائرون هذه الألفاظ من ورائه، لدرجة أن المسجد يمتلئ بصدى هذه الأصوات، وهذا المسلم الذى أمر أمرا واضحا وقطعيا فى قوله تعالى: ﴿ لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ (الحجرات: ٢) يأتى هنا عند «مواجهة شريف» فيصرخ بكل ما أوتى من قوة فى حلقه، وبصوت عال! معتبرا هذا الأمر من كمال العقيدة، ومنتهى التعظيم !!

« أطلقوا اسم الجنون على العقل، يا لعقل الجنون! »

من الملاحظ أن الزائرين القادمين من الخارج يراعون فى الجملة الأدب، وهم على كل حال يبقون فى خوف من أن يرتكبوا ما يتنافى مع الأدب، لكن الأمر المهم، هو هؤلاء المزورون الكرام الذين يحترفون مهنة «التزوير» والذين يعيشون على هذه الأرض الطاهرة منذ مدة طويلة، فليس من الضرورى لهم – فى ظنهم – أن يخفضوا أصواتهم، أو يغضوا أبصارهم، وليس لهم اهتمام بضرورة الوقوف بالضبط عند الناحية الشمالية للروضة المقدسة، وهذا ما يحرص عليه الزائرون فى كل معاملة، فالمزورون لا يهتمون بآداب الشريعة الإسلامية، ولا يحترزون فيما يتعلق بإتمام أمور الزيارة حسب المطلوب شرعا .. والأكثر من هذا هناك ضرورة تستلزم عليهم الحفاظ على آداب المسجد، وبخاصة احترام المسجد النبوى! فهم يظنون أنه بالنسبة لهم، وهم «جيران رسول الله (صلى الله عليه وسلم)»، فإن كل سلوك جائز، وكل تعامل مسموح به مع هؤلاء الناس «ضيوف رسول الله (صلى الله عليهم وسلم)» الذين قدموا من على بعد آلاف الأميال. !!

التأدب وقت الزيارة :

ينقل بعض أكابر أهل القلوب (إحياء العلوم للغزالى) عن حضرة أويس القرنى رأس جماعة العاشقين، أنه حين جاء لزيارة المدينة المنورة، وصل إلى عتبة الحرم (باب جبريل) فقال أحدهم: انظر هنا أمامك مرقد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)،

فحين سمع هذا خر مغشيا عليه ، وحين أفاق قال : أعيدونى من حيث جئت ، إننى لا يمكن أن أبقى لحظة واحدة فى تلك المدينة التى يوجد فيها قبر الحبيب ، ولا يوجد فيها الحبيب نفسه !

من أعظم من أويس عشقا وولها ؟! من أكثر منه غرقا فى الحب والعشق ؟! من أكثر منه جنونا ؟! من .. ومن ؟!

كان هذا مراعاة الأدب مع العشق ، وكمال الاحترام مع العشق ! واليوم فى حرم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أى فى مسجد رسول الله ، وفى روضة رسول الله ، إذا ما أساء أحد إلى شريعة رسول الله ، ونال من حقوق رسول الله، وانتقص من قدر آداب زيارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأخبرونا يا من تدعون العشق والمحبة ! أخبرونا بالله عليكم ما العمل ؟!

هل نسلم بالأمر فرحين مسرورين ؟! هل نحيل الأمر إلى القضاء والقدر مع امتلاك قوة المواجهة ؟! أم أن حسن العقيدة وسلامتها يفرضان علينا أن نقول إن الأسود أبيض وإن الأبيض أسود؟! هل فهم أحد من الصحابة أو التابعين أو مجتهدى الفقه أو المحدثين أو أكابر الصوفية حسن العقيدة بهذا المعنى ؟ !

قال جلال الدين الرومى فى المثنوى :

« إذا وجدت » أمر الحق « فحطم أيضا » « نقش الحق »

واضرب « زجاجة الصديق » بـ« حجر الصديق »

فهل كان جلال الدين الرومى يجهل آداب العشق والمحبة . ؟ !

ملحوظة على الباب الحادى عشر:

لو نال الضعيف ما للقوى من قوة ، ووجد الكفيف ما للمبصر من عيون تبصر ، ولو وجد المذنب عونا من لدن المتقى ، فقد وجد العون الأكبر .

كتب العبد الفقير مدير صحيفة « سچ » فى آخر مقال من سلسلة مقالات « سفر حج » إن رؤيته للناس فى المسجد النبوى يقفون أمام « مواجهة شريف » ، وهم يتصايحون أمر متعب ومؤلم فى الوقت نفسه ، وبعد عدة أيام من نشر المقال كتب عاشق إلهى ميرتهى (مترجم معانى القرآن الكريم) فى مؤلفه الجديد « تذكرة الخليل » وهو عن سيرة حياة العلامة الشيخ خليل أحمد أميتهوى (شارح أبى داود ومدير مدرسة مظاهر العلوم فى سهارن بور) وهو شيخ جليل ، يجمع ما بين الشريعة والطريقة ، وقد وردت هذه الفقرة عن الشيخ وأراها فرصة لكى أثبتها هنا بنصها :

« عند زيارة الروضة المحمدية ، طرأت على شيخنا حالة عجيبة ، لم يكد الشيخ يقف أمام أو بالقرب من « مواجهة شريف » حتى تقدم بخطوات متأنية ، فى أدب جم ، وفى خوف وخشية ، ثم وقف بعيدا ، كأنه مجرم سجين ، وقرأ الصلاة والسلام ، فى خشوع كبير ، ثم ذهب .. لقد تأذى كثيراً من الزائرين الذين كانوا يرفعون أصواتهم ، ويقرءون الصلاة والسلام وهم يصيحون ، بطريقة خارجة عن الأدب ، وقال إن الصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمثل هذا الصياح أمر خارج عن حدود الأدب ، لهذا يجب أن تكون الصلاة والسلام على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بصوت هادئ . وقال أيضا : مهما خفض الزائر صوته عند الصلاة والسلام على رسول الله فى حدود المسجد النبوى فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسمعه . (ص ٢٦٠)

(١٢)

الزيارة وآداب الزيارة

أنواع المحبة :

إن مسألة التوحيد ، مسألة واضحة ومستقيمة ، لكن الدهرية والملحدين ، وأيضا من يدّعون عبادة الله ، جعلوا منها أمرا عجيبا ، وبالمثل فإن من ينكرون أمر أداء الحقوق فى روضة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثلهم مثل من يقرون بها أيضا ، وقعوا فى مغالطات عجيبة ، فإذا وصل لفظ « محبة » من أية جهة فى أذن بعض الناس ، حدثت مصيبة .. وانظر ماذا يحدث ؟ تحول كل حرام عندهم إلى حلال، وصار كل عيب عندهم فنا ، فهم لا يفكرون قليلا ، ولا ينظرون كيف تبدو المحبة من حولهم فى كل وقت بصور مختلفة لا حصر لها ، وفى قوالب متعددة :

تظهر المحبة فى شكل محبة الزوجة ، وهذا نوع ، وتظهر فى شكل محبة الأولاد ، وهذا نوع ، ومحبة الأولاد تختلف عن محبة الوالدين ، ثم محبة الأولاد أيضا لها شأن آخر فطالما كان الطفل صغيرا ، نحمله فى حضننا ، نهدهد عليه ، نلعب معه ، نداعبه ، وحين يشب عوده ، ويصبح بالغا ، نبدأ فى معاملته بأدب بشكل آخر ، فيختلط الحب مع الأدب ، وتبدأ طريقة أخرى من التعامل معه .. والآن إذا قام شخص ما ، فسلك مع والديه العجوزين مثلما يسلك مع طفله ، فيداعبهما ويهدهد عليهما ، ويسلك معهما ما شابه ذلك من سلوك تجاه أطفاله ، فهل هذا دليل على حبه لهما أم أنه دليل على الحمق والجنون ، والخبل الواضح البين ؟!

محبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

ثم نأتى إلى مرتبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهى مرتبة أسمى وأرفع من مرتبة الأب ، والأم ، والشيخ والأستاذ ، والمرشد ، والحاكم ، وكل مخلوق ، وعلاقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هى أسمى وأرفع من العلاقة مع أى إنسان آخر ، فكيف يمكن بأىْ حال من الأحوال أن نصرف النظر عن أى شىء بسيط ، فيما يتعلق بمن كانت هذه رتبته ومن كان هذا شأن عظمته؟!

فإطاعته (صلى الله عليه وسلم) هى تماما إطاعة لله تعالى ، ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء : ٨٠) ، والأمر بإطاعته لم يرد فى القرآن الكريم مرة واحدة ، بل جاء مرة من بعد مرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ (آل عمران : ١٣٢)، وجزاء اتباع الرسول هو محبوبية الله لنا : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .﴾ (آل عمران : ٣١)،

وقد ورد أكثر من مرة الإرشاد إلى آداب مجلسه صراحة وتأكيدا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ (الحجرات :٢) ، فالخوف كل الخوف أن يرتكب المسلم مثل هذه الجهالة ، فيضيع عمله : ﴿ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات:٢)

ومن يخفضون أصواتهم أمام مظهر نور الله الرسول الحبيب (صلى الله عليه وسلم) ، إنما هم الأتقياء المتدينين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . ﴾ (الحجرات :٣)

ومن يرفعون أصواتهم بالنداء من وراء الحجرات ، فقدوا عقولهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات :٤)

وممنوع أن ننادى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كما ننادى عامة الناس : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا. ﴾ (النور : ٦٣) .

لا يمكن أن نقارن بين حقوق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحقوق غيره من الناس الآخرين ، فالرسول (صلى الله عليه وسلم) فى نظر المؤمن أعز عليه من روحه وقلبه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ . ﴾ (الأحزاب : ٦)

فمن حُفظت آداب مجلسه عند الخالق ، وليس عند الخلق ، وعند الرب ، وليس عند العباد ، ومن حُفظت قواعد وضوابط زيارته ، فى القرآن الكريم ، بالتفصيل ، وإلى الأبد، ولجميع الأجيال القادمة ، إذا ما جاء زائروه من بعيد ، ولم يعملوا طبقا لهذه القواعد والضوابط عن جهل أو عن إهمال ، وبدأوا فى تطبيق الطرق التى أوجدوها بأنفسهم بدلا من اتباع دستور العمل الربانى ، فماذا يمكن أن نفعل لهؤلاء سوى التأسف والحسرة على خيبة نصيبهم؟!

آداب الزيارة عند الفقهاء :

إن إرشادات فقهاء الحنفية رحمهم الله فيما يتعلق بآداب زيارة الروضة الشريفة ، واضحة وصريحة ، لا اختلاف فى أى منها ، يقول العلامة رحمة الله السندى « لباب المناسك » ويقول شارحه ملا على قارى فى المنسك المتوسط :

« ثم توجه بالقلب والقالب ، مع رعاية غاية الأدب تجاه الوجه الشريف متواضعا خاضعا خاشعا ، مع الذلة والانكسار والخشية والوقار والهيبة والافتقار ، غاضً الطرف ، مكفوف الجوارح ، فارغ القلب ، واضعا يمينه إلى شماله ، مستقبلا للوجه الكريم ، مستديرا للقبلة ، تجاه مسمار الفضة على نحو أربعة أذرع على الأقل .... »

هذا مكان الأدب ، موضع الهيبة ، وقت الحاجة والاحتياج، مقام الخوف والخشية والارتعاد ، لقد أكد جميع الفقهاء على الهيبة والأدب والوقار والخشية ، والمسكنة والتذلل ، وأهم ما أكدوا عليه ، هو ألا تتشبث أو تحاول تقبيل أو لمس الشبكة ، وحذروا حتى من الاقتراب كثيرا من الشبكة، إذ يجب على الزائر أن يترك مسافة معقولة مع كمال الأدب ، يقول صاحب فتح القدير :

« ثم يأتى القبر الشريف ، فيستقبل جداره ، ويستدبر القبلة على نحو أربعة أذرع. » .

وجاء فى الفتاوى العالمكيرية :

« ثم يدنو منه ثلاثة أذرع أو أربعة ، ولا يدنو منه أكثر من ذلك ، ولا يضع يده على جداره التربة فهو أهيب وأعظم للحرمة ، ويقف كما يقف فى الصلاة .»

وفى الطحاوى ، في شرح الدر المختار :

« يدنو منه قدر ثلاثة أذرع أو أربعة ، ولا يدنو أكثر من ذلك ، ولا يضع يده على جدار التربة فهو أهيب وأعظم .»

وجاء فى فتاوى قاضى خان :

« وإذا أتى المدينة يستعد لزيارة قبر النبى (صلى الله عليه وسلم) ، يأتيها بالسكينة والوقار والهيبة والإجلال ، لأنه محل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومهبط الوحى ، ونزول الملائكة . »

ولا يظنن أحد أن هذه الأحكام والإرشادات قال بها فقط الفقهاء المتشددون ، فإن ما قاله أهل « المحبة » أيضا هو نفسه ما ذكرناه من قبل ، بل زادوا عليه أيضا ، من هو أعظم من الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى فى جماعة أهل القلب وأهل المحبة ، لكنه يقول :

« ولا يضع يده على جدار الحظيرة ، ولا يقبلها ، فإن ذلك وأمثاله من صنع الجاهلين ، وليس من سيرة السلف الصالحين ، بل يدنو على قدر ثلاثة أذرع أو أربعة » (ما ثبت بالسنة) .

واستمع إلى تفصيل هذا الإجمال على لسان الشيخ نفسه :

« وعليك أن تظهر بداخلك ، بقدر الإمكان والاستطاعة ، الخضوع والوقار والذلة ، والانكسار ، ولا تتوان عن ذلك لحظة واحدة ، ولتعلم بأن السجود و«تمريغ» الوجه فى التراب ، واستلام وتقبيل الشباك الشريف ، ومثل هذه الأعمال لم يسمح بها الشرع أبدا ، ولا يجيزها ، وعليك أن تتجنب النظر إلى ما بالداخل ، ففى هذا مخالفة

للأدب ، ويجب أن تعلم بأن الأدب الحقيقي ، هو اتباع أمر رسول الله والامتثال له ، وكل ما يصدر منك خلاف هذا فهو باطل. (جذب القلوب إلى ديار المحبوب « بالفارسية » الفصل السادس عشر ، في آداب الزيارة) .

وها هو تاج العلماء الربانيين والصوفية الكرام الإمام الغزالي يقول :

« وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله ، بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام. » (إحياء علوم الدين ، أسرار الحج ، باب رقم ٢٠)

وبعد عدة صفحات يقول :

« وأما زيارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فينبغى أن تقف بين يديه كما وصحناه ، وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره ، إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا ، كما كنت ترى الحرمة فى أن لا تمس شخصه، ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلا بين يديه ، فكذلك فافعل ، فإن المس والتقبيل لمشاهد (القبور) عادة النصارى واليهود . »

من هو أكثر من القاضى عياض المالكى من بين جماعة المحدثين مدحا لجمال الرسالة ؟! وأى كتاب أفضل من كتابه الجامع : كتاب الشفاء عن حقوق الرسالة ، يقول فى كتابه هذا ، وفى شرحه يقول ملا على قارى :

« ... (ويدنو) أى يقرب إلى القبر قربا يناسب الأدب (ويسلم لا يمس القبر) وكذا جدار قبة وشبكة حجرته عليه السلام (بيده) لا يضمه لعدم وروده عن الصحابة الكرام ، ولأنه أقرب إلى مقام الأدب ولأن ذلك من عادة النصارى على ما نقله الغزالى. » (الشفاء المجلد الثانى ، الباب الرابع فصل فى حكم زيارة قبره (صلى الله عليه وسلم) .

والخلاصة أن هذه ليست مسألة خلافية بين أى من الأحناف أو الوهابية أو المقلدين أو غير المقلدين ، فأكابر أهل السنة جميعهم ، وجميع الفرق متفقون على هذا ، وكل من كتب منهم عن آداب الزيارة ، ذكر ما أكدناه هنا .

أخطاء يرتكبها الناس فى الزيارة :

لكن ما هو شأن التطبيق ، وما هو شأن العمل ؟ آه ! أين نحن اليوم ممن كان عليه أسلافنا ؟! وأى شىء الآن يكون فيه عمل المسلمين مطابقا لتعاليم الإسلام ، حتى نبحث عن مدى تطبيقهم لتعاليم الإسلام فى هذا الأمر الذى أشرنا إليه من قبل ؟!

يعلم الله كم عدد زوار المسجد النبوى الذين يأتون من الصباح حتى المساء ، ولا علاقة لهم بالأدب ، ولا يعرفون معنى التمييز ، ناهيك عن ذكر الوقار والسكينة والانكسار والمسكنة !

يعلم الله كم من الزوار يأتون حتى من غير وضوء ، لا يعرفون شيئا من الآداب العامة ، يرفعون أقدامهم ، ويدخلون من أبواب المسجد النبوى ، ثم يجرون ، ويهرولون هنا وهناك ، وهم يتلفتون من حولهم ، يحركون عيونهم فى حيرة إلى جميع الاتجاهات ، ثم يندفعون ناحية الروضة الشريفة ، وحين يصلون إليها يريدون أن يمسكوا بالشباك أو حتى يدخلوا رءوسهم من بين أعمدة الشباك ، يضعون أعينهم على الجنود السعوديين ، بينما يمسون بأيديهم وأفواههم قضبان الشباك ، ويأخذون فى النظر إلى الداخل فى جسارة ، بعيون حائرة ، وعند وقت السلام يصيحون ويصرخون خلف المزورين الجهلة فى المسجد المطهر الذى كان عمر الفاروق يخشى أن يرفع صوته فيه.

وهكذا يجد المصلون فى المسجد النبوى صعوبة كبيرة فى أداء الصلاة ، كما أن من يتلو القرآن الكريم يصعب عليه متابعة التلاوة ، بعد ذلك يبدأ التشاور بينهم وبين المزورين ، والمقاولة على الأجر ..

إن قراءة هذه السطور يؤذى القراء ، وكتابتها أيضا تؤذى كاتبها أكثر !

على كل حال إن ما لا يجب أن يحدث ، يحدث ، ويحدث أيضا ما لم يكن ينبغى أبدا أبدا أن يحدث ، إن من عظمة الرسول الكريم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، أنه كان عليه الصلاة والسلام يستر عيوب الجميع ، كما أن الرحمن الرحيم الرب الغفار، مالك الملك ، ورب كل شىء ، كان ستارا للعيوب ، وكان يمهل

المذنبين والخطائين : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾
(فاطر : ٤٥)

طريقة الزيارة الصحيحة :

لكن لا بد من القول بأنه إن لم يكن من بين هذه الألوف المؤلفة مئات ، فلا بد أن يكون من بينهم عشرات من أصحاب القلوب ، وأصحاب البصائر الذين يمكن أن يدركوا إلى أى بلاط حضروا ؟ ويمكنهم أن يدركوا إلى أين جاء بهم نصيبهم ؟ فإذا رأيتهم ، رأيتهم وقد وقفوا أحيانا على الجانب الأيسر من «مواجهة شريف » (أى أمام وجهه الشريف) وأحيانا عند مصلى النبى ، وأحيانا بالقرب من المنبر النبوى، وأحيانا عند المكان القريب من أسطوانة عائشة رضى الله عنها ، وأحيانا يلتصقون عند أسطوانة أبى لبابة (رضى الله عنه) ، وأحيانا عند أى ركن مبارك من المسجد المبارك ، يقفون فى هدوء ، صامتين ، لونهم مخطوف من على وجوههم ، يبكون ، وينتحبون ، وينشغلون بالمناجاة والدعاء ، ويخرون سُجَّدًا ، أو يركعون ، فيطيلون الركوع ، وينشغلون بالتلاوة ، أو يغرقون فى قراءة الأذكار ، أو فى التسبيح والتهليل ، يتذكرون أخطاءهم واحدا بعد الأخر ، يعددون ذنوبهم ، يطلبون رحمة من لا يرد أحدا من على بابه ، ومن رحمته أن مغفرته بلا حساب ، ورحمته أيضا بلا حدود ، يطمعون فى كرمه الذى لا نهاية له ، يفكرون فيمن سيشفع لهم يوم القيامة ، ليطمئنوا قلوبهم المحطمة ، يدعون لأهلهم ولأقاربهم ولأصحابهم ولشيوخهم ، يدعون للأمة الإسلامية .. تخرج من صدورهم الآهات ، تسمع منهم نداءات مكتومة مملوءة بالحسرات ، والخلاصة أنهم يقدمون هدية عبوديتهم لربهم بالطريقة التى أمر بها محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

من يدرى ماذا يطلب هؤلاء ؟! من يدرى ما سيناله هؤلاء ؟! لا نهاية لكرم الكريم المعطى ! فلماذا إذن يتوقف الطالبون والسائلون عن الطلب والسؤال ؟! ولماذا لا يُخرجون من قلوبهم ما بها من همم ؟ فالمعطى المنعم لا يغضب إذا ما ألح عليه

الطالب ، بل يفرح كلما ألح عليه عبد بالسؤال ، وكلما كان عبده حريصا على الطلب ! الله أكبر!

إن الحرص يكون حين يفتقد الاطمئنان ممن تلتقى به، لكن من ذا الذى يمكنه أن يقدر شفاعة « حرصه » ، وشفقة « حرصه » إذا ما سألنا من يعطى دون حساب ، ومن يكرم بلا حدود ..!

إن المعطى لا حدود له ، وطريقة فيضه خارجة عن طاقة البشر ، لكن من يطلب ليس غير محدود ، وهو ليس بإله بل إنسان ، فمن يستطيع أن يقدر « حرص » المحدود المتناهى ، حرص العبد البشر على الشفاعة وعلى الشفقة ؟!

اليوم وفى هذا المكان .. الطالبون هم من أمة الحريص على الشفاعة الذى نال لقب ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨)

الله .. الله ! من ذا الذى يمتلك فى لغته قوة ، ومن ذا الذى يمتلك قلمه قدرة حتى يستطيع أن يفصل هذا الكلام الجميل ، وحتى يستطيع أن يشرح هذه الإشارات الموجزة !!

ملحوظة على الباب الثانى عشر

(رسالة)

آداب الزيارة النبوية

يا سيدى هذا ما أردت إيراده فى آداب زيارة النبى (صلى الله عليه وسلم) :

١ - رأى سيدنا بلال النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المنام يقول له : يا بلال لماذا جفيتنى ، فلم تزرنى ؟ عندئذ قام بلال وسار من الشام إلى المدينة ، فوصل المدينة، وحين وصل إلى الروضة الشريفة أخذ يبكى حتى غشى عليه ، ولمس بوجهه المزار الأقدس (حافظ بن عساكر عن أبى الدرداء) .

٢ - رأى مروان رجلا يضع وجهه على المزار الأقدس فقال أيها الرجل ماذا تفعل ؟ فرفع الرجل رأسه فإذا به أبو أيوب الأنصارى ، فأجاب مروان بهذه الكلمات : نعم جئت عند رسول الله ولم آت هذا الحجر. (رواه أحمد فى مسنده)

٣ - أخرج البزازى فى مسنده أن سيدنا عمر (رضى الله عنه) خرج إلى منبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإذا معاذ بن جبل قائم يبكى عند رسول الله (صلى الله عيه وسلم) .

(محمد أفضل سلاجنبورى الدكن - ١٢ - آذر)

صحيفة سچ :

وصلتنى هذه الرسالة اليوم ٢٢ من أكتوبر فى أثناء السفر، ومضى على عودتى

إلى الوطن شهر ونصف ، لم أتمكن خلالها من الرجوع إلى الكتب ، إن ما كتب فى صحيفة سچ ، ونشر فى عدد ٢٤/٢٥ فى ملحق الحلقة الثانية عشرة من سفر حجاز عن آداب زيارة روضة الرسول ، أراد الأخ كاتب الرسالة أن يعرضها بذكر الروايات التى أثبتها قبلا ، لكن من بين الروايات المذكورة ، تأتى مسألة الرواية الثالثة ، وهى لا علاقة لها بالمسألة التى نبحث فيها، فقد ورد فيها فقط أن معاذ (رضى الله عنه) ، كان يبكى وهو واقف.. بالقرب من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا صحيح ، ولا يتعارض مع ما ورد من أمور على الإطلاق ، وتبقى الروايتان الأخريان ، وهما الروايتان اللتان ذكرتا نقلا عن ابن عساكر ومسند أحمد ، فلو أن هاتين الروايتين رويتا بأية صورة (ومعذرة لكاتب الرسالة فلم يسبق لى التعرف عليه وإلا فإنه يسلم بصحتهما وثوقا به) ففى البداية من المعروف المشهور أن رجال ابن عساكر ومسند أحمد ليسوا مثل رجال الصحاح ، ولهذا لا يعتمد كثيرا على سند هذه الروايات ، ولكن إذا افترضنا أنها كلها صحيحة ، فإنه يمكن إرجاع ذلك إلى شدة محبة بلال (رضى الله عنه) وأبى أيوب ، ورقة مشاعرهما ، مثلما ورد فى الرواية عن بلال أنه «خر مغشيا عليه» وهذا لا يمكن أن يقدم حجة وسندا للآخرين ، وقد نشرت صحيفة سچ ما ذكره القاضى عياض ، وملا على قارى ، والإمام الغزالى والشيخ عبد الحق الدهلوى وفقهاء الحنفية ، إن للشريعة قانونًا عامًا ومضبطة عامة ، من يمكنه أن يعترض على ما قد يطرأ على أفعال الأحبة - مضطرين - من غلبة الشوق وشدة الحماس ، لكن لا شك أن الأمر يختلف بالنسبة للآخرين ممن لا علاقة لهم « بالحال » فاتباعهم ، تقليدا ، ورسما غير جائز ، ولا يمكن أن تقوم مضبطة الشريعة أو نظامها على فعل هذه المستثنيات ، إن قتل الخضر لبرىء كان جائزا ، لكن لو قام أحدنا فقتل بريئا ، فإنه يعد فى نظر الشريعة قاتلا .

(صحيفة سچ مجلد ٥ عدد ١٦)

(١٣)

روضة الجنة

قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

برّد الله قبور السابقين الأولين ، كيف كان حفظ قبره المبارك ، وصيانته بعيدا عن أنظار الناس ، إن جسد الرسول الأمين ، الذى أرسل بهذا الدين المتين ، موجود مع وزيريه الصديق والفاروق ، فى حجرة عائشة (رضى الله عنها) ، وقد ظلت هذه الحجرة مدة سبعين أو ثمانين سنة بحالتها الأصلية مزارا للخلائق ، وظل الناس يشاهدون جمال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حتى قبل نهاية القرن الأول الهجرى ، حين قام عمر بن عبد العزيز ، والى المدينة ، بناء على أمر الخليفة الوليد ، بعمل بناء حجرى قوى يحيط بالحجرة، ولم يجعل له بابا ، كان قبره الأطهر فى حجاب، والآن صارت هذه الحجرة الشريفة ضمن هذا الحجاب ، واضطر المشتاقون لزيارة جماله ، إلى أن يقتنعوا بزيارة هذا البناء الخارجى الذى يحوط الحجرة ، وبعد أيام بدأ التفكير فى زيادة الاحتياطات للحفاظ على قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فأحاطوا الغرفة ببناء آخر ، أحاطوه بأعمدة حجرية ومحاريب ، وأقاموا القبة الخضراء على هذه المساحة ، ثم كتبوا على هذه الإحاطة الكلمة الطيبة أى الشهادة ، وحول جوانبها الأربعة ، وعلى بعد ذراعين أقاموا جدرانا على شكل شبكة من الفولاذ ، والآن لا يوجد أمام الزائرين سوى هذا الشباك المقام من الفولاذ .

وما يشاهد اليوم فى القرن الرابع عشر الهجرى ؟ العشرين الميلادى من أوله إلى آخره ضرورى ومناسب ، فإذا كان قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجودا هكذا

فى مكان مكشوف بعيدا عن هذه الحجب ، فماذا سيحدث يا ترى للبعيدين عن الشريعة، لأهل الهوس وأهل البدعة ، الله وحده يعلم .. ماذا يمكن أن يحدث ، وماذا قد يحدث من عذاب لأهل النظر !! ثم إنه بالإضافة إلى ذلك فهناك مصالح أخرى متعددة من وراء ذلك ، يمكن أن يفهمها كل لبيب .

روضة الجنة :

انتهينا من الزيارة ، وانشغلنا بالسلام والأذكار ، ثم اتجهنا إلى هذا الجزء من المسجد الذى قال عنه صاحب اللسان الأطهر :

« ما بين بيتى (أو قبرى) ومنبرى روضة من رياض الجنة »

وبناء عليه فقد أطلق على هذا المكان أيضا « روضة » وتبدأ حدود الروضة من هناك حيث الشباك الموجود ناحية قدمه المبارك ، وتنتهى عند المنبر ، وهى مسافة تصل إلى نحو ٢٥ أو ٣٠ قدما تخمينا ، ويقال إن هذا المنبر بناه السلطان مراد ، لكنه وضع فى المكان نفسه الذى كان فيه المنبر النبوى ، وبين المنبر والشباك ، وعلى مسافة ثلاثة أذرع تقريبا ، يوجد محراب النبى ، والمصلى النبوى .

إن الأماكن التى صلى فيها أعبد العابدين ، وسجد فيها وركع فيها ، وأمَّ المسلمين فيها ، لا يمكن أن يعبر عن نورانيتها بالكلمات ، لقد اختلفت أقوال الشارحين عند شرحهم للحديث ، يقول بعضهم إن هذه البقعة من الأرض مثل روضة من رياض الجنة ، من حيث نزول الرحمة ، والحصول على السعادة ، ولهذا يقال لها « روضة الجنة » ويقول البعض إن الصلاة هنا مستجابة ، والعبادة مقبولة تماما، ولهذا السبب ينال الإنسان الجنة ، ولهذا السبب أطلق عليها روضة الجنة ، ويقول بعض شارحى الحديث إن هذا الإرشاد النبوى يؤخذ على ظاهره ، أى أن هذه البقعة هى قطعة من الجنة حقيقة ، ويوم القيامة ستحمل بذاتها ، كما هى إلى الجنة ، وقد نقل ابن حجر فى « الفتح البارى » هذه الشروح والتأويلات ، وكل منها صحيح تماما ، فالعبادة إن لم

تقبل هنا ، فأين يا تُرى تقبل ؟! ونزول الرحمة ، ونيل السعادة إن لم يحدث هنا ، فأين يمكن أن يحدث؟

هذا كله صحيح لكن المفهوم الأصح هو الذى ورد فى النهاية ، سواء وافق على هذا الرأى أحد أم لم يوافق ! إلا أن سعداء الحظ الذين نالوا شرف زيارة هذه البقعة ، قلوبهم تصرح بهذا جهاراً ! وهم يوافقون على هذا ، وهم يدركون أنه لا يمكن أن توجد على وجه الأرض مثل هذه البقعة المباركة ، ومثل هذا الجمال ، ومثل هذا الحسن ، ومثل هذه الجاذبية .. فهذه البقعة الجذابة ، وهذه البقعة المعمورة بالنور، لا يمكن أن يوجد لها مثيل على وجه هذه الأرض الفانية ، وحين يقال : الأرض غير الأرض ، فسوف يتم حفظها - إن شاء الله - كما هى ، وسوف تحمل هناك حيث يشاء رب العالمين !

أسطوانات الرحمة :

هذا ليس مجرد نداء من القلب ، وهذا ليس مجرد فتوى يصدرها القلب ، فبعض المحققين الكرام من الشيوخ السابقين قد قالوا بهذا القول أيضا ، والشيخ الدهلوى نقل الحديث السابق ونقل شروحه ثم كتب :

« وبحث هذا هو أن الكلام محمول على حقيقته ، ما بين حجرة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ومنبره الشريف ، روضة من رياض الجنة هى بمعنى ، أنها سوف تنقل إلى الفردوس الأعلى يوم القيامة ، ولن تفنى مثلها مثل بقية بقاع الأرض ، كما نقل ابن فرحون وابن جندى عن الإمام مالك ، وباتفاق جماعة من العلماء على ذلك ، كما أن الشيخ ابن حجر العسقلانى ، وأكثر علماء الحديث يرجحون هذا القول ، وابن حمزة وهو من كبار علماء المالكية يقول من المحتمل أن تكون هذه البقعة الشريفة بعينها روضة من رياض الجنة ، أرسلت من هناك إلى دار الدنيا ، كما قيل فى شأن الحجر الأسود ، ومقام إبراهيم ، فبعد القيامة يعود كل منها إلى مكانه الأصلى » (جذب القلوب إلى ديار المحبوب الباب الثامن)

ويؤكد الشيخ بنفسه بعد نقل ما نقل من آراء على هذا الأمر حسب توقعه :

« وهذا المعنى من وجه الحقيقة جامع لجميع المعانى التى قالها الآخرون. »

وقد ورد فى بعض الكتب رواية نقلا عن البيهقى أنه فى كل صباح ينزل سبعون ألفا من الملائكة على روضة الجنة هذه ، تظل تسبح وتذكر حتى المساء ، ثم تعود بعد ذلك ليأتى سبعون ألفا من الملائكة فتصلى وتسبح حتى الصباح ، فى هذه الرواية ورد ذكر سبعين ألفا من الملائكة ، وهذا رقم محدود ومعين ، لكن العيون التى شرفت بمشاهدة جمال هذه الروضة ، مستعدة لتصديق هذه الرواية ، فآلاف ومئات الآلاف ، بل ملائكة لا عدد لهم ولا حصر لهم ، تضىء فى كل وقت ، وفى كل لحظة بقعة النور هذه ، بنور أعظم من كل نور ، برحمة الله ، وببركة الله !

يوجد داخل هذه الروضة أيضا ثمانى أسطوانات ، يقال لها « أسطوانات الرحمة » والصلاة عندها لها فضائل خاصة ، كما أن الصلاة فى أى مكان داخل هذه الحدود ، صلاة فى الجنة ، لكن إذا تمكن الإنسان دون مزاحمة أو مشاحنة أن يصلى عند إحدى هذه الأسطوانات ، فسبحان الله ، نور على نور ! !

١ - الأسطوانة المحلقة : وهى الأسطوانة الموجودة خلف مصلى النبى (صلى الله عليه وسلم) تماما ، كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقف فى هذا المكان قبل أن يعملوا له المنبر ، فيخطب فى المسلمين خطبة الجمعة ، وحنانة (جذع النخلة) الذى بكى على فراق رسول الله بعد إعداد المنبر ، كان فى هذا المكان بالضبط .

٢ - أسطوانة الحرس أو أسطوانة على : عند هذا المكان كان يجلس حرس الصحابة الكرام ، وكان على بن أبى طالب هو أكثر من كان يتولى الحراسة ، وكثيرا ما كان يصلى فى هذا المكان.

٣ - أسطوانة الوفود : وهى فى المكان الذى كانت تجلس فيه الوفود التى تأتى من الخارج للقاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فكان (عليه الصلاة والسلام) يلتقى بهم فى هذا المكان .

٤ - أسطوانة أبى لبابة (رضى الله عنه) : وأبو لبابة من الصحابة المشهورين ، لم يذهب للمشاركة فى الجهاد ذات مرة ، ثم ندم بعد ذلك ندما شديدا ، ووصل به الإحساس بالندم إلى أنه ربط نفسه بأسطوانة من أسطوانات المسجد ، وفى النهاية وحين رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الجهاد ، ونزل الوحى ببراءة أبى لبابة ، قام الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ففك قيده بيده الشريفة .

٥ - أسطوانة السرير : حيث كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجلس أحيانا عند الاعتكاف .

٦ - أسطوانة جبريل : وكثيرا ما كان ينزل جبريل بالوحى على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى هذا المكان .

٧ - أسطوانة عائشة : وهذا المكان الآن مصلى ، وقبل اختيارها كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد صلى فيها الصلوات عدة أيام ، وذات مرة قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « فى مسجدى مكان لو عرف الناس فضله لاقترعوا عليه » ، ومنذ ذلك الوقت ، بدأ الصحابة يختارون لأنفسهم هذا المكان ، وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرت عائشة (رضى الله عنها) ابن أختها عبد الله ابن الزبير بهذا المكان ، ولهذا أطلق عليه أسطوانة عائشة .

٨ - أسطوانة التهجد ، وهى خلف المقصورة الشريفة (أى فى الجدار الشمالى) ويقال إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يصلى التهجد فى هذا المكان ..

الصلاة والدعاء فى الروضة :

وإذا وجد الإنسان أى مكان فى روضة الجنة ، فليعتبر هذا من حظه الطيب ، لكن لا يجب أن يزاحم الآخرين فى أماكنهم ، أو يخطف مكان أحد ، فهذا أمر يتنافى تماما مع آداب المسجد ، ووقار الحضرة النبوية ، والحقيقة أنه لا ضرورة لذلك ، وفى وقت الزحام الشديد أيضا ، وليعتبروا هذا من كرامة المكان ، فإن كل مشتاق ، وكل من يتمنى ، سيجد لنفسه مكانا فى هذه البقعة المحدودة ، بينما مساحتها لا تتسع

إلا لمائتين وخمسين أو ثلاثمائة مصلٍ ، ولهذا فقد يتطلب الأمر الصبر والانتظار قليلا ، لدرجة أن مصلى النبى التى لا تخلو أبدا من المصلين فى موسم الحج ، ويتقاطر عليها المشتاقون ، ومن ينتظر هناك أيضا ، ويصبر قليلا ، سيجد لنفسه مكانا دون شك ، ومن الضرورى أن يفكر الإنسان بنفسه فى ألا يظل قابضا على هذا المكان لفترة طويلة ، فالمسلمون جميعا لهم فيه حق مساو لما له ، وعليه أن يصلى ركعتين خفيفتين بسرعة ، ويخلى المكان لغيره من الآملين فى الصلاة فى هذه البقعة المنيرة ، ونيل الأجر مثله تماما .

وهنا أيضا بالقرب من المنبر ، وفى الأماكن الأخرى وضعت نسخ من المصحف لمن يريد أن يقرأ القرآن الكريم .

والخلاصة أنه بعد أن تضع القدم فى روضة الجنة ، يمكن أن تصلى كما تحب ، وأن تقرأ القرآن وتتلوه كما تحب ، وتبقى فى الروضة كما تحب ، وتنشغل بالذكر والدعاء ، فكل عمل يقودك إلى الجنة ! وأعجب أمر هو أن الرعب والجلال الذى يشعر به الإنسان عند « مواجهة شريف » أى مقابل وجه النبى الشريف ، وما يصيب القلب من هيبة ، لا يوجد هنا ، فهنا اطمئنان وسكون ، وهدوء ، فإذا كان من نصيبك أن يكون القلب حاضرا ، عندئذ يجب أن تنهمك فى المناجاة ، ويجب أن تطلب من خالقك ما تريد وترغب ، وتدعوه بما تشاء ، تدعوه لنفسك ، ولأحبابك ، ولشيوخك ، ولجميع الأمة المسلمة ، ولتتذكر ذنوبك ، ولتحاسب نفسك على ما اقترفت من سيئات ـ ولتبك ، ولتولول ، ولتخر ساجدا ، ابك من أعماق قلبك ، واجعل الدموع تنهمر من عينيك ، فقد لا يكون لك نصيب من هذا المكان فيما بعد ، وقد لا تنال مثل هذه الساعات فى الغد. !

صلاة أمير المدينة الجمعة فى المسجد النبوى :

يوم الجمعة يوم عيد المسلمين ، ثم هى جمعة فى المدينة المنورة ، وهى جمعة فى المسجد النبوى ، ماذا نقول عمن وهبه الله هذا النصيب ! الله الذى سمى نفسه بالقادر أى القادر على الإطلاق ، الذى قال عن شأن نفسه « غنى عن العالمين » من ذا الذى يمكنه أن يعرف السر فى مشيئته وتقديره ؟! ومن ذا الذى يستطيع أن يصل إلى دقائق مشيئته ..

فى المدينة المنورة يرفرف فى هذا الوقت علم الحكومة السعودية ، والأمير الذى عينه السلطان ابن سعود حاكما للمدينة المنورة[1] يحضر للمسجد مرة واحدة فى الأسبوع لصلاة الجمعة [2] لا أقول يحضر بل يشرف ، أما تشريفه المسجد فله شأن آخر.. فتشريفه هذا يقتضى إخلاء جزء كبير من روضة الجنة من عامة المصلين والمتعبدين قبل صلاة الجمعة بثلاث ساعات (وأنا أقول الساعة على مسئوليتى) ، ثم يقومون بإخلاء مساحة كبيرة من الروضة من المصليين وممن يتعبدون فى المسجد ، ثم يقومون بإخلاء مساحة بقدر ثلاثة صفوف من المنبر حتى المصلى ، من المصلين وممن يقرءون القرآن أو ممن يتلون الأدعية ، ويتم ذلك أحيانا طوعا ، وفى الأغلب كرها؛ ذلك لأن الأمير مع خدمه وحشمه سيشرفون المكان ! (ونشكر الله على أن هذا التشريف يتم مرة واحدة فقط فى الأسبوع) ويذكر أن من يقوم بعملية الإخلاء هم موظفو الحكومة وكذا القائمون على هيئة الأمر بالمعروف .! وهدف الهيئة هو تطبيق الشريعة والقضاء على البدعة ، وهكذا يقضون على البدعة فى يوم الجمعة المباركة وفى حضرة صاحب الشريعة (عليه الصلاة والسلام) ! وهكذا يتجرءون على « الأمر بالمعروف » وهكذا يقدمون درس المساواة والأخوة الإسلامية ليس فقط لرعايا الحجاز بل للعالم الإسلامى أجمع ، إن علم الله واسع ، لكنه يمهل ولا يهمل !

ضرورة مراجعة الترتيبات الأميرية :

يأتى الأمير (غالبا ما يأتى بالسيارة) قبل الصلاة بوقت قصير ويأتى يرافقه كتيبة من حاملى البنادق ، وعن يمينه عسكر وعن شماله عسكر .. ووسط هذا الحشد المهيب يدخل الأمير لا يصافح أحدا ولا يسلم على أحد ، يعبر عن عظمة الحكومة ، ويظهر علامات الإمارة والسلطة ، وكأنه فى الهند مثل مايكل إيدوارد أو الجنرال دائر ، يتباهى بقوة جنده أمام رعاياه السود .. يقول الناس إن سلطان تركيا كان يكتب مع اسمه لقب « خادم الحرمين الشريفين » وكان يفخر بهذا اللقب والآن لماذا لا يفعل سلطان نجد وجلالة الملك الشيء نفسه ، وهو أقل كثيرا من سلطان تركيا من حيث السلطنة والوجاهة ، الإجابة واضحة ، إن السلطان الذى يكون نائبه ، والملك الذى يكون

محافظه هكذا مصرا على أن يكون مخدوما بدلا من أن يكون خادما ، ويدخل الحرم هكذا وبالضبط فى وقت العبادة والصلاة ، وفى وقت التضرع إلى الله ، وفى وقت الخشية والإنابة ، معبرا عن سلطته وعن سيطرته ، فهل من المعقول أن يطلق على نفسه خادما ، وهل يعتبر التذلل والافتقار مبعث شرف ؟ أيها الأصدقاء ! القضية هنا ليست قضية حنبلية أو حنفية ، وليست مسألة وهابية أو سنية ، وليست مسألة ابن تيمية وأبى حنيفة ، المسألة فقط هى القوة والسلطة ، الحكومة والإمارة ، فعبد العزيز آل سعود اليوم ملك ، والملك له شأن وله عظمة ، فمن رأى اليوم ملكا يخشع ، من رأى ملكا يهتز أو يرتعد .؟!

قال إقبال :

« وقف محمود وإياز فى صف واحد

وهكذا لم يعد هناك فرق بين الغلام والسيد . »

لكن الدنيا هذه الأيام خطت خطوات بعيدة للأمام ، فمحمود الآن يفصل بين صفه ، وصف إياز ، فهل هناك من يستطيع أن يمحو الفروق بين الغلام وسيده ؟!

الهوامش

(١) ربما كان الأمير محمد بن عبد العزيز .

(٢) كان الحضور يوم الجمعة فقط لأسباب لا تخفى على القارئ .

(٣) إشارة إلى السلطان محمود الغزنوى وغلامه أياز .

(١٤)

المسـجـد الـنبـوى

مشاعر وأحاسيس فى المسجد النبوى :

كيف أعدد الأماكن ؟! وأى أماكن أعدد فى هذا المسجد الطاهر ، وأى أركان وأرجاء أذكر ؟! ومن كان كله حسن وجمال ، وكله محبوب ، فأى جزء من جماله ، وحسنه أصور ؟! سوى أننى قرأت ذات مرة هذا الشطر من بيت أحد شعراء الفارسية :

« روضة ربيعك تزدهر من بين أطراف زلفك »

ثم التزمت الصمت ..

كنت أذكر « روضة الجنة » وفى الروضة محراب النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وفى مواجهة وجهه الشريف ، خارج الروضة ، وعلى الجانب الآخر للمنبر النبوى ، يوجد المحراب السليمانى ، وفى معظم أيام السنة ، ونظرا لأن صلاة الجماعة تكون مختصرة ، نظرا لسعة المسجد ؛ لهذا يقف الإمام فى المحراب النبوى بينما يقف المصلون فى الروضة ، ولكن قبيل الحج وبعده ، حين يزداد عدد الناس فى موسم الزيارة ، ويتضاعف ، يترك الإمام المحراب النبوى ، فتزاد بعض الصفوف ، ويبدأ الإقامة من المحراب العثمانى ، وتملأ صفوف المصلين جميع أنحاء المسجد بطوله وعرضه ، وهذا المحراب بناه الخليفة الثالث ذو النورين .

بأية لغة أو أسلوب أعبر عن هذه النورانية ؟!

علـى كـل حـال فـالمسـجـد كـله مـسـجـد الله ، وهو من أجل عـبـاد الله ، يصلون حيثما يشاءون ، ويمكن للإنسان أن يناجى مولاه ، ويسر له بمكنون قلبه فى المكان الذى يعشقه القلب ، فكل بقعة فى هذا المسجد معمورة بالنور ، وكل ذرة من ذراته مملوءة بالبركة ..

هذا الفخر لا يمكن أن ينتهى طول العمر ، وهذا الشرف لا يمكن أن يُنسى طول الحياة .. فهذه الذرات التى لستها أقدام النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا المكان الذى صلى فيه الصديقون ، وهذا الموضع الذى سجد فيه الشهداء ، وحيث تحضر الملائكة النورانية بفخر مرة بعد مرة .. نعم هذه البقعة من الأرض تحسدها السماء وتغبطها !

يقف عليها اليوم قبضة من تراب ، عبد مسكين ، ملأه الحرص والهوى ، يمشى بحرية هنا وهناك ، يضحك ، يتكلم ثم يبكى ويولول .!

« هل يكون هذا من نصيبى مرة أخرى .. الله أكبر ؟! »

مصليات المذاهب الأربعة فى المسجد النبوى:

فى عهد مضى كان فى المسجد النبوى أربع مصليات ، تنسب إلى الأئمة الأربعة ، واليوم يوجد مصلى واحد ، يؤم فيها المصلين إمام المذاهب الأربعة فى أوقات الصلاة المختلفة ، كلٌ بعد الآخر ، وخلف كل إمام فى وقت الصلاة يقف أتباع المذاهب الأخرى أيضا ، وهم يفدون زرافات زرافات فيصلون خلف هذا الإمام .

إن إزالة المصليات الأربع ، وإقامة مصلى واحدة هو بالتأكيد « بدعة حسنة » للحكومة السعودية.. وقد تقرر أن يؤم صلاة الفجر الإمام الحنبلى ، وصلاة الظهر يؤمها الإمام الشافعى ، وصلاة العصر من نصيب الإمام المالكى ، ثم إمامة المغرب تكون خلف الإمام الحنبلى ، بينما وقت العشاء يكون من نصيب الإمام الحنفى ، وصلاة الجمعة تكون خلف الإمام الحنبلى ، وهكذا يتوجب على الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى جميعا الصلاة خلف بعضهما بعضا كل يوم .[١]

هل هذا هو معنى الوحدة الإسلامية! إن فكرة تقسيم المذاهب الأربعة كان من أجل تسهيل الأمر ، وليس تقسيم الأمة الإسلامية إلى أجزاء مختلفة ، عن طريق إيجاد مبررات للتناطح والتصارع ، ما هى الفائدة فى فصل الجماعات الأربع ، إذا كان الجميع يصلون فى مكان واحد ، ويقتدون بإمام واحد ؟!

ليس للشيعة وقت محدد لإقامة الصلاة خلف إمامهم ، فيقوم هؤلاء فى جماعات صغيرة ، وفى الأوقات الأخرى التى لا تشغلها جماعات السنة ، بالصلاة خلف أحد إمامهم فى «الروضة » وكان تشودهرى محمد رودلى ، وهو شيعى ، يصلى مع جماعتنا ، ويشترك معنا فى الصلاة دون حرج أو تكلف ، ليت هذا التسامح ينتشر بين المسلمين.!

وصف الصلاة فى المسجد النبوى :

يوجد هنا بالإضافة إلى أذان الفرض أذان للتهجد أيضا ، ويكون حسب توقيت الهند فى حوالى الساعة الثانية والنصف أو الثالثة إلا الربع ، وفى ذلك الوقت تفتح أبواب الحرم المدنى ، وتفد جموع الناس ، يتجمعون أمام الأبواب ، وحين تفتح يسرعون بالدخول إلى الحرم ، وكل منهم يتمنى أن يصل أولا إلى المصلى النبوى ، أو على الأقل ينال مكانا فى « الروضة » وبعد ذلك بساعة أو أقل ، يؤذن للفجر ، ويكون الجو حينئذ مظلما تماما ، وقراءة الإمام الحنبلى عموما طويلة جدا ، ومع ذلك فحين تنتهى الصلاة يكون الجو لا يزال مظلما أيضا ، ويعود الناس إلى بيوتهم بينما النجوم لا تزال تشاهد واضحة على صفحة السماء .

بعد طلوع الصباح يكون المسجد النبوى خاليا إلى حد ما لمدة أربع ساعات أو أربع ساعات ونصف ، ويكون الزحام أقل بالمقارنة بالأوقات الأخرى ، وهذا هو أفضل الأوقات لصلاة النفل فى « الروضة » ، كما توجد فرصة أيضا للصلاة فى المصلى النبوى ، وسعيد الحظ الذى يصل إلى هذا المكان، يجب عليه ألا ينسى أن الله يعرف كم من عباده الآخرين ، يشتاقون للصلاة فى هذا المصلى : لهذا لا يجب أن يظل

مسيطرا على هذا المكان لفترة طويلة ، بل عليه أن يفسح المجال للآخرين أيضا ، ويكفيه أن يصلى بقلب صاف أربع ركعات ، بل ركعتين فقط بقلب حاضر .

قبل أن يُنادى لصلاة الظهر بساعة أو ساعة ونصف يبدأ هجوم الزوار والمصلين ، وتصلى صلاة الظهر فى أول وقتها عند الظهر تماما ، وهكذا بعد ثلاث ساعات تصلى صلاة العصر فى أول وقتها ، وبعد صلاة العصر بساعة أو ساعة ونصف يقل عدد الناس فى المسجد ، حتى قبل صلاة المغرب بساعة أو نصف الساعة فيزيد عدد الناس ، فى ذلك الوقت يمتلئ صحن المسجد ، وتقام حلقات مختلفة لدراسة الحديث أو لدراسة الصرف والنحو ، وبعد المغرب يقوم كثير من الناس بالدرس والوعظ .

كان من الوعاظ واعظ يعظ الناس باللغة الأردية ،بصوت جهورى عال ، وبلحن جميل، قيل إنه من سكان دهلى ، لكنه بتجابى اللكنة ، واللهجة ، كما أنه غير معروف فى الهند ، بالرغم من أنه يعد هنا من العلماء ، وهو يخطئ فى قراءة آيات القرآن الكريم ! ويخطئ أيضا فى شرح معانيه ، ويستخدم لغة غير مهذبة ، وجسورة فى الدعوة إلى عدم التقليد.

وقفت قليلا أستمع إليه ذات يوم فقال : إن من يأخذون التراب من هنا على سبيل البركة ، هم مذنبون تماما ، ولن يغفر لهم هذا الذنب ، لأن القرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

وصلاة العشاء تكون بعد صلاة المغرب بحوالى ساعة ونصف ، كان الإمام فى ذلك الوقت هو إمام الحنفية ، ما شاء الله ! كان على دراية تامة بالتجويد ، وكان يتلو أيضا بصوت جميل ، وعلى عكس الإمام الحنبلى ، قراءته مختصرة ، ويؤدى أركان الصلاة باطمئنان وهدوء ، ولهذا كان من الطبيعى أن أفضل – وكذا جميع المصلين – هذه الصلاة .

يُخلى المسجد من جميع الناس بعد الانتهاء من صلاة العشاء بقليل ، ويصيح الخدام معلنين بأنهم لن يسمحوا لأى شخص بالبقاء أو الاختفاء داخل المسجد ، وتطفأ الأنوار ، وتغلق الأبواب ، ويظل فى المسجد خادمان فقط .

السلطان ابن سعود وخدام الحرم النبوى :

وخدام المسجد عموما من الخصيان الزنوج : من الحبشة ، ومراكش وزنجبار وغيرها من مختلف بلدان إفريقيا ، وهؤلاء كانوا يُجلبون فى عهد الأتراك ويباعون ، فكان سلاطين الأتراك يشترونهم لخدمة الحرمين ، وقد أوقف السلطان ابن سعود - بحمد الله - هذا العمل الذى لا يتطابق مطلقا مع سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا مع سنة الصحابة (رضوان الله عليهم) ، وبالرغم من هذا فلا يزال هنا بالمسجد من بين هؤلاء ما يصل عدده إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين ، وكان هؤلاء الناس فى الأصل هم خدام الحرم النبوى منذ عدة سنوات .

ويلاحظ أن جميع ما بين هذه الجدران الأربعة من أبيض وأسود تحت سيطرتهم ، وقد قُلصت سلطاتهم كثيرا ، وتحددت مسئولياتهم ، كما قلّت مخصصاتهم أيضا ، أما النذور التى كانت تمنح لهم فهى على حالها ، ومع هذا لا يوجد هناك فرق فى حسن خلقهم ، وخدمتهم المتفانية ، وحبهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وهم يلبسون من رأسهم إلى أخمص قدمهم ملابس بيضاء براقة ، ويضعون على رءوسهم عمامات كبيرة عالية ، كما يرتدون عباءات واسعة فضفاضة ، بأكمام طويلة ، إذا ما شاهدتهم مرة واحدة ، ظلوا فى مخيلتك طويلا ، مهما حاولت أن نزيحهم من مخيلتك ، وأهل المدينة وبخاصة من يحيطون بالحرم يقومون بمساعدتهم وإعانتهم ، فعليك أن تقوم بخدمة هؤلاء الخدام بإخلاص قلب .

يطلق على هؤلاء الخدام هنا اسم « الأغوات » وهؤلاء المساكين غرباء عن أوطانهم ، هجروا أقاربهم ، وهجروا أهلهم ، وجاءوا إلى حضرة النبى ، لا يذهبون إلى هنا ، ولا إلى هناك ، مهما حدث ، ومهما جرى ، من تغيير فى القانون والدستور ، وقد تفرغ المدينة من جميع أهلها لكن هؤلاء لا يتزحزحون من هذا المكان ! فإذا ما نظرت خلف الحجرة المطهرة ، ناحية الشمال بين باب جبريل وباب النساء وجدتهم يجلسون على « دكة الأغوات » ويقال إن هذا المكان كان هو مكان أصحاب الصفة ، فإذا

ما نظرت إلى أجسامهم النحيفة ، وأكثر من هذا إذا ما نظرت إلى سواد بشرتهم ، تذكرت فورا فخر الأمة « بلال » ، من أى البلاد كان ! وأى لون كانت عليه بشرته.. !!

ورئيس الأغوات الحالى هو « خليل آغا » وهو على خلق طيب ، وسبق له أن زار الهند .

شيخ الروضة ، ونقيب العلماء ، وحراس أبواب الحرم :

فى الحرم شخصية خاصة ، هو شيخ الروضة الشيخ توفيق كرد ، وهو يتولى هذه العهدة منذ العهد التركى ، وجهه نورانى ، بشرته ناصعة البياض ، لحيته طويلة بيضاء، من حوله نسخ من المصحف الشريف ، يجلس فى الروضة بين المنبر النبوى والمصلى النبوى ، فإذا أردت قراءة القرآن فى أى وقت ، ولأى مدة من الوقت أخذت منه المصحف ، وظللت تقرأ كما تشاء .

وهناك شخص يطلق عليه لقب « نقيب العلماء » يجلس فى المحراب الشمالى للصحن القريب من الباب المجيدى ، وهو يقوم بتدريس الصبية ، وهو يستحق أن يلتقى به الإنسان بل هو جدير بذلك ، صاحب علم ، قنوع ، ساح فى بلاد الهند .

وعند الأبواب الخمسة يوجد بواب (أو اثنان) يقوم بحفظ الأحذية لمن يدخل المسجد أو بحفظ « الشمسية » أو ما إلى ذلك ، وفى العودة يسلمك أمانتك سليمة ، وبواب هذا المكان المقدس إنسان بسيط يرضى ويقنع بنصيبه ، وعلى كل حال فنحن نغبطه على نصيبه هذا ! وقد كثر ترددى من على باب جبريل ، حيث يوجد أحد الهنود ، من سكان محافظة بيهار ، يدعى قمر الدين ، ترك وطنه منذ سنوات عديدة ، يقف هنا على باب المسجد النبوى ، تعلم اللغة العربية والفارسية وجميع اللغات بالقدر الذى يحتاج فى تعامله مع الناس ، فساعدوه بقلوب رحبة ، ثم انظروا! كيف سيكون كريما معكم ، وكيف سيساعدكم بشكل أو بآخر .

البواب المكلف على باب الرحمة شيخ نورانى الوجه ، سمعت من أناس ثقة بأنه صاحب قلب ، ومن أسرة كريمة ، وقد تعرفت على اثنين فقط من بوابى الباب المجيدى ، حاولت أن أقدم لهما هبة بسيطة ، لكنهما رفضا ذلك رفضا تاما ، وقالا : ادع لنا فى الكعبة ، وادع لنا فى عرفات ، فهذا بالنسبة لنا كاف ! إن هذا السلوك التوكلى فى مثل هذا المكان المملوء بالإغراءات فى كل وقت ، والتمسك به هو فى حد ذاته مجاهدة كبرى..!

أماكن الإقامة فى المدينة المنورة :

أماكن السكن والإقامة فى البلدة الطيبة كثيرة ، فبالإضافة إلى البيوت المؤجرة ، يوجد رباط بهوبال ، ورباط تونك ، وأربطة حيدر آباد المتعددة ، وقد سبق أن ذكرت أن قافلتنا نزلت فى رباط حيدر آباد ، لكنها فى اليوم التالى أو الثالث توزعت هنا وهناك ، فقد أقام العلامة الشيخ مناظر ، ومولوى عبد البارى[٢] وغيرهما فى رباط حسين بى الذى يبعد عن الحرم نحو فرسخين ،كما أقام بعض الرفقاء فى بيوت متفرقة ، لكن الجماعة التى كانت أقلها همة ، وهى قافلتى مع أفرادها الستة فبفضل من الله وكرمه ، وجدت مكانا عن طريق العلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى فى مدرسة اليتامى ، التى تبعد عشرة أو عشرين ذراعا عن باب جبريل وباب النساء ! إنه رب الضعفاء ! غير القادرين ، الذى ساعدنا نحن أصحاب الهمم الضعيفة .

لا أجد الكلمات التى يمكن أن أعبر بها عن كرم العلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى ، وإحسانه ورعايته لنا ، فبسبب هذه الرعاية والكرم حُلت قضية السكن .. وأين ؟! فى موقع يسمح لنا بأن نذهب إلى الحرم فى أى وقت نشاء ، وأن نبقى فيه أية مدة نشاء ، ونعود منه فى أى وقت نشاء .. أضف إلى كل هذا التسهيلات التى تلقيناها فى أمور الطعام والشراب والفرش وجميع المستلزمات الأخرى ، فقد كان الرجل على إطلاع كامل كل وقت بكل شىء ، وكان يتابع بنفسه كل ما يتعلق بخدمتنا ، ولو فصلت الحديث عن ذلك ، فسيحمله البعض على أنه مبالغة كلامية !

مبيت ليلة فى المسجد النبوى !

تغلق أبواب الحرم بعد صلاة العشاء بمدة قصيرة ، ولا يسمح لأحد بالبقاء داخل الحرم النبوى ليلا ، إلا لمن يحصل على إذن مسبق من الخدام والحراس.[٣]

من سيئ الحظ هذا الذى لا يتمنى هذه الأمنية ؟ ما مصير تحقيق هذه الأمنية فى النهاية؟

« إن حل هذه القضية كان بسبب الحبيب » .

ذات مرة استخدمنا اسم الشيخ فيض آبادى ، وشقيقه الشيخ حسين أحمد ، فكتب أحدهم لنا ورقة ، أما الثانى فتحدث شفهيا مع أغوات الحرم ، وبخاصة الشيخ خليل آغا (وهو تلميذ شيخ الحديث الحالى فى ديوبند) فعطف علينا ، وسمح لنا بالبقاء فى الحرم ليلة واحدة (كانت ليلة الاثنين) وقد حصل على هذا الإذن أيضا جماعة من الأحباب منهم العلامة الشيخ مناظر ، وبعض الأحباب الآخرين ، وكلهم من الهنود.

سُمح لنا بالبقاء تلك الليلة التى سمح فيها أيضا لمير رنك رئيس جمعية تبليغ الإسلام فى أنباله ، ولمولوى أبى الخير خير الله المحامى فى حيدر آباد الدكن ..

كيف مرت بنا هذه الليلة ؟! وماذا فعل كل واحد ممن قضى هذه الليلة ؟ هذا أمر لا يكتب على صفحات الصحف، بل يحفظ على لوح القلب ، ولا شك أن من لم يحالفه الحظ فقط هو الذى أضاع أيضا ليلة القدر هذه ، بعدم معرفته لقدرها ، فذهب ونام فى فناء الحرم ! وحتى الوقت الذى قضاه مستيقظا ، ضاع منه فى غيابات الغفلة أيضا .. فبأى ألفاظ يعبر عن حرمانه ؟! ولمن ؟

لقد التقى الإسكندر بالخضر المرشد الكامل الذى أوصله حتى إلى عين الحياة ، لكن ماذا كانت النتيجة ؟! هذه الواقعة لم تحدث فى تاريخ الدنيا مرة واحدة فقط ، ومع شخص واحد فقط ، يعلم الله كم من إسكندر لقى الخضر فى كل مكان ، وفى كل أوان ..

وبقية القول إن ما فعله بعض الأحباب فى هذه الليلة ، كان يتعارض مع قانون الحكومة ، وقانون الشريعة معا! كم من السجدات سجدوا فى حضرته ، سجدات قضت تماما على كل ما بداخلهم من شوائب ، وغسلت من داخلهم كل مظاهر الشرك بالله ، ماذا أقول فيما يتعلق بهذا السجود ؟ وما يشاهد فى العهد « اليأجوجى » للقرن العشرين ، أين يمكن البكاء على هذا العهد إذا انفجر الإنسان بالبكاء ؟!

الهوامش

(١) إلا أنه تقرر فيما بعد - للأسف - وقف الإمام الحنفى والشافعى، والإبقاء على الإمام المالكى والحنبلى فقط (حاشية المؤلف) .

(٢) انظر ما ورد عن العلماء الذين ورد ذكرهم فى مقدمة المترجم .

(٣) وقد علمنا الآن أنه لم يعد يسمح بذلك (حاشية المؤلف) .

(١٥)

أنوار المدينة المنورة

البقيع :

انتهينا من زيارة المسجد النبوى ، وانتهينا من السلام على النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وانتهينا من زيارة الصديق والفاروق بأدب واحترام .. ومضت الساعات ، وحلت الليالى، وانقشعت ظلمتها ، وطلع صباح من بعد صباح ، ولم نزل هنا ..

تركنا الراحة والنوم وجئنا إلى الحرم النبوى الشريف ، وانشغلنا بالسلام على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، محبوبنا ، فهو محبوب رب العالمين ..

هل هناك من المسلمين من لا يعرف اسم هذا المكان ؟ بقيع الغرقد أو كما يطلق عليه فى العرف العام « جنة البقيع » التراب الطاهر ، الذى يرقد فيه أحباب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومن اختاره الله إلى جواره ، وهم ليسوا بواحد أو اثنين ، وليسوا بعشرة أو عشرين ، يعلم الله كم عدد من يرقدون هنا ؟!

وهى لا تبعد كثيرا عن الحرم النبوى ، فعلى الناحية الشرقية ، يمكن الوصول إليها مشيا ، ويستغرق ذلك ثمانى أو عشر دقائق ، مكان واسع جدا محاط بسور على جوانبه الأربعة ، بعيد عن العمران ..

ماذا يقال عما فى وسط هذه الأسوار ؟ وكيف نعبّر عن الجواهر النادرة التى ترقد تحت التراب؟!!

إذا ما نظرت فى هذا الجانب ، وجدت مرقد فلذة كبد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولده إبراهيم ، الذى لو أبقاه الله حيا لكان نبيا ، وإذا ما نظرت هنا ، وجدت نور العين الإمام حسن (رضى الله عنه) ، وإذا ما تطلعت هنا وجدت ابنتيه : حضرة رقية وحضرة أم كلثوم (رضى الله عنهما) ، ووجدت سيد شهداء كربلاء الإمام زين العابدين (رضى الله عنه) ، وفى ناحية تجد أمهات المؤمنين : عائشة (رضى الله عنها) ، وحفصة (رضى الله عنها) وزينب (رضى الله عنها) ، وأم سلمة (رضى الله عنها) ... جميع أمهات المؤمنين تقريبا .

وتجد فى ناحية الخليفة الثالث عثمان ذا النورين (رضى الله عنه) ، وفى مكان تجد عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص (رضى الله عنهما) ، وإذا ما وافقنا على ما تذكره بعض الروايات ، والتى لم يقبلها المحققون حتى الآن فهناك أيضا قبر فاطمة الزهراء ، وأمير المؤمنين على المرتضى (رضى الله عنه) .

التردد فى زيارة البقيع :

مثل هذه الشموس ، ومثل هذه الأقمار المدفونة تحت التراب ، إذا حسدت السماء الأرض على نورها ، فمن يمكن أن يعجب لذلك؟ وما ذكرناه من أسماء ، كان أمثلة فقط ، يمكن أن نقيس عليها عظمة هذه البقعة التى تضم الصالحين ونورانيتها ، وإلا فهناك آلاف الصحابة ، وليس واحدا أو اثنين أو عدة صحابة ، يرقدون هنا حيث يرقد الشهداء والصديقون والأولياء الذى لا يمكن أن نحصى عددهم ..

وهكذا عمرت مدينة كاملة بالأبرار الصالحين ، من زمن الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا على مدار ١٣٠٠ سنة .

من ذا الذى يمكنه أن يحيط بأنوار هذا المكان وببركات هؤلاء ، لو كان فردا منهم قد دفن فى مكان ما وحده لصار مزاره مرجعا للخلائق ، ولصارت عتباته مكانا يجتمع فيه الخلق يحتفلون بذكراه ، لكن نحن هنا فى جوار روضة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ربما يضىء فيها سراج هنا وسراج هناك ، ربما فيها نور نجوم هنا ونور

نجوم هناك تضيء ظلمة الليالى الحالكة ، لكن هناك جمال نور القمر الذى يغطى على كل نور ..

على كل حال حين يطلع نور شمس العالم فأى نور يمكن أن يبقى أمام هذا النور .. من ذا الذى يجد الفرصة ليترك روضة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وحتى إذا واتته الفرصة ، فمن أين له بالقلب الذى يطاوعه ، ويذهب حتى إلى البقيع ، حتى لو كانت على بعد خطوات!!

هكذا قضيت اليوم فى حيص بيص !! وترددت كثيرا ، لكن فى النهاية وفى الصباح الباكر، وبالتحديد بعد صلاة الفجر ، حين لا يكون هناك زحام فى البقيع نويت زيارة البقيع ، ومضيت فى رفقة الداغستانى .

حالة البقيع (١) :

ذهبت إلى البقيع .. رأيت البقيع .. رأيتها جيدا .. ويا ليتنى ما رأيتها ، ليتنى لم أتمكن من الذهاب إليها !! ليت تأجيل الذهاب إلى البقيع طال وطال إلى غير انقطاع !

« جئنا بكل شوق ، وذهبنا بكل حرمان »

كنت أقرأ وأقرأ ، واليوم ذهبت لأتحقق من معنى ما كنت أقرأ ! فى الشريعة ، وفى تعاليم الشريعة لا يسمح بالتأكيد ببناء القباب العالية والمقابر الفخمة ، بل حتى لا يسمح أصلا ببناء القبور وتعليتها (مع أن هذا النهى يفهم على أنه نهى للتنزيه) لكن هل ورد حكم بإهانة قبور المسلمين ناهيك قبور الصالحين والصديقين ؟ ولنترك مسألة الحكم ، هل أجاز أحد الأئمة هذا الأمر ؟ لقد هدم التجديون القباب ، وتم هدم أبنية جميع القبور، وتمت تسويتها بالأرض ، أين كانت يد الحكومة لتمنع كل هذا ؟ لكن ما هذه القيامة حتى تصبح الأبنية المتهدمة لمقابر الصالحين «مزبلة» ؟ (بل هل أذان المسلمين على استعداد لسماع ما هو أكثر من هذا ؟) لقد مسخوا شكل المقبرة لدرجة أن من يراها لا يظن أنها مدافن للأطهار والصالحين بل يظنها – نعوذ بالله – مكان قمامة ..علب من الصفيح ، قطع من الخيش ، وبقايا زجاجات عفنه ، ومخلفات

الحيوانات، وشعر متطاير هنا وهناك ، ومثل هذه القاذورات التى تلقى عادة فى أماكن القمامة ، كانت كلها ملقاة هنا بكثرة على مقابر الطاهرين والصالحين .. كانت العين مضطرة لأن ترى كل هذا .. بينما كان هناك حرس رسمى يقف عند بوابة السور الذى يحيط بمقابر البقيع ، مهمته أن يمنع الزائرين من ارتكاب البدع ، لكن إهانة قبور الصالحين وإلقاء القاذورات عليها لا تدخل فى التعريف النجدى « للبدعة » ! وكأن إبقاء قبور الصالحين على هذه الحالة من القذارة والوساخة هى (نعوذ بالله) يتطابق مع السنة وآثار السلف !

سوء حالة البقيع :

إن سوء حظ الأمة الإسلامية وسوء طالعها لا نهاية له ! فمن ناحية لو تردد اسم « المحبة » فى الأذن من مكان ما ، هنا تبدأ الموالد على « المزارات » وتبدأ الموسيقى ، ويبدأ الرقص ، والوجد والأعمال البذيئة ، والطواف والسجدة ، وكل ما يتنافى مع الشرع والدين ، ومن ناحية أخرى ، لو تعلم اللسان كلمة « الإصلاح » و « القضاء على البدعة » عندها تبدأ الإهانات ، وإيذاء الأحياء ، وإهانة الموتى وإذلالهم !! وتبدأ حالة من العناد ، ويقام سوق الفرقة والتحزب ..

من يستطيع أن يوقف من؟ ومن يستطيع أن يصد من ؟ كل لسان حر ينطق بما يريد ! وكل قلم جرىء يكتب ما يريد! وكل يد معتدية تبطش بمن تريد ...

وكما يقول الشاعر :

اليوم ينال الثواب من يرتكب المعاصى !

إن كثيرا من بين من يقرءون هذه السطور يتعاطفون مع الحكومة النجدية بسلامة نية ، ومن بينهم أيضا من أحسنوا لكاتب هذه السطور ، وأنا أطلب منهم أن يتفضلوا ويتكرموا باستفتاء قلوبهم ، ويشهدوا بالحق أمام عالم الغيب والشهادة ، فلو كان الإمام أحمد بن حنبل اليوم على قيد الحياة ، ولنترك الإمام أحمد ... لو كان الحافظ بن القيم

أو أستاذه الشيخ ابن تيمية على قيد الحياة ، فهل كان باستطاعته أن يتحمل مشاهدة البقيع على حالتها تلك ، تلك الحالة من القذارة التى أحالها إليها حنابلة القرن الرابع عشر الهجرى النجديون ، ولو كان هـذا الأمر موجـودا فرضـا فى الفقه الحنبلى ، ألم يكن من واجب الحكومة النجدية مراعاة مشاعر جمهور المسلمين ، مع أنه لا يوجد أبدا فى الفقه الحنبلى أى حكم يقر هذا الأمر ، ألا تضح لهم أهمية مصالح الأمة تلك التى كان صاحب الشريعة (عليه الصلاة والسلام) يراعيها ، والتى جعلته يعرض عن ضم الحطيم إلى الكعبة ، خشية أن تحدث فرقة وفتنة بين أفراد الأمة ، فمن ذا الذى يستطيع أن يجيز لنفسه الغلو والتشدد فى مثل هذه الجزئيات !

فرش المسجد النبوى :

أنا لا يمكننى أن أنكر الجوانب المضيئة للحكومة السعودية ، لكنى أخشى أن يأتى على لسان أحد أهل القلوب مضمون الآية « وإثمهما أكبر من نفعهما » فجميع محاسن الحكومة السعودية وفضائلها فى كفة ، وحالة جنة البقيع التى لا يمكن تحملها فى كفة أخرى ، فعلى الأقل يصعب على عامة المسلمين بل لا يمكن أن تبقى بداخلهم ذكرى طيبة تجاه الحكومة السعودية بعد مشاهدتهم لما حدث فى البقيع ، إذ ليس هذا هو آخر قائمة جرائم الحكومة ، فكيف يمكن أخذ فكرة طيبة عن الحكومة والمسجد النبوى نفسه يعانى من الإهمال الدائم وعدم الرعاية ، ولا شك أن الناس يشاهدون المسجد مفروشا ، وكنا قد سمعنا فى البداية أن المسجد لا يفرش طول الوقت ، فهو يفرش فقط فى موسم الزيارة ، وفى معظم بقية العام لا يفرش ، وإذا ما فرش ، فهو يفرش بسجاد قديم متهالك ، لا يليق بالمسجد النبوى ، ولو فرش السجاد نفسه بالمسجد الجامع فى دهلى فإنه لا يزيد من زينة المسجد وجماله بل يعطى مظهرا سيئا للمسجد ، ومن المعروف أن الحكومة السعودية ليست بأغنى من الأتراك ، لكن من المعروف أيضا أن الحكومة السعودية ليست بالفقيرة أو المفلسة ، لدرجة أنها لا تستطيع أن تفرش المسجد النبوى بطريقة لائقة ، بالرغم من العون الذى تقدمه الإمارات الإسلامية فى الهند مثل : إمارة تونك ، وبهاول بور ، ورامبور ، فى أى وقت ، ودن أى تردد[٢].

ولا يتوقف الأمر على الفرش فقط ، بل يتعداه إلى نظام الإضاءة أيضا ، فهو نظام ناقص ، فيه كثير من الخلل ، فهناك محول كهربائى خاص بالمسجد النبوى ، لكن يعلم الله هل سبب الخلل فى المحول أم فيمن يشغل المحول؟! فالضوء من البداية يكون غير كافٍ ، وإذا ما أضيئت المصابيح الكهربائية كلها فهى تظل ترتعش ، وكثيرا ما تنقطع الكهرباء مرة بعد الأخرى ، وكثيرا ما يؤذن المؤذن لصلاة التهجد ، ويتجمهر المصلون على أبواب المسجد الحرام ، لكن لا تنفتح الأبواب لأن المسجد من الداخل مظلم ، ويظل الوضع هذا لفترة طويلة وتستمر مثل هذه الظلمة .

أماكن الوضوء فى المسجد النبوى :

وما يصيب الإنسان بالألم أكثر مما يصيبه من سوء نظام الإضاءة وفرش المسجد أمر آخر يتعلق بأماكن الوضوء ، فلا تجد هنا فى المسجد النبوى ما تجده عموما فى مساجد الهند الكبرى من أماكن للوضوء ، أو أحواض الوضوء ، لكن يوجد خارج الأبواب صنابير مياه ، وهى قليلة جدا لا تكفى بأى شكل من الأشكال لأعداد كبيرة من الناس ، ومن خلال التجربة فإنه فى وقت الصلاة ، تجد الأحواض التى تمد هذه الصنابير بالماء خالية تماما من قطرة ماء واحدة ! وإذا حدث ووجد فيها ماء فلا ندرى لماذا لا تنزل هذه المياه من الصنابير إلا بقدر خيط رفيع ، والله وحده يعلم ماذا يصيب هذه الصنابير ؟! والنتيجة أن الشخص الواحد يستغرق فى وضوئه الوقت الذى يمكن أن يستغرقه ثلاثة أشخاص ، ناهيك عن الزحام والتدافع والسقوط والوقوع والشقلبة ! فمن يتمكن من الوضوء يعتبر نفسه محظوظا ، أما أماكن قضاء الحاجة ، فهى أيضا مثلها مثل أماكن الوضوء ، بحاجة شديدة إلى تنظيم ، وكل هذه الأمور تحتاج فقط إلى قليل من الاهتمام ، ويمكن القيام به دون حاجة إلى نفقات باهظة أو مصروفات غير عادية .

أتمنى أن توفق الحكومة السعودية فى أن تترك الاختلافات الجزئية جانبا ، وتوجه جلّ عنايتها واهتمامها ، إلى مثل هذه الأمور التى تتعلق بخدمة الزائرين والمصلين من كل جماعة ، ومن كل طبقة .

حجاج الشيعة من خراسان والعراق :

بعد أن رأيت حالة جماعة بلادنا من الشيعة ، كنت أظن أن الشيعة بدأوا يحجمون عن المجيء للحج والزيارة ، لكن التجربة علمتنى أن هذا الظن خطأ ، فالشيعة فى الهند هم بلا شك شيعة بالاسم فقط ، لكن شيعة العراق وخراسان كانوا يأتون هنا بالألوف .

وللشيعة مزور خاص ، يلقنهم آداب الزيارة ، رأيتهم يصلون فى روضة الجنة بكثرة ، فرادى أو جماعات ، وحين يصلى أهل السنة والجماعة ، فإن هؤلاء الناس ينفصلون عنهم أو يذهبون فى أكثر الأحيان خارج المسجد ، وقد رأيت بعض المتسامحين منهم يقف عند أسطوانة عائشة (رضى الله عنها) ، ويطيل الصلاة ، ولا يمكن أن أنسى عبارة صديقنا الشيعى تشودهرى محمد على ردولوى ، الذى قالها بهذه المناسبة ، قال : «إن عائشة (رضى الله عنها) ، بالرغم مما يقال كانت محبوبة رسولنا» لكن هذا لم يكن حال الجميع ، وأكثر الشيعة يأتون فى جماعات يرتدون ملابس كثيفة ، تغطى أجسادهم ، ويحاولون تقبيل الشباك أو منبر الرسول ، وحين يراهم الجنود يدفعونهم بعيدا، وأحيانا يضربونهم ، فيهرب هؤلاء الناس ، فيجرى الجنود من خلفهم يريدون الإمساك بهم وهذا يحدث عادة مع الشيعة الخرسانيين ، وشيعة العراق أفضل من حيث الجسم واللباس من أخوانهم شيعة خراسان ، وهم مستعدون للمجابهة ، ويتعاركون مع الجنود يدا بيد ، والخلاصة أن ما يحدث فى كلتا الحالتين جعل هذا المكان المقدس الذى خصص للصلاة والعبادة والتضرع والدعاء، والذى تحترمه حتى الملائكة الأطهار ، ميدانا للفرجة على سوء الأدب وعدم التمييز.

تحدث مثل هذه الفوضى أيضا فى وقت زيارة النساء المصريات ، ما شاء الله .. أجسامهن ضخمة ، قامتهن فارعة وجوههن بشوشة ، لكن أجسامهن مستورة من الرأس إلى القدم باللباس الأسود ، يأتين فى جماعات ، يتقدمن إلى الشباك ، يتمسكن به يردن تقبيله ، فيتقدم الجنود ، وهم فى العادة أجسامهم نحيفة ، يريدون

منعهن ، ودفعهن بعيدا ، لكن معظم الجنود يُهزمون فأجسامهم فى الغالب نحيفة وضعيفة ويحدث هذا السلوك المشين ، وتصدر أيضا العبارات الوقحة ، أمام « قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) » .. ندعو الله ألا يحدث هذا أبدا فى المستقبل ، وألا يضطر أحد إلى ذكره فيما بعد .

البوهرة والفرق الإسلامية الأخرى :

شاهدت مختلف الفرق : البوهرة ، الداوديين ، والسليمانية وغيرها من الفرق الإسلامية الأخرى ، كلٌ يصلى على طريقته ، وكل يزور على طريقته .. فالحرم النبوى مركز لعقائد الجميع ، ومهما كانت الاختلافات ، من الخارج أو من الداخل ، فهى لا توجد هنا فى هذا المنزل المقصود الذى تهوى إليه قلوب الجميع ، الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه ، أو الإمام الشافعى ، أو الجيلانى أو الأجميرى ، هم جميعا يأتون للزيارة ... يدخل الجميع الحرم، يصلون إلى باب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلا يكون هناك من هو حنفى أو شافعى ، لا يكون هناك من هو مالكى أو حنبلى ، لا يكون هناك أشعرى أو ماتريدى أو قادرى أو جشتى أو صابرى ، أو مجددى أو مقلد أو غير مقلد ، الجميع محمدى ...

ماذا كان مذهب الصحابة فى حياة الرسول ؟ هل كانوا شيئا آخر غير كونهم محمديين ؟ كم كان هذا جهلا ؟ كم كان بذاءة أن ينتسب هؤلاء أنفسهم أمام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى غير الرسول؟ واليوم حين تسعد ، ويكون لك نصيب من زيارة مسجد رسول الله ، وتؤمن إيمانا أكيدا بأنه الرسول الخاتم ... فأى جهل فاضح يصدر عنك إن ربطت نفسك وربطت مشاعرك بغير النبى (صلى الله عليه وسلم) ..!

فى ظلمة الليل لاشك أن أى شعاع من نور يكون نعمة ، لكن حين تكون أمام الشمس ، فلتطفئ لفترة قناديلك ، ومصابيحك ، ومن الممكن أن تصبح مسلما جديدا

من رأسك إلى أخمص قدميك ، فجدد إسلامك ، ووثق العهد الذى عقدته أمام الله والرسول ، ومد يدك بالبيعة ، فبيعته بيعة خالق الكائنات :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح : ١٠)

مباركون من نالوا نصيبا من هذا العهد ، ومباركون أكثر من نالوا نصيبا من الثبات على هذا العهد !

الهوامش

(١) كان ما حدث فى البقيع فى أثناء هدم القباب والمبانى المقامة على القبور ، مثار غضب أهل الهند جميعا وقد كتب عن الموضوع كتابات كثيرة ، بل روج البعض إشاعات لا حصر لها ليس لها أساس من الواقع ، ولا يمكن لأحد أن ينكر أن تجاوزات حدثت ، أمر الملك عبد العزيز بوقفها فى حينها ، وتم إصلاح الأوضاع .انظر صفحات من تاريخ الملك عبد العزيز فى المصادر الأردية عدد خاص من مجلة جامعة الإمام صدر بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الدولة الحديثة .

(٢) كان هذا حال المسجد عندما دخل الملك عبد العزيز الحجاز ، لكن الوضع تغير تماما ، بعد أن استتب الأمر ، وأمر الملك عبد العزيز بالاهتمام بالمسجد النبوى ، ثم كانت التوسعة التى بدأت فى عهد الملك عبد العزيز وفى عهد أبنائه من بعده وصولا إلى التوسعة التى تمت فى عهد خادم الحرمين الشريفين والتى جعلت المسجد يضم المدينة المنورة فى العهد النبوى بأكملها .

(١٦)

آثار المدينة

مسجد قباء :

ما أكثر أماكن الزيارة في المدينة ونواحيها ! فكل ذرة من ذراتها ، وكل درب من دروبها مكان للزيارة ! فسلم نفسك للمزورين ، ويعلم الله كم من الأماكن ستزور : مقابر ، ومساجد ، وتلال ، وآبار ، وأماكن ولادة ، وآثار مهمة ، ومشاهد عديدة .

أما أماكن الزيارة الأكثر شهرة فهي : مسجد قباء ، ومسجد القبلتين ، وجبل أحد ، وبئر أريس ، وبئر رومه ، ومقتل شهداء أحد ، ولا يوجد من بينها ما يبعد كثيرا ، فهى في حدود ما يقرب من ثلاثة أو أربعة أميال ، فإذا كنت معتادا على المشى ، وتمتلك الهمة أيضا ، ولديك من الوقت ما يكفى ، فيمكنك زيارة هذه الأماكن على الأقدام ، وإلا فيمكنك استئجار ركوبة ، ويقال لها هنا « عربية » ، بعدة روبيات للذهاب والإياب .

وقد زار معظم الأصدقاء والرفاق هذه الأماكن، ومنهم العلامة الشيخ مناظر أحسن ، الذى يشتاق بكله إلى زيارة كل مكان في المدينة ، فهو يعمل بقول الشاعر :

« وجدت المتعة فى كل زاوية من زواياها »

وقد تشرف بزيارة كل بقعة هنا ، لكن من بين أفراد القافلة من هو ضعيف ، عديم الهمة ، لم يخرج إلى أى مكان ، بالرغم من طول مدة الإقامة ، ودائما ما تُسَوِّل نفسه له بأنه لا يجب أن يتزحزح عن أبواب المسجد النبوى ، فلماذا يترك الشمس ، ويمضى يبحث عن المصابيح والقناديل ؟!

لكن يستثنى من هذا دون شك مسجد قباء ، ففضيلة زيارته ليست محل ظن أحد أو قياسه ، فهذا ثابت بالنص ، ووارد فى الحديث بأن أجر الصلاة فى مسجد قباء يساوى أجر عمرة :

« من تطهر فى بيته ، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة ، كان له كأجر العمرة » (١)

فأول مسجد أسس فى الإسلام هو مسجد قباء ، فحين هاجر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة ، نزل أول ما نزل عند قباء ، وهنا بدأ بناء المسجد ... المسجد الذى شارك فى بنائه الصديقون والأولياء وأيضا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده المباركة !

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية الكريمة التى تشير إلى ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ (التوبة ١٠٨) أنها نزلت فى حق هذا المسجد.(٢)

وصف مسجد قباء والطريق إليه :

ورد فى الحديث أنه كان من عادة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أن يأتى هذا المسجد فى كل يوم سبت . (٣)

وهكذا وفى صباح يوم السبت ، وبرفقة العلامة الشيخ مناظر أحسن أخذت معى قافلتى الصغيرة ، ومضيت معه لزيارة هذا المسجد ، لم تكن قباء تبعد كثيرا عن المدينة ، فالمسافة بينها وبين المسجد النبوى نحو ميلين ونصف ، ولما كان معنا النساء ، رأينا تأجير« عربة » والأجرة عادة معقولة ، بل رخيصة جدا ، لكن فى موسم الحج والزيارة تصبح غالية بقدرة قادر ، فاتفقنا على أن ندفع للذهاب والإياب ثمانى روبيات .

وصلنا خارج المدينة ، فشاهدنا منظر الريف ، كانت أشجار النخيل والبساتين تحف بنا من كل جانب ، وفى كل ناحية ، والأرض فى معظمها مفروشة

ببساط أخضر ، وكأنها تخادعنا ، وتشعرنا بأننا هنا فى أحد بساتين الهند ، بالرغم من أننا نسير وسط صحراء العرب الجرداء .

فى الطريق شاهدنا مجموعات كثيرة من الصبية والصبايا ، يرددون أشعار المدائح النبوية ، كان الوقت وقت الصباح الجميل ، وكان الهدوء يخيم على كل شىء ، بينما هؤلاء الصبية الأبرياء يرددون الأشعار بأصواتهم الجميلة ، فتتأثر القلوب ، وتطرأ على الأرواح حالة من الوجد .. وانتهى هذا السفر فى مدة وجيزة.

يقع مسجد قباء فى منطقة مرتفعة ، مبنى واسع ، لونه أبيض ، بنى على الطراز القديم ، يخلو من أى مظهر من مظاهر الزخرفة أو الزينة ، صورة مؤثرة للبساطة ، وهنا لا خوف من زحام أو تدافع أو تعثُّر أو انقلاب ، هدوء تام ، وسكون وطمأنينة ، مع فراغ بال ! هنا يمكنك أن تصلى أطول وقت ، كما يحلو لك ، فلتصل إذن ما شئت ، ولتسجد ما رغبت ، ولتعبد الله ، ولتناجه كما تريد .

يوجد مكان مسقوف فى الصحن ، وعليه كتبت هذه العبارة بالعربية « **هنا المكان الذى بركت فيه ناقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)** » .

مسجد قباء وعبرة التاريخ :

هذا هو المكان الذى لجأ إليه أحب عباد الله إليه ، من أثنى عليه رب العزة ، حين كان أهله متعطشون لدمائه ، هذا هو شأن « الغنى عن العالمين » وعظمته ، وكرمه الذى لا حدود له ، لقد لجئوا إليه ، فجعل لهم هذا المسجد ليكون ملاذا يأتى إليه العالم أجمع .

إن تاريخ الأمة كلها يمكن أن يشاهد فى مرآة حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فهذا الرسول الذى ضاقت به أرض مكة ذات يوم ، يضيق العالم اليوم بأمته ، كان أبو جهل وأبو لهب من ألد أعداء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، واليوم يعلم الله كم ظهر من أبى جهل وأبى لهب ! يعادون رسالة رسول الله ، ويقفون ضد دين رسول الله ،

وكان مصير أعداء الحق فى مكة الهلاك والدمار ، فهل تستمر المهلة المعطاة لكل أبى جهل ، ولكل أبى لهب فى القرن العشرين ؟!

لقد وجد مهاجرو مكة من قباء ملجأ لعبادة ربهم ، ولرفع كلمة التوحيد ، فهل هناك من قباء أخرى تكون من نصيب أمة هذا الحبيب ؟! وهل - لا قدر الله - ستظل هذه الأمة هكذا تضرب فى الأرض على غير هدى ؟!

دعوة من أميرة المدينة للقاء السلطان ابن سعود:

جئت إلى المسجد النبوى ذات يوم ، سلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بعد أن صليت العصر فى جماعة ، فقدم شخص إلىّ ، وسلمنى رسالة ، فتحيرت !

من ذا هنا يرسل إلى رسالة ؟!

فتحت المظروف ، وقرأت الرسالة فإذا بها دعوة من أمير المدينة باسم « مدير جريدة سچ »[٤] ، وقد جاء فيها ما يفيد بأن جلالة السلطان عبد العزيز بن سعود قادم من الرياض فى طريقه إلى مكة ، مرورا بالمدينة المنورة ، ولهذا يدعوكم أمير المدينة عصر يوم قدوم جلالة الملك السلطان عبد العزيز بن سعود إلى المدينة لحضور حفل الترحيب بجلالته.

تحيرت كثيرا لأن مدير« جريدة سچ » قد اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لإخفاء شخصيته هنا ، فكيف عرفت الجهات الرسمية بخبر وجوده ، حاولت الاستفسار هنا وهناك، وفشلت فى الوقوف على الحقيقة ، لكن السؤال الذى واجهنى هو : هل يجب قبول هذه الدعوة ؟ فالإنسان الذى ترك فجأة قراءة الصحف ، منذ بدء سفر الحج ، لم يكن من السهل عليه ، الاشتراك فى هذا الحشد الرسمى والدعوة الملكية !

ظل الصراع يدور بداخلى طويلا ، وبقيت فى حيص بيص مدة ، وبعد استشارة صديق خبير ، قررت أن أجيب الدعوة طالما وصلتنى ، وأن ألتقى بالسلطان ، ويجب أن

أطلعه على وجهة نظرى فيما شاهدته في المسجد النبوى وفى البقيع أيضا وفى غيرهما من تجاوزات ومن سوء تنظيم وسوء إدارة .

بعد التفكير فى هذا الأمر بدأت أرتب فى مفكرتى قائمة بالجوانب التى تحتاج إلى إصلاح ، وطلبت من العلامة الشيخ مناظر أحسن ، أن يترجمها إلى العربية ، على أن أقوم بعد حديث تمهيدى ، بعرضها على جلالة الملك وقت لقائى به ، إلا أن قدوم جلالة الملك إلى المدينة المنورة تأجل مرة تلو أخرى ، وفى النهاية أُذيع أنه سيشرف المدينة فى الصباح ، وستكون الدعوة فى اليوم نفسه بعد العصر ، ومكان الدعوة هو المكان الذى بنيت فيه محطة سكة حديد الحجاز ، وبالصدفة هطلت الأمطار بعد العصر، وبعد مدة وجيزة خفت حدة المطر .

لقاء الملك عبد العزيز بن سعود :

اصطحبت معى مولانا مناظر مترجما لى وذهبت ، ولم نقدر المسافة إلى مكان الدعوة تقديرا صحيحا ، كانت المسافة طويلة ، ولهذا وصلنا متأخرين عن الموعد المحدد ، كان مبنى المحطة يزدان بالأعلام وغيرها ، وفى الفناء وقف الجنود ورجال الشرطة والحرس فى كل مكان.

وتحسرت على البساطة البدوية ، كانت الزينات المعلقة شبيهة بتلك الزينات التى تقام فى إمارة من إمارات الهند متوسطة الحال ، وبدلا من أن يوجد على الباب المضيف أو نائبه لاستقبال الضيوف ، كان هناك حرس مدجج بالبنادق والأسلحة ، حين وصلنا وأردنا أن ندخل إلى الصالة ، قام أحد الحراس الذى لم نكن نستطيع فهم ما يقول ، ولم يكن هو أيضا يستطيع فهم ما نقول ، بمنعنا من الدخول ! لعل هذه التجربة للأخلاق العربية والضيافة العربية لم يرها أحد قبل هذا العهد النجدى .

.. فاضطررنا مجبرين إلى الجلوس على الكراسى فى الشرفة .

بعد قليل فرغ السلطان ورفاقه من تناول الطعام ، وجاءوا إلى الشرفة ، وجلسوا على أريكة مزخرفة .. فى الواقع وللأمانة أقول بأنه لم يكن هناك ما يميز السلطان عن غيره فى الملبس وفى الهيئة ، وكل ما يمكن أن أصف به بساطته الذاتية وحسن خلقه صحيح وواقعى ، فرجال حاشيته كانوا من حيث الملبس أكثر منه اهتماما بملبسهم وهندامهم ، ولو لم يكن هناك من أخبرنا عنه ، لكان من غير الممكن لنا التعرف على السلطان من خلال هيئته وملبسه ، أدعو الله أن يجعل لكل شعبة من شعب حياته وأخلاقه نصيبا من بساطة لباسه ومظهره ..

وعلى كل حال حين جاء السلطان وجلس على الأريكة ، بدأ الناس يتقدمون ويجلسون أمامه ، أما نحن فبدأنا نبحث عن مضيفنا أمير المدينة الذى أرسل إلينا الدعوة ، فلا بد أن نلتقى به على الأقل بعد إرساله هذه الدعوة لنا ، وفشلنا فى البحث عنه ، وبعد الانتظار مدة طويلة ، قمنا نحن الغرباء ، دون أن يقدمنا أحد ، وتشجعنا ، واتجهنا ناحية السلطان ، وحين وصلنا بالقرب منه ألقينا عليه بالسلام ، فقال السلطان وعليكم السلام ، وقام إلينا وصافحنا ، فأردنا أن نعرف بأنفسنا ، لكن لم تكد تخرج منا كلمة « نحن هنديون » حتى أمسك بنا مسئول المراسم الملكية ، وسحبنا على الفور وهو يقول : ليس هذا محل الكلام ، وبالرغم من أننا حاولنا أن نفهمه أن الهدف من حضورنا هنا هو الكلام ، لكن كيف يمكن لمسئول المراسم الملكية هذا أن يفهم ما كنا نقول ، وبينما نحن على هذه الحال ، تقدم أناس آخرون إلى السلطان ، مما جعلنا نلجأ مجبرين إلى الصبر !

وبينما نحن على هذه الحال إذا بسيارة السلطان تصل ، ويركب السلطان ، ويمضى ...

وللمرة الأخيرة بدأنا البحث عن أمير المدينة ، وفى هذه المرة وجدناه! فقصصنا عليه حكايتنا كلها ، فقال:

– لم تواتِكم الفرصة اليوم ! السلطان ذهب، سيغادر غدا ، ولا شك أنكم لو جئتم فى الصباح ، فسأرتب أمر لقائكم به ..

رسالة بالعربية إلى السلطان ابن سعود :

إن ما كتبه الله علينا لابد أن يحدث ! كانت حالتى قبلا متوعكة قليلا ، وبعد عودتى من مكان الدعوة السلطانية زادت حالتى سوءا ، وفى الليل داهمتنى الحمى الشديدة ، وشعرت بالضعف والوهن لدرجة أننى لم أكن بقادر على الخروج من السكن ، وتوقفت عن الذهاب إلى المسجد النبوى لأداء صلاة العشاء والفجر جماعة ، فكيف لى إذن أن أذهب الآن للقاء السلطان ؟! ووجدت نفسى مجبرا أن أستكتب مولانا مناظر رسالة بالعربية ، أرسلتها إلى السلطان ، وقد أخبرنا من حمل الرسالة بأن السلطان قرأ الرسالة ، ثم سلمها إلى أحد معاونيه قائلا : احتفظ بهذه الرسالة ، وذكرنى بها فى مكة وقت الحج ، فسوف ألتقى هناك بمن أرسلها .

وهنا تنتهى حكاية فشل لقائى بالسلطان ، فالعبد لله الذى كتب هذه الرسالة ، لم يكن متسولا أو شحاذا ، بل هو مدير صحيفة « سچ » وكان أحد خدام « جمعية الخلافة» وقد أوضحت هذا أيضا ، كما راعيت أيضا آداب المخاطبة الملكية فى الكتابة ، بحيث لا يشوبها شائبة من المس بقدر السلطان ، وقد أدرجت فى أدب واحترام فهرسا عددت فيه الأمور المطلوب إصلاحها ، وأكدت فى النهاية على أن يكون لجميع فرق ، وجماعات ، ومذاهب المسلمين ، حقوقا متساوية فى المسجد النبوى ، وفى المقصورة الشريفة ، وفى جنة البقيع وغيرها ، ولهذا يجب التعامل برحابة صدر فيما يتعلق بآداب الزيارة ، وغير ذلك من الترتيبات الأخرى ، وبقدر الإمكان يجب مراعاة معتقدات كل فرقة ، مما لا يتعارض مع الأصول الإسلامية الصحيحة ، وقدمت الرأى والمشورة لهيئة الشئون الدينية فى الحجاز، بوجوب التشاور مع علماء البلدان الإسلامية الأخرى ، وبخاصة أصحاب الفهم، وذكرت بأنه توجد جماعة كبيرة من الهند ، من بينها بفضل الله عدد كبير من أهل السنة ، يمكنهم تقديم المشورة الطيبة ، دون إضافة مشكلات للدولة السعودية فيما يتعلق بأمور الحجاز ، من بينهم خليفة شيخ الهند « العلامة حسين أحمد » ، ورئيس جمعية العلماء « العلامة كفايت الله »، والعالم الجليل من جماعة أهل الحديث « العلامة قاضى محمد سليمان منصور بورى » [٥] (مؤلف كتاب رحمة للعالمين [٦])، وشيخ الإسلام فى مملكة آصفية « العلامة الشيخ شروانى »

وشيخ الحديث بالجامعة العثمانية « العلامة مناظر أحسن كيلانى » (بكاف فارسية) والعالم الجليل « العلامة سيد سليمان الندوى » ، وأمثالهم من أصحاب العلم والفضل من علماء أهل السنة ، ولو استشارتهم الحكومة فى أمر آداب الزيارة وغيرها ، فسوف يزيل هذا ما فى قلوب جماعة كبيرة من المسلمين من مرارة وأسى .

نصيحة محب مخلص :

مع أن الهدف من ذكر هذا الجانب من الأمور مرة بعد الأخرى يهدف من ناحية إلى إطلاع الناس على الأحوال الصحيحة ، والمعلومات الضرورية ، ويهدف من ناحية أخرى إلى توجيه وإرشاد الحكومة السعودية ، ومحبيها ، حتى يصلحوا ما يحتاج إلى إصلاح ، وما يكتب الآن – حاشا لله – أن يكون مخالفة لأهل نجد أو معارضة لهم ، وحاشا لله أن يكون إساءة لهم ، أو ذما فيهم ، بل هو بسبب الصداقة الحقيقية والمحبة الخالصة ، وهو من قبيل تمنى الخير الحقيقى لهم ، فمهما يكن الإنسان سيئا ، فإن نطقه للشهادة ، لا يخرجه عن دائرة الإسلام ، والمخطئ مخطئ لكنه ليس بكافر ، والجاهل جاهل ، وهو ليس بباغ ، والأخ أخ ، وليس بعدو ، وما يصيبهم من شر ، فهو يصيب أيضا جميع المسلمين ، وهم إن كانوا مستورين ، شعرنا نحن بالفرح ، لأننا نفرح حين يكون من نطق بالشهادة مستورا .

إن النزاعات الداخلية أو الحروب الأهلية لا يمكن أبدا أن تكون شيئا محبوبا أو مرغوبا ، لكن اليوم ليس هناك أكبر من هذا الإثم : أن نرى النزاع بين النجدى والحجازى وبين الحنفى والحنبلى وبين أهل السنة وأهل البدعة ، فالوقت اليوم ليس وقت نزاعات بل هو وقت الاتحاد والالتقاء معا لمواجهة جيش « يأجوج » الذى لا يعد ولا يحصى ، الذى يهجم الآن علينا بأسماء لا حصر لها ، وأشكال لا تحصى ، وألبستهم المختلفة وأزيائهم المتنوعة ، من كل جانب ومن كل صوب ، و ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٩٦) يتهجمون على دين الله ، وعلى شريعة رسول الله ، وعلى

رسالة الإسلام ، ولن يكون بعيدا عن هجمتهم ، لا الهند ، ولا نجد ، ولا أى بلد من بلاد الإسلام ، ولا أى مكان من أماكن الإسلام المقدسة فى مركز الإسلام ..

من أين لى بقلم يجرؤ على الكتابة ؟ إن من شرفه يقوم بإقامة شرف الإسلام ، ومن عظمته تكون بالحفاظ على عظمة الإسلام ، ليست هناك ضرورة لمواجهته .. من هدموا قبة مزار عثمان الغنى رحمة الله عليه ، ومن أحالوا تربة فاطمة الزهراء إلى كومة رماد ، إن الجهاد يحق على أعداء دين عثمان وفاطمة ، ليس من قضوا على قبة عثمان بل من قضوا على مآثر عثمان ذاتها ، وليس من أحالوا تربة فاطمة إلى تراب بل من يظهرون تحقير فاطمة ، والحط من قدرها فى القلوب !

نداء إلى أهل القلوب فى الهند بأن ينتبهوا :

إن جماعة من أهل القلوب العلماء ، والأصدقاء من أصحاب النفس الطيبة ، يقولون بحسرة وتأسف وبلهجة تعاطف وإخلاص ، لماذا تبدأ هذا الكلام الذى لا محل له هنا ، بدلا من أن تشرح ما يتعلق بأنوار المشاهد المباركة .

لكن أيها السادة والأصدقاء ! بالله أخبرونى أليس أساس كلمة التوحيد هو نفى غير الله ، ولماذا يكون نفى غير الله قبل الإقرار بالله على هذا القدر من الأهمية ، وما يكون من مشاهدة تلك الأنوار والتجليات يكون كما يكون ، ولماذا يتوقع هذا من إنسان عادى يحب الدنيا ويرتكب الذنوب ، إنه يكتب ما يشعر به ويحس به ، وسواء كانت بضاعته غير كاملة أو ناقصة ، وعلى أقل درجة ، لكنها على كل حال بضاعته ، فهل يبدأ فى تقليد ونقل أقوال الصوفية حتى ينال حسن ظن الآخرين ؟! هل سيفرح هؤلاء السادة ويسرون إذا أقحم هذا العبد الفقير نفسه فى صراعات كبيرة كانت أو صغيرة ، من أجل أن يفرحهم ويسرهم ؟!

لقد كنا نسمع هنا نداءً واحداً من كل جانب من أسطوانات المسجد النبوى ، وفى كل محراب من محاريب المسجد النبوى ، ومن كل باب ، ومن كل جدار ، ومن كل لبنة من لبنات مسجد قباء ، ومن كل ذرة من ذرات البقيع ، ومن كل ركن فى المدينة المنورة ،

كان هذا النداء : (مَنْ أنصارى إلى الله ؟!) وكنا نشاهد فى كل مكان أنوار الدين ، وعلامات نصرة الدين.. !

اليوم ! انظروا إلى عالمنا ، فبدلا من ذكر اسم الله بدءوا يذكرون ألوهية يأجوج فى كل مكان ، نصبوا المسلمين قضاة فى المحاكم ، وعن طريقهم يتم تعديل قرارات الشريعة وأحكامها ، عينوا المسلمين فى المجالس النيابية ، وعن طريق مقترحات وقرارات الأعضاء المسلمين ، يتم تطويع أحكام الشريعة منْ خلال مقترحاتهم وقراراتهم ، طبقا لأهوائهم ، أجلسوا المسلمين على كراسى الوزارة والإمارة ، ويقوم هؤلاء الوزراء والأمراء المسلمون أنفسهم بتحطيم الشريعة ، أقاموا جامعات وقاعات درس للمسلمين ، وفيها بدءوا يتهكمون على الشريعة من خلال مقالات وأبحاث خبراء هذا الفن من المسلمين ، أوجدوا فى المسلمين عاطفة حب الوطن ، ثم كانت النتيجة أن بدأ الأتراك يقدسون القومية التركية، وبدأ المصريون يقدسون القومية المصرية ، وترك المسلمون الهنود إسلامهم ، وبدءوا يفخرون بهنديتهم !

لقد شاهدنا كثيرا من حفلات الإنشاد الدينى والمواويل ، وسمعنا كثيرا من أشعار المدائح النبوية ، وانتشرت مجالس قول الشعر .. والآن نناجى الله ! ونطلب من محمد نبى الله بأن يدعو الله حتى يستيقظ عباد الله وينهضوا ، وبأن تنهض أمة محمد ! وأن يتحمس الناس ، ويشعروا بالغيرة على دينهم، وأن ينسوا الأصدقاء والأحباب ، وليكونوا صفا واحدا فى مقابلة الجيش اليأجوجى ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ .

فاخرجوا .. وارفعوا راية الحق فى هذه المعركة الخاسرة ! وقدموا رءوسكم وأرواحكم فداء !

الهوامش

(١) سنن ابن ماجة رقم ١٤١٢ الترغيب ٢/٢١٧ .

(٢) انظر دكتور صالح بن حامد الرفاعى ، الأحاديث الواردة فى فضائل المدينة المنورة ، مركز خدمة السنة ، المدينة ١٤١٣ هجرية / ١٩٩٢ م ص ٣٦٨ - ٣٧٢ .

(٣) وفى رواية البخارى ومسلم وغيرهما « كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يأتى قباء كل سبت ماشيا وراكبا »

(٤) انظر مقدمة المترجم ، وجريدة سچ بباء فارسية وسچ معناها الصدق والحق ، صدرت فى ١٣٤٤ هـ/ يناير ١٩٢٥ م من لكهنو فى الهند وتوقفت سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م ، ثم عادت للصدور باسم صدق بعد ثلاث سنوات واستمرت فى الصدور حتى عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٥٠ م . انظر سمير عبد الحميد إبراهيم : الأدب الأردى الإسلامى ، جامعة الإمام ص ٥٤٥ ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.

(٥) انتقل قاضى سليمان إلى الرفيق الأعلى فى أثناء عودته من حج عام ١٣٤٨ هجرية (المؤلف) .

(٦) انظر سمير عبد الحميد إبراهيم : مترجم ، رحمة للعالمين ، طبع دار السلام ، الرياض ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

(١٧)

ديار الحبيب

وصف المدينة المنورة :

إن المدينة المنورة ، بمساحتها الحالية ، ليست بالمدينة الكبيرة ، فهى مثل أية مدينة صغيرة فى الهند ، أو مثل مركز من المراكز الكبيرة فى محافظة من المحافظات ، سمعت أن عدد سكانها فى وقت من الأوقات كان كبيرا ، لدرجة أنه كان يصعب على الناس السير فى شوارعها ، لكن منذ مجيء القطار، وافتتاح محطة سكة حديد الحجاز ، بدأ سير القطارات من الشام وإليها ، ومنذ ذلك الوقت حدث انقلاب فى عالم الأخلاق والقلوب ، وما كان لا يظهر حتى فى الخفاء ، بدأت خزائنه تنفتح ، ثم بدأ التطور المادى يتحول إلى آفة أصابت السكان كلهم ، وتعرضت المدينة لأمور كثيرة ، ما بين دمار الحكومة التركية ، وما جرى فى عهد الشريف ، وفى العهد النجدى ، فهى هدف لكل سياسى ، والمدينة اليوم هى من أكثر مدن العالم معاناة للظلم ، وسوف يصدق القول بأنه فى وقت ظهور الدجال سوف يعمر بيت المقدس وسوف تخرب المدينة ، والجميع يرى الآن ما ببيت المقدس من عمار ، لماذا إذن نصاب بالدهشة وتصيبنا الحيرة ونحن نرى ما تتعرض له المدينة من دمار؟!

لكن سواء عُمرت المدينة أو خربت ، وسواء زاد عدد السكان أو نقص ، فإن صاحب المدينة (صلى الله عليه وسلم) فى أمن وسلام ، وبسبب وجوده ستظل المدينة المنورة آمنة دائما كما قال الشاعر :

« الخير والأمان للمقيم فى هذا المكان يا رب !

سواء بقى المكان أو زال من الوجود »

كن إذا كان المكين فى سلام وأمان ، فإن أمن المكان أمر مؤكد ، وأى مكان هذا ، إنه المكان الذى ينال العالم كله نصيبا من بركات المقيم فيه .. ومع هذا يظل المكان نفسه محروما من هذا النصيب !

من فضائل المدينة المنورة :

كتب صاحب « جذب القلوب » بابا مستقلا فى فضائل المدينة المنورة ، وأقام الدلائل العقلية والنقلية المفصلة على أفضليتها ، لكن لا ضرورة لهذا البحث من أوله إلى آخره ، فمن له قلب ، عرف أن أعظم دليل على ذلك هو أن سيده المحبوب ، وأحب عباد الله عند خالقه ، يرقد فى تراب هذه المدينة .

« تراب يثرب أطيب من العالمين

يا لنسمات هذه المدينة التى يوجد فيها الحبيب »

ومن ليس له قلب ، لا يفيده لو كتبنا له مئات الدفاتر من الأدلة ، يحكى مولانا جلال الدين الرومى حكاية فى المثنوى عن « ابن عفريت » جعل من بئر مسكنا له ، وكان كلما نزل شخص إلى هذه البئر سأله : أية مدينة أفضل ؟ فيجيبه كل شخص ذاكرا اسم مدينة أعجبته ، فلا يعجب ابن العفريت بهذا الجواب ، ويقوم على الفور بتقييده فى البئر ، ولا يسمح له بالخروج ، وفى النهاية نزل البئر رجل عاقل ، وحين سأله ابن العفريت : أية مدينة أفضل ؟ فقال الرجل : أفضل مدينة هى تلك التى يوجد فيها محبوبى ، فأعجب ابن العفريت بهذا الجواب ، ولم يطلق سراحه فقط ، بل أطلق سراح جميع الأسرى فرحا بجواب هذا الرجل ، وهكذا فيكفى المؤمن أن تكون هذه المدينة مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهى المدينة التى لم يسمها عبد من عباده ، بل سماها رب العباد « طابة » (إن الله تعالى سمى المدينة طابة) وقد شرح أئمة الأدب معنى « طابة » أى الطاهرة فذكروا بأن المدينة طاهرة من نجاسات الكفر والشرك .

وهكذا فمن خدع أهل المدينة إنما خدع نفسه ، ومن تمنى لهم شرا إنما تمنى الشر لنفسه ، ومن أراد أن يكيد لهم فإنما يكيد لنفسه ، وقد جاء فى الحديث أنه ينماع كما ينماع الملح فى الماء ، وكما جاء فى رواية البخارى ومسلم :

« لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء » .

لقد حدث كل شىء فى عهد« يأجوج » ، وقد ظهرت نتيجة كل شىء ، فما من مكان لم يتعرض للقهر، والسلوك المشين، لكن مصاعب أرض المحبوب ومتاعبها رحمة ، وحتى الشدائد التى يتعرض لها المسلم هنا فى المدينة ، فهى ليست إنعاما فقط بل هى إنعام يتمناه القلب ، قال (صلى الله عليه وسلم) برواية صحيح مسلم :

« لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعا يوم القيامة .»

والآن هل هناك مرتبة أخرى بعد هذه ؟ جاء فى رواية أخرى :

« من سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شفيعا يوم القيامة »[١]

بعد هذا الوعد بهذا الإنعام العظيم ، لا يجب أن تصيبنا الحيرة ، فإن أردت أن تنجو بنفسك ، من متاعب ومصاعب المدينة ، وتسعد وتهنأ بنفسك ، لكن انظر إذا جاءك الموت هنا ، إذا جاءك فاستمع إلى البشارة الحقيقية على لسان الصادق الأمين :

« من مات فى أحد الحرمين ، بعثه الله من الآمنين يوم القيامة. »[٢]

وقد ورد فى بعض الأحاديث كلمة المدينة فقط بدلا من الحرمين :

« من مات فى المدينة كنت له شفيعا يوم القيامة. »[٣]

وقد ورد فى بعض الروايات الترغيب فى الموت فى المدينة ، وليس مجرد بيان لخبر :

« من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت ، فمن مات بالمدينة كنت له شفيعا وشهيدا. »[٤]

وهناك أحاديث عديدة تتضمن هذا المعنى من قريب أو بعيد ، والصحابة الكرام جميعهم كانوا يدعون الله أن يموتوا فى المدينة ، وكانوا يتمنون ذلك ، وهكذا فالمدينة التى تُبارك فيها الحياة ، ويُبارك فيها الممات .. من ذا الذى لا يتمنى أن يشرف بزيارتها ، بل يشرف بالبقاء فيها ؟ !

الحياة التجارية فى المدينة المنورة :

تظل المدينة المنورة فى معظم أوقات السنة هادئة ، الحوانيت مغلقة ، والأسواق مهجورة ، والبيوت مقفولة ، لكن فى موسم الحج ، ولمدة ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر ، تتغير الحال ، وكأن الربيع قد حل فى البستان ، فتزدحم الشوارع بالناس ، وتعج الأسواق بالباعة والزبائن ، وفى العشرين أو الثانى والعشرين من ذى الحجة ، تبدأ قوافل الحجيج بالقدوم إلى المدينة بأعداد كبيرة .. ما شاء الله !

ويظل هذا الزحام مستمرا حتى آخر محرم ، ويكون الزحام قليلا نسبيا فى شوال وذى القعدة ، ومع هذا يظل الناس هنا بالآلاف خاصة فى شهر ذى القعدة ، ويمكن الحصول على جميع المستلزمات والأغراض من السوق ، والأسعار هنا معقولة ، فالأشياء ليست غالية ، فتجد اللحم (الضأن والبقرى) والسمن ، والسكر، ودقيق القمح ، وبعض الخضروات ، والحليب والزبادى ، وكل شىء يمكن الحصول عليه طازجا وبحالة جيدة ، وبشكل عام لا يخبز الناس هنا الخبز فى بيوتهم ، بل يشترونه جاهزا من السوق ، أما الطبخ فيكون فى البيت ، وفى الصباح يمكن الحصول على طعام الإفطار من المطاعم الموجودة فى السوق ، والطعام لذيذ جدا وشهى ورخيص أيضا ، وطعام العشاء عادة ما يكون بعد العصر ، فلا يوجد هنا عادة تناول الطعام فى الليل ، كما أن الحوانيت تغلق أيضا فى المساء ، وبعد العشاء يسود الهدوء والسكون .

تمر المدينة وماؤها :

فى المدينة المنورة يمكن الحصول على جميع أنواع الأقمشة ، كما توجد فيها من النعم المادية نعمتان تختص بهما المدينة دون غيرها :

الأولى : التمر ويعلم الله كم نوعٍ من التمر يوجد فى الأسواق هنا ! ما بين صغير الحجم وكبير الحجم ، ما بين الحلو شديد الحلاوة ، وبين الحلو قليل الحلاوة ، وما بين التمر الجاف والآخر الطرى ، وما بين التمر الأحمر والآخر الأسود .. أنواع كثيرة ، تجد هنا كل ما تتخيله ، وما يخطر لك على بال من أنواع التمور ، وبالسعر الذى تبغيه ، تمور لذيذة ، ونفيسة ، تشتهى أن تملأ بها معدتك ، لكن القلب لا يمتلئ مهما كان .. !

للأسف كان حمل كمية كبيرة من التمر إلى الهند أمرا صعبا وشاقا ، وثانيا وإذا تحملنا المشقة ، وحملناه معنا ، فإنه لن يظل على حاله هناك لفترة طويلة ، فسوف يفسد ، والتمر الذى نجده فى بومباى مستورد من العراق وغيرها ، فتمر المدينة لا يوجد فى غير المدينة ، ولا يمكن الحصول عليه إلا فى المدينة .

والنعمة الثانية من نعم المدينة المادية ، وهى نعمة كبرى ، أعنى بها ماء المدينة المبارك ، يعجز القلم حقا عن وصفه ومدحه ، ويعجز اللسان عن التعبير عن حلاوته : ماء زلال ، بارد ، لطيف ، خفيف ، هاضم ، ربما لا يوجد مثيل له على سطح الكرة الأرضية ، كم من مرة خدعنا به ، وظننا أننا نشرب ماء مثلجا .. تشرب .. وتشرب كما يحلو لك ، لا تشعر أبدا بالامتلاء ، وربما هو مثال للماء الذى ستشربه من ساقى الكوثر فى الجنة ! مثال هنا فى هذه الجنة الأرضية ! وللأسف لا توجد وسيلة فى هذا الوقت ، لحمل هذه الهدية خارج المدينة المنورة !.

الحياة الاجتماعية والسكان :

إيجار البيوت هنا رخيص جدا ، لكنه يزيد نسبيا فى موسم الحج ، لكن إلى أى حد ؟ إذا تم الاتفاق على شراء بيت قديم ، فيمكن شراؤه بثمن رخيص جدا ، تغمده

الله برحمته ، لقد اشترى « العلامة الشيخ عبد البارى الفرنكى محل » بيتا طمعا فى أن يحشر مع أهل المدينة ! وهذا الطريق ممهد الآن أمام كل مؤمن حسنت عقيدته .

يوجد العنصر الأجنبى بكثرة بين سكان المدينة اليوم ، ففيهم التركى والكردى ، والعراقى والهندى ، والمصرى والنجدى والمغربى ، ويعلم الله كم عدد الأسر التى جاءت من خارج المدينة ، وسكنت المدينة ، وجميع الخلق هنا مختلفون عن بعضهم ، وطبائعهم وأمزجتهم مختلفة أيضا ، والبقية عدد من العائلات الخاصة ، وهم أهل المدينة الأصليون أى السادات والأنصار.

ماذا نقول عن أخلاقهم وجوهر شرفهم ! فنحن الهنود قد تعرضنا من قبل لتجربة ، وكان أول من سطر بقلمه ما يجول بخاطره فى هذه الناحية هو العلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى الذى جعل من السفر بكل جوانبه وطنا له ، وهو يكشف عما فى قلبه ، وقد أوضح بطريقة طيبة ، أسرار إخلاصهم وإيثارهم ، وكيف أنهم يجسدون الإيثار وخدمة القلب ، لكن الرجل مع هذا غلبه الخوف فأمسك عن الكلام .

ويعلم الله كم كان تطهر النفس الذى ناله ببركة مجاورة حرم الرسول لثلاثين سنة ، أو أن النفس كانت من قبل متطهرة ، فهو يهيئ الذين قدموا من وطنه العزيز ، من على بعد آلاف الأميال إلى هذه البقعة المطهرة تهيئة عظيمة فى أثناء إقامتهم هنا ! ندعو الله أن يحقق أهدافه الدينية والدنيوية ، وأن يعمر مدرسة اليتامى ، التى أسسها الشيخ ، من خزانة غيبه ! آمين .(٥)

ومن بين رفاقه المخلصين نذكر منشى (الباشكاتب) محمد حسين فيض آبادى ، وأذكره هنا بكل الشكر ، وأيضا العلامة الشيخ عبد الباقى ، وهو من أسرة « فرنكى محل » بلكهنو ، رجل ممتاز وهو طاعن فى السن ، يقيم هنا بعد أن ترك وطنه منذ سنوات طويلة ، وهو يدير « المدرسة النظامية » ، أكرمنا بعطفه الشديد ورعايته الشاملة ، وأصر على أن نقيم عنده ، ومبنى مدرسته مبنى واسع وفسيح ، وهو مريح أيضا للضيوف ، لكن كان يبعد قليلا عن المسجد النبوى ؛ لهذا وجدنا أنفسنا مضطرين إلى الاعتذار له .

وأذكر أيضا أحد التجار الهنود من ضواحي دهلي يدعى عبد الغنى ، وهو يعمل بتجارة الشاى والحبوب ، واسم محله« عثمان أحمد وشركاه » وهو رجل عطوف وخدوم ، بالرغم من أننا تعرفنا عليه بالصدفة إلا أنه قام بتقديم العون والمساعدة لنا بكل ما يستطيع .. فجزاه الله خير الجزاء.

الهنود فى المدينة المنورة :

كنا قد دخلنا المدينة فى غرة ذى القعدة ، ولا ندرى كم من العشاق الهنود وصلوا مثلنا فى التاريخ نفسه ، وكم وصلوا من قبلنا ، وقد سبق أن ذكرت من قبل منشى أمير أحمد كاكورى ، الذى كان قد وصل إلى الحجاز قبل شهور ، وذهب إلى مكة ، فأدى العمرة ، وهو يقيم الآن هنا فى مدينة الحبيب ، وهكذا يقيم هنا أيضا من مدة مولوى غلام بهيك نيرنكى المحامى (من أنباله ومعتمد جماعة التبليغ).

ماذا أقول عن ذوقهما وشوقهما ، فلو تيسر لى اليوم زيارة الحبيب ، فهذا من حسن حظى ، أما هؤلاء السادة فلم يشبعوا من الزيارة ، بالرغم من حضورهم هنا منذ شهور ، والدكتور عبد الرحمن البيهارى المكلف من قبل حكومة نظام حيدر أباد لرعاية الحجاج ، كان يقيم هنا أيضا ، وهو بالإضافة إلى أدائه لواجبه فى معالجة المرضى ورعايتهم يقوم أيضا بخدمة الحجاج والزائرين بكل طريقة ، ويعلم الله كم من الناس استفادوا من خدماته الجليلة ، ومولوى أبو الخير خير الله (المحامى بحيدر آباد) الذى يظهر أحيانا على صفحات « سچ » ، ومنشى محمود عالم الفيض آبادى اللذان تربطنا بهم روابط عائلية قديمة ، التقيت بهما كثيراً ، ففرص اللقاء هنا كثيرة ، وبالرغم من أن كل إنسان منصرف إلى مشاغله الخاصة ، لكنه غير منزه من صفاته البشرية ، فتعقد عادة اللقاءات أيضا ، كما يتجمع الناس حول المأدب ، يلتقون معا يضحكون ويمرحون ويتسامرون ، وبعض المحظوظين قد انتقلوا إلى الرفيق الأعلى هنا فى الأرض الطيبة ، فسرنا فى جنازتهم ، وصلينا عليهم أمام المحراب العثمانى فى المسجد النبوى ، وأخذنا الجثمان من أمام الروضة المقدسة وأحيانا من خلفها ، داخلين به إلى روضة الجنة ، وخرجنا بالجثمان من باب جبريل ، ووصلنا به إلى البقيع حيث واريناه الثرى ..

الله   الله ... كم يغبط الأحياء هؤلاء الموتى على ما نالوه من سعادة !! الموت فى أرض المدينة المنورة ، صلاة الجنازة فى المسجد النبوى ، دعاء المغرفة ، يرفعه أهل المدينة ، أهل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وضيوفه أيضا ، يمر الجثمان من أمام « مواجهة وجهه الشريف » ثم فى مقبرة البقيع يُدفن !! لماذا لا نغبط من توفر له متاع الرحمة هذا .. ؟!

فالإفرنجة المساكين لا يدرون شيئا عن لذة الإيمان ، وحلاوة الدين ! فهم يهتمون طول الوقت بأنفسهم وبحياتهم ، وماذا أدراهم بأن هناك حياة أطيب من هذه الحياة الناسوتية ؟! ، لم أنس أبدا شعر محمد إقبال هذا ، الذى ظل ماثلا فى ذاكرتى على الدوام :

« لا يفهم الدين إلا من فهم رسالة الحياة

تلك الرسالة التى علمنا إياها الرسول الأمين

نحن أمة الإسلام نبحث عن الموت فى أرض الحجاز »(٦)

مقارنة بين الحياة الاجتماعية والمناخية فى المدينة ومثيلتها فى الهند :

الحياة الاجتماعية فى المدينة المنورة هى أنموذج للحياة الاجتماعية فى الحجاز كله ، ومن الواضح أنها تختلف عن الحياة الاجتماعية فى الهند ، لكنها ليست بهذا الاختلاف الذى يجعل القلب يستوحشها أو لا يأنس بها كثيرا ، لكنه اختلاف شبيه بالاختلاف الموجود بين ولايات الهند المختلفة ، بل حتى بين محافظات ومراكز الولاية الواحدة المتباعدة عن بعضها .

اللغة الأردية هنا مفهومة بقدر يكفى للتعامل بين الناس ، ولو كانت لك قدرة على التحدث باللغة العربية ، فبها ونعمت .. سبحان الله ، وإلا فإذا استلزم الأمر فلن تعجز عن أن تجد من يعرف الأردية .

وجو المدينة أيضا ليس بالصعب ، فهو محتمل ، وتجربتنا هنا فى أبريل وبداية مايو ، تستحق الذكر ، فقد كانت الحرارة مرتفعة ، وأشعة الشمس محرقة ، لكن بالنسبة لأمثالنا من منطقة « يو بى » فلم نكن نشعر بأن شدة الحرارة هنا غير عادية ، وقد هطلت الأمطار أحيانا ، والجو فى الليل معتدل ، وفى وقت سقوط المطر يشتد البرد بشكل خاص ، لدرجة أن من لا يأخذ احتياطاته قد يعانى ، ويتعب من البرد ، فحتى داخل الغرف يحتاج الإنسان إلى أن يتدثر بالغطاء أو ببطانية ثقيلة .

إلا أن الجو فى عمومه جميل جدا ، ومن يحتاط لنفسه منذ البداية ، لن يكون هناك أى سبب لإصابته بالمرض ، ومعظم أفراد قافلتنا أصيبوا بالمرض ، لكن صحتهم تحسنت بسرعة، والفناء هنا فى معظم البيوت يفتقد إلى التهوية ومرور الهواء فيه ؛ لهذا يلجأ الناس إلى فتح نوافذ الغرف فى الطوابق العلوية ، كما يستخدمون أسطح المنازل ، وفى معظم البيوت توجد غرف باردة فى « البدروم » .

لا يوجد فى المدينة تلك الجماعة التى يطلق عليها فى الهند (مهتروى) وهى التى تعمل بجمع فضلات المراحيض يوميا، إذ توجد فى البيوت هنا آبار عميقة ، تقام فوقها المراحيض ؛ ولهذا وجب استخدام « النفتالين » وغيره ، لدفع الرائحة الكريهة ، والقضاء على ما قد يظهر من أمراض .

وإذا أراد الإنسان أن يسكن فى مكان ليوم أو يومين ، فأى بيت يكون مناسبا له ، لكن إذا أراد أن يقيم لأكثر من ذلك وخاصة إذا كان معه صحبة ، فيجب عليه أن يبحث عن بيت يناسبه ، ويكون وافيا بجميع الشروط والمستلزمات ، وليس لهذا أية علاقة بالإهمال أو البخل أو الشح ، فإذا كان البيت غير مريح ، يظل القلب قلقا مضطربا ، ولن يكون للإنسان نصيب من هدوء البال أو راحة النفس ، إن عدم الاهتمام بالضرورات البشرية ، والراحة البشرية هو أعلى درجات المجاهدة ، لكن لا يجب على كل إنسان ، أن يحسن الظن بنفسه .!

بعض البيوت هنا فخمة جدا ، وهى مثل القصور ، وقد اضطررنا ذات مرة إلى الذهاب إلى بيت الشيخ عبد الله الفضل (من بومباى) .. يا له من بيت ! بيت واسع

فسيح جدا ، بساتين النخيل الواسعة ، تتوسطها « ڤيلا » فخمة ، كأنك فى بيت أحد الرؤساء أو النواب فى الهند .

نظام البريد فى المدينة :

مر على مغادرتنا للوطن ثمانية أو عشرة أسابيع ، لكن ذكرى الوطن لا تمر كثيراً على أذهاننا ، يوزع البريد القادم من الهند إلى هنا ثلاث مرات فى الشهر (مرة بعد كل عشرة أيام) ويصل من هناك بسرعة ، خلال شهر أو أقل ، ومكتب البريد هنا لا يزال فى دور التحسين وفى مرحلة التطوير ، يوضع على الظرف طابع بريد فئة ثلاث « أنه » (هللات) .

وصلت خطابات بعض الأصدقاء والأحبة ، وقد فرح القلب ، وسررت كثيراً بوصولها ، وكأن مسافرا بقى بعيدا عن وطنه مسافة آلاف الأميال ، ثم يسمع أخبار أهله بعد شهر ونصف أو شهرين .. لكن هل هى قسوة القلب أم فظاظته ؟!

هل يُنسى الوصول إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم الأهل والأحبة بهذا الشكل ؟! لا .. ليس الأمر كذلك ، فلا يمكن للإنسان أن ينسى أهله ، فالقلب كان فى شوق ليطمئن على أحوال الوالدة ، وفى وقت زيارة روضة الجنة ، أخذت أدعو الله رب العالمين مستشفعا برسوله الكريم الذى هو رحمة للعالمين ، لجميع الأهل والأقارب والأحبة والمعارف ، لا أدرى من ذكرت ، ولا أدرى من نسيت ، أو حتى من تذكرت ! ولا شك أن ذكرى أحد لم تغب أبدا عن القلب ! ربما كان هذا ببركة الأرض الطاهرة ، وجوار عشق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإن لم يكن هذا كذلك فما عساه أن يكون.!!

الهوامش

(١) انظر بقية الأحاديث فى كتاب فضائل المدينة المنورة للدكتور الرفاعى ص ٢٠٧

(٢) ورد ذكره فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ١/ ٢٣٧ .

(٣) انظر كتاب السنة لابن وائل ٢/٣٩٧ ط المكتب الإسلامى .

(٤) فى سنن الترمذى برقم ٣٩١٧ وفى كشف الخفا للعجلونى ٢/٣١٢ وفى الترغيب ٢/٢٢٣

(٥) عن مدرسة اليتامى نشرت هذه السطور فى جريدة سچ عدد ١٣ المجلد الخامس :

الخدمة الصحيحة للمدينة الطيبة

لا يمكن تقدير الحالة المتردية والمؤلمة لأهل لحجاز دون السفر إلى الحجاز ، ففى أثناء الإقامة فى المدينة المنورة ، ومع فضائلها التى لا تعد ولا تحصى ، وبركاتها التى لا نهاية لها ، تألم القلب وتحسر بعد مشاهدة هذا المنظر ، فحيثما سرت ، وجدت الأيدى تمتد إليك فى كل مناسبة وفى كل موقع ، ومن كان من واجبهم أن يعلموا الناس درس الغيرة والاستغناء ، فى جوار أطهر خلق الله على هذه الأرض الطاهرة التى حرم فيها السؤال فى المسجد ، فى كل لحظة يحدث خلاف هذا الحكم ، إن علاج مثل هذا الأمر لا يكون فى الشدة أو التعامل بشدة ، فلا يمكن أن يحلم إنسان أو يفكر فى أن يسلك مسلك الشدة أو حتى عدم التعاطف مع أهل المدينة ، لكن ما هو ضرورى هنا هو علاج النفس ، فلا يمكن أن يكون إهمال المرض تعاطفا مع المريض ، أو وسيلة لكسب صداقته ، بل هو عداء له ، ومن الواضح أن الصلاح فقط يكمن فى إعطاء التعليم الدينى الصحيح ، لتقديم أنموذج عملى للإيثار والاستغناء والغيرة ، حتى يمكن القضاء على هذه العادات السيئة ، وحتى يمكن تصحيح هذه العادات الخاطئة بقدر الإمكان ، والشكر لله والحمد لله بأن شرف هذه الخدمة المهمة على هذه البقعة الطيب كان من نصيب شيخ هندى من شيوخنا الأفاضل ، الذى أسس مدرسة دينية باسم مدرسة اليتامى ، على أسس صحيحة جدا وبهدف إصلاحى ، أسسها بجوار الحرم النبوى ، وهذا الشيخ العظيم الذى لا نقول بأنه عظيم على سبيل الرسميات بل هو كذلك حقيقة ومعنى ، وهو عظيم يستحق أن يغبطه الجميع على عظمته هذه ، هو العلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى شقيق العلامة الشيخ حسين أحمد (شيخ الحديث فى ديوبند) الذى وقف عمره كله لخدمة جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه .

وسوف يكتب مولانا مناظر أحسن وصفا المدرسة فى العدد القادم من الصحيفة – إن شاء الله – بعد معاينته الدقيقة لها ، ويمكن القول باختصار إن قراء صحيفة سچ من أصحاب القلوب الطيبة والراغبين فى خدمة أهل المدينة المنورة خدمة حقيقية ، عليهم دون أى تكلف أو تردد اعتبار تقديم العون لهذه المدرسة فرضا ، والعلامة الشيخ سيد أحمد فيض آبادى شيخ جليل لا يمكن أن يوجد من هو أجدر منه بالثقة ، ومن هو أكثر منه طمأنينية وجدارة بالثقة فى هذه الزمان.

وعنوان إرسال التبرعات المالية هو :

١ - حكيم دكتور عبد العلى شارع كورين ، لكهنو .

٢ - كوتهى حاجى على جان تشاندنى تشوك دهى .

٣ - عبد الله بهائى عبد القادر نمبر ٢٠٦ تاكديوى استريت بمباى . (حاشية المؤلف)

٤ - العلامة الشيخ محمد ذكريا كاندهلوى شيخ الحديث ، مدرسة مظاهر العلوم ، سهارنبور . (حاشية المؤلف)

(٦) يقول الشاعر محمد إقبال :

يا رحيما لك بالناس مثاز   كل ما أبغيه موتى بالحجاز

(١٨)

الرحيل

مشاعر الحزن على فراق المدينة :

تمر الأيام .. لا يبدو أنها تمهلنا من الوقت شيئا ، فقد حلّ وقت الرحيل فجأة .. أقمنا هنا عدة أسابيع فقط ، مرت مسرعة ، وهكذا يمر العمر - كل عمر - مسرعا .. دون أن يدرى أحد ، متى كان يلهو فى عالم الطفولة ؟! ومتى نام نوم الشباب ؟! ومتى جلس وحيدا فى ركن الشيخوخة ؟!

كان يوما ! تمنينا فيه زيارة المدينة ، كم من الترتيبات أعددنا ، وكم من الخطط رتبنا ، وكم من الأفكار ، وكم من الخيالات ، وكم من الأمنيات مرت بأذهاننا ، وكم من سعادة الذوق ، وسرور الشوق اعتلج فى قلوبنا ، وكم من الهمم ظهرت ! وكم من العواطف ، وكم من الأمانى تموجت فى صدورنا ، وكم من الأدعية جرت على ألسنتنا !

ثم جاء ذلك اليوم ، وكأنه جاء فى وقته ، لكننا كنا نشعر بأنه جاء فجأة .. جاء ذلك اليوم الذى بدأنا نعد فيه العدة للرحيل ، كنا نربط الفرش والأغطية ، ونرتب الأمتعة ، ونفكر فى أمر وسيلة المواصلات ، ونلتقى بهذا أو ذاك ، وعلى اللسان تجرى كلمة الودا ع ، وفى العيون تترقرق دموع الفراق فى التياع :

« جئنا ، ماذا فعلنا ؟ وماذا لم نفعل ؟

وماذا علينا أن نفعل ؟ ! »

بعد أن كانت هذه الأماني ، وهذه الأمنيات من نصيبنا .. هكذا تضيع بمثل هذا الإهمال والجفاء ! لدرجة أن أعظم مبذر في العالم لا يمكن أن يجارينا فيما فعلناه ! على كل حال نحن نفعل ما كان يجب علينا أن نفعله ، فإذا كان هناك من وسيلة للاطمئنان والراحة ، وإذا كان هناك من وسيلة للعون والمساعدة ، فقد كان بسبب حضرة الرسول الأمين الذى هو رحمة للعالمين ، من بعد رب العزة ، الرحمن الرحيم :

« عصياننا إنما كان طمعا فى رحمة ربنا

عصياننا له نهاية ، ورحمة ربنا بلا نهاية . »

هدايا المدينة المنورة :

أعظم هدية يمكن للإنسان أن يحملها من المدينة هى التمر ، وهكذا اشترى كل فرد من قافلتنا كمية كبيرة منه لأبناء وطنه من الأهل والأقارب والأصحاب والأحباب ، ولم يكن أحد منهم قانعا بما حمل ، كانت كل علبة من الصفيح تحوى ١٣ سيرا (حوالى أحد عشر كيلو) من التمر ، وخوفا من مشاكل الوزن والتحميل والتنزيل ، فقد اتفق على أن يأخذ كل شخص علبة أو علبتين فقط ، وإلا فكل إنسان كان يتمنى أن يحمل معه كمية تشبع الآكلين ، وتشبع الناظرين أيضا ، واشترى بعض الناس سجاجيد الصلاة ، والمناديل ، والعباءات ، والسبح ، والكحل ، وشمع الروضة الأنور ، وكل ما يذكرهم ببركة هذه المدينة المنورة ..

لكن ما معنى سجاجيد المدينة ؟! إنها لا تصنع فى أى مكان فى الحجاز ، قماشها ليس حجازيا ، ونسيجها ليس بنسيج حجازى ، وليس من يصممها أو يخرطها حجازيا ، وليس من يصنعها حجازيا، فكلها من أولها إلى آخرها تصنع فى مصانع الإفرنج ، والعباءات عموما تصنع فى الخارج ، وبعد البحث يمكن أن تجد عباءات صنعت فى العراق والشام ولكنها على كل حال مشتراة من أسواق المدينة ، وفى نظر أصحاب العقيدة الطيبة تنتسب إلى البلد المحبوب.

حملنا هذه الأمتعة الزائدة مع أمتعتنا الأخرى على ظهور البعير إلى جدة ، حيث تم إرسالها إلى وكيلنا هناك ، وقد تمكنا من إنهاء هذه الترتيبات والإجراءات بسهولة وكفاءة ، بمساعدة العلامة الشيخ سيد أحمد ، وإلا كان حمل مثل هذه الأمتعة الكثيرة معنا فى السيارة متعبا جدا ، ومضيقا علينا ، وقد نضطر إلى تأجير شاحنة خاصة لحمل هذه الأمتعة ، ويعلم الله كم يكلف هذا الأمر .

كانت الإقامة فى مكة المكرمة قصيرة جدا ، ولهذا أخذنا معنا فقط أقل القليل مما قد نحتاج إليه من أمتعة ، وأرسلنا جميع أمتعتنا على الجمال إلى جدة .

التفكير فى ترتيب الإقامة فى مكة :

قبل الذهاب .. فكرنا فى مكان الإقامة فى مكة .. الحر الشديد ، زحام الحجاج الرهيب ، العجائز والضعفاء ، النساء اللواتى يشكلن جزءا من قافلتنا .. وهكذا لم نفكر فقط فى أين سنقيم ، بل كنا نفكر أين يمكن أن نجد مكانا نقيم فيه براحة وسهولة ..؟ كنا ذاهبين إلى بيت الله ، كنا – بأمر من الله – ضيوفا على الله ، ومن هنا كان يجب أن نترك التفكير فى الضيافة على صاحب الدار ، مضيفنا ، وأن نبقى دون خوف تماما ، لكن هذا ما يمكن أن يفعله فقط أهل الله ، المتوكلون على الله ، إن الكلام باللسان سهل ، لكن الأمر كان صعبا ، بل غير ممكن على أمثالنا ممن يسعون إلى الراحة والدعة ، وعلى أمثالنا من أصحاب الهمم الضعيفة .

إن مسألة إنزال الحجاج وإسكانهم تقع كلية على عاتق المطوف ، لكن احتياطا من المناسب ألا نعتمد على المطوف وحده ، وأن نرتب بأنفسنا أمر السكن والقيام فى مكان مناسب .

والمدرسة الصولتية فى مكة مدرسة مشهورة ، أسسها العلامة الشيخ رحمة الله الهندى المهاجر ، يقوم على إدارتها العلامة الشيخ محمد سعيد ، الذى كان موجودا وقت رحيلنا من الهند ، فى مسقط رأسه كيرانه مركز مظفر آباد ، فأعطانا خطاب تعريف لنجله ونائبه مولوى محمد سليم ، وقمنا بإرسال خطاب التعريف مع رسالة منى

إلى مولوى محمد سليم ، وذلك قبل وصولنا إلى مكة قادمين من المدينة المنورة ، فجاءنا الرد عن طريق البريد ، وتسلمنا منه رسالة كلها شوق واشتياق ، وما كتبه لنا يدل على حسن خلقه وكرمه ، وقد ذكر لنا أن عددا من الغرف فى مبنى المدرسة الجديد الواسع ، سيكون محجوزاً من أجلنا بكل سرور .

يقول الناس إن المعيشة فى مكة تصيب الأخلاق بالجفاف والخشونة ، لكن إذا كان مثال ذلك هو خطاب مولوى سليم ، فيا رب ! اجعل مثل هذه الخشونة والجفاف من نصيب الجميع .

أقيمت فى مكة ثلاثة أربطة من جانب « نظام حيدر آباد » وكنا قد حصلنا بفضل العلامة الشيخ شروانى ، وأختر مينائى على خطابات أيضا لحبيب الله المسئول عن الحراسة ، وهكذا وبعد هذه الترتيبات ، اطمأن القلب فيما يتعلق بمسألة الإقامة فى مكة المكرمة.

صعوبة ترتيب أمر السفر فى موسم الحج :

أهم مرحلة من مراحل العودة من المدينة المنورة هى وجود وسيلة الموصلات ، وبخاصة فى الوقت الذى اقترب فيه موعد الحج ، فهناك صعوبة كبيرة فى ترتيب أمر السفر سواء بالجمال أم بالسيارات ، والحصول على وسيلة مواصلات مناسبة كان لنا نعمة مزجاة من عند رب العباد ، فلم يكن من السهل أيضا أن نرتب هذا الأمر بقلوب مطمئنة ، نظرا للزحام الشديد ، وقد اضطررنا للمحاولة مرة تلو الأخرى ، لعدة أيام متواصلة ، فكنا إذا ما وجدنا وسيلة نقل مناسبة واتفقنا اتفاقا مؤكدا ، وأُعطينا الوعود المؤكدة ، حنث هؤلاء بوعودهم ، ونقضوا اتفاقاتهم ، مرة من بعد الأخرى ، وحين ذهبنا وجاء موعد الرحيل ، قال العارفون ببواطن الأمور : إن الحج عبادة عشقية ، يجب على العاشقين أن يتموا أركانها وأعمالها جميعا ، ولو كان هذا صحيحا ، فإن آثارها ظاهرة واضحة فى كل مرحلة من مراحل هذا السفر : عقد النية ثم تغييرها ، درس الإيثار وإنكار الذات ، ومن يعتمد على ترتيب الأوقات وجدولة المواعيد ، يجد نفسه

مجبرا على أن يغير نظام أوقاته وجدول مواعيده مرة تلو الأخرى ، فالسفر إلى بيت الله سوف يتم طبقا لإرادة الله حتى يتعلم العبد الإحساس بالعبودية ، والمسكنة ، والمذلة فى هذه المدة القصيرة .!

ليست لى تجربة ذاتية خاصة فيما يتعلق بالسفر على ظهر البعير ، وقد سمعت « هذه الحكايات » فقط ، أما «حكاية» السيارات ، فقد شاهدتها رأى العين ، وعايشتها بنفسى ، وجميع شركات السيارات الموجودة فى جدة ، والمخصصة للمدينة المنورة ، لها مكاتب صغيرة هنا فى المدينة ، ويظل الاتصال بينها وبين المكاتب الرئيسية فى جدة قائما عن طريق اللاسلكى والهاتف ، ونحن استأجرنا السيارات الشاحنة (اللوريات) من جدة لمدة شهر ، وحسب القاعدة دفعنا الأجرة كاملة ، ولما كنا قد دخلنا المدينة أول ذى القعدة ، وكنا فى بداية الأسبوع الأخير من ذى القعدة ، حين أراد الأصحاب التعجيل بالرحيل ، قالوا - وكان قولهم ضروريا - بأن الوصول إلى مكة فى وقت الحج بالضبط لا يجعلنا نتمتع بأداء مناسك الحج .

قصة السيارات المسلية ومنظر يوم الحشر :

مر نصف شهر ذى القعدة .. ومر يوم عشرين من ذى القعدة .. ثم مر يوم الثانى والعشرين .. وأخيرا مر يوم الخامس والعشرين من ذى القعدة .. ورحل مئات بل آلاف الحجاج ، وبدأ العشرات بل المئات من الناس يرحلون كل صباح ومساء ، والقلب فى شوق واضطراب لزيارة الكعبة المشرفة .. فمَنْ هذا التعيس الذى يسجد تجاه الكعبة خمس مرات كل يوم ، ثم لا تشتعل نيران الشوق فى قلبه ، الشوق لزيارتها ، والطواف حولها ! لكن فراق عتبات المسجد النبوى أيضا لم يكن بالأمر السهل على القلب المحب !

وهكذا مرت الأيام وانطوت صفحات التاريخ ، حتى فاجأتنا الأيام الأخيرة من شهر ذى القعدة ، وكنا على كل حال نفكر فى أمر الرحيل والترحال .. كانوا قد أخبرونا فى مكتب شركة الحرمين للسيارات قبل عدة أيام أن الشاحنة ستكون جاهزة

لنا بكل تأكيد فى غرة ذى الحجة ، وتم تأكيد هذا الاتفاق ، ووعدونا وعودا مؤكدة .. لكن غرة ذى الحجة مضت ، ولم تصل الشاحنات التى ستحملنا . !

بينما كنا ذاهبين فى السابع والعشرين إلى مسجد قباء ، التقينا هناك بالصدفة بالشيخ عبد الله الفضل (ساكن بومباى) مع خدمه وحشمه ، فرحب بنا أطيب ترحيب ، باحترام ومحبة ، وكان معه بالإضافة إلى كبار المسئولين أصحاب شركة الحرمين ، فورد ذكر الشركة ، وذكر صعوبة ترتيب أمر سفرنا وعدم وجود شاحنة تقلنا ، فقام على الفور ، وأمر سكرتيره الخاص بأن يرتب لنا أمر المواصلات ، وبالرغم من هذا لم تتوفر السيارات فى غرة ذى الحجة ، مما اضطرنى إلى الذهاب بنفسى إلى بيت الفضل لأخبره بما حدث ، فكتب على الفور رسالة إلى مدير الشركة واسمه « على » وبالرغم من وجود هذه الرسالة ، لم تتوفر لنا وسيلة المواصلات على الفور ، وفى الصباح وعدونا بأن تصل السيارات ، لتأخذنا فى الظهر، وفى الظهر وعدونا بأن السيارات ستأتى فى المساء ! وفى المساء أخبرونا بأنها ستأتى فى الصباح ، وهكذا مر اليوم الأول من ذى الحجة ، وهكذا أيضا مر اليوم الثانى !

وفى صباح اليوم الثالث ، وفيما نحن بين الساعة الثامنة والتاسعة إذا بالشيخ « جنينى » وكيل مُزورنا يأتى ، ويسمعنا خبرا طيبا ، قال إن السيارات موجودة عند المحطة ، قال أيضا بأن علينا أن نذهب فورا !!

وهكذا أسرعنا وربطنا أمتعتنا بشكل أو بآخر واغتسلنا ، ولبسنا ملابس الإحرام ، وودعنا المسجد النبوى والروضة المطهرة ، وفى حوالى الساعة الحادية عشرة ركبت القافلة كلها « عربية » ووصلت إلى المحطة .

حين وصلنا إلى المحطة ، كان المشهد غير المشهد ، وكما يقال فى المثل الفارسى « رمانة واحدة تشفى مائة مرض » « يك أنار صد بيمار » لكنا هنا سمعناه بشكل آخر » شاحنة واحدة ومائة مسافر « ايك لارى صد سوار » ..

تطلعت هنا وهناك ، عالم غريب ، عجيب ، كلٌ يقول نفسى ، نفسى ، زحام ، هجوم ، صراع ، تدافع وتعثر ، منظر ينسيك منظر يوم الحشر !!

معركة فى موقف السيارات :

كان من نصيبنا ثلاث شاحنات (لوريات) ، ركبنا فى اثنين ، وبقى الثالث خاليا على سبيل الاحتياط ، ووضعنا فيه أمتعتنا ، لم يكن فى ظنى أبدا ، ولم أكن أتوقع مطلقا أن يكون من نصيبنا ثلاث شاحنات !

كانت الشاحنة إذا ما اقتربت من المحطة ، وظهرت هجمت عليها جماهير الناس دون أن يفكر أحد ، أية شركة تتبع هذه الشاحنة ، أو إلى أين تكون وجهتها ، أو لماذا وصلت أصلا إلى هذا المكان ..؟ السب ، والشتم ، والدفع أمور عادية جدا ، لكن الأمر قد يزيد على هذا بكثير .. حين وصلت شاحنتنا ،حدث معها نفس الشيء ، فقد هجم عليها مجموعة من الأعاجم .. يا حفيظ ! كيف يمكننا مواجهة مثل هؤلاء !! لكن « جنينى » .. ما شاء الله ، صعد فوق الشاحنة ، وواجههم بكل قوة ، ويبدو أن عدة إصابات وقعت فى هذه المعركة ، فقد كانت آثار الدماء على يديه ، لكنه نجح فى النهاية بمساعدة رجال الشرطة السعودية .

وخلاصة القول إننا استولينا على شاحنة ، لكن الشاحنة الثانية اختفت ، كأنها «فص ملح وذاب» .!

مرت ساعة ، ثم ساعتان ، ثم أربع ساعات ، وجاء علينا الظهر ، ومر الظهر ، ثم مر العصر أيضا ، وحل المساء ! وهكذا انتهت صلاة العصر من بعد الظهر ، وانتهت صلاة المغرب من بعد صلاة العصر ، ولا نزال فى انتظار الشاحنة الثانية ، وكأننا غادرنا المدينة ، لكننا كنا - بالرغم من ذلك - لا نزال فى المدينة ، كان المسجد النبوى يبعد عن هذا المكان مسافة ميل أو ميل ونصف ، لم يكن باستطاعتنا رؤية القبة الخضراء ، لكن مئذنة المسجد المبارك ، كانت تشاهد من هنا، فكان هذا يمنح قلوبنا طمأنينة وأمان ، فكنا نتطلع إليها بين الحين والحين . !!

بعد صلاة العشاء فرشنا المراتب فى هذه الساحة ، كنا كأننا فى « مولد لا صاحب له » ، وهكذا افترش العراقى والهندى ، والمصرى ومئات من الغرباء فرشهم للنوم والراحة !

طلع علينا فجر يوم الرابع من ذى الحجة ، وبدأنا فى انتظار طلوع النهار ، وفى حوالى الساعة التاسعة أو العشرة شاء الله أن تأتى الشاحنة الثانية ، لكن سائقها المحترم اختفى، وبعد ساعة أو ساعة ونصف من الانتظار حضر« سيادته » فبدأنا إجراءات الرحيل بجدية ! والخلاصة أنه فى وقت الظهر بالضبط ، وعند أذان الظهر ، سُمح للشاحنات بالتحرك، وهكذا خرجنا من بوابة المدينة المنورة !!

سعادة الإقامة فى المدينة المنورة :

كنا قد دخلنا من هذه البوابة فى غرة ذى القعدة ، والآن وفى الرابع من ذى الحجة نخرج من البوابة نفسها من مدينة الرحمة والمغفرة ، تلك المدينة التى لو تيسر للإنسان إقامة يوم واحد فيها فهو من عون الله ، وهو من نصيب الأبرار والمتقين ، أما نحن فلم نقض بها يوما أو يومين ، بل كان من نصيبنا ثلاثة وثلاثون يوما متواصلة ! هذا شأن الكريم عز وجل ، وله فى شئونه حِكَم ! فالمفلس يصبح ثريا غنيا ، ومن جيوبه خالية تمتلئ فجأة باللآلئ فى لحظة واحدة ، والصحراء الجرداء تتحول إلى حدائق غناء بقدرته ، فيد الكريم مبسوطة ، وخزائن عطائه لا تخلو أبدا:

« يا محول التراب إلى ذهب ، يا من خلقت من التراب أبا البشر .

عملك تبديل الأعيان والعطاء ، وعملنا السهو والنسيان والخطأ.

تنبت الزرع من الأرض السبخة ، وتحيى بقدرتك الموتى.

يا من ترشد بقدرتك الروح المضطربة، وترسل الرسل والأنبياء لمن ضلوا عن سواء السبيل . »

لا تستمعوا إلى قصة الألم هذه حتى لا تضيع هباء سويعات الوقت الثمين فى التعاطف ، فالسؤال الآن ليس : ماذا حدث لنا ؟! لكن هل هناك أكثر من هذه النعمة ، فقد وفقنا الله إلى أن نبقى فى زيارة النبى الكريم طوال هذه المدة .

شكا أحد المريدين لشيخ مشايخ العصر الحاضر حاجى إمداد الله قائلا له بأنه بقى فى الطائف ، فى خلوة لأربعين يوما ، يغلق على نفسه بابه ، وظل يذكر اسم الله تعالى كل يوم ١٢٥ ألف مرة ، لكنه لم ينل شيئا من الأنوار ، أو التجليات ، فأجابه الشيخ قائلا :

« إيه ! يا سيد ! هل ما نلته من ثروة قليل ؟! إنها لثروة عظيمة أن تبقى أربعين يوما يجرى على لسانك فيها اسم الله كل يوم ١٢٥ ألف مرة .. هل هناك أعظم من هذه ثروة ؟!

وعلى كل حال إن ما حدث كان أكثر من طاقتنا وأقوى من همتنا ! فالحمد لله ..

الفـراق :

أعرف أن المدينة التى رأتها العين هى مدينة القرن العشرين الميلادى ، لم تكن مدينة سيد المرسلين ، لم تكن مدينة الصديق والفاروق وعثمان وعلى (رضى الله عنه) ، لم تكن مدينة الصحابة والتابعين ، لم تكن مدينة المحدثين وأئمة التصوف أيضا ... لماذا نتوقع من الروضة الورود فى فصل الخريف ؟!

لكن مع كل هذا فالمدينة أيضا كانت هى المدينة ، وإن لم تكن اليوم هى مدينة الأمس ، فهى لا تزال مدينة حبيب الله ، وأحباء حبيب الله ، وإذا كان هناك من ملجأ فى عصر « اليأجوجية » هذا ، يُلجأ إليه ، فأين يكون هذا الملجأ سوى هنا عند مسجد رسول الله ؟

اليوم الرحيل من هذا البلاط النبوى ! اليوم الرحيل من هذه الجنة الأرضية ! اليوم فراق شوارع ، وأزقة ديار الحبيب ! فراق شبيه بانفصال آدم عن الجنة ، الجميع يعرف هذه القصة ، لكن ابن آدم حين يغادر ويترك شوارع وزقاق فخر آدم عليه السلام ، وفخر نسل آدم عليه السلام ، ففى هذا الوقت ماذا يطرأ على قلبه ؟! من يُسمع الناس هذه الحكاية ؟! ولمن يُسمعها يا تُرى؟!

(١٩)

الإحـــــرام

ملابس الإحرام :

كان اليـوم الثـالث من ذى الحـجـة هو يوم الأحـد ، لم تكد السـاعـة تعلن الثـامنة صـباحـا حـتى أخبرنا العمـال بأن السـيارات جاهزة ، وعلينـا الانطلاق فورا ... ماذا أقول عن حالة القلب آنذاك ، فمن ناحيـة كان الإحسـاس بأن سـاعة الابتـعاد عن عتبات رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) حـانت ، بعد فـراقنا للمـدينة المنورة ، ومن ناحيـة أخرى كنا نفكر فيما لو تأخرنا قليلا ، فقد يفوتنا الحج ، ولم يكن هناك أى مجال أو أية صورة للبقاء الآن .

لكن فـيـمـا كنا نـهـيئ القلب هكذا للذهاب بشـوق وذوق ، كـان المزور ينادى ويؤكـد علينا بالإسراع ، ويهـددنا قـائلا بأن لحظة تأخـير واحـدة قـد تعطى الفرصـة للآخـرين للاستيلاء على الشاحنة ، وتضيع الشاحنة من أيدينا !!

وعلى كل حـال تم كل شيء بشكل أو بآخـر ، وحزمنـا أمـتعتنا ، واغتـسلنا ، وغيرنا مـلابسنا ، وأمـسكنا بالرداء بأيد مـرتعشـة ، فـهـذا هو الرداء الذى يزين الجـسم ، وهو نصـيب كل مـسلم عند نهـاية حيـاته الدنيـا ، نصـيب الغنى والفـقيـر ، العـالم والأمـى ، الزاهد والفاسق ، الكبيـر والصـغير ، نصيب كل مـسـلم ! فاليـوم لا توجـد عـمـامة ، ولا طاقية ، لا يوجد قمـيـص طويل أو قمـيـص قـصـير ، ولا بـالطـو ، ولا جاكيت ، ولا سـروال .. فـقط رداء من قطعـتين وإزار ، اليوم يضع كل مـسلم على جسـده هاتين القطعتين فقط ، هذا هو الزى الرسـمى لزائرى بيت الله ، وكل عبد وهمته !!

قال العـارفون إن حقيـقة المدينة هى أنهـا « مقـام العبودية » بينما حقيقة مكة هى أنهـا « مقـام الألوهيـة » ، وكان الرسـول (صلى الله عليـه وسلم) قـد جاء إلى المدينة قادما من مكـة ، وأمة رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) تمضى متبعة سنة الرسـول الحبيب فى حجـه ، تتجـه من المدينة إلى مكة ، يا لها من عظـمة ! يا له من عـمل رائع طيب ! علمه الله لعباده عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم الطريق إلى الله وإلى بيت الله .

الزيارة الأخيرة للمسجد النبوى :

إن مـيـقـات المسافرين للحج من المـديـنـة المـنـورة ، ليس المدينة نفـسـهـا بـل هو ذو الحُليـفـة ، وهو مكان خـارج المدينة المنورة ، ويرى بعض الناس أن الإحـرام من المسجد النبـوى أفضل ، وهذا ليس بصـحيح ، فالنبى (صلى الله عليـه وسلم) نفسـه حين خرج للحج لـم يحرم من المدينة المنورة ، بل خرج منهـا ، وأحـرم عند ذى الحليفة ، وعلى كل مسلم أن يضـع هذا فى ذهنه ، لكننا فكرنا فى أمـر قافلتنا ، فـهى تضم عدداً كبيراً من الرجال والنساء أيضـا ، فأين يمكن أن نجد هناك مكانا يغتسل فيه الجميع ، ثم لابد من مراعاة الستر ، وقد بدا هذا من الصعوبة بمكان ، أضـف على ذلك القائمين على أمر السيارات ، الذين لا يسمحـون لنا بالاغتسـال باطمئنان وسكينة ! ولهذا رأينا أن من المناسب أن نغـتسل وأن نـحرم من هـنا ، ثم ننوى الإحـرام من « ذى الحليـفـة » أى أننا قـررنا ارتداء مـلابس الإحـرام من هـنا ، على أن نصلى النفل هناك ، ونبـدأ فى التلبية من هناك أيضـا .

ومعنى الإحرام هو « الحـرام » ويقـال بأنه حرام لأن كثيراً من الأشياء التى كانت محللة للإنسـان من قبل ، تصير محـرمـة عليه بعد الإحرام ، وعليـه أن يجتنبها ، ولهذا فإن ارتداء أى إنسـان لملابس الإحـرام لا يعنى أنه مـحرم ، بل يجب عليه أن ينـوى نية الإحرام ..

والخلاصة أننا أسرعنا فاغتسلنا ، ولبسنا ملابس الإحرام ، وقدمنا لوداع المسجد النبوى والروضة المطهرة ..

وربما يظل منظر الوداع فى ذاكرتى طول العمر ..

إذا وفقك الله فى العطف على خدام عتبات رسول الله فسوف يدعو لك كل واحد منهم بالخير والبركة .. سلمنا على رسول الله ، وودعنا مسجده المبارك ، ونلنا فخر الركوع والسجود - لآخر مرة - فى روضة الجنة ، وجلسنا فى مصلى النبى ، وجاء على اللسان ما وقر فى القلب ، وناجيت رب محمد ، ودعوت بما كان فى داخلى من أجل أمة محمد .!

وداع المدينة المنورة :

إن منظر وداع المدينة منظر فريد ، له خصوصية عجيبة ، ولو حاولت تشبيهه بشىء ، فلا تعدوا هذا سوء أدب منى ، فالقلب يريد أن يقول بأنه مثل فتاة تودع بيت أمها ، وما فى ذهنى لا يقال. !

لقد قالت سيدة هذا الكلام نفسه ! وأحوال الآخرين تسمعها هنا وهناك ، لكننى رأيت حال قافلتنا ، فعيونهم امتلأت بالدموع ، والآهات جرت على الشفاه ، وامتقعت وجوههم ، واصفر لونها ، وتلاحقت أنفاسهم ، قلق واضطراب ، وحزن كأنه العذاب ، والقلب فى لوعة وأسى ، يتحركون خطوة ، خطوة ، ثم يلتفتون إلى الوراء ، ويتراجعون خطوة ، ينظرون ، يملأون بمنظر المدينة الطيبة العيون ، ثم لا يشبعون ، فتظل العيون متعلقة هناك ، حيث قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، يحاول بعضهم التظاهر بأنه يبحث عن شىء فقده ، ويحاول الآخر إيجاد وسيلة ليتأخر لحظات ، يؤكد على عهد قطعه ، وعلى كل حال ، كانت هذه حال الجميع ، بل فقد البعض وعيه ، وأغمى عليه ، بينما صُمت الآذان ، وكفت الأبصار ..

لكن كيف أبيّن حالة من قسا قلبه ، كيف أحكى عن قسوته ، فحالته حالة أخرى تختلف عن حالة الجميع ، وعلى كل حال ففى مصلى النبى ، ووقت الدعاء ، طرأت الرقة على قلبه ، لكن جميع المشاعر والأحاسيس السابقة اختفت !

فهو لا يتأثر ، ولا يتألم ، ولا يشعر أبدا بأحاسيس الفراق ! لا يشعر على الإطلاق بأنه يفارق مكانا حبيبا إلى قلبه ، عزيزا عليه ، وبدلا من أن يضطرب قلبه كان يشعر بالطمأنينة والبشاشة .. هذا هو شأن الكريم فى خلقه! فهو الذى يرقق القلوب ، وهو الذى يثير شعلة الشوق فى الأفئدة ، وهو الذى يهب البعض الهدوء والسكينة .

ذو الحليفة :

حين جئنا إلى المدينة كان فى حوزتنا ثلاث شاحنات ، والآن كان من نصيبنا اثنان فقط ، واضطررنا إلى أن نستخدمها للركوب والأمتعة معا ، كنا قد أرسلنا كثيرا من الأمتعة على ظهور الجمال ، ومع هذا فالأمتعة التى تبقت معنا كانت كثيرة ، وكثرة الأمتعة وزيادتها أمر مكلف فى كل مناسبة ، ولكن فى هذا الوقت اتضح لنا هذا الأمر بشكل خاص ، فحين قدمنا هنا لم تكن الحرارة شديدة ، كنا فى التاسع والعشرين من مايو ، ثم بدأنا السفر فى وقت الظهيرة، والأكثر من هذا أن الشاحنتين كانتا مخصصتين لركوب ثلاثة عشر مسافرا فى كل منهما ، فركب عشرة وأنا منهم فى شاحنة ، وركب فى الأخرى أحد عشر مسافرا ، وكان هذا من عناية عبد الله الفضل بنا ، ورعايته لنا ، والآن ومع شدة الزحام هذا ، لا يكون هناك فرصة للرعاية والعناية ، لقد اهتم الشيخ عبد الله الفضل بنا أيضا هذه المرة ، لكن المدير الإقليمى للشركة « على » لم يهتم بتوجيهات مالك الشركة ، فأركب معنا بالقوة خمسة من الأغراب ، كانوا فى الغالب من اليمن ، ليكمل العدد المفروض وهو ستة وعشرون ، لا أقول علينا«بالصبر والشكر» بل أقول علينا فقط بالصبر ، وهل لنا من سبيل غير الصبر؟!

إن الإنسان خلق جَحودا ، عنيدا ، غير شاكر ! ها هو ذاهب لزيارة بيت الله ، ومع هذا فلا تزال الأنانيـــة ، وطلب الراحة ، والدعة باقية بـــداخله ! يا ليته يشعر ولو لساعات قليلة بعبديته وعبوديته !

فى الرابع من ذى الحجة ، يوم الاثنين وعند أذان الظهر تماما خرجنا من المدينة ، وبعد أن قطعت السيارات مسافة ستة أو سبعة أميال ، فجأة وجدنا أنفسنا عند «ذى الحليفة» ميقات أهل المدينة أى مكان الإحرام ، ويطلق عامة الناس على هذا المكان اسم « بير على » ولا يقصدون هنا عليا المرتضى أمير المؤمنين ، بل هو اسم لشخص آخر ، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أحرم بالحج من هذا المكان ، وهنا بُنى مسجد صغير ، ويوجد بئر ، وتوجد هنا محلات صغيرة ، ويوجد الماء أيضا ، ولا شيء غير هذا فى المكان الذى يحرم منه آلاف الحجاج ، ولو تم تجهيز المكان بمائة أو مائتى دورة مياه للرجال وللنساء ، وجهز أيضا بصنابير مياه ، فسوف يسهل الأمر على حجاج بيت الله ، وسوف يدعو هؤلاء ليس بألسنتهم بل بقلوبهم للمسئولين هنا ، ولن تتعرض الحكومة للنقد أو التجريح .

الإحرام ونية الإحرام :

الإحرام ليس مجرد اسم يطلق على ملابس خاصة فى وضع خاص ، بل يجب الامتناع عن كل الأمور الجائزة مثل نتف الشعر أو قصه ، ومثل تغطية الرأس ، والامتناع عن لبس المخيط ، وعن قول السوء ، وارتكاب الفاحشة ، أو الاقتراب منها ، والصيد والتزين ، وقص الأظافر ووضع الطيب وغير ذلك .

فالإحرام بمثابة ارتداء الكفن ، فبعد ارتداء ملابس الموتى ، على الإنسان أن يعتبر نفسه ميتا ، ولهذا عليه أن ينوى الإحرام متى ما لبس ملابس الإحرام ، والسنة هى أن يغتسل الإنسان ، وإذا وجد فى ذلك صعوبة ، فالوضوء يكفيه ، وبعدها يلف جسمه برداء الإحرام ، ثم يصلى ركعتين ، ومن الأفضل أن يقرأ فى الركعة الأولى سورة «الكافرون» ، وفى الثانية سورة «الإخلاص» ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم يجلس على سجادة الصلاة ، فينوى فى قلبه الحج أو العمرة أو كليهما معا ، ثم يقول الكلمات التالية :

« اللهم إني أريد الحج فيسره لى وتقبله منى وأعنى عليه وبارك لى فيه ، نويت الحج وأحرمت به لله تعالى . »

وهذه الكلمات هى دعاء إحرام الحج ، فلو كانت النية العمرة أو العمرة والحج معا ، فيمكن أن تغير الكلمات بما يتناسب مع النية ، وهناك عدة صور لنية الإحرام ، أولها مجرد أن تنوى للحج والثانية مجرد أن تنوى للعمرة ، والثالثة أن تنوى للحج والعمرة ، والعمرة كأنها حج صغير ، يمكن أن تؤديها فى أى وقت طول السنة عدا (الخمسة أيام) ويمكن أن تؤديها أكثر من مرة كما يحلو لك ، لكن من الضرورى أن تراعى الأركان ، وأن تحرم للعمرة ثم تكمل الطواف حول الكعبة ، ثم تكمل السعى بين الصفا والمروة ، على خلاف الحج فهو مرة فى السنة وفى وقت محدد بالإضافة إلى السنن والمستحبات والواجبات ، فمع الإحرام يكون الوقوف بعرفات ، وبعده من الضرورى الطواف بالكعبة ، وعند الإمام الشافعى العمرة أيضا فرض ، مثل الحج ، وعند الحنفية ليست بفرض ، إلا أنها من السنن المهمة .

أنواع النسك التى يحرم بها الحاج :

ومن أراد أن يحج ويعتمر معا ، فله أن يتبع أحد الأمرين : أن يعتمر ويحج بإحرام واحد أى يفرغ من العمرة ولا يحل إحرامه ، بل يبقى على إحرامه ويؤدى مناسك الحج وهو محرم ، والثانى هو أن يفرغ من العمرة فيحل الإحرام ، ويصبح كل شىء كان محرما عليه حلالا ، وبعد ذلك يحرم من جديد ، ويطلق الفقهاء على الشكل الأول حج القران ، وعلى الثانى مصطلح التمتع ، وقد وضع هذا المصطلح فى الغالب لأن المتمتع يحل له ما كان محرما عليه فى الوقت الفاصل بين إحرام العمرة وإحرام الحج ، فيتمتع بها .

وهناك اختلاف بين الفقهاء فى أفضلية أى منها على الآخر ، فعند الإمام أبى حنيفة وجمهور فقهاء الحنفية أن القران أفضل ، وعند الإمام مالك والشافعى والإمام أحمد أن التمتع أفضل ، وبالنسبة لنا لم يكن هناك فرق كبير بين القران والتمتع ، فقد

كنا فى ظهر يوم الرابع من ذى الحجة ومعنى التمتع أن نصل مكة مساء يوم السادس من ذى الحجة، ونفرغ من الطواف والسعى ، وفى المساء نحل إحرامنا ، وفى يوم الثامن صباحا نحرم ثانية للحج .

وفى حالة القران نظل على إحرامنا دون أن نحل الإحرام وذلك ليوم واحد فقط أى يوم السابع ، وهو الفارق بين الصورتين ، وكل صاحب همة رجلا كان أم امرأة فى قافلتنا عقد النية بقيادة العلامة الشيخ مناظر على حج القران ، لكن رجلا مثلى قليل الهمة ، وجد التحلل من الإحرام ليوم واحد غنيمة لهذا نويت نية المتمتع ، وتبعنى فى ذلك اثنان أو أربعة أشخاص .

التلبية :

من كرم الله وفضله أنه أنعم بالأفضلية والاستحباب على العلامة الشيخ مناظر فى كل مناسبة ، فبعد أن اغتسل ، وبعد أن جددنا نحن وضوءنا ، دخلنا المسجد ، فصلينا الظهر أولا ، ثم نوينا الإحرام بالحج والعمرة ، وصلينا ركعتين ، وتوجهنا إلى الله بالدعاء الذى سبق ذكره .

وهكذا وبعد أن أحرمنا جميعا ، بدأنا الانشغال بالتلبية ، كان عباد الله جميعا يرتدون ملابس الإحرام البيضاء متجهين إلى مولاهم وبارئهم ، يمضون ، يرفعون أصواتهم بالتلبية فى كل خطوة ، يرددون الألفاظ التى علمها لهم سيدهم :« **لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك** » وألفاظ التلبية هذه مسنونة ومأثورة ، وهى عند الإمام الشافعى مثل كلمات الأذان والتشهد ، لا يمكن أن يُزاد عليها أو ينقص منها ، لكن أكثر علماء الحنفية يسمحون بإضافة بعض الألفاظ ، والآن صار من الضرورى علينا ، بعد كل صلاة ، وكلما صعدنا مرتفعا ، أو هبطنا من تل ، أو التقى بعضنا بعضا ، أو شاهدنا مركبة أو عربة عليها حجاج أن نردد هذه الألفاظ .

على الرجل أن يردد هذه الألفاظ بصوت عال ، لكن ليس بطريقة تثير الضوضاء والضجيج ، وتزعج الآخرين ، وإذا ما ردد الإنسان هذه الألفاظ ثلاث مرات فى كل مناسبة ، فهذا أفضل ، ويكفى ترديدها مرة واحدة .

مشاعر القلب مع بداية الحج :

هناك فرق كبير بين المعاناة فى حد ذاتها ، وبين مشاهدة المعاناة ، فقد كنت أشاهد حتى الآن الآخرين يحرمون ، كما كنت قد شاهدت المحرمين أنفسهم ، لكنى اليوم أرتدى بنفسى ملابس الإحرام .. كان العلامة الشيخ مناظر يؤم المصلين ، وكان لسانه يلهج بالدعاء ، بينما كان قلبى يضطرب ، وتزداد سرعة دقاته ، لكن ماذا يقول القلب ، ومن يسمع ما يقوله القلب ؟! نعم هناك من يستطيع أن يسمع ، وهو الذى يسمع الجميع ، الذى يسمع الصم ويسمع وينصت لمن لا لسان له ، ويسمع للضالين والتائهين ، ويسمع للضعفاء ولغير القادرين ، ويسمع للمساكين المحتاجين ، ويسمع للجهلة ، ويسمع للمحرومين ، إنه يسمع لمن لا يسمع له أحد منا ..

فيا من تسمع للجميع ! يا سميع ! هنا حيث يكون المحرم فى أسمى الدرجات ، بعد أن ارتدى هذا الزى الربانى ، نجده لا يعمل طبقا لآدابه ، وطبقا لشروطه ، كيف يمكن أن ينجو من الذنوب ، لقد أمرت فقلت : ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة ١٩٧) وها قد بدأت أركان الحج ، لكن كيف نملك القدرة على تنفيذ هذا الحكم؟ من يستطيع أن يحتاط تماما ، فيضبط عينيه ، ويضبط لسانه ؟! من يستطيع أن يسيطر على طبيعته ومزاجه ولسانه؟!

إن هذا البيت ، الذى سميته بيتك ، والذى قذفوا بإبراهيم (عليه السلام) فى النار فى صحنه ، وحيث جعلت إسماعيل ذبيحا لك على دربك ! وجعلت ذلك البيت مباركا مطهرا ، إن من يضعون أعينهم وشفاههم على بابك ، وعلى جدار بيتك ، هم فقط عبادك الأطهار ، ذلك البيت الذى سجد ناحيته حبيبك وحبيب عبادك ، فى ضوء

النهار ، وفى ظلمات الليل ، سجدات لا حصر لها ، وركع ركعات لا حصر لها ، لا يليق بالطواف من حول جدرانه المباركة ، المحاطة بنور الملائكة سوى الصديقين والكاملين ..

هنا اليوم عبدك المسكين يناديك يا رب ! هل يمكن لهذا الحقير أن يوصل صوته إليك ؟! بأى لسان يمكنه أن يلبى ؟! هل هذه يقظة أم حلم؟ لو كان هذا حلما ، فلنضحِ بآلاف اليقظة ، من أجل هذا الحلم المبارك ، وإذا كانت هذه يقظة فـ .. فكيف لهذا العبد الحقير ، الذليل ، قبضة التراب ، ومن أين يأتى بالألفاظ والعبارات التى تبين عن مشاعره ؟!!

(٢٠)

جـــدة - الطريق إلى مكـة

شِق الأنفس :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ . (النحل : ٧)

هكذا ورد ذكر الأنعام فى الربع الأول من سورة النحل ورد ذكرها من بين نعم خالق العالم ، فذكر أنها تخدم الناس ، فيركبونها ، وتحمل متاعهم إلى البلد الذى يذهبون إليه ، والذى ما كانوا ليصلوا إليه إلا بشق الأنفس ، وقد جاء فى تفسير الآية من قول السلف أن « بلد » لا تعنى أى بلد بإطلاقها ، بل يراد منها « مكة » مع أنه ثبت من الآية الكريمة ضمنا الوصول إلى مكة بعد معاناة ومشقة.[1]

كان مفهوم هذه الآية فى السابق من الأوقات واضحا وصريحا ، لكن الدنيا تغيرت اليوم ، ولم يعد الزمان هو الزمان ، فقد تهيأت سبل الراحة بكافة أنواعها ، فاليوم لا يخشى أحد أن يموت ببنادق البدو ، ولا يخشى أحد أن تسلب أمتعته أو تضيع ! ولم يعد أحد يفتقد سبل الراحة ، ومع هذا فعبارة « شق الأنفس » لم ترد هكذا بدون معنى ، بالنسبة لقافلتنا :

فالجو كان جو وسط شهر مايو ، بحرّه الشديد ، وأشعة شمس مايو المحرقة ، بينما السيارة تتهادى مثل رياح الصبا ، على طريق ستقطعه فى أربعين أو خمسة

(١) ورد فى تفسير ابن كثير مجلد ٤ ص ١٨١ أن ذلك يكون فى الحج والعمرة والغزو والتجارب وما جرى مجرى ذلك يستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل .

وأربعين ساعة.. يا لشدة العطش ! نتحسر على ماء المدينة المنورة ، فقد أنعم الله علينا في المدينة بماء زلال ! الصراع بداخلنا يعتلج ، ونحن نهتز يمينا ويسارا ، ونخضع تماما لأوامر السائق وتابعه ، بدلا من أن نخضع لأوامر الحادي والجمّال ! فإذا لم يكن هذا كله تفسيرا لعبارة « شق الأنفس » فماذا عساه يكون ؟!

معنى أم القرى :

لكن من ذا الذي يهتم بالألم والتعب ؟ ومن ذا الذي يشعر بالأذى ؟ ألم يكن الجميع يعلمون إلى أين يكون المسير ؟ ترى من كان نصيبه هذا الحظ السعيد ، ومن قسمت له هذه السعادة ؟ وإلى أين الوصول .. ؟!

إن المسير إلى تلك المدينة التي يعرفها الجميع ، وهي أم القرى ، لا يعرفها فقط أي إنسان جاهل ، ولا يعرفها فقط أي سائح على وجه البسيطة ، ولا يعرفها فقط أي جغرافي أو عالم متخصص في علم طبقات الأرض .. فهي المدينة التي سماها خالق السماوات والأرض ، الذي وهب لندن وباريس النور والضياء ، والذي خلق كل ما في برلين ونيويورك ، سماها خالق السماوات والأرض بأم القرى ، والأم هي من لا يكون وجودها إلا بوجود الأولاد ، فإن لم تكن هناك مكة اليوم ، لما كانت هناك كلكتا ، ولما كانت هناك بومباي ، ولا لكهنو ولا دهلي ، ولا لاهور ، ولا مدراس ، ولا الصين ولا اليابان ، ولا مصر ولا الهند ، ولا إنجلترا ولا بلاد الإفرنج كلها.. !!

يقول الشارحون والمفسرون إن مكة هي مركز سطح هذه الأرض ، ويضحك الإفرنجي الجاهل ويقول إن الأرض كروية ، فكيف يمكن تحديد مكان معين على سطحها ، والقول بأنه مركزها ، وهذا الجاهل يفكر فقط في أن معنى المركز ، لا يعني سوى المعنى الجغرافي ليس إلا ، وهو المركز الذي يمكن أن يصل إليه عن طريق القياس بالآلات المادية.

أولا: لا دليل على اعتقاده هذا من هذه الناحية ، وثانيا : متى كان معنى « أم » هو معنى المركز الجغرافي ! إن عمل الأم هو إنجاب الأولاد وتربيتهم ورعايتهم ، ثم إذا كان الجميع ينالون التربية الإيمانية بالرعاية الروحانية من مكة ، فمن أين ينالونها ؟!

إذا لم تكن مكة هى مرجع إيمان ، ومركز تربية جميع المدن ، وجميع القرى ، فهل هناك من مدينة أخرى ؟!

هل اختار رب العزة ذو القدرة المطلقة أى مكان آخر غير هذه البقعة لتنزل بها أمطار رحمة الرسالة الأخيرة ؟ ثم أين ولد رسول هذه الرسالة ؟ الرسالة الجامعة لكل الرسالات ، الرسالة التى هى أهم الرسالات ، الرسالة التى هى أكمل الرسالات ، الرسالة التى هى آخر الرسالات ؟

أين ولد؟ وأين نشأ؟ وأين نزل عليه الوحى ؟ وفى أى زقاق ، وعلى أى طريق كان يدعو إلى هذه الرسالة ، لا لمدة يوم أو لمدة يومين بل لمدة ثلاث عشرة سنة !!!

وهذه الرواية عن حضرة عبد الله بن عباس (رضى الله عنه) ، منقولة فى أكثر كتب التفسير ، فحين اضطر حبيب الله ومحبوبه إلى الهجرة من هذه المدينة ، تلفّت بعد أن ترك مكة وراءه وقال :

« أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله تعالى إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى ، لم أخرج منك »

بعد هذا التصريح ، هل هناك من مدينة أحب إلى الله ، وأحب إلى رسول الله من مكة المكرمة ؟!

ولنترك رواية الحديث ولنقرأ ما ورد فى كتاب الله :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ . ﴾ (النمل : ٩١) .

الله أكبر يا أهل مكة ، يا أيها المسافرون إلى مكة ! انظروا إلى عظمة مكة ! لقد عرّف نفسه ناسبا نفسه إلى مكة ، يقول : « رب هذه البلدة » ثم يصرح بعد ذلك بأنه ليس برب مكة وحدها بل هو رب كل شىء .

ومكة أيضا تطهرت ، فقد أُقرت حرمتها أيضا ، وحين يقول الله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، فأية مدينة هذه التى يرفع من شأنها ، ويحفظ عليها عزتها ، والبلد

الأمين .. اسم أية مدينة هذا ؟ وما هو المقصود بـ« بلدا آمنا » ، ثم « بلد الحرام » الذى ورد على لسان النبى ، على أية مدينة أطلق هذا الوصف ؟ ، ولسكان أية مدينة كان دعاء إبراهيم خليل الله ؟ وفى أية مدينة ترك إبراهيم وإسماعيل وهاجر آثارهم الخالدة ؟! ...

كانت عجلات السيارة تدور بسرعة ، ومع كل دورة من دوراتها ، كانت مدينة الله ، مدينة خليل الله ، مدينة ذبيح الله، مدينة الأولياء والصديقين تقترب أكثر فأكثر .

مشاهدات فى الطريق :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك . »

كنا نرفع أصواتنا بالتلبية بعد كل فترة ، وكلما شاهدنا سيارة أخرى أو جماعة تمشى على الأرض ، أو كلما ارتفعنا فوق التلال أو نزلنا إلى الوادى ، أو كلما وصلنا إلى منزل من المنازل ، أو فرغنا من الصلاة ..

كنا قد صلينا الظهر عند ذى الخليفة ، بعد ذلك صلينا العصر والمغرب والعشاء فى الطريق عند منازل مختلفة ، وعند منتصف الليل تقريبا ، وصلنا إلى « بير حسان » وكنا قد مررنا به ليلا عند ذهابنا إلى المدينة المنورة .

شعرنا بالتعب الشديد بعد منتصف الليل ، وكنا منهكين فغلبنا النوم ، لدرجة أن البعض منا صلى الفجر قضاء .

بعد الانتهاء من الصلاة بشكل أو بآخر انطلقنا بسرعة ، فاليوم سيكون السفر كله نهارا ، وكانت الرياح الساخنة تهب هذه الأيام .. لا تقارن بين الرياح الساخنة الحارة فى الهند ومثيلتها فى صحراء جزيرة العرب !! لا وجه للمقارنة ! ونظرا لأن البصل الجاف مفيد جدا فى هذه الحالة ، فقد كان معظم من بالقافلة يمسكون بالبصل فى أيديهم .

فى حالة الإحرام يمنع تغطية الرأس كما أن معظم أجزاء الجسم كان يتعرض مباشرة للهواء الساخن ، بالرغم من عدم أخذ الحيطة ، وعدم توخى الحذر ، إلا أن الله حفظ قافلتنا بأكملها، لم يصب أحد من جراء حرارة الجو الشديدة ولفح الهواء الساخن، ولم يصب أحد بالحمى .

وفى الطريق شاهدنا إحدى السيارات الشاحنة متوقفة ، ربما أصيبت المحركات بالعطل ، كان هذا وقت الظهر تماما، عرفنا بالفعل أن السيارة خربت ، وأنها تحمل قافلة من الحجاج المصريين ، كان من بينهم امرأة ، أصيبت من جراء لفح الهواء الساخن ، فساءت حالتها ، وفقدت وعيها ، فحملها زوجها المسكين إلى شاحنتنا ، ونزل بها فى المنزل التالى ، يعلم الله ماذا سيحدث لها ! ففى هذه المنازل التى نمر بها لا توجد ترتيبات للإسعافات الطبية على الإطلاق ! بينما فى مثل هذا الزحام ، وخصوصا فى مثل هذا الفصل شديد الحرارة ، لا توجد صعوبة أبدا فى إقامة عشر مستشفيات أو أكثر .

الوصول إلى جدة وقضاء الليل بين البعير:

الطريق الذى تمضى عليه قوافل الجمال من المدينة إلى مكة طريق مستقيم ، وهو لا يمر بجدة ، بينما طريق السيارات يمر بجدة ، ولهذا كان علينا أن نأخذ الطريق على كل حال .

حل المساء بعد سفر نهار كامل ، وبدت لنا أنوار مدينة جدة ، ومع أول وقت صلاة العشاء دخلنا المدينة ، ولما كانت سياراتنا تابعة لشركة الحرمين فقد اتجهت إلى كراج السيارات الخاص بالشركة ، حيث نزلنا هناك ..

كان الوقت ليلا ، كنا فى مكان غريب ، فكيف إذًا يمكننا البحث عن وكيل مطوفنا ، وعن بيته فى مثل هذا الوقت ، ومعنا كل هؤلاء النسوة ، فأين نتركهن ؟! وحتى لو تمكنا من الوصول إلى الوكيل ، فكيف يهتم بنا ، فى مثل هذا الوقت غير المناسب ؟

ظلت هذه الأفكار تدور فى ذهنى لفترة طويلة ، لكن فى النهاية تذكرت أن بمدينة جدة يوجد « إحسان الله » بكل ما يملك من سلطات ونفوذ ، فسألت عن عنوانه ، ووصلنا إلى بيته ، فوجدناه فى البيت ، وبلقائه ، حُلت كل معضلة ، بلطف وعطف ، وبكل اهتمام ، وفى ظرف عشر أو عشرين دقيقة التقينا بوكيل المطوف ، حملت الأمتعة ووصلنا بكل سهولة إلى بيته بعد أن تيسرت سبل المواصلات للرجال والنساء ، كان بعض الناس بالإضافة إلى القافلة قد أقاموا فى بيت « صالح بسيونى » وكنت والعلامة الشيخ مناظر قد فضلنا الإقامة فى « فناء » بيت الشيخ نصيف الفسيح ، وكان هذا المكان هو مطمحنا فى وقت اشتدت فيه حرارة الجو ، وهكذا كنا فى شوق عارم إلى الوصول إليه .!

حين وصلنا عنده علمنا بأن الشيخ ذهب إلى مكة ، وهكذا اضطررنا إلى أن ننام فى فناء الطابق الأرضى فى بيت صالح بسيونى ، لكن هذا الفناء كانت تحتله أعداد من الجمال تفوق أعداد الرجال! وهكذا قضينا الليل بطوله ونحن نشاهد الصراع والمصارعة بين الإنسان والحيوان أى بين البشر والبعير ، وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها هذا العدد الكبير من الجمال ..!

الترتيب للذهاب إلى مكة :

كانت مدينة جدة تعج فى هذا الوقت بالحجاج : فى داخل المساجد ، وفى الشوارع ، وعلى الأرصفة ، وأمام المحلات التجارية ، لم تكن هناك بقعة من الأرض تخلو منهم !

مر الخامس من ذى الحجة واقترب يوم الحج ، وكان كل شخص فى شوق ، متعجلا لأداء مناسك الحج ، والعجيب أن الجميع لا يسافرون بالسيارات ، فهناك المئات بل الآلاف من عباد الله ، يسافرون على ظهور الجمال ، وهناك البعض يمضى مشيا على الأقدام ! يا لسعادة هؤلاء بهمتهم العالية ! فنحن هنا بالرغم من توفر السيارات نشعر بالقلق والتشويش ، فهل تصل إلينا السيارات فى الوقت المحدد أم لا ؟ وهكذا

بقينا فى هذا القلق حتى صباح السادس من ذى الحجة ، وهنا أيضا يؤذن مثلما فى المدينة للتهجد.

لم نستطع الاستيقاظ فى هذا الوقت نظرا للتعب الذى عانينا منه اليوم ، لكن حين ذهبنا إلى المسجد لصلاة الفجر ، رأينا المسجد وقد امتلأ بالمصلين ، سبحان الله ! ماذا أقول عن هذا الجمع ؟! هندى .. مصرى .. مغربى .. جمع من الحجيج يعلم الله وحده من أى البلاد هم ؟! مختلفون فى الهيئة ، مختلفون فى اللباس ، مختلفون فى اللغة ، مختلفون فى القد والقامة ، مختلفون فى الشكل ، لكنهم جميعا بلا شك من أمة النبى ، وكلهم بلا شك عباد الله !

طلع النهار ، وبدأت ترتيبات السيارات ، تناولت الطعام فى الصباح الباكر ، بما يكفى طول النهار ، فقد ملأت معدتى .. فالله أعلم متى يتيسر لنا الطعام فيما بعد ، ولأن الإقامة فى مكة قصيرة جدا ؛ لهذا تركنا أمتعتنا الزائدة ، أمانة عند الوكيل ، وحملنا معنا فقط الأمتعة الضرورية ، وكانت الساعة بتوقيت الهند العاشرة نهارا حين تحركت السيارات ، ومن سافر مباشرة إلى المدينة المنورة ، ودفع مقدما أجرة السيارة ، فهو معفى من دفع أى مبلغ ؛ لأن هذه الأجرة تشمل أيضا نقله من جدة إلى مكة .

وصف الطريق من جدة إلى مكة :

المسافة بين جدة ومكة أربعون أو اثنان وأربعون ميلا ، تقطعها البعير فى يومين أو يومين ونصف ، أما السيارة الجيدة فتقطعها فى ساعتين ، أو ساعتين ونصف ، أما الشاحنات، أى اللوريات ، فتقطعها فى ثلاث ساعات أو ثلاث ساعات ونصف ، وطريق مكة أفضل نسبيا من طريق المدينة، وقد شاهدنا بعض الدراجات البخارية تمضى على جوانب الطريق ، وعلى طول الطريق توجد محلات كثيرة تبيع الماء والعصائر والشاى ، وربما شاهدنا مستشفى مقامًا داخل خيمة على الطريق ، ومن بين المنازل الكبيرة والصغيرة الموجودة على الطريق يوجد منزل كبير يسمى «حده» أو «بحيره» وقد

وصلنا إليه عند صلاة الظهر ، وهنا توجد خيام و « شوادر» كثيرة وواسعة على الناحيتين ، وبالإضافة إلى المقاهى التى تقدم الشاى توجد مطاعم يتوفر فيها أنواع الطعام مثل الأرز واللحم والخضار ، كما يوجد البطيخ ، ويمكنك أن تطلب ما تشاء ، فستجده متوفرا ، لكن أين يمكن أن نجد ماء المدينة المنورة هنا ؟! لقد تركت التفكير فيه بالرغم من أن ذكراه تملؤنى بالحسرة فى كل مرة !

شربنا الشاى فى مقهى كبير ، وصلينا الظهر فى جماعة ، وهنا التقينا بكثير من الحجاج الذين جاءوا فى قوافل الإبل التى تحركت من جدة فى طريقها إلى مكة ، ومن بين من التقينا بهم التاجر الكبير فى جدة جمال الدين فتنى ، وقد ورد ذكره من قبل .

فى الطريق من جدة إلى مكة لا يوجد أى أثر لظل ، كل ما تراه هنا أو هناك أعشاب صغيرة فقدت خضرتها ، لكن بالقرب من مكة شاهدنا بعض أشجار النخيل .

خصوصية أرض الحرم :

لم يكد النهار ينتصف حتى بدأت حدود أرض الحرم ، التى تقع على بعد سبعة أميال من مكة ، من ناحية جدة ، ويقال إنه حين قدم حضرة آدم إلى مكة ، فإن الله أنزل الملائكة حتى يحفظه من الشياطين ، فقامت الملائكة بالإحاطة بمكة من الأطراف الأربعة ، وهذه هى الحلقة التى تحيط بمكة على سطح الأرض اليوم ، ويقال لها « حرم » .

وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة ، فإن أرض الحرم لها خصوصيتها وآدابها ، وقد كتب الشيوخ فى آداب أرض الحرم ، وذكروا بأنه إذا كان من الممكن للإنسان أن يطوى هذه المسافة مشيا على الأقدام ، ويرفع قدميه بتواضع ومسكنة ومذلة مثل إنسان عاجز ، لا حول له ولا قوة ، متوجه إلى بلاط أحد الملوك ، فقد فاز فوزا عظيما .!

كيف لنا أن ننال مثل هذا التوفيق، ونعمل طبقا لهذه الآداب ، ونحن في هذه السيارات ، ونحن ضعاف الهمة ، وضعاف البنية ، وإنما ذكرت ما ذكرت هنا ، فربما يأتي أحد الحجاج ، فيضعها نصب عينيه ...

حين دخلنا هذه الحدود ، أخذنا ندعو بهذا الدعاء (أو بمثله) خلف العلامة الشيخ مناظر ، بصوت عال :

« اللهم هذا حرمك ، وحرم رسولك ، فحرِّم لحمي وعظمي ودمي على النار ، اللهم أمني من عذابك يوم تبعث عبادك ، واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك ، وتب على ، إنك أنت التواب الرحيم. »

مؤلفات في مناسك الحج :

هناك مئات المؤلفات بالعربية عن مناسك الحج ، وفي كل كتاب من كتب الفقه هناك جزء خاص بكتاب الحج ، كان مع مولانا مناظر كتاب شرح لباب المناسك وهو من تأليف ملا على قادري يرحمه الله ، وهو من كتب الأحناف الجامعة عن هذا الموضوع ، وقد قام مولانا رشيد أحمد كنكوهي بكتابة رسالة « زبدة المناسك » وهي رسالة مختصرة بالأردية ، يراها الإنسان مختصرة ، لكنها مملوءة بالمعلومات المفيدة والموثقة ، كانت معنا هذه الرسالة ، كما كانت معنا رحلة « مولوي شاه إلياس برني » المسماة « بصراط الحميد» وهي لا تخلو بالضرورة من القضايا والمعلومات ، مع أن أهل القلب فقط هم الذين يمكنهم أن يتمتعوا بها ، وفي اللغة الأردية يعد كتاب « الحج والعمرة » (الفتاوى العثمانية مجلد ٦) لمولوي منور الدين الدهلوي من أكثر الكتب الإرشادية المفصلة في هذا الموضوع ، وهو يغني عن أي كتاب آخر ، وهو مؤلف جامع ونادر ولا مثيل له في الأردية ، وقد جمع مولوي أبو الخير خير الله الدكني في رسالته خير المناسك التي تضم عدة أوراق ، المسائل الضرورية ، والأدعية والأذكار بطريقة مختصرة ومحيرة ، فإذا أخذ عازمو الحج مثل هذه الأشياء معهم ، فسوف يجدون النجاة من الوقوع في بعض الصعوبات والأخطاء التي يتأسفون عليها ، ويندمون عليها فيما بعد .

(٢١)

سـواد مـكـة

مكانة مكة المقدسة :

عن ابن عباس قال : قـال « رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمكة : ما أطـيبك من بلد ، وأحبك إلى ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك. » (الترمذى)

وزيارتنا كانت لهذه البلدة ، أطهر البلاد ، وأحب البلاد عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

عن عبد الله بن عدى قال : « رأيت رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) واقفا على الحزورة ، فقال : والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله .» (الترمذى) .

وهكذا تمضى القدم إلى أفضل البلاد ، وإلى خير البلاد ، وإلى أحب أرض الله ..

عن ابن عباس قال : « قال رسـول الله (صلى الله عليه وسلم).. يوم فتح مكة : إن هذا البلد حـرمه الله يوم خلق السـماوات والأرض ، فـهو حرام بحرمـة الله إلى يوم القيـامة ، وإنه لم يحل القـتال فيه لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهـار ، فـهو حرام لحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضـد شوكه ولا ينفر سـيـده ، ولا يلتـقط لقطه، ولا من عرفها، ولا يختلى خلالها .» (البخارى ومسلم وغيرهمـا)

كانت جاذبية الرحمة والفضل ، تشدنا إلى هذه البقعة التى ذكرت آداب وشـروط الدخول إليها ، والتى يجب على الدنيا كلها احترامها ، والتى يشع نورها على الجميع ، وهذه الشروط والقيود وضـعت من جانب رب العزة ، وهـى واجبة على كل عبد من عباد الله .

ماذا نحكى ؟ وماذا نقول عن الآداب التى يراعيها ؟! كم منهم قدم إلى هذا البلد عبر ألف وثلاثمائة عام ؟! كم منهم جاء بغير رفيق ، وبغير زاد للطريق ، وبغير راحلة ؟ مفوضا أمره للتقدير الإلهى ؟! كم من الناس قضوا أيامهم خلال سفرهم هذا صائمين ، ذاكرين الله ، يؤدون الصلوات فرضا ونافلة كلما تقدموا عدة خطوات ، حتى وصولهم إلى هذه البقعة المنيرة ؟! كم من هؤلاء الذين جاءوا يزحفون ، يتساقطون ، ليس شوقا للبيت ، لكن شوقا لرب البيت ؟! ويقولون :

« إن المسلمين يطلقون على الحرم اسم الحرم لأن به مقام إبراهيم ، ولإبراهيم مقامان ، مقام الجسد ومقام القلب ، فمقام جسده هو مكة ، ومقام قلبه هو الخلة ، ومن يقصد مقام الجسد يجب أن يخلى نفسه من اللذات والرغبات.» (كشف المحجوب) .

إن الالتزامات الظاهرة للإحرام هنا ، التزامات سهلة فى متناول كل إنسان ، لدرجة أنه يمكن بعدها التفكير فى الالتزام بالطهارة الباطنية ، لكن كيف يمكن السيطرة على اللسان والعين واليد والرجل هنا ، حتى يمكن السيطرة على القلب والدماغ والتصور والتفكير والرغبات والإرادة ؟!

فنحن فقط نترك الجسم يمضى كما هو مقدر له ، إذ كيف يمضى طبقا لمشيئة من لا نهاية للطفه ، ومن لا حساب لكرمه ! يا لعظمة رحمانيته ! ويا لعظمة ربوبيته ! فهذه الأرض المهيبة العظيمة ! وهذه الأرض صاحبة العزة والجلال ، التى كانت تليق فقط بالأنبياء والملائكة والأولياء والصديقين .. اليوم جىء إليها بهذا العبد المذنب حاملا صحائفه السوداء !!

آداب الدخول إلى مكة :

عن عبد الله بن عباس قال : « كان الأنبياء يدخلون الحرم مشاة حفاة ، ويطوفون بالبيت ، ويقضون المناسك ، حفاة مشاة » (ابن ماجة ، باب دخول الحرم)

الله أكبر ! هذا الأدب وهذا الاحترام ، من جانب الأنبياء (عليهم السلام) ! الذين هم فى مرتبة أسمى وأعلى ، فحتى الملائكة يعظمونهم !! ماذا رأى أصحاب تلك

العيون ؟! ماذا تراءى لهؤلاء أصحاب البصر والبصيرة ؟ لو كان الأعمى لا يبصر بنفسه ، فيمكنه أن يتبع أصحاب البصر.!

إن طهارة هذه الأرض ، ومرتبة كبرياء هذه المدينة تتضح حين نعرف أن أطهر الأطهار ، وأعظم العظماء حين يدخلونها ، ينزلون عن مطاياهم ، ويخلعون نعالهم .. كان هذا هو أدب أصحاب الأدب ، وهذا أدبنا اليوم نحن الذين لا أدب لنا !! فإننا لا ننزل من على السيارة ولو لدقائق ، ولا نخلع نعالنا حتى لخطوات .!!

آه لو طلب من أهل القلوب هنا ومن أهل الألم أن يخلعوا نعالهم ، بل لو طلب منهم أن يخلعوا كل ما عليهم ، فسوف يعتبرون هذا أمرا بسيطا ، ويفهمونه على أنه تجارة لا تقدر بثمن !! فما أجمل قول الشاعر :

« إن متاع وصل الأحبة غال

فلو طلب التضحية بالروح في سبيله

فلا تُبال ! » .

الأربطة الهندية فى مكة وماسورة عين زبيدة :

كانت الساعة الثالثة والنصف أو الرابعة إلا الربع بتوقيت الهند ، حين وصلت السيارات إلى محطتها ، وتوقفت محركاتها ، وظهرت من أمامنا مبانى مدينة مكة .

كان مطوفنا عبد القادر إسكندر قد أخبرنا ببرنامجنا كاملا ، وبعد الانتظار عدة دقائق ، شاهدناه قادمًا على ظهر حمار ، فتوجهنا فى معيته وتحت قيادته ، انفصل عنا هنا مولوى شاه لطف مع جماعة تتكون من خمسة أفراد ، فركبنا نحن الستة عشر رجلا وامرأة على « العربيات » وانطلقنا .

كانت المسافة بين أربطة الحرم « الحيدر آبادية » وهذا المكان نحو ميل ونصف أو ميلين ، وكانت الشمس شديدة الحرارة فى منتصف شهر مايو ، وكانت القافلة تضم نساء أيضا ؛ لهذا اضطررنا للركوب ، توفرت لنا عدة أماكن للإقامة، ومما يجدر بالذكر

دعوة مولوى محمد سليم لنا بالإقامة فى المدرسة الصولتية ، وهى دعوة ممزوجة بالحب والإخلاص ، لكن عرفنا من المعلم أن المدرسة تبعد عن الحرم مسافة طويلة ، ولذلك لن نتمكن من المجىء للحرم لأداء الصلوات الخمس ، ولهذا تقرر أن نذهب أولا إلى رباط حيدر آباد ونقيم هناك ، ثم ننظر ماذا يقسم الله لنا بعد ذلك .

يقع هذا الرباط فى « مسفلة » وهو مبنى واسع جدا ، لكنه الآن – ما شاء الله – يعج بالضيوف ، ومسئول الحراسة فيه هو حبيب الله ، رجل سمح ، حسن الخلق ، كفء ، خدوم ، وهو يشعر بالسرور والسعادة إذا ما قدم خدماته للضيوف ، ويبعد هذا المبنى عن الحرم مسافة ثلاثة فراسخ ، وهناك « ماسورة » من نهر زبيدة ، توجد بالضبط عند بابه ، وهذه فى مكة نعمة خاصة ، كيف تأتّى للهنود تقدير هذه الأهمية للماء؟!

وصف مكة :

كان الإسكندر ذو القرنين فى حاجة إلى إرشاد حضرة الخضر وقيادته ، صار « إسكندر » المطوف نفسه هو الهادى والمرشد ! فانطلق معنا ، ركب على الحمار ، بينما كنا نحن معا فى العربة نردد الدعاء من ورائه ، لم يأت على بالنا أى دعاء من الأدعية التى كان يعلمنا إياها ، لكن لا شك أن مثله يوجد فى الكتب :

« اللهم أنت ربى ، وأنا عبدك ، جئت لأؤدى فريضتك ، وأطلب رحمتك ، وألتمس رضاك ، متبعا لأمرك ، راضيا بقضائك ، أسألك مسألة المضطرين إليك ، المشفقين من عذابك ، الخائفين من عقابك ، أن تستقبلنى اليوم بعفوك ، وتحفظنى برحمتك ، وتتجاوز عنى بمغفرتك ، وتعيننى ، على أداء فرائضك ، اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وأدخلنى فيها ، وأعذنى من الشيطان الرجيم . »

ليست مدينة مكة أكبر مدن الحجاز فقط ، بل هى أكبر مدن الجزيرة العربية ، وهى لا تعد مدينة صغيرة إذا ما قارنا بينها وبين مدن الهند ، سمعت من الناس أن عدد سكانها يصل إلى ١٥٠ ألف نسمة ، ويتضاعف هذا العدد فى أثناء موسم الحج ، بل قد يزيد على الضعف أيضا ، وليس من الضرورى هنا أن نذكر مبانيها العالية ،

وأحيائها الممتدة هنا وهناك ، وأسواقها الكبيرة ، وما تحويه من جميع أنواع الأقمشة ، والأطعمة والأوانى والأحذية والبُسُط والفُرُش .

وحوانيت الصرافة هنا توجد بكثرة ، وتشاهد الأضواء المتلألئة ليلا فى كل مكان ، والمحلات التى تقدم الشاى والقهوة ، لكن ما يجدر ذكره هنا ، هو حوانيت العصائر والثلج ، فهى توجد فى كل مكان ، وفيها من العصائر من كل نوع ولون ، ويمكنك بسهولة الحصول على الثلج أيضا فى كل مكان ، وهنا لا تشعر بأنك فى جزيرة العرب ، لكن تشعر بأنك تسير فى مدينة متحضرة من مدن الهند ، لا شك بأن الشوارع غير منظمة ، والشارع الممهد أو المرصوف ، مرصوف بالاسم فقط ، فهنا لا تسأل عن المطبات الموجودة فى نهر الشارع ، ولا عن الحفر ، ولا تسأل عن الانقلاب من فوق لتحت أو من تحت لفوق فى أثناء ركوبك العربة ، فوضى كبيرة ، وهكذا كان من الصعب علينا أن نسمع صوت مطوفنا « إسكندر » بشكل واضح ، ومع هذا فالمطوف يبدأ فى تعليمنا ما ينبغى علينا قوله ، ومع كل محاولاته الجادة لم نكن من تلاميذه المجتهدين .!!

دعوة لإنشاء صناعات إسلامية وسوق إسلامية :

لكن رونق أسواق مكة وسكانها .. آه ! لماذا أكتب عن ألم القلب بهذه الكلمات ؟ .. ليس هذا تطورا للمسلمين ! ليس تطورا لنا ، ورقيًا لنا ! وليس تطوراً لمكة والمدينة ، ورقيا لمكة والمدينة ! وليس تطوراً ورقيا للحجاز ، ناهيك عن الحجاز ، ليس تطورا ورقياً للسعودية وليس تطوراً ورقيًا لمصر ، والشام ومراكش وطرابلس والعراق وإيران وبخارا وأفغانستان ، ولا لأى بلد مسلم ، بل هو كله رقى لجميع دول الإفرنج ، هو تطور ورقى الغرباء ، تطور لأمريكا ، وإنجلترا وإيطاليا ، إن ما يشاهد من بضائع فى هذه المحلات تصل قيمتها إلى مئات الآلاف من الروبيات ، هذا الشال ، وهذه الفترة ، وهذه البطانية ، وهذا المفرش ، هذا الحذاء وهذا القفاز ، هذه التلفيعة ، وهذه العمامة ، هذه الألبسة ، وهذه الفانلات ، هذا المخمل وهذا الأطلس ، وهذا الحرير ، وهذه الأقطان ،

وهذه الطواقى ، وقطع الغيار ، وإطارات الشاحنات ومصابيح الكهرباء ، ومواقد الغاز ، وزجاجات العصائر ، وهذا الكبريت وهذه السجائر ، وهذه المربى وهذا الجيلى ، وهذه الأكواب والبرادات ، وهذه المناديل وسجاجيد الصلاة ، وأكوام البضائع المستخدمة فى الزينة ، ليت بعضا منها صنعناه بأيدينا. !!

ليت ما يحدث اليوم لا يحدث ، ليت أموالنا لا تخرج من جيوبنا كل يوم لتذهب إلى مانشستر ولانكشلير وليفربول ، وغلاسغو ، وشيفلد وبرمانجهام ، وأمستردام واستوكهولم ، وواشنطن ، وشيكاغو ، لتعمر هنا المنازل والبيوت ،ولتبنى العمارات والمصانع ، ولتصب فى البنوك والخزائن !

صحيح أنك تجد عباءات بغداد وأحذية دهلى ، لكن هذا يعد فقط بالمئات ، مقابل مئات الألف والملايين ، ماذا نستفيد إذا كان كل ما يصل إلينا يعد بالمئات ، وما يصل إليهم يعد بالملايين وأكثر! من سيفرح بهذا أو من سيسر ، ومن سيذكر هذا بالفخر ؟!

كثرة الأطعمة والفاكهة فى مكة :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا. ﴾ (القصص: ٥٧)

يعلم الله كم من مرة ، مرت هذه الآية الكريمة أمام عينى فى أثناء التلاوة ، لكن مفهومها لم يتضح لى جليا إلا حين زرت مكة ، هذا الوادى غير ذى زرع ، الرمال والصخور ، والتلال والهضاب تحيط من كل ناحية ، لا وجود لخضرة إلا على بعد مئات المئات من الأميال ، عند منازل السفر فقط، كما أن وجود الماء نادر إن لم يكن معدوما ، والبحيرات كلمة لم ترد على لسان أحد ولم تسمع بها أذن ، زد على ذلك : حرارة الجو ، ورياح السموم ، وأشعة الشمس المحرقة ..

لكن من ناحية أخرى تجد الفاكهة الطازجة بكثرة ، والثمار اليانعة بكثرة ، حتى تظن نفسك فى شارع « إفرد » فى بومباى أو فى محلات « فتح بورى » فى دهلى ..

الموز والبطيخ والكمثرى والمشمش والليمون والبرقوق والمشمش البخارى الطازج ، والخلاصة كل شىء من الفاكهة والخضار (غير المانجو فى الأغلب) موجود ومتوفر بكثرة .

وإذا ما أردت خضارا أو فاكهة طازجة وجدتها بشكلها وهيئتها طازجة يانعة ، فإن لم يكن هذا من كرامة مكة ، ومن كرم رب مكة ، فماذا عساه أن يكون ؟!

فلا يمكن أن نصدق هذا إذا ما فكرنا فى الأسباب الظاهرية « رزقا من لدنا » .

« فهذا من لدنا دون حاجة إلى أسباب طبيعية ، وبغير مساعدة التدابير الظاهرية ، هذا رزق لأهل مكة » .

صدق ما قاله الصادق حرفا حرفا ، ويمكن القول بكل همة ، ودون أدنى تردد بأن الأرض ، التى لم ينبت فيها شىء ، يوجد فيها كل شىء ينبت من الأرض ، ويمكن أن ندعى معلنين هذه الحقيقة بأن هذه معجزة خاصة على صدق القرآن الكريم ، تشاهدها اليوم الدنيا كلها ، وتشاهدها على مر ألف وثلاثمائة سنة ، والله وحده يعلم إلى متى ستظل قائمة .

(٢٢)

الحرم الشريف

إسكان الحجاج فى مكة :

إن الطريقة العامة لإسكان الحجاج فى مكة المكرمة ، هى أن ينزل هؤلاء الحجاج فى بيوت بالإيجار ، عن طريق المطوف ، والإيجارات عموما ليست مرتفعة ، إلا أنه نظرا لشدة الزحام ، ونظرا لقلة عدد البيوت ، ولأن هذه هى وسيلة دخل أصحاب البيوت ، وهذا هو وقت الحصول على هذا الدخل ؛ لذا يقوم أصحاب البيوت بالمغالاة فى الإيجار ، ثم يبدأ المطوفون أيضا بالمطالبة بحقوقهم ، فيكف يتركون هذه الفرصة التى واتتهم من عند الله .

يتم حساب الأجرة بالجنيه ، وليس بالروبية ، ومطوفنا عبد القادر إسكندر ، الذى قدم معنا إلى مكة من الهند ، على السفينة نفسها ، وشملنا برعايته ، وكمال عنايته فى بومباى ، أخبرنا بأنه سيبحث لنا عن بيت جيد ، ورخيص بعشرة جنيهات أو خمسة عشر جنيها ، لكننا بحمد الله ، لم نكن بحاجة إلى أن نستفيد من رعايته وعنايته ، ماذا ينقص ضيوف الرحمن فى بيت الرحمن ! فقد توفرت لنا عدة أماكن لنقيم فيها براحتنا : المدرسة الصولتية ، والمدرسة الفخرية العثمانية ، وأربطة حيدر آباد ، وعدد من الاستراحات ! ورأينا أنه من مصلحتنا أن نذهب أولا إلى رباط حيدر آباد ، ثم نرى بعد ذلك ما هو المناسب لنا ، وهكذا ركبت قافلتنا على « العربيات » ومضينا فى قيادة مطوفنا .!

يجب أن يكون واضحا تماما أن مثل هذه التسهيلات لا يمكن أن تتيسر لكل إنسان ، وفى العموم فإن ترتيب الإقامة بأكمله يكون بمعرفة المطوف ، وعلى الحاج أن يكون بحوزته مبلغ من المال معقول لتأجير بيت فى مكة .

منظر الحجيج :

يعلم الله منذ كم ألف سنة مضت صدر أمر الله هذا لخليله (عليه السلام) :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .﴾ (الحج : ٢٧)

كنت حتى الآن أقرأ ألفاظ هذه الآية فحسب ، لكن مشاهدة المعنى بدأت اليوم فقط ، يعلم الله كم من المسلمين جاءوا من الأماكن القريبة مشيا ، وكم منهم جاءوا ركوبا ، يمشون معًا، يمضون معًا ، يتحركون معا ، يتقدمون معا ، يتأخرون معا ، يسيرون فى صف واحد ! عشرة .. عشرة ، عشرين ، عشرين ..عشرين ، مائة أو خمسين ، من ذا الذى تواتيه الهمة ليحصى عددهم !! فأصحاب الهمة والعزيمة يأتون مشيا ، ومن لديهم رخصة يركبون ، هناك البعير ، وهناك الناقة ، جميع الأشكال : الجميل والقبيح ، الصغير والكبير ، البرى الوحشى والأليف اللطيف ، الأبيض والأسود ، والأحمر ، والذى هو بلون اللوز ..

لكن الجميع جاءوا من حيث جاءوا ، ومن فرط التعب ، يركبون الدابة (على كل ضامر) ويمضون ، ولا ندرى من أين جاء هؤلاء ؟ ولا من أى البلاد جاءوا ؟! لو كانوا قد جاءوا من بلدين أو أكثر ، لأمكن حصرهم ، لكن هناك من جاء من نجد ، وهناك من جاء من اليمن ، هناك من جاء من العراق ، وهناك من جاء من الشام ، وهناك من جاء من مصر أو من أناضوليا ، أو من فلسطين أو من كردستان ، أو من السودان أو طرابلس ، أو من مراكش أو زنجبار ، أو من الحبشة أو من تونس ، أو من إيران ومن أفغانستان ، أو من بلوتشتان ، أو من بخارا أو تركستان ، أو من الصين أو من

جاوا ، أو من بورما أو من سيلان ، ومن البنغال ، أو من البنجاب أو السند أو الكجرات أو بيهار ، أومن مالابار أو بومباى أو الدكن أو لكهنو أو ... أو ...

يعلم الله من أى ركن من أركان هذا العالم جاء هؤلاء ، ومن أية منطقة على وجه الأرض ينتمون ، إنك على كل حال تشاهد تفسير قوله تعالى ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج : ٢٧)

الزحام ودور الشرطة :

حين تطوى منطقة خارج المدينة ، فهذا يعد غنيمة ، وحين تدخل وسط المدينة ، يشتد الزحام لدرجة أنك إذا وصلت إلى المنحنى حيث تبدأ حدود حى « مسفلة » شاهدت صراع البشر مع النوق ، والإنسان مع الجمال ، وبنى آدم مع البعير ، لدرجة يصعب فيها عليك أن تجد لنفسك طريقا ..

كان وقت العصر قد بدأ ، وكنا نريد أن نصل إلى هدفنا بسرعة ، حتى نضع الأمتعة ، ونصل إلى الحرم بأى شكل ، بينما اشتد الزحام ، واشتد هجوم الناس ، لدرجة أن الطريق لم يعد صالحا بأى شكل من الأشكال للمرور فيه ..

يكون الذهاب إلى منى - طبقا للسنة - فى صباح يوم الثامن من ذى الحجة ، ويجب الوصول إلى عرفات حتى ظهر التاسع من ذى الحجة ، لكن المتعجلين ، من غير المهتمين بالعمل طبقا لسنة الحبيب ، يعدون بالمئات ، بل بالآلاف ، وهؤلاء بدءوا الذهاب من اليوم ، واليوم هو السادس من ذى الحجة ، فزادوا من الزحام الشديد على هذا الطريق ، بل جعلوه ميدانا للمصارعة ..

مرت دقيقتان ، ثم أربع ، ثم عشر دقائق ، ثم عشرون ، ونحن واقفون فى مفترق الطرق ، وكان إسكندر مطوفنا الذى غرق كله وسط الزحام فى محاولة منه لفتح الطريق ، قد غاب تماما عن أنظارنا ، ومرت لحظات ثقيلة جدا ، لكن من ذا الذى لديه القدرة على فك عقدة هذا الزحام الشديد ؟!

لكن أين الشرطة السعودية ؟! أليس تنظيم الشوارع والسيطرة على مثل هذا الزحام من واجبات الحكومة ؟! والشرطة التى تحاول عادة أن تثبت وجودها فى كل لحة ، عند زيارة الروضة المطهرة فى المدينة ، اختفت اليوم تماما ! ولم تظهر لوقف تلك « البدع » التى لا تخص فرقة بعينها ، بل هى بدعة يشارك فيها الحنفى والحنبلى ، والبدعى والجميع على حد سواء !!

الوصول إلى الرباط – وصف الرباط :

حسنا ، توكلنا على الله ! اعتمدنا على الله ، فصار الصعب سهلا ، وظهر لنا ثانية مطوفنا إسكندر ، وكان معه مدير حراسة الرباط حبيب الله ، فقد جاء المسكين حتى هنا ، ليقابلنا نحن الغرباء الذين قدمنا هنا لأول مرة ، وطبقا لمشورتهما معا ، نزلنا جميعا من « مركباتنا » ومن بيننا العجائز والضعفاء ، والنساء ، ومن بينهن من هن ضعيفات البنية والصحة ، واختلطنا بالزحام الشديد ، وبدأنا نمشى على أرجلنا ، بينما كانت أمتعتنا لا تزال محملة على « العربيات » التى كانت تسير من خلفنا ، وهكذا طوينا مسافة فرسخ أو فرسخ ونصف حتى وصلنا إلى الرباط ..

والرباط مبنى جميل وواسع ، يتكون من طابقين ، وسطحه مفتوح للسماء ، وهو فسيح وواسع ، وهناك ماسورة بصنبور تأتى بالماء من نهر زبيدة ، والصنبور على باب الرباط ، وهو هنا نعمة خاصة ، وإذا جاء أحد هنا فى غير موسم الحج ، فيمكنه التمتع بالإقامة هنا فى راحة وسهولة ويسر ، لكن الآن تمتلئ جنبات الرباط ، وكل ركن فيه بالحجاج ، فوق ، وتحت ، وفى الغرف ، وفى الشرفات ، وفى الطرقات، وفى كل مكان ، لكن مسئول الحراسة حبيب الله كان قد حجز لنا مكانا واسعا فسيحا فى الدرجة العليا ! شرفة واسعة أو فناء واسع مع حجرة كبيرة ، مع دورتى مياه !

لو كنا جميعا من الرجال لكان هذا كافيا جدا لنا ، لكن كان من بين المسافرين سبع نساء ، ولم يكن هؤلاء أيضا من أسرة واحدة، يمكنهم أن يظهروا على جميع الرجال ، بل كانوا من ثلاث أو أربع أسر مختلفة ، لهذا كانت هناك صعوبة فى عملية الحجاب والستر ، ومع موسم الصيف شديد الحرارة ، لا معنى لكلمة فناء أو صحن ،

كما أن الشرفة أيضا كانت تفتقد التهوية ، فضلا عن أن الهواء لم يكن يمر بها فقد كانت جدرانها ساخنة جدا ..

لكن حبيب الله لم يأل جهدا فى أن يوفر لنا كل ما يستطيع ، بقدر ما له من سلطات ، من أجل راحتنا ، فقد كان عليه أيضا مسئولية خدمة مئات الضيوف ، ومع هذا فقد كان المسكين يخدم كل هؤلاء بوجه بشوش ، وكان دائم الابتسام للجميع ، وفى أكثر من مناسبة تستوجب الغضب ، بل يكون الغضب حتميا وضروريا ، لم نشاهد أبدا على وجهه الطيب أية علامة من علامات الغضب.

مشاعر وأفكار فى الطريق إلى الحرم :

وضعنا أمتعتنا ، ومر أول وقت العصر ، وبدأ أوسطه ، فجددنا الوضوء ، واتجهنا إلى الحرم بملابس الإحرام ، فى معية معلمنا ، لم تكن المسافة طويلة ، ربما كان الحرم على بعد ثلاثة فراسخ ، فوصلنا فى عدة دقائق ، لكن لا تسأل عن هذه الدقائق ! فقد بدت فى ذلك الوقت ساعات ! كانت عبارة لبيك لبيك تجرى على الألسن ، بينما كان المعلم يرشدنا إلى ترديد دعاء آخر. !

لكن ماذا يردد القلب؟! أية أمنية للإنسان يمكن أن يتمناها، ولا تأتى على خاطره الآن ؟! آه .. زحام الأمانى ، واختلاط الأمنيات ، وصراعها ، ثم الهيبة والخوف والاضطراب ونحن متجهون إلى بلاط العلى القدير ! كان شعور القلب بالرهبة يزداد لحظة بعد الأخرى ، أما الأقدام فكانت تتحرك ثقيلة كأنها مترددة فى المسير إلى الإمام ...

إلى أين ؟ وبأى جبين سودته الذنوب أسجد ؟ كيف يتقدم هذا القدم النجس ليطأ هذه الأرض الطاهرة؟!

آه .. أيتها الدروب! لقد كنت جديرة بأقدام الخليل ، الذى أُلقى فى النار باسمًا ، كنت جديرة بأقدام ابنه الصغير الذى رقد أمام أبيه مسلما الجبين ، حتى يكون ذبيحا

لأبيه ، دون خطأ يصدر منه أو تقصير ! كنت جديرة بحبيبك ومحبوبك (صلى الله عليه وسلم) الذى حمل الرسالة ، وتحمل الإيذاء سنوات وسنوات ، وهو يمضى على دروبك هذه !

رهبة وخوف من دخول الحرم :

كم ظللت أسمع ! وكم بقيت أقرأ أن الكعبة مكان تجلى الجلال ، هنا قوة التجليات القهرية ، وثبت أثر هذه الروايات فى قلبى ، فكانت الهمة تحاول مقاومة غلبة الهيبة والخوف مرة بعد مرة ، وكان القلب يقول لماذا تتقدم إلى الإمام ، وكنت أسمع هذا الشطر من بيت الشعر على لسان الأرض :

« لقد خربتني بهذه السجدة المملوءة بالرياء » .

فيدق القلب ، ويدق ، والأذن تسمع هذا النداء ، من مكان ما .. ألا تسير إلى أرض المسجد الحرام الآن ؟ فى دنيا الشعر تردد هذا البيت فى أذنى :

« حين ذهبت للطواف بالكعبة ، لم يحرروني من بحر طريقى ..

ماذا فعلت خارج الباب حتى تدخل من البيت ؟ ! »

هل يتحول هذا الشعر اليوم ، وفى هذا الوقت إلى واقع وإلى حقيقة؟! أم أن الله سيمنع العبد المسكين الذى اسود وجهه من الذنوب من أن يضع هذا الجبين غير الطاهر على هذه الأرض الطاهرة ؟ كيف تأتينى القدرة على الطواف فى هذا المكان العظيم الجليل؟ كيف يمكن لهذا الإنسان ، الذى هو قبضة من تراب ، والذى هو عار على أمته أن يسعى على هذا الدرب الذى هرولت عليه هاجر الصديقة ، الذى سارت عليه أم النبى وزوج النبى ؟!!

مشاعر وأفكار أمام الكعبة :

هيا !! ها قد بدت لنا جدران المسجد الحرام الأربعة .. هناك عدة أبواب للمسجد الحرام ، دخلنا من باب السلام (ويعد هذا الباب من أفضل الأبواب للدخول إلى المسجد الحرام) .

إلى أين دخلنا ؟ ! إلى داخل هذه الأرض الطاهرة ، إلى داخل بقعة النور هذه .. حيث تكون الصلاة ، بمائة ألف صلاة ، أو على الأقل بألف صلاة ، العين تنظر إلى الداخل ، تقع على هذا المبنى الذى يغطيه الغلاف الأسود ! الذى سماه رب العزة بيته المكرم ..

ويقع النظر حيث يقع ، فيتجمد ولا يتحرك ، ويبقى يحدق حيث وقع!! كيف يمكن بيان حاله فى هذه اللحظة ؟! وبأى ألفاظ يمكن التعبير عنها؟!

يقولون إن موسى الكليم لم يتمالك حواسه ، ولم يبق فى وعيه عند مشاهدة ضوء واحد من شعاع تجليه ! فإذا كانت هذه حال تجلى « البيت » الذى جعل من الصعوبة بمكان السيطرة على الوعى والحواس ، فماذا أدرانا يا تُرى بتجلى « رب البيت » ؟! إذا كان هذا هو شأن أشعة برق « البيت » فأية عين بشرية وأى بصر إنسان ، كائنا من كان ، يمكن أن يتحمل شعاع أنوار وتجليات « صاحب البيت » ؟!

الله .. الله .. يا للحسن ويا للجمال ! يا للزينة ويا للإبداع ! يا للحسن والمحبة ! ويا للجاذبية والروعة ! يعلم الله ماذا رأى من أخبرونا بمكان تجلى الجلال ! وفى أى عالم رأوا ما رأوا ، وكيف كانت حالهم حين شاهدوا المحبة والجمال من أولها إلى آخرها ! ومن كل ناحية ، ومن كل سمت ، حيث الورود والأزهار ، والأريج والطيب ، حيث الشفقة والرحمة التى تفتحت أبوابها : خلة إبراهيم ، وفداء إسماعيل ، وحال هاجر المسكينة ..

الله أكبر ، تتجلى هنا أنوار الحب والجمال ، هنا حيث وجد الثلاثة معا ، هل هنا مستراح أطيب من هذا المستراح الآن ؟! لا يشعر القلب باضطراب ، ولا تشعر طبيعة الإنسان بالقلق ، لا خوف ، ولا رهبة ، الهدوء يعم وينتشر من فوق إلى تحت ، الانبساط والسرور ، والنشوة والفرح ..

لقد قرأت كثيرا تفسير قوله تعالى « من دخله كان آمنا » لكن هذا التفسير الذى أراه أمامى الآن ، ثبت على لوح القلب دون وساطة كتاب ، أو عبارات سطرت فى صفحات كتاب ، وهو تفسير يختلف عن كل تفسير ، وهو تفسير فريد ، لا مثيل له ، وهو تفسير عجيب من أعجب التفاسير ، ولو سمح لى بأن أكشف السر ، فهو أصح من كل التفاسير المنقولة والمكتوبة ..

آه ..

« انظر إلى مصحف وجهه !

يا خسرو ! إلى متى تنشد الغزل

وإلى متى تكتب الأسفار ؟ !

يكتب الغزالى فى « إحياء العلوم » أن الكعبة ستأتى فى يوم القيامة ، فى شكل عروس ، فى أكمل زينة ، لكن لماذا قيد هذا الأمر بيوم القيامة ؟ وما ضرورة الانتظار حتى يوم القيامة لمشاهدتها على هذا النحو؟

أقسم برب الكعبة أن الكعبة اليوم مثل العروس ، مزينة بكل متاع الحسن والجمال ، والزينة والإبداع والجاذبية ، لا يشاركها فى حسنها وجمالها غير المسجد النبوى فى المدينة المنورة ..

ومن لم ير حسنها وجمالها ؟! من لم ير جاذبيتها وروعتها فى عالم الناسوت هذا ؟! لقد رأى الأنبياء جمالها وحسنها ، والصديقون رأوا جمالها وحسنها ، والعارفون رأوا جمالها وحسنها ، وكل من له عين بصيرة رأى حسنها وجمالها ، وحتى من حرم البصيرة ، وله من نور عينيه شعاع ضعيف، حتى هو رأى أيضا جمالها وحسنها !

لعل الإمام الغزالى أو لعله شيخ أخر قال : إن العيون التى رأت اليوم الكعبة المشرفة ، سوف يكون لها القوة والكفاءة فى الغد ، لتتمكن من مشاهدة نور رب الكعبة أيضا .

ماذا يمكن أن نقول هذه المرة ؟ وماذا يمكن أن نقول عن هذا الإكرام وهذه الحفاوة ؟! لكن الذى يتوقع هذه المرة ، هو صاحب المرتبة ، ليس من هو مثلنا نحن

أصحاب الهمم الضعيفة والإرادة المنحطة ، ممن تركوا المكين (أى رب المكان) وفكروا فى رؤية المكان (أى البيت) فما أقل ما طلب هؤلاء !!

جاء فى بعض الروايات أن النظر إلى بيت الكعبة هو فى حد ذاته عبادة ، ولعل هذا التصريح جاء فى حديث نبوى بأنه تنزل على الكعبة كل يوم مائة وعشرون رحمة منها ستون لمن يصلون بها ، وأربعون لمن يطوفون حولها ، وعشرون لمن ينظرون إليها ، ولكن بصرف النظر عن الأجر والعبادة ، فأى قلب يخلو من هوس النظر ، والحرص على التطلع إليها ، نظرا لما يكون بداخله من ذوق وشوق ووله !!

كان القلب ينظر ، مضطربا ، لا يقر له قرار ، ثم ينظر ، وينظر ، وينظر عشرات المرات ، وينظر مئات المرات ، ثم آلاف المرات ، وظل ينظر وينظر ، ولم يتعب أبدا من النظر !

« والعين من حركة رموشها صارت تعانق محبوبها » .

(٢٣)

الحرم المقدس

أهمية الكعبة بيت الله :

حين ذُكرت قصة إخراج إبليس من الجنة فى القرآن الكريم ، جاء على لسان إبليس قوله﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ومن الواضح أن « الصراط المستقيم » هنا جاء بمعناه العام والواسع ، أى كل عمل صالح وكل درب إلهى ، وهكذا قال المفسرون بهذا المعنى ، لكن ابن جرير وابن كثير والخازن وغيرهم قالوا بأن المقصود من « الصراط المستقيم » هو طريق مكة ، وطريق حج بيت الله ، وقال بذلك أيضا من التابعين عون بن عبد الله ، ونقل هذا القول أيضا الإمام الغزالى فى إحياء العلوم .

هذه هى أهمية بيت الله ! فحتى الشيطان يدرك أنه طريق الله الأصلى ، وأنه الصراط المستقيم الحقيقى ، وطالما هو جالس يصد عن سبيل الله ، فهو سيجلس فى طريق المسافرين إلى بيت الله !

فمن أكبر من الشيطان كاشفا للأسرار ! فهو الذى ارتد عن عبادة الله ، ومع هذا فهو يعرف جيدا أين طريق القبول ، وما هو طريق المقبولين عند خالق الكون .

إن أمن وأمان ونظام الدنيا كلها - وليس الحجاز فقط أو مجرد جزيرة العرب أو حتى المسلمين فقط - مرتبط بهذا المعنى الجميل « قياما للناس » هكذا قال عنه رب

الكون فى محكم أياته ، فالدنيا ستظل قائمة طالما ظل هذا البيت المشرف العزيز قائما ، وظل الطواف من حوله قائما ، فإذا تداعى كل هذا البيت ، بعدها لن يكون هنا مكان ولا مكين «ولا تقوم الساعة حتى لا يحج إلى البيت .»

جمال بيت الله

هذه هى حال رفعة المرتبة ، وجلال القدر ، لكنى أترك كل هذا ؛ لأنه معروف ومسلم به ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وهنا لم يكن المجال مجال ذكر الكمال ، بل كان مجال ذكر الجمال ، ولم يكن فى باب الحديث عن عظمة بيت الخليلِ وهيبته ، بل كان الحديث عن جاذبيته وجماله .

وقد نقل الشيخ فريد الدين العطار فى مؤلفه تذكرة الأولياء على لسان عبد الله بن المبارك رحمه الله أنه « كان بمكة مرةً فرأى شابا وسيما ، يريد الوصول إلى بيت الكعبة ، وبينما هو كذلك إذا به يخر مغشيا عليه ، فأسرعت إليه ، فرأيت أنه يردد كلمة الشهادة ، فسألته عما حدث فقال : « أنا نصرانى ، أردت أن آتى هنا لأشاهد حسن الكعبة وجمالها ، وحين وصلت هنا سمعت صوتا من الغيب ، يقول لى : تدخل بيت الله وفى قلبك معاداة « الحبيب » ..

الله.. الله .. هذه هى جاذبية الحسن والجمال ، شوق المشاهدة حتى لدى الكفار ! فهذا الذى ينكر الكمال ، لم يستطع أن ينكر الجمال.!

ولنترك رواية عبد الله بن المبارك فقد مضى عليها مئات السنين ، ولننظر إلى زماننا نحن اليوم فى القرن العشرين ، ما حال عصر التنوير هذا ، وزمن أصحاب الفكر المستنير ؟ كم من الإفرنج وكم من البريطانيين وكم من الإيطاليين وكم من الألمان وكم من الفرنسيين يتمنون هذا الأمر ، ويرغبون فيه ، فيغيرون من هيئتهم ، ويغيرون من أنفسهم ، ويغيرون من أسمائهم ، وقوميتهم ؛ ليصبحوا مسلمين ، ويتظاهرون بأنهم عرب ، فيرتدون زى العرب ، ليصبحوا على هيئتهم ، ويأتون لمشاهدة هذا البيت !

بركة دعاء الخليل :

لماذا تصيبنا الحيرة على هذه الجاذبية ، لقد ورد فى النهاية هذا الدعاء على لسان العبد المحبوب ، المختار من رب العباد :

﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ... ﴾ ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (إبراهيم : ٣٧)

ولنترك الدنيا كلها ، ولنأخذ هذه الفقرة من الآية الكريمة :" فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ".

من رفع هذا الدعاء إلى الله ؟ من علّم كلمات الدعاء هذه ؟ لقد جاء هذا الدعاء على لسان خليل الله ، لكن من أين كان إلقاء هذا الدعاء ؟ إن من علم هذا الدعاء هو نفسه من قبل هذا الدعاء ! وهو مالك كل القلوب ، وحاكم كل القلوب ، هو نفسه الذى يخلق فى القلوب الرغبة ، ويخلق فيها الجاذبية !

ثم انظروا إلى عظمة « المكان » فى عين « المكين » ، لم يأت فى هذا الدعاء أنه يجعل أفئدة الناس تهوى إلى البيت ، بل إلى الناس الذين يعيشون حول البيت ! فهذه المرجعية ، وهذه المحبوبية ، وهذه الجاذبية لمن هم حول هذا البيت ، وهى نفسها جاذبية للبيت ، وحبا للبيت .. فانظروا بأية عبارة كان الدعاء؟!

واستجاب رب العزة للدعاء ، وقبل الله الدعاء .. لدرجة أن آل إبراهيم ، وآل إسماعيل ، وآل محمد ، وآل رب محمد .. بل لنترك هؤلاء جميعا ، فأهل كلكته وبومباى ، وأهل دهلى وشملة ، وأهل كشمير ، وأهل ميسورى ، وأهل أكسفورد ، وكمبردج ، وأهل لندن ، وباريس هم اليوم فى حيرة ، ومن الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب ، ومن البر والبحر ، وعن طريق القطارات والسفن ، والسيارات والجمال ، الآلاف ومئات الآلاف من الرجال والنساء ، ومن الشيوخ والشباب ، ومن الصغار والكبار ، الصبية والأطفال كلهم جميعا جاءوا إلى هنا بقلوب مشتاقة !!

دعاء رؤية الكعبة :

ماذا نقول عن حالة قلوب عباد رب البيت ، وقلوب أتباعه ؟! هذا البيت الذى له هذه الجاذبية ، وهذه المحبوبية ، والذى يتطلع إليه حتى العصاة والبغاة .

دخلنا الحرم .. نظرنا إلى الكعبة المطهرة ! فلا تسأل عن حال القلب .. ماذا كان يقول المطوف ، وأى دعاء كان يردد ؟! لا أتذكر ! لا أتذكر جيدا ، هل كان يردد دعاء أم لا ! ... من كان له عقل أو دماغ فى هذا الوقت ؟! لكن كل ما أتذكره جيدا هو أن نظرى حين وقع على هذا الجمال المجسم ، جاء على لسانى دون وعى منى ، بل دون إدراك أو تكلف دعاء بأن يغفر الله لى ذنوبى دون حساب أو كتاب !

حالة من الأنانية ، فلم أعد أذكر فجأة أى شخص أخر غير نفسى ، ففى بداية الحشر سيقول كل إنسان : نفسى ، نفسى ، وهكذا دعوت لنفسى فقط قبل الجميع ، لكن بعد لحظات وجدتنى أتذكر أهلى وأحبابى ، وأصحابى وأصدقائى والأمة الإسلامية ، فدعوت لكل هؤلاء ، لكن ما جاء فى الكتب عموما هو أنه إذا وقع نظرك أولا على الكعبة فلتقرأ هذا الدعاء ، وهو منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (مع تغيير فى بعض الألفاظ) :

« اللهم زد بيتك هذا تعظيما وتشريفا ومهابة ، وزد من حجه وعمره تعظيما وتشريفا ومهابة. »

وفى رواية أنه نقل عن النبى (صلى الله عليه وسلم) هذا الدعاء :

« أعوذ برب البيت من الدَين والفقر ، ومن ضيق الصدر وعذاب القبر . »

ونقل عن عمر (رضى الله عنه) أنه حين رأى الكعبة قال هذا الدعاء :

« اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام. »

وفقهاء الحنفية عموما كتبوا بأن يكبر الإنسان فى البداية ثلاثا : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، ثم يقول : لا إله إلا الله ، وبعدها يدعو الله بما يشاء ويتفق الجميع

على « أن الدعاء مستجاب عند رؤية البيت » ، وأن هذا وقت خاص لقبول الدعاء ، وله أهميته ، فلا يجب على الإنسان أبدا أن يضيع هذا الوقت الثمين بتغافله وتساهله .

وصف الحرم المكى :

تمالكت نفسى ، وعاد إلىَّ وعيى وإدراكى ، فكان أول ما قمت به هو أداء صلاة العصر ، ماذا أقول عن حال الحرم ، فمن حيث الاتساع هو أوسع وأكبر من المسجد النبوى ، بالرغم من أنه لا يساويه فى الجاذبية ، سمعت من الناس أنه فى وقت من الأوقات كان يمكن أن يصلى بداخله مائة ألف شخص ، وطول الصحن ١٢٠٠ قدما ، وعرضه أكثر من ٩٠٠ قدم ، وفى الأطراف الأربعة توجد أفنية وساحات واسعة وفخمة ، أما الأبواب فهى متعددة ، وقد سمعت أن عددها حوالى ٤١ بابا ، لكنى أذكر أننى قرأت فى الكتب ، أن عددها ١٧ بابا فقط ، والمآذن ست ، بينما القباب الكبيرة والصغيرة يتجاوز عددها المائة والخمسين قبة ، والوصول من الأفنية والساحات إلى الكعبة يكون عبر صحن فيه حجرات واسعة ، رصفت بالحجارة ، وعرض كل منها ستة أقدام ، أو ستة أقدام ونصف ، وعددها لا يقل تقريبا عن عشرة ، أو اثنى عشر ممرا ، ويفرشون فى الصحن عادة بلاطات من الحجر الجيرى ،لتشكل ممرات ، وهذه الممرات تستخدم للوصول إلى الكعبة ، وفى وقت الحرارة الشديدة ، تكون هذه البلاطات شديدة السخونة، ولهذا ينصح بلبس النعال البيضاء الخفيفة التى تباع فى بومباى وفى مكة أيضا ، حتى نتجنب ما يصيب الأقدام من ألم ناتج عن حرارة هذه البلاطات الشديدة ، ويمكن لبس الأحذية العادية من البيت حتى الحرم ، فإذا ما وصلت الحرم لبست هذا النعل الخفيف ، فلا تصاب الأقدام بالأذى .

والحرم مضاء كله من الداخل بالكهرباء ، وفى الصحن ، وضعت المصابيح الكهربائية على الأعمدة .. هذا هو المسجد الذى تعادل صلاة ركعة فيه مائة ألف ركعة ! هذا كرم الله ، وهذه رحمته ، وكأن هذا المسجد هو الأصل ، وبقية المساجد تقليد له ..

ماذا نقول عن الصلاة هنا ؟! وعن المصلين هنا ، فحيثما وجهت عينيك وجدت المصلين في كل ناحية يصلون ، ويصلون ، ويصلون ..

وفي الصحن أربعة مبان صغيرة باسم : مصلى الحنفية ، ومصلى الشافعية ، ومصلى المالكية ، ومصلى الحنبلية ، لكن ليس من الضروري أن يصلي أتباع فرقة ما في مصلى بعينها ، فمن أراد أن يصلي في أية منها يمكنه ذلك بحرية كما يشاء، وكان الناس ينتشرون هنا وهناك منشغلين بقراءة القرآن الكريم .

وصف الكعبة والطواف :

بعد الانتهاء من الصلاة تقدمنا لنطوف حول الكعبة المشرفة ، تقع الكعبة وسط الصحن ، سوداء اللون يلفها غلاف أسود ، حجرة ضخمة ، عظيمة الشأن ، بطول ٧٥ قدما تقريبا وبعرض ٦٠ قدما ، وبارتفاع ٨٠ أو ٨١ قدما ، وقد جعلوا هناك طريقًا دائريا للطواف من حولها ، ويطلق على هذه الحلقة « مطاف » .

كان الطائفون يطوفون حول هذا البيت ، يحققون أمنيات قلوبهم ، وكل دورة حول الكعبة تسمى « شوطا » ، وكل طواف يجب أن يكون من سبعة أشواط ، ويبدأ كل شوط من أمام الحجر الأسود ، وينتهي عنده أيضا .

والحجر الأسود هو الحجر المشهور المثبت في جدار الكعبة بالقرب من باب الكعبة ، على ارتفاع أربعة أقدام من الأرض، وطريقة الطواف تكون باستلام الحجر الأسود (أي أن يقف الطائف بمحاذاة الحجر الأسود) ويكبر تكبيرة الإحرام في الصلاة ، ويرفع يديه حتى أذنيه ، وبعد التكبير والتهليل ينزل يديه ، ثم ينوي في قلبه نية الطواف حول البيت ، ثم يطوف بحيث تكون الكعبة دائما على يساره .

في الفقه الحنبلي هناك أربعة أشواط من الأشواط السبعة فرض والباقي واجب ، ويجب أن يكون الطواف بوضوء ، وإذا بدأت الصلاة في أثناء الطواف فعلى المسلم أن يترك الطواف ، ويدخل في الصلاة مع الجماعة ، ثم يكمل الطواف بعد الصلاة ، يؤمر

الرجال فى الأشواط الثلاثة فى الطواف بالاضطباع ، والرمل ، ومفهوم الاضطباع أن يكشف الكتف الأيمن وينزل وسط رداء الإحرام من تحت الإبط الأيمن ، ويوضع طرفيه على الكتف اليسرى ، ومعنى الرمل هو أن يحرك كتفيه كليهما ، ويتحرك بسرعة مثلما كان يسير المحاربون فى ميدان المعركة ، وكل هذه الطرق والأدعية التى تقال فى أثناء الطواف يخبرك بها المطوف ، فمن يمكنه أن يحفظها عن ظهر قلب ؟! لكن من الأفضل ألا يعتمد دائما على المطوف فى كل شىء ، وأن يكون معك كتاب معتبر عن أركان الحج ومناسكه .

الطواف وأدعيته :

إن تقبيل الحجر الأسود سنة ، وفضيلة كبيرة ، لكن الدخول فى الزحام ، ودفع الناس لك فيه مشقة ، كما أن دفع الآخرين غير جائز على الإطلاق ، فإذا كان هذا صعبا (وهو عادة يكون كذلك فى موسم الحج) فتكفى الإشارة إلى الحجر الأسود باليد ، ويكفيك أن تقول :

« الله أكبر لا إله إلا الله والحمد لله » ويكفى الدعاء ، وقد نقلت هذه العبارة من أجل نية الطواف ، وهى عبارة مأثورة :

« اللهم أريد طواف بيتك المحرم ، فيسره لى ، وتقبله منى »

و يستمر بعدها الطائف فى طوافه ويقول هذه الأدعية :

« بسم الله والحمد لله والله أكبر والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم هذا البيت بيتك ، وهذا الحرم حرمك ، وهذا الأمن أمنك ، وهذا مقام اللائذين بك من الناس ، أعوذ بك من النار فأعذنى منها ، اللهم إنى أعوذ بك من الشرك والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنقلب فى المال والأهل والولد ، اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا ، وذنبا مغفورا ، وتجارة لن تبور ، يا عزيز يا غفور ، اللهم إنى أعوذ

بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من الخزى فى الدنيا والآخرة ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. »

تدافع الناس فى الطواف :

لم أر اثنين أو ثلاثة ، بل رأيت مئات وآلاف يدفعون بعضهم بقوة وبعنف من أجل الوصول إلى الحجر الأسود ، وبعد الوصول عنده بصعوبة ومشقة ، يعودون عودة الظافر المنتصر ، يتطلعون هنا وهناك كأنهم حققوا فوزا عظيما ! وكأنهم نالوا ثوابا كبيرا ! هذا من أوله إلى آخره جهل ، وقد كتب شمس الأئمة الإمام السرخسى بوضوح :

« ثم ابدأ بالحجر الأسود فاستلمه .. إن استطعت من غير أن تؤذى مسلما .. لأن استلام الحجر سنة ، والتحرز من أذى المسلم واجب ، فلا ينبغى له أن يؤذى مسلما، لإقامة السنة .» (المبسوط)

وقد خرج الفقهاء جميعهم تقريبا بمثل هذا :

« ثم استقبل الحجر مكبرا مهللا مستلما بلا إيذاء » (الكنز) ؛ لأن استلامه سنة ، والكف عن الإيذاء واجب .(بحر الرايق) ، ويقبل الحجر الأسود إن استطاع من غير أن يؤذى أحدا ، فإن لم يستطع استلام الحجر من غير أن يؤذى أحدا لا يستلمه ... (قاضى خان وغيره)

وقد اتخذ بعض المطوفين ممن قلّ علمهم مبدأ ، فجعلوا يكتفون ببعض الأدعية المختارة ، تسهيلا على أنفسهم ، ثم يعلمونها للحجاج ويخيفونهم ، ويخبرونهم بأن هذه الأدعية فقط هى التى يمكن قراءتها وقت الطواف ، بينما هذا لا أساس له ، فالشريعة سهلت وسمحت بقول ما يتناسب من أدعية فى هذه المناسبة وفى هذا المقام ، لكن بركة الأدعية المأثورة أكثر على كل حال .

فى موسم الحج لا يكون الطواف خاليا أبدا ليل نهار ، فى أى وقت من الأوقات ، وفى كل لحظة من اللحظات ، فالطواف حول الكعبة يظل مستمرا ، واترك أوقات البرودة فى الصباح أو فى المساء ، وتعال هنا فى الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل ، وتعال أيضا فى وقت الظهر حيث تشتد الحرارة ، وتصبح أشعة الشمس محرقة ، فإنك تجد المئات والألوف من العاشقين ، يطوفون حول البيت العتيق ، من بينهم من تمالك شعوره ، ومن بينهم من فقد وعيه ، من بينهم رجال ، ونساء ، ومن بينهم الضعفاء والأقوياء ، ومن بينهم عجوز يتوكأ على عكازه ، أو طفل صغير يمشى واضعا إصبعه فى فمه ! من بينهم العالم ، والعامى ، والزاهد ، والعاشق ، من بينهم الفقير المعدم ، وتجار بومباى الأثرياء ! ومن بينهم البدوى القادم من صحراء العرب ، والحضرى القادم من إحدى مدن مصر ، من بينهم البنغالى الجائع ، والدكنى الذى امتلأ بطنه..

هؤلاء جميعهم عباد رب واحد ، وأمة رسول واحد ، تابعون لسيد واحد ، يمضون معا ، يطوفون حول الكعبة !! كم من الأقطاب بينهم ! كم من الأتقياء بينهم ! كم من الزهاد بينهم ! كم من أولياء الله الصالحين بينهم ! من يعرف هؤلاء ؟!! كيف لا يكون للإنسان نصيب من المكاشفات هنا ؟! وأى أسرار لم يتم كشفها هنا .. وأى تجليات لم تظهر بعد ! هل هناك من ينادى ﴿ رَبِّ أَرِنِي ﴾ .

(٢٤)

الكعبة المشرفة

مكانة البيت العتيق :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. ﴾ (آل عمران : ٩٦) .

الله أكبر ! بيت من هذا الذى أراه أمامى ؟ جدران بيت من هذه التى تشد إليها الأنظار ؟ هذا هو البيت الذى قيل عنه «أول بيت وضع للناس » وهو أول دار عبادة على وجه الأرض ! لم تشيد من قرن أو قرنين ، لم تؤسس منذ ألفى عام أو أربعة آلاف سنة .. أول بيت يعبد فيه الله على وجه هذه البسيطة ! من يستطيع أن يحدد تاريخ ذلك ؟! أية ذاكرة بشرية يمكنها أن تتذكر ذلك الزمان ! ذاكرة مَنْ مِنْ بنى آدم تلك التى يمكنها أن تتذكر وقت بناء البيت الذى بناه آدم نفسه ؟!

الله ! الله ! فى هذه المدة الطويلة التى لا حساب لها ، وفى تلك الفترة الزمنية التى لا يمكن قياسها ، كم من دور عبادة بُنيت ثم اندثرت ؟! كم من بيوت عبادة النار بنيت ثم زالت من الوجود ؟! كم من البيع والصوامع شيدت ، ثم هُدمت ؟ وكم ؟ وكم ..؟ كم رأت الدنيا من انقلابات وثورات؟! وكم تعرضت السماوات لتغيرات ، وكم تساقطت مرتفعات ، وارتفعت منخفضات ؟! زالت حضارة روما ، وانتهت حضارة مصر ، وزالت حضارة الصين ، وانتهت حضارة الهند ، وزالت حضارة فارس ، وزالت حضارة بابل والكلدانيين ، ويعلم الله ! كم من الحضارات ازدهرت ثم انتهت ، وكم من الدول امتدت رقعتها وتوسعت ثم صغرت وتقلصت وتلاشت !

لكن فى رمال صحراء جزيرة العرب ، وبالقرب من البحر ، ووسط الهضاب والصخور والتلال والمرتفعات ، ووسط الوديان والأخاديد ، ظل هذا البيت الذى لم يبنه أى مهندس ، ولم يرفعه أى مقاول ، قائما ، بالرغم من حدوث مئات بل آلاف الفيضانات ، وآلاف التقلبات ، والزلازل التى لا حصر لها .. ظل هذا البيت صامدا ، لم يستطع أى أبرهة أن يهدمه ، أو يمسه بضر ، وبيت الله هذا الذى كان محل عبادة أولاد آدم وحواء هو اليوم على ما كان عليه من قبل ، محل عبادة أبناء آدم وبنات حواء !

لقد وردت عدة أقوال فى تفسير كلمة « مباركا » ، لكن بعد هذه البركة الواضحة الجلية ، بعد هذه البركة المشاهدة والمحسوسة ، لم تعد هناك ضرورة لأى تفسير. !

الكعبة المشرفة أول وآخر بيت وضع للناس:

« إن أول بيت » يعنى أول بيت عبادة على وجه الأرض ، لقد اعترف المؤرخون الرومان بأنه لا يوجد قبل « الكعبة » أى معبد على وجه الأرض ، وقد ذكر دوزى هذا أيضا ، كما أن مؤلفى دائرة المعارف البريطانية قد اعترفوا أيضا بقدم الكعبة ، وقد خرج ميور بنقده إلا أنه لم يستطع أن يقول شيئا سوى تأييد المؤرخين الرومان ، أما مارغوس فعداوته للإسلام معروفة ، وقد ظل يحارب الإسلام ، ووصل فى عدائه للإسلام إلى حد كبير ، لكن هذيانه لم يجد آذانا مصغية حتى من بين أهله وقبيلته وأتباعه .!

وظلت كلمة الحق قائمة حيث هى ، وهنا نذكر ما رواه على المرتضى إمام المؤمنين : « عن على ، قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله » (رواه ابن حاتم) وهذا ما اضطر الأعداء والمنكرون إلى قوله أيضا ، ثم من ذا الذى يجرؤ على إنكار ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم من أن بناء البيت الحرام كان قبل بناء بيت المقدس بأربعين سنة ؟!

فهذا أول بيت وهذا أيضا هو آخر بيت للعبادة ، عُمِّر فى ذلك الوقت الذى عُمِّرت فيه الدنيا ، وحين ينهدم هذا البيت ، تنهدم الدنيا كلها وتخرب .. فأى تفسير أوضح من هذا لقوله تعالى « قياما للناس » !

والبيت أيضا فى النهاية بيت من ؟! فنسبة المكان هنا هى إلى المكين .. بيت الله .. بيت من لا جسم له كأجسامنا ، وبيت من لا أثر له كآثرنا ، بيت رب السماوات والأرض ، بيت الله .!

هل هناك فى طول الدنيا وعرضها ، فى أى مكان أو أية بقعة منها بيت يسمى بهذا الاسم ؟! كم بنى الوثنيون قديما من معابد ؟! وكم زخرفوها وزينوها ، وكم من أصنام وضعوا فيها ، ليعبدوها ، واليوم فى عصر الجاهلية الثانية ، جاهلية هذا القرن ، حيث أقيمت معابد للعلوم والحضارة والمدينة باسم الكليات والجامعات ، وباسم المتاحف والمعامل وباسم الأكاديميات ودور الفنون .. كم بنوا من معابد ، وكم بنوا من بيوت أصنام عالية فى كل مكان وفى كل منطقة فى العالم ، أقاموا أعدادا لا حصر لها من دور للتماثيل والأصنام ، لكن يبقى بيت الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له ..

ولننظر إلى هذا البيت فى ضوء عظمة التوحيد ، فمكان هذا البيت فى واد غير ذى زرع ، لا ماء ، ولا طين ، ولا نبتة ..

ولنقلب صفحات التاريخ ، ولنلق بنظرة على سطح الأرض الواسعة بمساعدة الجغرافية ، هل يوجد أى بناء يطلق عليه اسم بيت الله غير هذا البناء ! ثم كيف يكون هذا البيت ؟ وما هى صفاته ؟ « هدى للعالمين » ! هدى للدنيا كلها ، يقدم درس الهداية لكل أمة ولكل بلد ولكل طبقة ولكل جماعة .. أنواره وبركاته وفيوضه وهداياته ليست مقتصرة على زمان واحد ، وليست مخصوصة لبلد واحد ، فهو خارج عن قيود الزمان ، وحدود المكان ، يمكن لكل من يريد ، وقتما يريد ، وحيثما يريد أن ينال من فيضه !!

هل هناك من يدعى ، ويثبت دعواه ، وهل هناك من يدعى أيضا أن هناك أى مكان فى الدنيا ، صدر منه هذا النداء بأن تعليماتى للدنيا كلها ؟

لقد ورد على صفحة هذه الدنيا علماء قانون ، ومشرعون ، ومفتون ، وجاء مصلحون كبار ، وكثير من العارفين والكاملين ، والأولياء والأنبياء والرسل ، بعضهم قاد خراف بنى إسرائيل الضالة ، وبعضهم نادى بالتوحيد فى الشام ، وبعضهم دعا دعوة الحق فى مصر ، وبعضهم كان يعظ فى الهند ، لكن أحدا لم يبلغ رسالة الهدى دون تفريق أو تخصيص ، فرسالة الهدى عامة لكل الأمم ، ولكل البلاد ، ولكل الدول ، ولكل زمان ، ولم تسمع رسالة الأمن والسلام إلى جميع الكائنات لا من معبد الهندوس ، ولا من معبد اليهود ، ولا من كنائس النصارى ، ولا من على منصة الكونجرس ، ولا من أى مؤتمر ، ولا من أى برلمان ، ولا من أى مجلس شيوخ .. ولا من ... ولا من .. حقا لم تسمع هذه الرسالة الموجهة إلى العالم والجاهل على السواء ، إلى الشرق والغرب على السواء ، إلى الأبيض والأسود دون تفريق ، لم تسمع إلا من هذا البيت.!

لقد أسمع صاحب الرسالة إلى الدنيا ، وصاحب المكان أعلن دعواه إلى خلقه من هذا المكان .. ومن له عيون يستطيع اليوم أن يرى ، ومن يضع غشاوة اليوم على عينيه سيرى فى الغد أن الهداية والروحانية ، وتصفية القلب وتزكية النفس وطهارة الباطن ، وحسن الترتيب ، نبع من هذا المكان، وانتشر وسيظل ينتشر حتى يوم القيامة .

خليل الله وبناء الكعبة :

بنيت فى هذه الدنيا المبانى بالآلاف وبمئات الآلاف ، قصور الملوك والوزراء ، وبيوت الرؤساء والنواب ، ثم تهدمت كلها وزالت ، وغطاها التراب ، وطمرها .. أين هى ملاعب كسرى ، وحمامات الروم ؟ أين هو قصر برتهى راج وإيوان تيمور ؟ لماذا غابت كلها عن الأنظار والعيون ؟ قد تقول اترك هذه ، فهناك تاج محل فى آكرا ، وبرج إيفيل فى فرنسا ، موجودان هناك حتى اليوم ، لا شك أنهما موجودان ، لكنهما موجودان مثلهما مثل لعب الأطفال ، وعرائس البنات ، لا مكانة لهما سوى أنهما أماكن للسياحة والنزهة ، والترويح عن النفس .. هل هناك تقديس واحترام فى قلب أحد لتاج محل وبرج إيفيل ؟ سوى أنهما مبنيان استهلكا أحجارا ورخاما وحديدا بمئات الآلاف ليس إلا !!

لكن انظر إلى هذه البساطة .. إلى بيت الله الذى يخلو من كل زخرف ، ومن كل تصنع وتكلف « مثابة للناس وأمنا » لا يزال قائما حتى اليوم منذ زمن يصعب تقديره وحسابه ، وهو مركز لأصحاب العقيدة ، ومحط تعظيمهم وإجلالهم !

يأتى هنا كل عام مئات الآلاف ، يقبلونه ، وتكتحل عيونهم بمرآه ، يطوفون من حوله ، يصلون ويسجدون ، ويبكون ، وينتحبون ، يتعثرون ويسقطون ، ثم يأتون بمئات الآلاف سنة من بعد أخرى يأتون ! ولا يتوقفون !.

أتذكر أنه بعد زمان آدم ، قام أحد أبناء آدم بتجديد هذا البناء ، من وضع هذه الأحجار بيديه ، ورفع هذا البناء عاليا؟ من ذا الذى بنى بيت الله هذا ؟ إن قصور الملوك إذا ما أريد بناؤها ، استدعوا لها كبار المهندسين ، وكبار الفنيين والمهرة؟ وإذا ما أراد حاكم بناء مقر له بحث عن أمهر المهندسين وأشهرهم .. فمن كان مهندس بيت الله ؟ من العامل الذى بنى بيت الله ؟ من حمل هذه الأحجار الثقيلة على كتفه لبناء بيت الله ؟ من خلط « الطين » و« المونة » بيديه لبناء بيت الله ؟ من ذا الذى حرق بشرته وسط صحراء جزيرة العرب ، برمالها الساخنة ، وسمومها المحرقة لبناء بيت الله ، دون طمع فى مال؟!

هل هناك من يجيب عن هذه التساؤلات ؟!

إن خالق العباد ، مالك هذا البيت ، قال عن العامل الذى بنى بيته ، ذاكرا اسمه واسم فلذة كبده:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٧)

والعمال حين يعملون يدندنون ، وحين كان عمال رب العزة يعملون ، لم يضعوا أقفالا على أفواههم ، لكنهم كانوا يناجون ربهم ، رب البيت ، يدعونه ، يطلبون منه ، يتوسلون إليه ، فإذا كانت أيديهم مشغولة بالبناء ، فقد كان رب البيت فى القلب ، كان فى القلب ذكر رب البيت ، وكان على اللسان اسم رب البيت ، كان هناك تواضع

وانكسار ، ومسكنة وتذلل، يضاف حجر فوق حجر ، ومع حرقة القلب وذوبانه، كانت العيون تترقرق بالدموع ، بينما اللسان بالذكر مشغول :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

العظمة لله وحده ! هذا شأن من يقدمون التضحية فى سبيل الله ، هذا شأن من سُمى بخليل الله ! لقد ضحى بنفسه ، ويضحى بنفسه ، وهو مع هذا يرتعد خوفا من ألا تقبل تضحيته !!

أجر بناء البيت :

إنك تقول ، وتعترف بأنه لا يوجد فى الدنيا مثل هذا البيت، لكن أخبرنا بالله ! هل يوجد بنّاء مثل بنّاء هذا البيت ؟ قدم التضحية لمالك هذا البيت !

لقد بنى سليمان بيت المقدس ، فاستخدم فى بنائه الجن، لكن لنر شأن هذا البيت ! إن العمال الذين بنوه ليسوا من جن سليمان ، بل كانوا أجداد أجداد سليمان ، ثم أى عامل من عمال الدنيا ، طلب الأجر الذى طلبه العمال الذين بنوا بيت الله؟! وأى عامل فى الدنيا نال الأجر الذى ناله عمال بيت الله؟!

إن ما طلبوه من أجر لم يكن من أجل أنفسهم فقط ، بل كان من أجلك ، ومن أجلنا ، ومن أجل الجميع ، الذين لا تتم صلاتهم ، ولا يمكن أن تكتمل دون الدعاء لهذا العامل الذى بنى مع ولده بيت الله :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٨)

لم يكن من الممكن أن يمر دعاء إبراهيم هكذا ، إن بناة البيت ينالون أجرا .. لكن زوار هذا البيت ، وطُواف هذا البيت ، والمسافرين القادمين إلى هذا البيت ، ومن هم

مرتبطون بهذا البيت ، ومن يعظمون هذا البيت ، ويحبونه .. ألا يمكن أن ينالوا شيئا؟!
.. ألا ينالون شيئا ؟! .. ألم ينالوا شيئا ؟! ..

الكعبة والبيت المعمور:

لا يجب أن يصاب أحد بالحيرة عن قدر باني هذا البيت ، وما ناله من عزة ، فالجميع يرى أن البيت ، بيت بركة وعزة، لكنهم ينسون أيضا كيف كان باني هذا البيت مباركا وعزيزا ، ونقيا وطاهرا ، وما أجمل ما قاله جلال الدين الرومى :

« تزداد الكعبة مع كل نفس من الأنفاس عزة

هذا كله من إخلاص إبراهيم عليه السلام

إن فضل هذا المسجد ليس من التراب والحجارة

لكن فضله كان بسبب قناعة من بناه وجدد العمارة »

وقد صدق الرومى تماما ، فما ترونه اليوم من تزايد فى قدر الكعبة وعزتها ، وفضلها ، إنما هو ثمرة إخلاص إبراهيم (عليه السلام) ، وصدق نيته ، فالحجارة هى الحجارة. والطين هو الطين ، الذى يُبنى به كل مسجد ، وكل بناء ، ولا يوجد شىء جديد ، نفس الحجارة ، ونفس الطين ، ومن بناه لم يكن مهندسا ، ولم يكن خبيرا فى فن المعمار ، ولم يكن ملكا ، ولم يكن وزيرا ، إنما كان إنسانا ، طهّر نفسه تماما ، وضحى بنفسه تماما ، حتى وصل إلى ربه ، وقد جاء فى بعض الروايات أن قبلة الملائكة فى السماء هى البيت المعمور ، وأنه يدور حوله فى كل وقت ستون ألف ملك! وهم لا يأتون فى اليوم التالى ، بل يأتى ملائكة آخرون بالعدد نفسه ، يطوفون ، وبيت الكعبة هو فى محاذاة هذا المكان بالضبط ، وتحت هذا المكان بالضبط .. فمن إذن يستطيع أن يقدر تجليات الرحمة هذه التى تنزل كل لحظة ، وكل آن ، من البيت المعمور إلى بيت الكعبة !

كانت هذه هى عين الخليل التى شاهدت تلك التجليات ، وتلك الأنوار ، فقام ببناء بيت الله من جديد فى المكان نفسه بالضبط الذى بناه فيه آدم (عليه السلام) من قبل ، ليشرك الجميع فى أمطار الرحمة والكرم ! « اللهم صل وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد »

الطواف تحت قيادة المطوف :

كان هذا هو البيت الذى بدأنا الطواف من حوله ، قادنا المطوف عبد القادر إسكندر إلى المطاف ، وبدأت القافلة كلها تطوف تحت قيادته ، كان الزحام شديدا ، بشكل ملحوظ ، لكن المطاف أيضا ، ما شاء الله !! كان واسعا ، لم يكن هناك أى داع لتدافع الناس وتصارعهم ، ولو تمالك الحجاج النجديون والحجاج البدو أنفسهم قليلا ، فلن يكون هناك زحام على الإطلاق ، والمطوفون أنفسهم لم يكونوا يحتاطون كثيرا لهذا الأمر ، فكانوا يدفعون الناس ، ويتدافعون ، فى محاولة منهم للتقدم إلى الإمام ، وعدا هذا الأمر ، فإن المطاف كله أمن وطمأنينة ، وهو مكان ممتع ومريح..

كان المطاف يعج بالشيوخ والشباب والأطفال والنساء ، والأصحاء والمرضى ، والأقوياء والضعفاء ، وبكل أنواع البشر .. كل منهم مشغول بحاله ، ويسمح للعجائز وغير القادرين ممن لا يستطيعون الطواف على أرجلهم أن يطوفوا فوق محمل شبيه بالسرير ، يحمله بعض الأجراء الشباب على رءوسهم ، وقد رأيت كثيرا من المرضى ، يحملون هكذا ، ويطاف بهم حول الكعبة .

لا مفر أمام الحجاج الجهلة إلا باتباع المطوف ، وحتى مع المطوف ، يجد هؤلاء أنفسهم لأول مرة مرتبكين ، وبخاصة فى الشوط الأول ، لكن بعد خبرة شوط واحد ، يزول هذا الارتباك ، ومن الأفضل ، والأحسن أن يطالع الإنسان بالضرورة مسبقا كتب

المناسك ، ومن ناحيتنا ، كنا مستسلمين تماما للمطوف ، من البداية حتى النهاية ، فهو الذى يحركنا منذ البداية ، وهو الذى يوقف حركتنا فى النهاية، وكنا نقوم بالرمــل والاضطباع وغير ذلك طبقا لإرشاداته وأوامــره : الشــوط الأول ، فالثانى ، فالثالث وهكذا ، وخلال نصف ساعة انتهت الأشواط السبعة ! وانتهى الطواف !

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة : ١٢٥) وهكذا اتجهنا ناحية مقام إبراهيم .

(٢٥)

ديار الخليل

مقام إبراهيم :

ورد ذكر اسم مقام إبراهيم فى القرآن الكريم فى موضعين ، لكن لا يمكن فهم معنى ﴿ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ دون حج بيت الله ، فالمعنى اللفظى لمقام إبراهيم هو مكان وقوف إبراهيم ، وقد ورد فى الروايات أن خليل الله حين كان يقوم ببناء الكعبة ، وحين بدأت جدران الكعبة ترتفع ، كان من الطبيعى أن يحتاج الخليل إلى شىء يقف عليه ، عندئذ أتى جبريل بحجر ، وقدمه للخليل ، فوقف عليه إبراهيم (عليه السلام) ، وبدأ فى رفع جدران الكعبة ، فكان الحجر يرتفع بالخليل كلما أراد الخليل أن يرفع الجدار أكثر فأكثر ، وكان ينزل به كلما أراد أن يحمل الحجارة ، وهذا الحجر مثله مثل الحجر الأسود ، لا يزال محفوظا حتى اليوم ، وقد جاء فى بعض الروايات أن آثار قدم الخليل ، وآثار أصابعه لا تزال مطبوعة عليه ، وقد اشتهر أن الحجر ليس من أحجار هذه الدنيا ، لكن جىء به من الجنة ..

لا تتحيَّروا كيف حفظ هذا الحجر ؟ لكن الحيرة الحقيقية هى كيف أن إبراهيم عليه السلام ، وهو من هذه الدنيا المادية ، وهو من هذا العالم الناسوتى ، وهو من عالم الماء والطين ، كيف لآثار قدمه وأصابعه ، التى هى من لحم وعظام ، أن تظل باقية محفوظة على هذا الحجر؟!

كم من الأشعة سقطت على هذا الحجر ؟! وكم من الحرارة الشديدة تعرض لها هذا الحجر... ؟! لم يكن هذا ليوم أو ليومين ، لم يكن أيضا لسنة أو سنتين ..؟! بل

بل كان على مر آلاف السنين .. ولا تزال العناصر الموجودة على هذا الحجر كما هى ، تعبر عن قوتها وتماسكها ، فهذا النقش لم يتلاش .. ولا بد أن نتساءل هنا : فى هذه الفترة الزمنية الطويلة .. ماذا بقى فى العالم من مبانى الحضارات المختلفة ؟! انهارت الحضارة الكلدانية وزالت ، وحضارة بابل صارت حكاية عبر الزمان ، والحضارة المصرية صارت دربا من الخيال والأحلام ، وانتهت حضارة روما ، وانمحت حضارة اليونان .. لم يبق دارا ، ولم يبق الإسكندر ، ولا هانيبال ، ولا قيصر ، ولا حتى جنكيزخان ، ومن يدّعون أننا سوف ننمحى من الوجود ، عليهم أن يأتوا هنا ليشاهدوا آثار القدم المباركة ، التى ظلت باقية ، لم تمح ، ولم تتلاش آثار قدم هذا الإنسان المبارك ، الذى كان قبضة من تراب ، وكان مطيعا لله فأطاعته جميع قوى الكائنات بإذن الله ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

آثار قدم الخليل :

كان هذا الحجر فى زمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بل فى زمان أبى بكر الصديق ، موضوعا فى مكانه الأصلى، متصلا بجدار الكعبة ، وقد ذكر شاه عبد العزيز الدهلوى فى تفسيره ، نقلا عن سنن البيهقى أن فيضانا حدث فى عهد عمر الفاروق (رضى الله عنه) ، فتحرك هذا الحجر من مكانه ، فبلغ ذلك عمر ، فحضر بنفسه ، ووضع الحجر فى مكان خارج المطاف على مسافة من جدار الكعبة ، ومن يومها والحجر فى مكانه .

ولا شك أن المكان الموضوع فيه الحجر، ليس مكانا واسعا ، وقد وضعت عليه شبكة صغيرة عليها قبة ، وهكذا حفظ الحجر بالداخل ، فقد كان كل شخص يصل إليه من قبل بحرية ، لكنه الآن موجود تحت هذه القبة ومن حوله شبكة ، ويمكن لسعيد الحظ أن يجد فرصة لمشاهدة هذا الحجر.

على الجانب الشرقى من نهاية المطاف يوجد محراب جميل ، مشيد بالحجارة ، يقال له محراب النبى ؛ لأن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان يأتى فى معظم الأوقات

من هذا الطريق ، وبالقرب من هذا المحراب ناحية الجنوب توجد قبة نفيسة جميلة جدا ، يوجد تحتها حجرة الحجر المبارك المتبرك الصغيرة ، ويطلق على هذا المكان مجازا اسم مقام إبراهيم ، وقد سمعت أن المسافة بين الحجر الأسود ، وهذا المكان تقدر بسبعة وعشرين ذراعا ، ويقال إن هذا الحجر ارتفاعه ثلاثة أصابع وعرضه اثنان ، وقد غُلف بالفضة ، وترك المكان الذى تظهر فيه آثار القدم المبارك على حالتها الأصلية ، ويأتى إليها آلاف الزائرين بشوق واشتياق حتى يشاهدوا - ليس قدم سيدنا إبراهيم بل - آثار القدم المبارك ، يشاهدوا بأعينهم ، ويحاولوا أن يلمسوها بشفاههم ، لكن الحكومة السعودية منعت هذا الأمر الآن ، فالشرطة تقف دائما ، تحرس المكان ، فكيف يمكن الوصول إلى حجرة القدم المبارك ، ومن يحاول من بعض الزائرين ، ممن شدهم الشوق ، الاقتراب من المكان ، لإطفاء جذوة الشوق فى القلوب ، عن طريق لمس قفل هذه الحجرة أو سلسلة بابها أو التقدم لتقبيلها ، فإن خيزرانة الشرطى ، ترتفع فجأة تحذره.!

تفسير « إنى جاعلك للناس إماماً » :

هذا هو ﴿ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، وقد سبق ذكر « بكة » أى مكة ، ووصفت بالمباركة ، وقد ورد ذكر وصف البيت بالمبارك فى البلدة المباركة ، وفى هذا البيت المبارك ، وفى هذه البلدة المباركة أعظم أثر ، وهو ﴿ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ولم يكتف القرآن الكريم بذكر هذا فقط ، بل ذكر فى موضع آخر بصيغة الأمر : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ، ونحن نعرف أن البيت كله جعل للصلاة ، وصحن الحرم جعل للصلاة ، والحطيم جعل للصلاة ، لكن حكم الله للمؤمنين ، وحكم الله لعباده المطيعين ، هو أن يسجدوا ، أن يضعوا جباههم على تلك الأرض التى شرفت وتطهرت بتراب قدم إبراهيم (عليه السلام) ..

الله .. الله ! كيف يعامل رب العزة أحبابه ..﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ هكذا وعد رب العزة إبراهيم (عليه السلام) أن يجعله إماما للدنيا كلها ، وللناس أجمعين ،

ولننظر إلى الوفاء بالوعد فى النهاية ! فعند مقام هذا الإمام يأتى جميع المصلين ، فيسجدون عند هذا الموضع .. عند مقام إبراهيم !

سوف يرى الجميع غدا ، كما يرى أصحاب البصائر اليوم أيضا ، وسوف يظل هؤلاء يرون لآلاف السنين أن الذى وجه فـؤاده وقلبه إلى واحد فقط ، وربط نفسه مع واحد فقط: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . ﴾ والذى ترك حضارة عصره ، ومدنية زمانه ، وعظمة قومه ، وشوكة أمته ، ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ينال إنعاما أىَّ إنعام !! ويستحق كرما أىَّ كرم!! وينال جائزة أية جائزة !! فهو اليوم « إمام العالمين » وهو أول من يرتدى حلة الجنة ... هذه السعادة كلها من نصيب من عمَّر بيت الله !

ونِعم « اليوم » يمكن تصورها مثل الفتات ، صغيرة ، لكن نِعم «الغد » لا يمكن لعقل إنسان أن يتصورها !

الانتهاء من الطواف :

طبقا لأحكام الفقه الحنفى ، فإنه يُصلى بعد الطواف ركعتان عند مقام إبراهيم ، تُقرأ فى الركعة الأولى سورة «الفاتحة» وسورة «الكافرون» ، وفى الثانية سورة «الإخلاص» بعد الفاتحة ..

لكن من له نصيب الآن ، وسط هذا الزحام ، فى الوصول إلى مقام إبراهيم ، إن الزحام الشديد من حوله لا يسمح بوجود مكان للصلاة ، وهكذا اضطررت للصلاة ركعتين فى المكان المتصل بمقام إبراهيم ، بينه وبين محراب النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) يصلى هاتين الركعتين كلما انتهى من الطواف (أى بعد إتمام أشواط الطواف السبعة) ولهذا فصلاة هاتين الركعتين واجبة عند الإمام أبى حنيفة ، بينما هى مجرد سنة عند الإمام الشافعى .

« اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى ، فاقبل معذرتى ، اللهم إنك تعلم حاجتى ، فاعطنى سؤالى ، وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى ، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى يقينا صادقا حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلا ما كتبت لى وأرضى بما قسمت لى يا أرحم الراحمين » .

رأى الفقهاء فى الصلاة فى مقام إبراهيم :

تذكر الروايات أن آدم (عليه السلام) كان قد دعا بهذا الدعاء ، وجامعية ألفاظه واضحة ، ولكن لكل مسلم الخيار فى أن يدعو الله بما يشاء ، من أجل حاجاته الدينية والدنيوية.

ابتلى كثير من الناس بارتكاب هذا الخطأ ، وهو الحرص الشديد ، بل شعورهم بوجوب صلاة الركعتين عند مقام إبراهيم ، وهذا ليس بصحيح ، فعبارة الإمام محمد (رحمه الله) واضحة تماما :

« ثم ائتِ المقام ، فصل عنده ركعتين ، أو حيثما تيسر عليك من المسجد » .

ويقول السرخسى فى شرحها :

« ومراده أن الزحام يكثر عند المقام ، فلا ينبغى أن يتحمل المشقة لذلك ، ولكن المسجد كله موضع للصلاة ، فيصلى حيث تيسر له » المبسوط ، المجلد الرابع ، ص ١٢ ، ط مصر .

وقد صرح الفقهاء الآخرون بمثل هذه التصريحات أيضا ، فجاء فى الكنز: « وبركعتين فى المقام أو حيث يتيسر من المسجد »، وجاء فى الهداية وفى السراجية : « فى أى موضع يتيسر عليه من المسجد الحرام أو غيره » . وإن صلى فى مقام إبراهيم فهو أفضل.

وقال القاضى خان : « يصلى بعد الطواف ركعتين عند المقام أو حيث تيسر له من المسجد ، وإن صلى فى غير المسجد جاز. »

ومن الجدير بالذكر أن جميع أعمال الحج يراعى فيها جميعا ألا تغفل حقوق العباد ، فى أدائهم لعبادة الله ، فلا يؤذى أى مسلم بأى نوع من الإيذاء قدر الإمكان ، فسفر الحج هو مدرسة لتعليم العبودية والإنابة ، وليس فى هذا السفر المبارك أى مجال للتغاضى عن راحة الآخرين أو النيل منها فى سبيل الراحة الذاتية ، أو فى سبيل أداء سنة معينة من السنن .

زمزم :

انتهينا من صلاة الركعتين واتجهنا إلى بئر زمزم ، ولا بد أن تكون كلمة زمزم أو بئر زمزم ، قد رنت فى أسماع كل مسلم ، وزمزم الآن على شكل بئر ، لكنه فى الأصل كان عين ماء .

إن خلاصة ما جاء ذكره فى الروايات الصحيحة ،هو أن إبراهيم (عليه السلام) بعد أن قدم من بلاد الشام ، ترك زوجته هاجر ، مع رضيعها إسماعيل فى مكة ، وبدأ العودة ، بعد أن ترك معها قليلا من الماء وبعض التمر ، فنفذ الماء وغلب العطش على الأم وطفلها ، وكان بالقرب من الصفا والمروة جبلان ، تحركت عاطفة الأمومة فى قلب هاجر ، فشرعت تبحث عن الماء عند الجبلين ، وأخذت تجرى هنا وهناك عدة مرات ، وبينما كان الرضيع مضطربا ، يضرب الأرض بقدميه ، تفجر الماء من تحته ..(١)

(١) روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : جاء إبراهيم بهاجر وبابنها إسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق بئر زمزم - أعلى المسجد - وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعها هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء .. فنفذ الزاد والماء ، وجف لبنها ، وكاد وليدها أن يموت جوعا .. فجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه .. ثم هبطت من الصفا حتى بلغت الوادى ، ثم أتت المروة .. فعلت ذلك سبع مرات ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا .. وإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتىّ ظهر الماء .. فشربت وأرضعت ولدها - انظر التفاصيل فى الحج فى القرآن لعبد الفتاح عاشور ص ٢٢

وهكذا شب ، وصار شابا وأصبحت عين الماء التى تفجرت من تحته قدميه ، عين فيض وهداية ، تطفئ العطش الروحانى للعالم كله ، فإذا كان ظهور متاع هذا الرواء المادى فى طفولته من بركة قدميه ، فلماذا يرتبك العقل ويعجز القياس !

وعلى كل حال فرحت هاجر فرحا شديدا ، وأخذت تفسح للماء طريقه حتى صار هذا الموضع بئرا ، وقالت وهى على هذه الحال : زم زم بمعنى انتظر.. انتظر ، وهكذا صار اسم هذا البئر ، بئر زمزم .. وهكذا التف الناس من حوله ، وظهر العمران .. وبعد فترة انطمس البئر ، ونسيه أهل مكة، وقبيل مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، شاهد عبد المطلب هذا البئر فى منامه ، وهكذا بدأ زمزم من جديد يروى عطش الدنيا .

وصف بئر زمزم :

وبئر زمزم الآن ليس مثل البئر العادى ، بل يبدو من الخارج بناء على هيئة حجرة ، تبعد عن جدار الكعبة ٣٢ أو ٣٣ ذراعا ، ويتكون هذا البناء من طابقين ، الغرفة الموجودة فى الطابق الأول تنقسم إلى قسمين : قسم فيه البئر ، والثانى هو المكان الذى يحفظ فيه الماء ، والبئر من الداخل والخارج مُغلف من الناحيتين بالمرمر ، وسطح الماء على عمق يصل مداه نحو سبعين ذراعا على الأقل ، وفتحة البئر واسعة جدا، واتساعها نحو أربعة أذرع ، أما محيطه فارتفاعه اثنا عشر ذراعا ، وهناك أربع رافعات لسحب الماء من الأطراف الأربعة ، وعلى سطح الغرفة أقاموا مكانا يملأ بالماء ، ومن أراد الحصول على الماء فيمكنه ذلك عن طريق الدرج العلوى ، وقد جعلت الجدران هنا بالحجارة السوداء ، وفى الطابق العلوى هذا وناحية الكعبة جعلوا مكانا فسيحا ، وهو مرتفع بطول قامة الإنسان ، وقد وضعوا شبكة قوية تحت سطح الماء بمسافة بسيطة ، خشية أن يسقط من الحجاج شىء فى البئر ، دون قصد ، فى أثناء تزاحمهم ، فإن سقط أمكن إخراجه فورا ، دون أن يصل إلى قاع البئر ، وتوجد قنوات متعددة لاستمرار تدفق الماء ، ويوجد الباب فى الجانب الشرقى ، وهو يغلق فى الليل ، بينما يظل مفتوحا طول النهار ، وكل إنسان له مطلق الحرية فى أن يخرج الماء بيديه، لكن

من يستطيع أن يفعل هذا فى موسم الحج ووسط هذا الزحام والتدافع ؟! أما الوصول إلى البئر وسحب الدلو بالماء فهذا له شأن آخر ! فالهمة لا تواتى أى إنسان ، ليدخل إلى غرفة البئر !

فضائل زمزم :

ذكرت فضائل زمزم فى الأحاديث الصحيحة بكثرة ، وقد ورد فى الحديث أن **« ماء زمزم لما شرب له »** ، وجاء فى حديث آخر أن ماء زمزم غذاء وشفاء ، وهناك رواية عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ، تشير إلى أن ماء زمزم أفضل ماء الدنيا ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس أنه إذا شربه المريض بنية الشفاء ، شفاه الله ، وإذا شربه بنية الإشباع أشبعه الله ، وإذا شربه أحد بنية إطفاء العطش أطفأ الله عطشه .

وقد كتب الأئمة والشيوخ من مثل الشافعي وعبد الله بن مبارك ، والحافظ بن حجر وغيرهم عن تجاربهم ، وخلاصتها أنه لمَا شُرِبَ له ، وقد كانت ماء زمزم محبوبة ومرغوبة من قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ومن الأفضل أن يشربها الإنسان كلما رغب ، وحين يشربها الإنسان يدعو الله بهذه الألفاظ المأثورة :

« اللهم أسألك علمًا نافعا ورزقًا واسعًا وشفاءً من كل داء »

ومن كرامة هذا الماء أن الناس يحملونه معهم فى قوارير وعلب ، ويحفظونه لعدة سنوات عندهم ، فلا يفسد ، ولا يتغير طعمه ، ولا تتكون فيه فطريات ، وهذه الفضائل كلها فى محلها .. لكن لذة ماء المدينة شيء آخر !! فماء زمزم ليست سيئة الطعم ، لكن فيها طعم قريب من الملوحة ، والعجيب أنك تشعر بأنه قريب من طعم الحليب ، ثم إنك إذا شربت منه القليل ، شعرت بالارتواء الكامل ، أما ماء المدينة، فحدث ولا حرج عن برودته ، وحدث ولا حرج عن حلاوته أو لذته ، إنك تظل تشرب ، وتشرب دون أن تشعر بأى امتلاء أو ثقل !

الصفا والمروة :

اقترب آخر وقت العصر ، حين انتهينا من الطواف ، ومتعلقاته ، وخرجنا من أجل « السعى » والمعنى اللغوى للسعى ، هو المشى بسرعة أو الجرى ، والسعى اصطلاحا يعنى طريقة السعى سبع مرات بين الصفا والمروة ، ففى البداية تقبل الحجر الأسود فى الكعبة ، ثم تخرج من باب بنى مخزوم أو أى باب آخر ، إلى خارج الحرم ، ثم تسعى سبع مرات ، فتبدأ بالصفا ، وتنتهى فى المروة .

كان الصفا والمروة فى وقت من الأوقات جبلين مرتفعين ، كانت هاجر تهرول ، صاعدة فوقهما ، وتنظر من حولها ، لعلها تشاهد قافلة قادمة من بعيد ، لتحصل منها على الماء ، والآن تغير الوضع تماما ، ولم يبق سوى تل مرتفع ..

بعد أن أتمت هاجر السعى سبع مرات ، بين الصفا والمروة ، بدأ الماء يفور تحت قدمى رضيعها ، وانتهى مسعى هذه الصديقة ، وهكذا فالسعى الذى يقوم به المسلمون هو تذكار لسعيها ، فانظروا إلى مرتبة أهل الله من الرجال والنساء ، فالطالب على هذا الطريق يصير مطلوبا!

انظر كيف يحفظ طرق وأساليب محبيه ! لقد سعت هاجر الصديقة فى حياتها سبع مرات ، وفى ذكرى سعيها هذا ، وخلال فترة ١٣٠٠ سنة ، انظر كم عدد الآلاف المؤلفة ، بل كم عدد الملايين الذين قدموا إلى بيت الله ، وسعوا سعيها نفسه ! وليأت أى عالم رياضيات أو عالم فى الحساب ليحسب كم سيصل عدد من سيأتون للسعى بين الصفا والمرة حتى يوم القيامة ! لا يتوقف الأمر على سنة بعد أخرى بل قرن من بعد قرن .. لن يتوقف القادمون للسعى على الدرب نفسه الذى سارت عليه هاجر الصديقة .

(٢٦)

العمـــرة

وصف المسعى :

فى الهند حين كنا نسمع عن الصفا والمروة ، أو حين كنا نقرأ عنهما فى الكتب ، كنا نتصور أنهما جبلان صخريان ، فى مكان قحل بعيد عن المدينة والعمران ، وأننا سنطوى مسافة طويلة حتى نصل إليهما ، وأن السعى بين الصفا والمروة - فى حد ذاته - سفر مستقل .

وظل هذا التصور قائما فى الذهن حتى وصلنا إلى مكة ، لكن اليوم زال سوء الفهم ، الذى ظل لسنوات فى أذهاننا ، فبعد المشاهدة على الطبيعة ، عرفت أن هذا التصور كان لا أساس له من الواقع .

كان الصفا والمروة فى زمن من الأزمان جبلين ، هذا لا شك فيه ، لكن اليوم لا يوجد سوى أثر هذين الجبلين فى شكل تلين مرتفعين ، يوجد فوقهما بعض آثار صخرية تدل على طبيعة الجبلين ، والمبانى المقامة من حول هذين التلّين المرتفعين أكثر ارتفاعا منهما، ثم إنهما ليسا فى مكان بعيد عن العمران بل فى وسط المدينة ، وفى « صرة » المدينة داخل العمران ، كما أن المسافة بينهما وبين الحرم الشريف لا تُذكر ، فكأنك تخرج من باب لتدخل إلى مكان آخر فتجد الصفا أمامك ، وإذا خرجت من الباب الآخر وخطوت عدة خطوات ، وجدت المروة أمامك ، والمسافة بين الصفا والمروة حيث يكون السعى ، تصل إلى فرسخين على الأقل ، والمكان الذى تطوى فيه هذه المسافة ، والطريق الذى تمضى عليه يسمى « مسعى » أى مكان السعى .

وهو ليس بمكان قحل أو موحش ، لكنه فى أكثر بقاع المدينة بهجة ، وفى أكثر الأماكن رونقا وضياء ، فأنت تشاهد شارعا واسعا ، ومرصوفا ، كما تشاهد مظلات تظلل المكان ، تمتد على مرمى البصر ، ومن ناحية أبواب الحرم ، وعلى الناحيتين تقريبا ، توجد محلات بها جميع البضائع والمستلزمات الضرورية ، من أكواب العصائر والمشروبات إلى « جِرار » الماء البارد .

ولا تشعر وأنت تسعى أنك تؤدى نوعا من أنواع العبادات ، بل تشعر كأنك فى « ميدان تشاندنى » فى مدينة دهلى أو فى « ميدان أمين آباد » فى مدينة لكهنو .

زحام البشر والإبل والسيارات :

قارب وقت العصر على الانتهاء ، حين كنا قد تركنا الحرم ، ووصلنا إلى الصفا ، وبدأنا السعى بقيادة المطوف ، والسعى بين الصفا والمروة لسبعة أشواط ، مثل المشى مسافة ميلين تقريبا ، وهى مسافة بالنسبة لكثير من الناس مرهقة وشاقة ، وبخاصة فى فصل الصيف ، وبين الزحام الشديد والتدافع بين الناس ، لكن الشريعة لم تأمر بأن يكون السعى متواصلا ، فللمسلم أن يستريح إذا شعر بالتعب ، وله مطلق الحرية فى أن يجلس أيضا ، ومن يشعر بالمشقة فى المشى لمسافة طويلة يرخص له بأن يسعى فوق عربة ، وأفضل شىء لهذا الأمر هو « الشبرى » وهو مثل السرير ، يمكن للمريض أو العجوز أن يرقد فوقه براحة وسهولة ، ويوجد هنا « حمّالون » يحملونه على رءوسهم أو أكتافهم بكثرة .

وقت المساء هنا هو وقت البهجة والشباب ، بالنسبة للمحلات التجارية ، بالإضافة إلى أن عددا كبيرا من الحجاج يتجنبون السعى فى النهار ؛ نظرا لشدة الحرارة ، فيخرجون للسعى فى هذا الوقت ، ولهذا يصل الزحام بالطبع إلى منتهاه، فمن خلفك ومن أمامك ، وعلى يمينك ، وعلى يسارك خلق كثير ، وبالإضافة إلى زحام الإنسان تجد صفوفا من الجمال ، لا يمكن مواجهتها ، وهى تستمر هكذا لخمس عشرة دقيقة أو لعشر دقائق ، وعليك أن تفسح لها الطريق تماما ، وأكثر من الزحام تلك المواكب

الرسمية التى تطلق أبواقها وصفاراتها ، بل صرخاتها ، تريد أن تمر بسرعة عبر هذا الزحام الشديد ، وأكثر تعبا من الجمال والسيارات ، تلك القبائل القادمة من نجد والبادية ، فجماعاتها تشكل صفوفا عديدة من الرجال والنساء ، يمسكون بأيدى بعضهم بقوة ، كأنهم سلاسل مسلسلة ، بل جنازير مجنزرة ، وينطلقون بسرعة دون داع أو سبب ، فيقتحمون جموع الناس ، وحين يأتون ناحيتنا كنا نشعر بأن قلوب الحجاج أصحاب الأجسام النحيفة الضعيفة ، سوف تتوقف من الخوف والهلع ، فيبتعدون يفسحون لهم الطريق ، وإلا تحولت عظامهم الضعيفة إلى « كفتة » .

أما الشرطة السعودية وهيئة الأمر بالمعروف ، ممن كانوا يعملون بجد ونشاط عند الروضة النبوية فى المدينة المنورة ، وممن يمسكون بالعصى والخيزران ، يرفعونها طول الوقت ، فلا وجود لأحد من رجالها هنا ، ولا وجود لمن يقوم بتنظيم الطريق هنا ، أو الحفاظ على الأمن فى هذا الجمع الكبير ، أو حمل الجرحى ، أو دفع مظالم الجبارين الأقوياء عن المساكين والضعفاء ..

لا يوجد أى حرس من شرطة الحكومة هنا .. فقد جعلت عظمة المكان وجلالة قدره وكرامته العالية السقوط على الأرض والإصابة شيئا نادرا بحمد الله ، وإلا فالأسباب الظاهرية والقرائن تدل على غير ذلك !

طريقة السعى :

وردت طريقة السعى فى كتب الفقه الحنفى هكذا : أن تذكر الله وأنت تخرج من الحرم الشريف ، وتصلى على نبيه ، وتبدأ فى الصعود إلى الصفا ، فتنوى فى قلبك نية السعى ، ومن الأفضل أن تقول بلسانك : **« اللهم إنى أريد السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط لوجهك الكريم فيسره لى ، وتقبله منى »** .

وتصعد على مكان مرتفع حتى ترى الكعبة ، ولا ضرورة إلى الصعود أكثر إذا ما شاهدت الكعبة ، ثم توجه وجهك شطر الكعبة ، وتكبر وتهلل وتصلى على النبى

(صلى الله عـليه وسلم) ، وتدعو الله بما تشاء ، فـهذا موضـع استجابة الدعاء ، ويمكن أن تبقى هـنا بعـض الوقت الذى يكفى لقـراءة حـزبين أو ثلاثة أحـزاب من القرآن الكريم .

أما الأدعية المأثورة والمنقولة هنا فهى كثيرة ، ومعظمها أدعية طويلة ، وهذا دعاء مختصر يقال فى هذا المكان : **«الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحى ويميت وهو على كل شيء قدير ، لا إله الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . »**

وبعد هذا الدعاء تنزل من الصفا ، وتقول : **اللهم استعملنى نسبة نبيك (صلى الله عليه وسلم) ، وتوفنى على ملته وأعذنى من معضلات الفتن برحمتك يا أرحم الراحمين .»**

ثم تبدأ فى السير ، وبعد مائة وخمسين أو مائتى قدم ، يبدأ الوادى الذى هرولت فيه هاجر الصديقة عليها السلام ، وهنا يجب أن تسرع فى السير وتهرول ، ولا يعنى هذا أن تجرى بسرعة ، مثلما يفعل بعض الجهلة ، وطول هذا الوادى طبقا لما ذكر ٧٥ ذراعا ، وعند بداية الوادى ونهايته وضع حجر أخضر اللون يدل على البداية والنهاية ، ويقال لهما « ميلين أخضرين » ويمكن لأى حاج عامي أن يتعرف عليهما دون حاجة إلى سؤال المطوف ، وليهرول بين هاتين العلامتين ، ثم يتابع بعدها سيره المعتاد .

والمسعى أصلا اسم لهذا الوادى ، والأدعية التى يعلمها المطوفون للناس بين الميلين الأخضرين أدعية طويلة ، لكن إذا دعوت فقط بما يلى فهو كاف :

« رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم .»

وعند صعود الصفا والمروة تقرأ الآية الكريمة : ﴿ إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللَّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ . ﴾

الانتهاء من السعى :

السعى فى المذهب الشافعى فرض وركن من أركان الحج ، وبغير السعى لا يكون الحج ، والسعى فى الفقه الحنفى ليس بفرض ، لكنه واجب ، وسنة مؤكدة تماما ، والسعى سبعة أشواط ، لكن إن سعى شخص أربعة أشواط ، فقد أتم السعى، مع أن هذا ليس بمستحب ، وأقل من أربعة أشواط لا يعد سعيا ، وليس من الضرورى أن يكون الإنسان على وضوء ، لكنه مستحسن ومستحب كثيرا .

وعلى الإنسان أن يتم سعيه بحضور قلب ، وأن يشغل نفسه بالدعاء والمناجاة ، والتحدث فى الأمور الدنيوية بلا ضرورة مكره ، ومع أن الطعام والشراب ، والشراء والبيع كله جائز ، لكن الاهتمام بأية منها دون ضرورة هو تضييع لفرصة ثمينة ، ووقت غال ، إلا أنه من الصعوبة الشديدة ، فى وجود مثل هذه الحوانيت المملوءة بالبضائع والمغريات والمشهيات ، لكن على الإنسان أن يستحضر قلبه ، وأن يظل للقلب حضوره ، وعليه على كل حال أن يبذل من جانبه ما يستطيع ، وأن يحاول أن ينال الأجر والثواب كاملين .

ينتهى الشوط السابع فى السعى عند المروة ، بعدها يجب الذهاب إلى الحرم الشريف ، والصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم كما حدث بعد الانتهاء من الطواف .. وهكذا ينهى المعتمر عمرته .

ويجب على من نوى الحج متمتعا أن يخرج من الحرم الشريف ، ويحلق شعره أو على الأقل يقصر ، ويحل إحرامه، وينتظر الحج ، ومن نوى حج القِران يظل على إحرامه ولا يحلق شعره ولا يقصره .

زيارة المدرسة الصولتية :

بينما كنا نسعى حان وقت صلاة المغرب ، فأذن المؤذن لصلاة المغرب ، ووقف المصلون فى الحرم للصلاة ، فتركنا السعى دون أن نكمله ، وأسرعنا لنصلى المغرب مع

الجماعة .. كيف نجد مكانا فى الحرم ، أو حتى على السلالم ؟! وجدنا مكانا فى الشارع ، وصلينا وانتهت الصلاة بشكل أو بآخر ! بعدها عدنا إلى المسعى ، حيث أكملنا بقية الأشواط .. انظروا ! لقد عقد رفاقى النية مثلى على حج التمتع .. انتهت عمرتهم جميعا ..

آه ! لا تسأل عن الفرحة التى غمرتهم فى ذلك الوقت ! فالانتهاء من العمرة كان يعنى حصولهم على كنز ثمين .. يضحكون .. ويبتسمون .. وجوههم مستبشرة .. يبارك الواحد منهم للآخر ، كانوا قد جاءوا من سفر طويل ، انشغلوا بالطواف والسعى ، أصابهم التعب الشديد ، لكن سرور القلب أزال كثيرا من تعب الجسم ، وأطفأنا العطش بكوب من « الشربات » المبرد بكمية كبيرة من الثلج .

فى ذلك الوقت وعلى ضوء مصابيح الكهرباء ، وفى حانوت حلاق كله أبهة ، وزخرفة ، وزينة ، حلقت شعر رأسى .. كان قد مضى على وقت المغرب نصف ساعة أو ساعة إلا الربع ، وكان لا يزال أمامنا وقت كاف حتى العشاء .

فكرت فى أمر رباط حيدر آباد ، فالمكان ضيق ، وهو بالنسبة لأهل القافلة مثل « عشة » صغيرة أو مثل كوخ صغير، وهكذا فكرت أين يمكن أن نقضى الليل فى مكان يسمح الجميع بالراحة ، وخاصة النساء اللواتى اعتدن على النوم فى الفناء فى فصل الصيف .. لماذا نحبس هؤلاء المسكينات داخل الغرف المغلقة ، التى تفتقر تماما إلى التهوية ، وشعرت برغبة أكيدة الآن - رغما عنى - فى النوم ، لكن لا زال علىّ واجبات ، فصلاة العشاء لم تحن بعد ، بالإضافة إلى شعور القلق الذى ينتاب من معى.

هكذا أخذت أحد المرشدين واتجهت إلى بيت مولوى محمد سليم (المدرسة الصولتية) وكنت قد خبرت إخلاصه وحسن أخلاقه ، فقابلنى بلطف وترحاب وكرم ، وكأننى أعرفه ليس من اليوم فقط بل منذ سنوات ، وفى ظلمة الليل اصطحبنى إلى المدرسة ، وفتح المبنى الجديد للمدرسة وأخذ يفتح باب كل غرفة فى الطابق العلوى ، وفى الطابق الأرضى، ويقول لى بإصرار : لا بد أن تأتى وتقيم هنا !!

ماذا أقول عن مبنى المدرسة ؟! ما شاء الله ! مبنى واسع جدا ورحب ، لو انتقلت هنا لوجدت فسحة من المكان ، وأكثر من هذا حسن خلق من يتولى أمر هذا المكان وكرمه ، فهو لا يتوانى لحظة عن خدمتنا والسعى إلى توفير أسباب الراحة لنا ، لكن المسافة بين الحرم والمدرسة مسافة طويلة جدا ، وأنا أدرك أن مدة الإقامة فى مكة المكرمة قصيرة جدا، ولو استمحت العذر لنفسى ، وتعللت ببعد المسافة ، ولم أتمكن من الصلاة معظم الصلوات بالحرم ، فإننى بهذا أحرم نفسى من سعادة ، لا أستطيع الحصول عليها فيما بعد ، لهذا لم أستطع أن أعد مولوى سليم بأن أنتقل إلى المدرسة ، وشكرته من صميم قلبى ، وانتهى اللقاء وعدت من حيث أتيت .

العلامة الشيخ محمد شفيع الدين الهندى :

إن أرض الحرم الطاهرة ، لا تخلو الآن من الشيوخ الطيبين ، ومن الرجال الأطهار ، فإذا لم يوجد أحباب الله فى مدينة الله ، فأين عساهم يوجدون ، يعلم الله كم يوجد من أحباب الله فى كل ركن من أركان هذا البلد الأمين!

لهذا فكرت فى أن أزور على الأقل أحدهم .. ومما يزيد من سرورى وغبطتى أن هذا الحبيب لا ينتمى فقط إلى وطنى بل إلى محافظتى ، محافظة « يو بى » فمولانا محمد شفيع الدين من سكان مركز « بجنور » .

كان قد هاجر إلى مكة المكرمة منذ ٤٨ سنة ، وغلب عليه حبه لبيت الله حتى نسى بيته وبلده ..

انظروا ! نصف قرن من الزمان ، ولم يفكر فى العودة إلى بلده ، ولو مرة واحدة !! قضى كل عمره متجردا من كل شىء .. لا زوجة ! ولا أطفال ! كان قد تتلمذ على يد شيخ المشايخ شاه إمداد الله المهاجر المكى ، وهو من أجل خلفائه الآن ، وقد سمعنا من راو ثقة ومعتبر أنه ما صلى أى فرض طول هذه المدة الطويلة خارج الحرم الشريف ، ليس هذا فحسب بل كان يصلى فى جماعة ، وأكثر من كل هذا أنه لم يترك الصف الأول فى الجماعة ...

من لا يغبط هؤلاء المحظوظين على حظهم !! لكن هذا هو دين الله !! وهذه الساعة لا تؤخذ بقوة اليد والساعد !!

فالجمع بين العلم والفضل ، والزهد والتقوى ، والفقر والسلوك ، لا يزال باقيا فى خلفاء حضرة حاجى إمداد الله ، لكن حين أتذكر أننا فى زمن القرن العشرين الميلادى ، فى زمن الدجال ، فى الزمن « اليأجوجى » ، فلا بد أن تتملكنى الحيرة على وجود مثل هذه الشخصيات ! يعلم الله كم حجة أداها مشيا على الأقدام ! كم من الفرائض ! وكم من الواجبات ! وكم من النوافل ! ، وكم من المستحبات!! وكم ! وكم ! ..

ربما ترك الحج سنة أو سنتين فى مدة نصف قرن ، وقد أدى الحج كل سنة ، وقد عانى من الفقر ، ومن الفاقة فترات طوال ! لدرجة أنه عاش على الخبز الجاف والماء شاكرا الله راضيا بما قسم له !

لقاء العلامة الشيخ محمد شفيع :

على كل حال هذا ليس مجال تفصيل الكتابة عن مناقبه وفضائله ، لقد كتبت هذه السطور فقط للتعريف به ليس إلا .

بعد أن رجعت من لقائى بمولوى سليم صليت العشاء فى الحرم ، وبرفقة أحد المرشدين اتجهت للقاء الشيخ الجليل الذى كان يقيم عند باب الصفا ، على بعد خطوات معدودة من الحرم ، لا تسأل عن حسن الخلق ، ووفرة الكرم ، إنه نموذج مجسم للكرم والفضل ، كان يحاول جاهدا ، إخفاء حاله وكماله ، وقد أبلغته سلام بعض شيوخ الهند من أقرانه السابقين الذين يساوونه فى المرتبة ، وأبلغته رسائلهم ، وطلبت منه أن يدعو لهم بالخير ، لم يكن قلبى يطاوعنى فى مغادرة مجلسه ، لكنى استأذنت حتى لا أقلقه ، ورجعت إلى حيث مقر إقامتى ، رباط حيدر آباد ..

هل كانت هناك فرصة لأخلع رداء الإحرام ! رجعت إلى البيت فخلعت رداء الإحرام ، وارتديت ملابسى العادية ، عندها بدأ الإحساس بالتعب والإرهاق من جراء السير والجرى تحت أشعة الشمس ..

وجدنا نحن الرجال مكانا على السطح ، وكان على الزوجات المسكينات المرافقات لنا أن يقضين الليل داخل الغرف ، أما العلامة الشيخ مناظر أحسن فكان كما هو دائما متواجدا فى كل مكان ! كان هو « العمدة » .. لقد ترك القافلة كلها ووصل إلى الحرم الشريف .. وهناك نام فى صحن الحرم الشريف .. لكن ماذا جرى ؟ إن ما يريد أن يخفيه من أحواله لا يمكن لخادمه الأمين أن يكشف عنه !!

(٢٧)

بــــدء الحـج

خطيب الحرم :

اليوم الخميس السابع من ذى الحجة ، لم يكن لدىَّ مشاغل خاصة اليوم ، فقد أديت العمرة بفضل الله ، وأنتظر الآن أداء أركان الحج ، أعلن نهار اليوم فى الحرم الشريف أن بعد غد التاسع من ذى الحجة سيكون اجتماع الحجاج فى عرفات ، واليوم بعد الظهر خطب الإمام فى الحرم خطبة ، شرح فيها مسائل الحج ..

من هو المحظوظ الذى تكون لديه همة لسماع تلك الخطبة بشوق ، فى حر الظهيرة الشديد ؟! ثم أين يجد مكانا قريبا من الخطيب وسط هذا الزحام ، حتى يتمكن من سماع الخطبة ؟! ولو زاحم ووجد مكانا بين الناس ، فكم من الهنود يمكنهم أن يفهموا لغة الخطيب ، ومع كل هذا فلا يجب أن يضيع الإنسان فضيلة سماع الخطبة ، مهما كان ذلك ، فشرف اتباع الرسول وأصحابه يكمن فى هذا ، ثم يعلم الله كم من عباده المختارين هنا بين هذه الحشود الضخمة ، فأى ضرر فى مجالستهم !

انتهت الخطبة فى وقت قصير ، وكان الطواف ، والصلاة ، والتلاوة دون انقطاع ، ليل نهار ، فى كل وقت وكل آن ، وأبواب الحرم مفتوحة على الدوام ، تأتى حينما تشاء ، وكيفما تشاء ، ووقتما تشاء ، وتنشغل بالصلاة كما تشاء ، وتستمر فى الدعاء كما تشاء ، وتناجى ربك بما تشاء.

من كان من قافلتنا له نصيب فقد حضر ، وقد شاهدنا عدداً كبيراً من حجاج بلادنا ، واستمرت لقاءاتنا بهم لفترة طويلة .

غدا سنذهب إلى منى وعرفات .. لهذا سيبدأ الاستعداد للذهاب فى المساء !

الحطيم وميزاب الرحمة :

سبق أن ذكرت حج القِران ، فمن نوى حج القران لا يزال بإحرامه ، وهو ليس بحاجة إلى إحرام جديد ، أما بقية الناس فقد أحرموا فى صباح يوم الثامن من ذى الحجة ، وعليهم التحرك ، لكن لو أحرموا قبل ذلك فهو أفضل ، وقد كتب الفقهاء أنه مستحسن ، وكان مولانا شفيع الدين قد ذكر هذا بشكل خاص ، فقال إن الإحرام يكون فى ليلة ما بين يومى السابع والثامن ، بعد العشاء فى الحرم الشريف ، بل فى الحطيم ، وربما لم يأت ذكر الحطيم من قبل ، والحطيم داخل المطاف ، وهو اسم للصحن الشمالى للكعبة ، وهو محاط بجدار على شكل قوس ، والحائط عريض وارتفاعه أقل من طول الإنسان ، ويمكن رسم هذا الشكل لإيضاح موقعه .

—

الحطيم (— الكعبة

كانت هذه القطعة من الأرض ضمن بناء الكعبة ، الذى بناه خليل الله ، وحين أرادت قريش تجديد بناء الكعبة ، لم يكتمل البناء لنقص بعض المواد ، واستقر الرأى على وجوب البناء على مساحة أقل مما كان عليه البناء الإبراهيمى ، وهكذا تركت هذه المنطقة ، وأحيطت بجدار ، والمعنى اللفظى للحطيم هو « قطعة » ، ولأن هذه الأرض كانت قطعة من الكعبة لهذا أطلق عليها أيضا حطيم .

قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعائشة ذات مرة ، وددت لو أعيد الحطيم إلى داخل الكعبة ، لكن قريشا اضطربت وظنت أنه يخالفها فى كل شىء ، ولهذا لم يكتمل هذا العمل ، وأراد أحد الخلفاء العباسيون فى زمانه ، أن ينال السعادة بتحقيق هذا العمل المبارك ، الذى كان يريده الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فاستفتى فى ذلك الإمام مالك ، فقال الإمام مالك : « إن فعلت هذا فستصبح الكعبة ملعبة للملوك

والسلاطين ، ويمكن لكل ملك أن يجد لنفسه سندا ليفعل بالكعبة ما يريد ، ولهذا ليس من المناسب فعل هذا الأمر . »

وهكذا بقى الحطيم على ما هو عليه ، وهو أقدس مكان فى الحرم المقدس ، يطاف حوله مثل الطواف حول الكعبة ، والصلاة بداخله تساوى الصلاة فى داخل الكعبة ، لأنه حكمًا يعد جزءا من داخل الكعبة ، والاسم الثانى للحطيم هو « حجر » وفى رواية أن الصديقة هاجر، وفلذة كبدها إسماعيل مدفونان تحت هذه الأرض ، والله أعلم بحقيقة الحال .

أما ميزاب الرحمة الموجود فى الجهة الشمالية على سطح الكعبة ، فيُصبُّ ماءه فى الشتاء على الحطيم ، وهو محل إجابة الدعاء ، وقد ذكرت الكتب دعاء يقال بهذه المناسبة :

« اللهم إنى أسألك إيمانا لا يزول ، ويقينا لا ينفذ ، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليك وسلم ، اللهم أظلنى تحت ظل عرشك ، يوم لا ظل إلا ظل عرشك ، واسقنى بكأس محمد (صلى الله عليه وسلم) شربة لا ظمأ بعدها أبدا ».

الاستعداد للرحيل إلى مِنَى وعرفات :

لقد ورد ذكر الحطيم وميزاب الرحمة هنا ضمنا ، لكن نعود إلى ما كنا نتحدث عنه .

كان من الضرورى أن نعمل ولو بجزء مما ذكره العلامة شيخنا على كل حال ، وأقصد الانتظار لطلوع فجر يوم الثامن من ذى الحجة حتى نحرم ، بل نحرم فى الليل ، ولا شك لم يكن من نصيبنا الإحرام فى الحطيم ، فالإحرام فى ذلك الوقت لم يكن مقتصراً على جماعتنا فقط ، فبين صلاة المغرب والعشاء شوهد عدد كبير من المحرمين داخل الحرم.

الشغدف :

اليوم بعد العصر قدم لنا مطوفنا عبد القادر إسكندر جميع الإرشادات الضرورية ، فيما يتعلق بسفر الغد ، وطلبنا منه أن يجهز لنا - نحن الستة عشر - ثمانية جمال ، ومن تدربوا واعتادوا على ركوب ظهور البعير ، أو حتى مجرد وضع أنفسهم عليها ، يمكنهم السفر في راحة واطمئنان ، لكن من أين تكتسب تلك الخبرة ؟! وكيف يمكن التعود على هذا الأمر؟! فمثلنا يناسبه أكثر ركوب « الشغدف » .

الشغدف مثل السرير الكبير ، يمكن للإنسان متوسط الجسم والطول أن يرقد فيه ، ويركب في كل شغدف اثنان في ناحيتين عن اليمن وعن الشمال ، كأنهما كفتا ميزان ، وهناك مظلة لحماية الراكب من أشعة الشمس ، وهي تحيط بالجوانب الأربعة ، فيصير الشغدف مثل الهودج ، ولو كان الشغدف مربوطا بطريقة جيدة ، واعتدلت فيه الكفتان ، فإنه بلا شك وسيلة مريحة للسفر، فالراكب لن يشعر حتى بالاهتزاز الناتج عن حركة البعير في أثناء المشي .

سوف نقيم في منى يوم الثامن ، ونقيم نهار يوم التاسع في عرفات ، وفي الليل نصل إلى المزدلفة ، ثم نعود إلى منى أيام العاشر ، والحادى عشر، والثاني عشر .

في منى وعرفات يبقى عامة الناس المساكين في العراء ، وهكذا يقضون هذه الأيام ، أما نحن الباحثين عن الراحة ، فلا يمكننا ذلك ، فاتفقنا على تجهيز خيمتين كبيرتين بحيث تتسع كل خيمة لتسعة أو ثمانية أشخاص .

أعطيناه أجرة الشغدف مع الجمال ، وأجرة السلم الذى نصعد عليه للركوب ، أما أجرة الخيام فقد سلمناها للمطوف دون نقاش ، وتركنا له اختيار كل شيء على هواه ! فكان أجر الخيام في الغالب مضاعفا .

من ضروريات السفر الأولى « جرار الماء » ، لهذا اشترينا « جرتين » لكل جمل ، ومن ضروريات السفر أيضا الفرش البسيطة للنوم ، ثم أشياء معقولة للطبخ ، وكذلك ما يفرش في الخيام ، وأواني لصب الماء ومصابيح وملابس تلبسها في منى ، بعد ذبح الأضحية ، وبعد الغُسل ، ثم طعام الإفطار ، وأهم من كل هذا الموقد (للطبخ) .

يوم التروية :

جهزنا كل هذه الأشياء فى الليل ، ورتبناها حتى نخرج فى الصباح الباكر دون تأخير ، جلس المطوف فى الحرم ، وكان قد قال مرددا قوله أكثر من مرة : الموعد أمام بيت الله ، ثم قال بلهجة واثقة : بعد صلاة الفجر ، قبل طلوع الشمس ستأتى الجمال على الباب للتحرك ، واطمأن كل منا بقدرة قادر إلى هذا الوعد .

يوم الجمعة الثامن من ذى الحجة ، يطلق على هذا اليوم اصطلاحا « يوم التروية » ، اليوم هو اليوم المبارك الذى تمضى فيه قوافل الحجيج من مكة إلى منى وعرفات ، وأفضل وقت للتحرك – وهو المسنون – بعد صلاة الفجر عند شروق الشمس ، فقد صلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع جماعة الصحابة صلاة الفجر فى الحرم .

المطوف والوفاء بالعهد :

رجعنا بسرعة إلى مكان إقامتنا ، كان المطوف قد وعدنا بوصول الجمال قبل طلوع الشمس ، وخشينا أن يكون الجمالون الآن فى انتظارنا ، لكن حين وصلنا إلى المكان المحدد ، لم نجد لا الجمل ولا الجمال ! ولم نجد المطوف ! فانظروا !

أشرقت الشمس ، وارتفعت فى السماء .. لماذا لم تأت الجمال حتى الآن ؟! بدأنا نفتقد نسيم الصباح ، وبدأت أشعة الشمس المحرقة تلسع وجوهنا ، فأخذنا نحاول تجنبها ، وهكذا بدأت لذة السفر تتحول إلى مرارة .. لنترك خسارة أجر اتباع السنة ، فهذا شأن آخر ! فقد كنا قد قررنا ألا نتناول الشاى أو طعام الإفطار ، لكن انظروا انتهينا من تناول طعام الإفطار ، وانتهينا أيضا من الشاى ، ولم يظهر أثر للجمال ! من كان يدرى لعل المطوف كان يدرب نفسه فى هذه المناسبة على مثل هذا السلوك علينا نحن الأغراب !

أخذنا نتطلع مرة من بعد مرة بعيون مضطربة ناحية أبواب الحرم ، كما هرولنا أكثر من مرة ناحية الشارع ، لكن لا أثر للمطوف ، ولا أثر حتى لأحد صبيته أو وكلائه..

مرت من أمامنا فى هذا الشارع مئات بل آلاف الجمال ، لكننا كنا نتجرع مرارة الحسرة والحرمان ، ولا شيء غير ذلك .

عذر أقبح من ذنب :

كانت الساعة الثامنة أو الثامنة والنصف بتوقيت الهند .. كم صارت الساعة الآن ؟! صارت التاسعة والنصف ، ثم العاشرة ، وما زلنا ننتظر !

كنا فى منتصف شهر مايو ، تحت أشعة شمس جزيرة العرب المحرقة ، فأى سفر هذا الذى يمكن أن يطويه الإنسان فى هذه الظهيرة المحرقة ؟ كان هذا التفكير يسيطر علىّ وأنا أقف وحيدا ...

لو توقف الأمر عند هذا الحد فهذه غنيمة كبرى ، لكن الخوف كان من أن يأتى علينا وقت صلاة الجمعة ، وتضيع منا الصلاة هنا فى الحرم وهناك فى منى أيضا !

يجب التحرك قبل زوال يوم الجمعة ، لنصل إلى منى ، فنصلى هناك ، فهذا أفضل – لكن ماذا ... لنترك البحث فى الفاضل والمفضول ، ندعو الله ألا تفوتنا صلاة الجمعة !!

بعد الساعة العاشرة خرج العلامة الشيخ مناظر ومعه أحد رفقائنا للبحث عن بيت المطوف ، وبصعوبة شديدة وبعد بحث طويل وجدوا البيت ، لكن صاحب البيت لم يكن فى بيته ، وبعد ساعة من الحيرة والعجب عاد الاثنان وهما فى غاية التعب !

كانت كل لحظة تمر علينا هنا ، تمر ثقيلة كأنها جبل ، وقلوبنا كانت تدمى من الأسى والحزن ، ويمكن لكل صاحب قلب أن يقدر هذا الأمر ، بدأت مشاعر القلب ، تظهر على ألسنة البعض ، بشكل طبيعى ، وقضينا الوقت الذى كان يجب أن نقضيه فى التكبير والتهليل والذكر والدعاء ، فى الدعاء على إسكندر الظالم ، وذكر مساوئه ! ومر علينا الوقت بطيئا .. بطيئا حتى بدأ الأذان للجمعة ، يرفع على مآذن الحرم الشريف !!

فى ذلك الوقت جاء مضيفنا يتهادى .. ويتبختر .. وعلى وجهه ملامح البراءة ، فقال : لم يحدث ما يثير القلق ! ثم تابع حديثه دون أن يعتذر أو حتى يُبدى أسفا :

« سوف تأتى الجمال بعد صلاة الجمعة مباشرة ، كيف يمكن أن آتى بها ؟! وكيف تجد الجمال طريقا وسط هذا الزحام ؟ » .

وكأن هذا الزحام ليس زحام الجمال ، بل هو زحام مخلوقات أخرى ، أو أن هذا الزحام كان مانعا لمرور مئات وآلاف الجمال الأخرى !

بدء الرحيل واستظراف المطوف إسكندر :

على كل حال لم يكن أمامنا سوى الصبر حيلة ! أسرعنا إلى الحرم ، كان المسجد قد امتلأ عن آخره ، فأين يمكن أن نجد مكانا بعد أن تأخرنا كل هذا الوقت ! وبشكل أو بآخر دلفنا إلى الزحام ، ووجدنا مكانا ، كنا نسمع منه صوت الخطيب ، عن طريق مكبرات الصوت بصعوبة ، وبعد الصلاة ، عدنا على الفور إلى البيت ، وبدأنا الآن اختبار قدرتنا على الصبر والتحمل ، وبعد أن انتظرنا ساعة أو بعد ساعة وربع ، ظهر لنا المطوف المحترم ، ومعه الجمال .

استغرق تحميل الأمتعة وقتا ، واستغرق تحميل « الركاب » أيضا مزيدا من الوقت ، فركوب الجمال كان بالنسبة لنا تجربة جديدة ، وكان خوف النسوة من الركوب أمرا طبيعيا ، إذ كان الرجال أنفسهم يشعرون بالرهبة والخوف ، ولو لم يساعدنا حبيب الله لما استطاع المطوف نفسه أن يكمل هذه المرحلة بسرعة .

بدأت الشمس تميل ، واقترب وقت الظهر من الانتهاء ، حين تحركت قافلتنا ، ولم نكد نتحرك خطوات حتى بادرنا المطوف بالسؤال :

« أين سنجد مكانا الآن للبقاء فى منى ؟ هل ننزل فى المقر الرسمى لحيدر آباد ؟

انتابتنا الحيرة عند سماع هذا السؤال ، وفتحنا أعيننا دهشة وتعجبا ، وحملقنا جميعا فى المطوف .. اعتقدنا أنه يمزح أو يستظرف !! لكننا بعد أن أطلنا النظر إليه قليلا أدركنا أنه جاد فى سؤاله ، فوجدتنى أقول له :

« هل تسألنا نحن هذا السؤال ؟ نحن نمشى معتمدين على مساعدتك لنا ، وسوف نقيم فى المكان الذى توفره لنا أنت ، لكنك الآن على العكس من ذلك تسألنا أين ستقيمون ؟! سبحان الله ! لقد طلبنا منك قبلا أن تعد لنا خيمتين ، هل هناك شك فى حصولنا على خيمتين نقيم فيهما ؟!

فأجاب بصوت متلجلج : هذه الخيام فى عرفات ، اليوم لا تتوفر لنا خيام .. اليوم سوف تبقون فى الشغدف ، فى الوادى الفسيح ...

إنا لله وإنا إليه راجعون ! وكأننا سنقضى طول الوقت من عصر اليوم حتى صباح الغد فى العراء ، ولا يقتصر الأمر على الرجال فقط ، بل النساء أيضا ، والطعام ولوازمنا وحوائجنا الضرورية ... كل هذا سيكون فى العراء ، وسط حشد من الناس ، بين الآلاف ، ومئات الآلاف من الناس ! وهذا الرجل الذى يقول هذا الكلام بجسارة ، كأنه لم ير طريقة حياتنا فى لكهنو ، وأسلوب معيشة نسائنا فى لكهنو ! وهو الذى وعدنا وعدا صريحا بأن يوفر لنا الخيام !

تساءل الناس فى حيرة : لماذا ينزل الخراب والدمار دائما على أهل مكة ؟! فلعلهم الآن يرون كيف يكون سلوك أهل مكة مع ضيوف الرحمن ، ومع الأغراب البعيدين عن أوطانهم ! إن مالك مكة عز وجل ، الذى هو مالك الدنيا كلها يمهلهم ، لكنه لا يغفل عنهم بأية حال من الأحوال ، والشاعر يقول :

« لا تغتر بحلم الله ، إنه يمهل ، لكنه سيعاقبك عقابا عسيرا ».

الحادى رفيق الطريق :

حين كنت أجلس فى الهند ، وحين كنت أفكر فى مصاعب سفر الحج ، كان من الضرورى أن أضع عنوان « ركوب البعير » فى قائمة المصاعب والشدائد ، لكنى عرفت

بعد التجربة أن هذا التخيل فيه مبالغة شديدة جدا ، مثله مثل كثير من الأخطار التى يتوهمها الناس ، فكثير من المنازل يمكن أن تُطوى فى السفر الطويل المستمر ، ويمكن أن يُصاب الإنسان بالتعب ، ليست هناك تجربة ، لكن فى مثل هذا السفر القصير الذى لا يزيد عن عشرة أميال ، لا يكون فيه تعب يستحق أن يذكر ، وهذا التعب الذى يحدث قد لا يكون بالضرورة لازما أو اضطراريا بل يمكن تلافيه ، وعدم الوقوع فيه ، والأمر المهم هنا هو وجوب أن يربط الشغدف بطريقة جيدة . وأن يظل التوازن قائما على ظهر البعير ، فبقدر ما يكون الشغدف مربوطا ومحكما ، وبقدر ما يكون التوازن فيه قائما ، تكون نسبة اهتزاز الإنسان ، ويقل التعب ويشعر المسافر بالراحة القصوى ، وهكذا فبعد ربط الشغدف يمكن للإنسان أن يرقد مسترخيا فى راحة وطمأنينة ، ويأتيه النوم على غير موعده !

والشىء الآخر الضرورى هو أن تجعل البدوى الذى يسير مع الجمال ، ويقال له جمّال (واعلم بأن هؤلاء الناس لا يركبون الجمل بل يمشون خلفه) راضيا ، وإرضاء الجمال أمر سهل جدا ، فهو يرضى بالقليل ، ويفرح بالمعاملة الطيبة، وهو ليس مثل سائق السيارة ، ليس من الضرورى أن تضع فى يده على الأقل خمسة روبيات ، فحين التحرك يمكن أن تعطيه « آنه » أو اثنتين ، والآنه هنا يقال لها قرش أو يمكن أن تعطيه بعض البسكويت أو كوبين من العصير أو الماء أو فنجانين من الشاى ، فهذا يمكن أن يسره ويرضيه تماما ، ومن الضرورى أن تعطيه ما تجود به نفسك ، من تلقاء نفسك .. إن التواضع والتعامل بطيبة يجعل من الجمال خادما مطيعا ، لا يريد منك أى أجر ، سيسرع .. يحضر لك الماء والعصائر ، ويحمل أمتعتك ، بكل سرور ويساعدك فى الركوب على الجمل ، ويضبط لك الشغدف إذا ما ارتخت حباله ، والخلاصة أنه سيكون أفضل رفيق سفر لك ، وسيكون خادما مطيعا .

(٢٨)

منى قبل الحج

وصف الطريق إلى منى :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك والخير بيديك . »

عصر يوم الجمعة الثامن من ذى الحجة ، تأخرنا كثيرا فى التحرك حتى انتهى الوقت المستحب للخروج ، ومضت القافلة فى طريقها مسافة طويلة ، لكن لا يزال هناك المزيد ، وهى تمضى ، بينما هناك آلاف من الناس يمشون على أقدامهم ، وآلاف من الناس يركبون الجمال ، وآلاف يركبون البغال والحمير ، كل إنسان فى ملابس الإحرام يمضى ، وصدى لبيك لبيك يجلجل فى الأنحاء ..

كنا أيضا نلبى ، لكن لا حول ولا قوة إلا بالله ! هل لنا نصيب من ثواب هذا التكبير !!

كان الجرح الذى أصابنا به المطوف ، لا يزال يؤلمنا ، فقد انشغلنا بالحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله) على المطوف ، وعلى أنفسنا ، بدلا من التلبية (لبيك اللهم لبيك) !!

كانت القافلة تمضى .. ست عشرة مسافر ، على ثمانية جمال ، تسير خلف بعضها ، ومعها رجلان أو ثلاثة من البدو، لم يكن مع كل جمل جمّال ، بل كان لكل

ثلاثة أو أربعة جِمال جَمّال واحد ، ركبت مع زوجتى على جمل ، وركب العلامة الشيخ مناظر أحسن وحكيم عبد الخالق على جمل ، وهكذا ركب كل اثنين على جمل ..

كانت هذه أول تجربة لنا فى حياتنا .. لكن ما طرأ علينا من خوف ورهبة انتهى بعد الركوب ، وقد كررت قول هذا الأمر نظرا لأهميته وهو أنه إذا كان الشغدف مربوطا بإحكام، فإن ركوب الجمل يكون مريحا جدا ، وكأنك تتمتع داخل هودج ، أو « تختروان » .

المسافة بين منى والحرم الشريف حوالى أربعة أميال ، وهى تبعد عن مكاننا عدة فراسخ أكثر ، الطريق واسع ، فسيح ، يمكن لعدة جمال أن تمشى فيه معا بسهولة ويسر .

تمتد مبانى مكة إلى مسافة ميل ، بعدها يبدأ الوادى ، وبعد ذلك بميلين تبدأ حدود منى . إن قصر حاكم مكة وولى العهد الأمير فيصل بن سعود متصل بالحرم الشريف مباشرة ، أما قصر السلطان نفسه فهو على طريق منى ، لا أعرف وصفه من الداخل ، لكن من الخارج يشبه بيوت النواب أو الرؤساء حكام الإمارات فى الهند ، بفخامته وعظمته ، وما يبدو عليه من أبهة ، وهو يختلف بالطبع عن البيوت التى كانت على عهد الخلفاء الراشدين من ناحية البساطة .

كنا فى وقت الظهيرة ، وكان العطش يشتد على الإنسان ، وكلما أطفأت ظمأه بجرعة أو بجرعتين من الماء اشتد هذا الظمأ من جديد ، كانت معنا «الجرار» المملوءة بالماء ، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك بعض الأولاد والبنات الصغار يحيطون بالجمال ، وفى أيديهم « قُلل الماء» ، يبيعون القلة بـ« بيستين » ، كانوا مشغولين بعملهم هذا ، فرحين به ، مسرورين لأدائه ، وبراءة الأطفال فى عيونهم .

سمعنا فيما بعد أنه بالإضافة إلى هذا الطريق العام ، يوجد طريق مختصر للراجلين الذين لا يستخدمون المطايا ، وهو طريق قصير جدا ، ولو لم يكن معنا مجموعة النساء ، ولو كان الجو معتدلا قليلا أو باردا ، أى لو كنا فى

الصباح أو فى المساء ، فإن السفر مشيا هو بلا شك أكثر راحة ، وأكثر متعة ، فإذا ما شعر الإنسان بالتعب فى أى مكان ، توقف واستراح ، وحوانيت بيع الشاى والقهوة موجودة بكثرة .

بعد ساعتين أو أقل من تحركنا ، بدت لنا المنطقة العامرة بالناس ، فرأى الجمالون الذين كانوا يقودون الجمال أن يكون منزلنا هنا فى بداية منطقة منى !

وصف منى :

كنت أظن أن منى واد خرب غير مسكون ، واد لا حس فيه ولا خبر ! ومثل معظم الظنون ، كان هذا الظن خاطئا !

لا شك أن هذا الوادى كان هكذا فى زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وجاء فى بعض الروايات أن الصحابة الكرام حين استأذنوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى أن يبنوا لهم بيوتا هنا ، لم يسمح لهم الرسول بذلك ، لكن الواقع الآن قد تغير تماما ، فمنى الآن ليست ميدانا يخلو من العمران ، فهناك المبانى المرتفعة ، المقامة من الآجر والأسمنت ، وهى تعج بالناس أيضا .

تقع منى على الجانب الشرقى لمكة المكرمة ناحية الجنوب قليلا ، وهى بطول ميل ونصف أو ميلين ، وعرضها ربما ميل واحد ، ومن الواضح أن هذه البيوت تظل طول العام خالية، ثم تمتلئ ، وتنتعش هذه المنطقة فقط خلال هذا الأسبوع من كل عام ، ودخل أصحاب البيوت يكون فى هذا الوقت فقط ، ولهذا فالأجرة غالية جدا ، فإذا كان الإنسان ذا مقدرة ، فيمكن أن يؤجر بيتا هنا ، مهما كان صغيرا أو ضيقا، فهو نعمة ، ويمكن للإنسان أن يقضى الليل فى الوادى، لكن حر النهار ، وأشعة الشمس المحرقة ، لا يمكن تجنبها إلا فى ظل بيت ، والناس الذين لا يستطيعون استئجار البيوت ، يقيمون فى الخيام ، ومن لا يستطيع أيضا أن يؤجر خيمة ، ينام - المسكين - فى العراء ، معتمدا ومتوكلا على الله فحسب .

لا يجب على الحجاج الهنود أن يقيسوا الأحوال هنا على الأحوال فى بلادهم ، فلا يجب عليهم أن يتوقعوا أن يجدوا هنا شجراً أو ظل شجرة ، لكن يوجد حوانيت لبيع الماء ، وبيع أنواع من العصائر مختلفة الألوان ، والحليب والزبادى والقهوة والشاى ، كما يوجد الثلج و« الأيس كريم » أيضا ، وتوجد حوانيت لبيع الطعام لكنها قليلة ، وهى أيضا تبيع الليمون والنارنج والموز والرمان وغيرها من الفاكهة، وهى فاكهة طازجة وحلوة ، وتشعر كأنك فى سوق للفاكهة ، وهذه نعمة غير متوقعة وسط حر الصحراء الشديد فى منتصف شهر مايو !!

والحقيقة أن السوق هنا طيبة ، إذ يوجد فيها كل الضروريات ، وبكثرة ، ويمر باعة الماء على البيوت والخيام ، وهم مستعدون لإيصال صفائح الماء إليك فى كل حين .

المبيت فى العراء :

كنا فى نهاية وقت الظهر حين خرجنا من مكة المكرمة ، ومر الوقت الأوسط للعصر حين وصلنا إلى منى ، غدا صباحا سنذهب إلى عرفات ، والطريقة المسنونة هى أن نؤدى الصلوات الخمس من ظهر يوم الثامن من ذى الحجة إلى فجر يوم التاسع من ذى الحجة ، ولهذا كنا متعجلين للخروج من مكة يوم الثامن فى الصباح الباكر ، لكن هدى الله المطوف ! فقد وصلنا بعنايته !! إلى هنا ، ليس فى وقت صلاة الجمعة ، أو حتى وقت الظهر بل بعد فوات الوقت الأول للعصر !

كان المطوف قد أصابنا باليأس من الحصول على الخيام ، وذلك منذ أن تحركنا من مكة ، وهكذا أنزلنا الشغدف ، على جانب الطريق فى الخلاء ، بينما صدرت لنا الأوامر بأن نبقى بداخله من عصر هذا اليوم حتى صباح الغد ، أو نخرج منه لنفترش الأرض ونلتحف السماء ، أمر قراقوش! الحاكم بأمره! فماذا يفعل المحكوم المسكين ؟! وإذا لم نلتزم الصبر والسكوت ، فماذا عسانا نفعل غير هذا؟

كانت نعمة ألا يكون معنا المطوف نفسه ، وأن يكون معنا أولاده وأتباعه ، فقد كانوا يتحلون بحسن الخلق ، وحلاوة اللسان ، فالمطوف نفسه ليس من ديدنه أن يقيم

فى منى فى الغالب ، ولهذا ظل فى مكة ، ولو كان معنا هنا ، فربما تسببت ألسنتنا فى ارتكاب الذنوب .. وعلى كل حال حدث ما حدث ، وذهبنا - نحن الرجال - نبحث عن بعض الضروريات والمستلزمات ، بينما ظلت النساء ملازمات للقافلة .

ورد فضل مسجد الخيف فى الأحاديث النبوية ، وهو يقع فى منى ، وقد صلى فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) فى حجة الوداع ، وهو مسجد واسع جدا ، لكن الحجاج جعلوا منه « مضيفة » وجعلوا منه « استراحة مسافرين ، فملئوه بالأوساخ ، ولا أدرى لماذا لا تهتم الحكومة بتنظيف المسجد والإشراف على ترتيب أموره ! (١)

كان منزل قافلتنا يبعد عن المسجد مسافة طويلة ، أضف إلى هذا مسألة الزحام الشديد على الطريق ، وأكثر من هذا وذاك ضعف الهمة ! ، فأصحاب الهمم الضعيفة يحاولون أن يختلقوا لأنفسهم الأعذار ..

على كل حال لم نتمكن من أداء أية صلاة هناك ، وصلينا العصر والمغرب والعشاء والفجر هنا ، فى هذا الخلاء ، جماعة ، وفى الخلاء أيضا نمنا ، وكان يمر علينا طول الليل آلاف الآلاف من الذاهبين إلى عرفات ، لم يقيموا فى منى ! وكأن عباد الله هؤلاء لا يرون للعمل طبقا لسنة رسولهم المحبوبة أى معنى !

رأى الفقهاء فى المبيت بمنى :

لم يكن من ارتكب هذا الخطأ عشرة أو عشرون أو خمسون أو مائة ، بل كانوا آلاف الحجاج ، ابتلوا بهذا الخطأ، بالرغم من أن القيام فى منى والبقاء فيها ما بين الثامن والتاسع ليلا مستحب عند جميع الأئمة ، فقد كتب القاضى ابن الرشد المالكى ، إن ما يجب على الحاج أن يفعله بعد السعى هو أن يأتى منى يوم الثامن ، وأن يقضى الليل بها ، والمذاهب الأربعة تتفق كلها على هذا : أن يصلى مع الإمام جماعة يوم الثامن الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وفى يوم التاسع يأتى الناس مع الإمام إلى عرفات ويقفوا فيه .

ولا شك أن من لا يتوفر له الوقت ، يمكنه الذهاب إلى عرفات مباشرة . (هداية المجتهد المجلد الأول ص ٢٧٩)

وكتب الحنفية تصرح بهذا أيضا ، وهو أنه إذا كان الحج يتم بغير القيام فى منى يوم الثامن ، لكن عدم القيام فى منى يجعل صاحبه مذنبا لأنه يترك سنة من السنن ، جاء فى الهداية :

« ولو بات بمكة ليلة عرفة ، وصلى بها الفجر وغدا إلى عرفات ، ومر بمنى جزاه ؛ لأنه لا يدخل بمنى فى هذا اليوم إقامة نسك ، ولكنه أساء بتركه الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) »

وفى شرح در المختار (الطحاوى) :

« ثامن الشهر خرج إلى منى ومكث بها إلى فجر عرفة ، فبات بها استنانا ، فلو لم يخرج من مكة ، إلا يوم عرفه أجزأه ، لكنه أساء لتركه السنة »

وفى شرح لباب المناسك « ملا على قادرى » :

« وإن بات بمكة تلك الليلة جاز، وأساء لترك السنة . »

وفى فتاوى قاضى خان :

« ولو بات بمكة وخرج منها يوم عرفة إلى عرفات كان مخالفا للسنة . »

ويبدو أن هذا العمل استمر فترة على هذه الحال ، فقد اضطر صاحب رد المختار (الشامى) فى زمانه إلى القول :

« وأما ما يفعله الناس فى هذه الأزمان من دخولهم بأرض عرفات فى اليوم الثامن فخطأ مخالف للسنة ، ويفوتهم بسببه سنن كثيرة منها الصلوات بمنى .»

إن ما يدعو للحسرة والقلق هو أن الإنسان قد بذل من الجهد والمال الكثير حتى يأتى للحج ، ثم يفكر بعد هذا فى راحة جسدية بسيطة ، ويترك هذه الفضيلة العظيمة.

الدعاء فى منى :

ليس هناك دعاء واجب خاص بمنى ، لكن هناك بلا شك بعض الأدعية المأثورة ، التى ذكرت فضائلها ، وهى أدعية مستحبة فى أثناء التحرك من مكة إلى منى ، وهو أن تذكر « لا إله إلا الله » مع التلبية ، ثم تدعو الله بما تحب وتريد ، وتكثر من الاستغفار فى الطريق ، ومن الأفضل حين تشاهد منى أن تقول هذا الدعاء : « **اللهم هذه منى ، فامنن علىّ بها كما مننت بها على أوليائك** » .

وليلة التاسع من ذى الحجة ليلة مباركة ، ومنى مقام مبارك ، يجب أن تظل تدعو الله بقدر الإمكان فى هذه الليلة ، وأن تستغفر الله وتلبى ، وقد جاء فى بعض الروايات أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذكر بأن الشخص إذا قال هذا الدعاء ألف مرة فى هذه الليلة فى منى ، أناله الله مراده :

« **سبحان الذى فى السماء عرشه ، سبحان الذى فى الأرض موطئه ، سبحان الذى فى البحر سبيله ، سبحان الذى فى النار سلطانه ، سبحان الذى فى الجنة رحمته ، سبحان الذى فى القبر قضاؤه ، سبحان الذى فى الهواء روحه ، سبحان الذى رفع السماء ، سبحان الذى وضع الأرض ، سبحان الذى لا ملجأ ولا منجاة إلا إليه .** »

فى منى وعلى مسافة غير بعيدة توجد علامة الشياطين الثلاثة ، وقد وضعوا علامة عن طريق عدد من الحجارة بيضاء اللون ، وكان من كرم مطوفنا ، وعنايته أيضا ، أن أنزل قافلتنا مقابل المكان الذى يوجد فيه الشيطان الأوسط بالضبط ! وكأن ضيوف بيت الرحمن يقضون ليلة كاملة بجوار الشيطان !! وفى مثل هذا الجوار المقدر علينا ، ماذا نتوقع من مناجاتنا لله ؟! إنها فرصة عظيمة ، وغنيمة كبيرة ، أن نرسل على الشيطان المرتد اللعنة ، وأن نحوقل لو وجدنا وقتا لذلك .

الوصول إلى عرفة :

ومثلما فعل المطوف والجمّال مع الحجاج فى منى ، من محاولة تأخير تحرك القافلة إلى أقصى مدى ، فهم هنا على العكس من ذلك ، يحاولون الإسراع بالتحرك ، كلما أمكنهم ذلك ، وهكذا بدأ الإصرار على أن تتحرك قافلتنا ، وعلى أن نبدأ بالرحيل إلى عرفات مع أول الليل ، ومع أن أداء الصلوات الخمس فى منى سنة ، وكما ضيعوا علينا صلاة ظهر يوم الثامن ، يريدون أن يحرمونا من صلاة فجر يوم التاسع ، لكننا رفضنا رفضا باتا وقاطعا أن نتحرك فى هذا الوقت المبكر جدا ، ولو كان هنا عبد القادر إسكندر نفسه لزاد الأمر حدة ، لكن أولاده ونوابه مهذبون بشكل عام .

وهكذا وبعد أن ارتفعت الشمس فى السماء قليلا وفى الساعة السابعة أو السابعة والنصف بتوقيت الهند تحركت قافلتنا .

يقع وادى عرفات فى الجانب الشرقى لمكة المكرمة ، على بعد نحو ١٥ أو ١٦ ميلا ، ويبعد عن منى حوالى عشرة أميال أو أحد عشر ميلا ، وهو يمتد من هنا على الناحية الشمالية والشرقية ، وقد سمعت أن الماء قليل جدا فى عرفات ، وإذا وجد فهو غير نظيف ، ويباع بثمن غال جدا لدرجة أن بعض الفقراء من الحجاج يموتون من العطش !!

وهكذا بعد أن سمعنا هذه القصص المخيفة ملأنا الجرار بالماء ، وكنا قد أحضرنا من مكة علب البسكويت .

اليوم يوم من أيام البركة والفضيلة والرحمة والإنعام ، يجب على الإنسان أن ينشغل فى الطريق بقدر استطاعته بالتكبير والتلبية ، والدعاء والاستغفار ، فإذا كان للإنسان نصيب من هذا مرة فى العمر ، فهو محظوظ جدا .

ها قد بدأت حدود عرفات .. واد فسيح ، وواسع ، يرى العارفون بالأمور أن مساحته عشرة أميال مربعة على أقل تقدير ، وحيثما حركت بصرك ، لا تجد سوى ميدان فسيح أمامك ، من حوله مرتفعات وهضاب ، أما الجِمال والبعير ، فهى

لا تحصى ولا تعد ، والوادى كأنه غابة نبتت فيها الخيام ، فالخيام تبدو للناظرين فى كل ناحية ، وفى كل اتجاه، ومن لا يستطيع استئجار خيمة ، فهو يستخدم ملاءة أو مفرشا كبيرا أو قطعة من القماش أو ما شابه ذلك ، وهناك من المساكين من لا يستطيعون أيضا هذا ، فيهربون من أشعة الشمس المحرقة فى ظل شغدف .

حين وصلنا كانت الساعة حوالى الحادية عشرة أو الحادية عشرة إلا الربع قبل الظهر .

(٢٩)

عرفات (١)

مغزى الوقوف بعرفة :

الحج ليس عملاً واحداً مفرداً ، بل هو اسم لمجموعة من الأعمال ، طويلة ومتتابعة : بعضها فرائض ، وبعضها واجبات ، وبعضها سنن ، وبعضها مستحبات ، وأهم جزء فى هذه المجموعة هو الوقوف بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة ، فإذا قام شخص بأداء جميع الأعمال والمناسك ، ولم يتمكن - لا قدر الله - من الوقوف بعرفة فى هذا التاريخ ، فحجه كأن لم يكن ! وعليه أن يقضى هذا الحج فى العام التالى .

اليوم هو أهم يوم فى تاريخ الدنيا ، وميدان عرفة أهم الأماكن على وجه الأرض ، فقد اختار رب العزة ، هذه البقعة ، وهذا التاريخ ، حتى يُعلن للعالم عن اكتمال الدين الإلهى ، ويعلن بأن الإسلام رسالة الهداية ، وبأنه خاتم الأديان وأكملها ، واليوم .. وعلى هذه الأرض ينادى دائما فى كل أمة أن : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا. ﴾

يروى صحابى يدعى طارق بن شهاب أن يهوديا قال لعمر الفاروق : « لو نزلت علينا مثل هذه الآية لجعلنا من يوم نزولها عيدا. »

فقال عمر (رضى الله عنه) :

إننى أتذكر متى نزلت هذه الآية ، كانت فى ليلة الجمعة (يوم عرفة) وكنا بصحبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى عرفة. (سنن النسائى) فقال وكأننى أنكر أنه قال : ذلك اليوم كان أعظم أعيادنا ، فما الحاجة إلى أن نجعل منه يوم احتفال أو ما شابه ذلك .

أهمية يوم عرفة :

إن رحمة هذا اليوم بلا حساب ، فاليوم هو اليوم الذى يُذل فيه الشيطان ، ويُحقر ، ويصاب باليأس والاضطراب . عن طلحة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « **ما رأى الشيطان يوما هو فيه أصغر ، ولا أدنى ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، ما ذلك إلا لما تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر .» (موطأ الإمام مالك)**

فلا حدود لرحمته اليوم ، ولا حساب لها ، فأعتى المجرمين يتم الإفراج عنه اليوم ، فالبشارة واضحة ، عفو عام عن الجميع ، فالله كله رحمة ومرحمة ، كله شفقة ومغفرة ، تجلياته تضم فى حضنها أكبر ذنوب الأمة ، فتمحوها ، وهو يعبر عن هذا بقرب العبد منه ، فالعباد كانوا دائما يفخرون بسيدهم ومالكهم ، واليوم هو اليوم الذى يفخر فيه المالك بعباده !

عن عائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « **ما من يوم أكثر من أن يعتق الله عز وجل فيه عبدا من الناس من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة ، فيقول ما أراد هؤلاء .» (صحيح مسلم)**

اليوم يعتبر اليأس من رحمة الله كفرًا ، فمن أكثر من هذا جحودا ، ذلك الذى يظن أنه بعد أن حضر هنا ، لن تغسل صفحة ذنوبه السوداء بأمطار الرحمة والمغفرة ، صدق من قال :

« أعظم الناس ذنبا ، من وقف بعرفة ، يظن أن الله لم يغفر له .»[1]

اليوم هو يوم الدعاء والمناجاة ، يوم التروية والاستغفار ، يوم الإلحاح والنداء ، يوم الخضوع والتذلل لله ، ولهذا فعلى العبد أن يفعل هذه الأمور بقدر استطاعته ، وأن

(١) انظر اتحاف السادة المتقين شرح علوم الدين للزبيدى ٤/ ٢٧٢ وأيضا : المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج إحياء علوم الدين للحافظ العراقى ١/ ٢٤١ ط عيسى الحلبى ،وأيضا: كشف الخفا للعجلونى ١٦٤/١

يطلب من ربه ما يريد أن يطلب ، ويطلب ، ويطلب ، يطلب بلا حساب، يطلب دون ملل أو تعب ، فالله كله كرم وجود ، كله عطاء بلا حساب ، والعبد مسكين ، وفقير ، ومحتاج ، فلماذا يتردد فى الطلب ؟! ولماذا يتردد فى الإعلان عن رغباته ، وأمنياته ، دنيوية كانت أم دينية ؟! ولا يجب أن يحبس بداخله أمنية أو رغبة إلا أعلن عنها لربه الغفور الرحيم ، فأفضل الدعاء دعاء يوم عرفة .

وهكذا فلا يوجد اليوم دعاء خاص ، فلك أن تطلب من ربك ما تشاء ، كيفما تشاء ، ولا شك أن لهذه الكلمات فضيلة عظيمة : **« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحى ويميت ، وهو حى لا يموت وهو على كل شىء قدير. »**

فعلى الإنسان أن يستحضر قلبه ، ويدعو بهذه العبارة فى خشوع ، ولا يتوقف عن التلبية ، فيستمر فى النداء : لبيك اللهم لبيك ...

وقد ورد أيضا فى بعض الكتب أنه حين تصل إلى عرفات تقول هذا الدعاء فى الطريق :

« اللهم إليك توجهت ، وعليك توكلت ، ووجهك أردت ، فاجعل ذنبى مغفورا ، وحجى مبرورا ، وارحمنى ، ولا تجنبنى ، وبارك لى فى سفرى ، واقض بعرفات حاجتى أنت على كل شىء قدير . »

وحين تدخل عرفات يستحب أن تقول هذا الدعاء الذى سبق ذكره : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهناك بعض الأدعية وردت فى كتب الحديث وهى طويلة ، ولقراء الأردية توجد هذه الأدعية مع ترجمتها فى كتاب الحج والزيارة لمولوى منور الدين الدهلوى (الفتاوى العثمانية المجلد السادس) وفى كتب المناسك أدعية كثيرة .

رأى الفقهاء فى الوقوف بعرفة وما يفعل فيه :

وقت وقوف عرفة على مذهب الحنفية يكون يوم التاسع من زوال الشمس ، وفى بعض كتب الحنفية أن الإمام مالك يرى أن وقت الوقوف يبدأ من طلوع الشمس ، لكن قاضى القضاة ابن رشد المالكى نفسه يكتب :

« وأجمعوا على أن من وقف بعرفة قبل الزوال وأفاض منها قبل الزوال إنه لا يعتد بوقوفه ذلك . » (بداية المجتهد المجلد الأول ص ٢٨١)

وعلى كل حال فعلى كل حاج أن يصل عند الظهر أو قبل الظهر ، ويفضل أن يغتسل وإلا فالوضوء يكفى ، ثم يأتى إلى مسجد نمرة ، والذى يسمى أيضا بمسجد إبراهيم ، وهو من بداية عرفات فى أثناء المجيء من منى ، وعلى الإمام أن يعتلى المنبر مع زوال الشمس ، فيؤذن أمامه مثل أذان يوم الجمعة، ثم يخطب الإمام خطبتين ، يفصل الحديث فيهما عن تعاليم مناسك الحج ، وبعدها تكون الإقامة ، فيصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع قصر كل منهما إلى ركعتين (بأذان واحد وإقامتين) ، وبعدها ينشغل الجميع حتى المساء بالدعاء والمناجاة والتسبيح والاستغفار فى اطمئنان وسكينة .

والصوم فى عرفة خلاف للسنة ، وإن كان ينصح بعدم ملء البطن ، وتناول الطعام الخفيف حتى يأمن الإنسان من ثقل البطن أو انتفاخه ، ويأمن الضعف والوهن أيضا ، وحتى يجد الوقت للانشغال الكامل بالدعاء ، وعند الحنفية جمع صلاتين فى وقت واحد جائز ومستحب اليوم فقط ! ولا يمكن أن يقاس عليه بقية الأحوال والأوقات .

ومع أن الوصول إلى المسجد ، وخاصة إذا كان بعيدا عن مكان الإقامة فى عرفات ، والصلاة مع الجماعة غير ممكن ، إلا أنه يمكن لعدد من الحجاج أن يصلوا الصلاة فى خيامهم ، وهذا جائز تماما ، والمنفرد الذى لا يستطيع أن يصلى فى جماعة ، وصلى فى خيمته ، فطبقا للإمام أبى حنيفة عليه أن يصلى صلاتى الظهر والعصر منفصلتين فى وقتهما حسب ما هو مقرر فى الأيام العادية ، لكن فتوى الصاحبين الإمام محمد وأبى يوسف على عكس ذلك ، فعليه أيضا أن يصليهما معا جمع تقديم ، والدلائل المنقولة فى كتب الفقه ، تدل على أن قول الإمام أبى حنيفة أضبط ومدلل عليه بالأدلة ، والله أعلم وعلمه أتم .

كيفية الدعاء فى عرفة :

إن مجرد الوقوف بعرفة يعنى إتمام فريضة الحج ، حتى لو لم يفعل الإنسان شيئا ، لدرجة أنه لو نام أو أصيب بالإعياء ، وفقد وعيه ، أو قضى فى عرفات لحظات قليلة ، فإن حجه أيضا اكتمل ، فمن الواضح أن الإنسان لن يقصد إضاعة هذه الساعات الثمينة والدقائق الغالية لهذا اليوم المبارك ، وكيفية الدعاء أوضحها لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بهذه الصورة التى صورها ابن عباس بالكلمات التالية :

« رأيته عليه السلام يدعو بعرفة ، يداه إلى صدره كالمستطعم المسكين . »

فإذا كانت هذه هى حال الرسول المعصوم (صلى الله عليه وسلم) ، فماذا ينبغى أن تكون عليه حال أفراد هذه الأمة الذين ارتكبوا الذنوب والمعاصى ، واسودت صحائف أعمالهم .. هل يجب أن تضيع دقيقة أو لحظة فى هذا اليوم دون إلحاح ، ودون تضرع ، ودون خشوع أو خضوع لله ؟!

علينا أن نتذكر ذنوبنا ، ولو جرت الدموع من أعيننا أنهارا ! فلا حرج ، فمن يسأل عن هذا ! لكن إذا لم تنسكب الدموع وتنهمر ، فلا يجب أيضا أن نتحسر كثيرا ، فلا توجد أية رواية عن رسول الله تشير إلى أن الدموع جرت من عينيه فى أثناء الدعاء .

عند نهاية ميدان عرفات يوجد مرتفع يطلق عليه « جبل الرحمة » كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد وقف عنده ، وهنا وعلى ناقته خطب فى المسلمين خطبته الشهيرة فى حجة الوداع ، ويطلق على هذا المكان أيضا موقف النبى والموقف الأعظم ، وتحت جبل الرحمة كثير من الأحجار السوداء الضخمة ، لو وجد المسلم مكانا ، وكانت لديه همة ، فليجلس هنا ، ولينشغل بالدعاء والمناجاة .

فى وقت العصر يأتى الإمام هنا ، وفى تجاه القبلة يركب الناقة ، ويخطب فى الناس ، ويدعو الله ، وعلى الناس أيضا أن يتجهوا ناحية القبلة بقدر الإمكان عند

الدعاء ، ولو تمكنوا من الوصول إلى قرب الإمام فهذا أفضل ، وإلا فليبقوا حيث يستطيعون الوقوف ، وينشغلوا بالدعاء وطلب المغفرة ، فميدان عرفه كله موقف إلا وادى عرنة ، وهو المتصل بمسجد نمرة .

وصف الحجاج فى عرفات :

يقول الإمام الغزالى وهو يذكر أعمال عرفة :

« انشغل بالدعاء كثيرا ، وسر الحج هذا هو أن تنشغل بالدعاء مع مجموعة من عباد الله الصالحين . »

الله ! الله هذا هو وادى عرفة .. المكان المهجور القحل الذى لا يصلح لسكنى إنسان ، أو لمرعى حيوان ، والذى يظل طول العام خاليا ، لا نقول من أى إنسان ، بل من طائر يطير أو حيوان ! لكنه اليوم وفى كل لحظة ، مملوء لا بالمئات فقط ، ولا بالألوف فقط ، بل هو اليوم مدينة عامرة بمئات الألوف من البشر ، من بينهم الشيوخ والعجائز ، ومن بينهم الشباب والأطفال والنساء ، منهم الأقوياء الأصحاء ، والضعفاء والمرضى الذين هم على حافة الموت ، منهم الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، ومنهم الشرقى والغربى والجنوبى والشمالى ، منهم العالم والأمى ، منهم الفقير والغنى ، والعابد والزاهد والفاسق والفاجر أيضا .. لكن لماذا تجمعت هذه الحشود الضخمة ؟ هل تجمعت لتشاهد مهرجانا أو حفلة ؟ أو لتنصت لحفل خطابى أو لندوة شعرية ؟ أو تشاهد مسرحية فكاهية ؟ أو سباق خيل أو مباراة كرة أو مباراة مصارعة أو ملاكمة ؟ أو ربما جاءت لتشاهد معرضا للمنتجات الصناعية ؟ أو جاءت لتشاهد سوق خيل أو فيلة ، أو ربما جاءت لحضور ندوة أو مؤتمرا أو محاضرة ، أو ما شابه ذلك .. أو ... أو .. ؟!

لقد احتشدوا هنا فقط لعبادة الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .. احتشدوا هنا تنفيذا لحكم الله الواحد ..

هناك تجمعات ، وهناك حشود كبيرة من الجماهير ، تجتمع فى هذه الدنيا ، بمناسبات عديدة يعلمها الله ، لكن هذا الحشد الكبير الذى اجتمع باسم الله الواحد .. يرددون نداء التلبية باسم الله الواحد .. هذه الحشود الذى جاءت من كل فج عميق ، وعبرت الأنهار والبحار والأودية ، ومضت عبر التلال والجبال ، جاءت من طول الدنيا وعرضها ، لا تعر الوقت اهتماما .. فإذا لم يقبل دعاء هؤلاء ، فمن يقبل دعاؤه إذن؟ ! وإذا لم تنزل عليهم الرحمة بلا حساب ، والبركة بلا حدود ، فعلى من تنزل إذن؟!

وقد اشتهر أن توبة آدم كانت فى هذا المكان ، وكان قبول توبته فى هذا اليوم أيضا ، وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة ، لكن على كل حال فإن النبى الكريم قد أخبر بأن هذا اليوم هو أفضل يوم لطلب المغفرة ، وهذه البقعة من الأرض هى أفضل بقعة لطلب المغفرة .

يوم الرحمة والمغفرة :

هل هناك أمة على وجه الأرض ، وهل هناك دين على وجه الأرض يمكن أن يقدم نموذجا على هذه المظاهرة العظيمة للتوحيد الخالص ، والعبادة الخالصة ؟! وإذا كان هناك من قدم هذا النموذج من قبل ، فهل هناك من يقدمه اليوم ؟ وهل هناك من سيقدمه مستقبلا ؟!

فهناك اليوم من يقدسون الطمع والهوى ، وهناك من يعشقون التفسح والمتعة ، يهتمون بالدنيا ، والسياحة بين المتنزهات ، وبين الخضرة والبساتين ، ويدورون فى الأسواق وبين المعارض ، ويقضون الأوقات فى المتاحف وحدائق الحيوانات ، فهم يهتمون بالدنيا ، لكن فى هذا القرن العشرين .. انظروا ! انظروا إلى هذا الجيش الربانى ، وانظروا إلى جنوده ، ففى هذا الحر الشديد ، وتحت أشعة الشمس المحرقة ، وفوق الرمال الساخنة ، برءوسهم العارية وصدورهم المفتوحة ، تغوص أقدامهم فى الرمال ، تُعفر وجوههم بالغبار .. يلفهم الخشوع والخضوع ، وتحوطهم الذلة والمسكنة ، يبكون ، ينتحبون أمام مالكهم ، يتوسلون إليه يطلبون منه العفو والمغفرة .. قلوبهم

معمورة بالأمانى ، وأفئدتهم مملوءة بالأمنيات ، يرفعون أكفهم تضرعا إلى السماوات ، يدعون ربهم بشوق واشتياق ، فإذا لم يقبل دعاء هؤلاء ، فمن ذا الذى يقبل دعاؤه إذن ؟!

إنهم ينالون ما يطلبون من ربهم ، ينالون سؤلهم من خالقهم ، لأنهم يدعون الكريم الرحيم ، الذى وسعت رحمته كل شىء ، والذى كرمه بلا حساب ..

الله ينزل إلى السماء الدنيا ، يباهى بهم الملائكة ، يقول: هؤلاء عبادى جاءونى شُعثا غُبرا ، يرجون رحمتى ويخافون عذابى ...

(٣٠)

عـرفـات (٢)

مشاغل الحجاج فى عرفة :

مع أن الناس هنا جميعا على هيئة واحدة ، وعلى شكل واحد ، لكن بينهم نماذج مختلفة فى الذوق والمزاج والطباع ، فمن بين الذين حضروا إلى عرفات يوجد المئات بل الآلاف ممن اعتبروا الوقوف بعرفة حفل ترويح عن النفس ، وانشغلوا بدعوة هذا أو ذاك لشرب الشاى ، وهناك أيضا المئات بل الآلاف يقضون وقتهم فى النوم ، وهناك أيضا من جلسوا هنا وهناك ، وانشغلوا بإعداد أشهى أنواع الأطعمة : الأرز باللحم ، وغيره .

لكن يوجد أيضا الآلاف من عباد الله ، ممن يعرفون قيمة الوقت ، وقدره ، ويعرفون جيدا أهمية هذا المقام ، فيقضون كل ساعة من ساعات هذه « الظهيرة » ، وكل لمحة من لمحات هذه « العصرية » يرفعون أكفهم تضرعا إلى ربهم ، ويسجدون له خشية ، ويبكون ، وينتحبون ، طلبا للمغفرة ! من بينهم عباد الله الأخيار المقبولون الأطهار ..

كم يحبون ربهم ! كم هم مخلصون له ! كم هم أتقياء !! كم هم أولياء لله ! كم جلسوا فى عزلة يناجونه ! فهل ستنزل رحمة ربهم عليهم فقط ؟ لا .. إن رحمة الله وسعت كل شىء ..

اليوم يحاول كل إنسان أن ينال بشكل أو بآخر نصيبا من رحمة الله التى لا حساب لها ، ونصيبا من كرمه الذى لا حدود له ، وهو يجلس فى ضيافة رب الخلق ،

ويحاول كل إنسان بشتى الطرق أن يناجي ربه ، يدعوه ، فكم من الدعاء الذى لا يستجاب ، سوف يستجاب اليوم ! وكم من المفلسين ، سيصبحون اليوم أثرياء أغنياء ! فحين يهب الكريم ، وحين يقف المسكين ، على بابه ، فلن يبخل عليه بشيء ، سيعطيه بلا حدود ، وبلا حساب ، حين تنفتح خزائن الكرم ، فهو يهب الجميع دون تفرقة ، كلٌ ونصيبه ، سينال الجميع من نعمه ، وينال الجميع من ثروته.

ورد فى تذاكر الأولياء أن عليا بن موفق ، وهو شيخ عاش فى زمن قديم جدا ، جاء للحج ، وفى ليلة التاسع رأى فى منى رؤيا ، بأن ملكين يتحدثان معا ، سأل أحدهما الآخر ، كم عدد الحجاج الآن ، فأجابه : ستون ألفا ، فسأله : ما عدد من تُقبل حجه منهم ؟ فقال : ستة ، فقال : ستة فقط من ستين ألفا ، ففغر فاه دهشة ، واتسعت عيناه وقال فى نفسه : لا يمكن أن يكون هؤلاء الستة المختارون من نصيبه ، وشعر بأن كل جهوده باءت بالفشل ، وفى ليلة العاشر ، وبعد العودة من عرفات ، شاهد الرؤيا نفسها ، ورأى الملكين ، فسأل أحدهما الآخر : إن من قبل حجهم بالأمس كانوا ستة ؟ فأجاب الثانى : لقد قبل حج الستين ألفا ببركة هؤلاء الستة !!

العظمة لله ! هذا كرم الله ! وهذه رحمة الله .. فمن ذا الذى يقنط من رحمة الله ! وهل لرحمته حدود ؟! وهل لعطائه حساب ؟!

لماذا تتعجب من مثل هذه الحكاية ! ألا ترى فى حياتك اليومية أن التراب والحصى الموجود فى سلال الغلال يباع أيضا بقيمة الغلال ذاتها ؟! والغبار العالق بالذهب .. ألا يباع أيضا بقيمة الذهب حين يوزن معه ؟!

وانظر إلى الكلب ، وهو نجس ، إلى أين وصلت درجته ببركة أهل الكهف؟!

والإنسان هو أيضا إنسان على كل حال ، والإنسان الذى جاء إلى عرفات أيضا يذكر الله ، ويذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فمن أكثر الناس سوء حظ من رجل حضر اليوم هنا ولم يسمع قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « **أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لن يغفر له** » **صدق رسول الله** .[1]

بين الخيام والشغدف :

سمعت أن من عادة أحد الشيوخ المعاصرين الكبار (أطال الله عمره) أنه إذا جاء يوم الثامن من ذى الحجة ، كان يخرج صباحا من مكة إلى منى مشيا ، فإذا كان صباح يوم التاسع ، خرج مع ثلاثة أو أربعة ممن هم على شاكلته من منى إلى عرفات مشيا ، يحمل كل واحد منهم سجادة صلاة صغيرة مع زجاجة ماء ، وقليلا من البسكويت ، وما شابه ذلك ، كان هذا كل ما يحمله كلٌ منهم ، فإذا ما وصلوا إلى عرفات ، استراحوا قليلا ، ثم اغتسلوا ، وصلوا صلاة الظهر والعصر جماعة فى مسجد نمرة ، ثم انطلقوا إلى تلال حضن وادى عرفة ، فيجلس كل واحد منهم على تل ، وينشغل بالعبادة والدعاء والاستغفار ، وكان كل واحد يجلس بعيدا عن الآخر حتى لا يشوش عليه ، كما لم يكونوا بعيدين جدا عن بعضهم ، بحيث لا يضطر الواحد منهم إلى البحث عن الآخر بعد الانتهاء من العبادة والدعاء .

وهكذا لو تمكن البعض من أن يقلدوا هؤلاء ، فهذه وصفة طيبة ، لخلو الخاطر ، وتفرغ الإنسان للعبادة ، وكاتب هذه السطور لم يتمكن نفسه من أن يكون محظوظا بهذا الشكل ، وهو يضيع وقته فى توجيه النصائح ، وقول يجب كذا ، ويجب كذا ! وهو نفسه يقضى وقته ، فى تلبية احتياجات القافلة ، وترتيب ما يلزمها من أمور ، والسهر على راحة النساء ، ثم كيف له أن يسير عدة فراسخ تحت أشعة الشمس المحرقة ، فكيف يكون لقليل الهمة هذا قدرة على الوصول حتى إلى مسجد نمرة !!

لقد كانت غنيمة بالنسبة له أن صلى فى خيمته جماعة صلاة مختصرة ! وكان العلامة الشيخ مناظر هو أسعدنا حظا ، وأوفقنا نصيبا ، فقد ذهب للصلاة فى مسجد نمرة ، وفى أثناء العودة ضل طريقه إلى الخيمة ، يعلم الله أين تاه ؟ ويعلم الله ماذا حدث له فى وحدته ، وفى خلوته ، بعد أن انقطع عن رفاقه ! لا أملك سوى أن أقول : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

كنا قد وصلنا قبل الظهر ، فقام بعض من تمكن من الغُسل بالاغتسال ، بينما اكتفى البعض بالوضوء ، كنا ستة عشر فى خيمتين : خيمة لقافلتى ، التى كانت تضم

ثمانية (رجالا ونساء) والخيمة الأخرى للثمانية الآخرين ، ولا شك أن الخيام التى وفرها لنا المطوف ، لا تتسع بأى شكل من الأشكال لأن يقيم فى كل منها ثمانية أشخاص ، لكن حسنا ، إن الأمر يتعلق بعدة ساعات فقط ، وسوف تمر بشكل أو بآخر ، جعلنا الشغدف بجوار الخيمة تماما ، فكانت النساء ، يقضين معظم الوقت داخل الشغدف ، والشغدف أكثر راحة من الخيمة ، والسبب هو أن الشغدف مثله مثل السرير مرتفع عن سطح الأرض ، ولهذا فالجلوس فيه يحمى الإنسان على الأقل من الحرارة التى تنبعث من الأرض ، ولو أن الخيمة مغلقة من الناحيتين ، فإن هذا يجعلها « مكتومة » ومنعدمة التهوية ، لا يتحرك فيها الهواء على الإطلاق ، مما يجعل الإنسان يغرق فى عرقه الذى يتصبب من جسمه ، لكن لو تم فتحها من الجانبين فإن الهواء سيمر من خلالها ، وربما كانت التهوية بداخلها جيدة.

كانت الأرض ساخنة جدا ، ومن الضرورى أن تفرش الخيمة بفرش سميك ، يحمى الجالسين من حرارة الشمس المنبعثة من الأرض ، ولو حمل الإنسان كرسيا من القماش أو سريرا من الأسرة التى تطوى ، فسيكون هذا راحة عظيمة، ولو حمل الإنسان من بومباى كرسيا من القماش معه ، فسيفيده فى السفينة كثيرا ، ويفيده أكثر فى عرفات وفى منى .

توفر الماء فى عرفات :

سمعنا حكايات مخيفة عن الماء ، كنا نسمع أن الماء نادر، ويصعب الحصول عليه فى عرفات ، وأنه غال جدا ، وهو غير نظيف ، وهذا العام بفضل الله لم تواجهنا مثل هذه الصعوبة ، فقد كان باعة الماء موجودين بكثرة ، يدورون بين الخيام ، ويصيحون ، ولم يكن الماء الذى يحملونه غير نظيف ، بل كان صافيًا ولم يكن غاليًا ، كانت الصفيحتان بثمانى أنات (أى قروش) ، ولو ساومتهم لاشتريتها بست آنات فقط .

من الممكن أن يكون هذا قد حدث فى السنوات السابقة ، ووصل سعره إلى روبيتين للصفيحة الواحدة، وربما كان غير نظيف ، لكن هذه السنة ، توفر الماء ، وبفضل الله ، وبفضل زبيدة خاتون - برد الله تربتها - التى شقت « نهر زبيدة » على

حسابها الخاص ، منذ مئات السنوات ، لتروى عطش عدد لا يحصى ولا يعد من خلق الله ، ويعلم الله ! كم من خلقه سيشربون من هذا النهر مستقبلا ، لكن هناك ضرورة أن يتم تطهير النهر ، مع إعادة ترتيب شئونه وإدارته .

لو كان مع الحاج هنا « وابور » أى (موقد كيروسين) للطهو فسيكون مفيدا له ، كان معنا فحم ، وبهذا الفحم دبرنا أمورنا ، وكنا نعد عليه طعام الفطور البسيط ، ولو كان معك « سخان » لكان هذا أكثر فائدة ، فتناول الطعام فى مثل هذه الظروف ، وإطفاء ظمأ العطش أمور ضرورية.

متاهة الخيام ونداء للحكومة :

خرجت من الخيمة وسط غابة الخيام ، وتطلعت أمامى .. آه ! منظر مهول ! ليس هناك ترتيب خاص لنصب الخيام ، وحتى لو كان هناك ترتيب ، فإن الحجاج المساكين ليسوا على دراية به ، لا توجد أرقام على الخيام ، ولا توجد علامات خاصة ، مئات ، بل آلاف من الخيام ، كلها بلون واحد ، وعلى شاكلة واحدة ، تمتد فى كل ناحية ، لا نهاية لها ، وأنا هنا لا أتحدث عمن لا يعرفون القراءة ، أو عن العجائز والشيوخ ، بل عن الشباب الأذكياء المتعلمين ، فهم بلا شك سوف يتيهون وسط هذه الغابة من الخيام !

خرجت من خيمتى ، ومشيت خطوتين ، فإذا بى أضيع وسط الطريق ، وهكذا لم أستطع أن أرجع من حيث خرجت، ولم أستطع أن أجد الطريق إلى خيمتنا ..

كان هذا وقت التعجب ! وقت المصيبة والعجز ! أسأل عن الطريق ؟ ! أسأل من .. ؟! حتى لو أراد أحد أن يدلنى ، فكيف يدلنى ، فالجميع على حد سواء لا يعرفون ! وكنا قد خرجنا نبحث عن جماعة لنصلى معها ، لكن بعد خطوات قليلة بدأنا التفكير فى العودة !

لكن لو أرادت الحكومة لاستطاعت أن تحل هذه المسألة بسهولة كبيرة ! فبدلا من حالة الفوضى هذه ، وعدم النظام ، يمكن أن تقام هذه الخيام فى معسكرات مختلفة ،

باعتبار البلاد المختلفة مثلا : منطقة المصريين ، ومنطقة الهنود ، ومنطقة الجاويين وغير ذلك ، ثم يتم تقسيم كل منطقة من مناطق البلدان الكبيرة داخليا إلى أقسام مثلا : معسكر البنجاب، ومعسكر البنغاليين ، ثم توضع أرقام على كل خيمة ، كما يتم ترقيم كل معسكر أيضا.(٢)

بالإضافة إلى ذلك يمكن وضع رايات أو أعلام مختلفة الألوان ، تميز كل معسكر عن الآخر ، ويجب أن تكون عالية ، يمكن مشاهدتها بسهولة ، كما يمكن عمل شوارع مؤقتة ، وطرق ، يوضع عليها أرقام ، وهذه الترتيبات يمكن أن تسهل أمور الحجاج كثيرا ، كما يمكن أن توضع أسماء المطوفين في كل معسكر ، بشكل واضح حول خيام الحجاج التابعين لهؤلاء المطوفين ، وهذا من شأنه أن يقضي على أية صعوبة قد تواجه الحجاج .

بالإضافة إلى هذه التدابير والترتيبات ، يمكن أيضا تعيين بعض المتطوعين ، ممن يعرفون اللغات المختلفة ، ويقترح أن يصل عدد هؤلاء إلى أربعمائة أو خمسمائة متطوع ، كما يجب إقامة معسكر من متطوعي الشرطة ، بلون خاص معين في مختلف مناطق ميدان عرفات ، على أن يتم الاتصال بينهم بالهواتف ، لإبلاغ الرسائل الفورية ، وحكومة الحجاز تحصل من الحجاج رسوما في موسم الحج ، فلو أنفقت منها عشرة آلاف أو عشرين ألف روبية لإراحة الحجاج ، فإن هذا لن ينقص من خزانة الحكومة شيئا !!(٣)

إن نقص الترتيبات ، وعدم التنظيم لا يتضح من هذا الأمر فقط ، لكن بعد العودة من عرفات سمعت أن هناك محلات لبيع الماء والثلج والعصائر والأيس كريم والشاي والقهوة ، لكن يعلم الله أين كانت هذه المحالُّ ، ففي أثناء بقائنا في عرفات لم تدر قافلتنا عنها شيئا ، والواضح أنها تنتشر علي مساحة واسعة في ركن من الأركان ، أو أنها وسط عرفات ، ولو وجدت بعض المحالِّ في مكان ما ، فكيف يدري بها من هم في أماكن أخرى بعيدة ، وبدلا من هذا يمكن أن يوجد في معسكر كل بلد بعض هذه المحالِّ لبيع هذه الأشياء الضرورية ، ووجود هذه المحالِّ مهما كانت صغيرة مفيد ؛ لكن يجب أن يتعدد وجودها ، وأن تنتشر على مساحة واسعة في أماكن متعددة .

ومن الجدير بالذكر أن الناس الذين كانوا يشاركون فى المؤتمر أو فى إدارة الجلسات السنوية لمؤتمر الخلافة فى زمن عروجه، وفى أيام ازدهاره ، كان يمكنهم أن يقدموا بكل سرور خدماتهم فى عرفات ، ولو سمحت لهم الحكومة السعودية ، فإنهم سيعتبرون خدماتهم هذه وسيلة للنجاة ، وباعثا على السعادة والفلاح ، فما حدث فى السنوات الماضية حدث وانتهى ، وعلى الحكومة أن تشرك حجاج الخارج ، وتعطيهم الفرصة لخدمة الحجيج .

ويمكن للحكومة أن تشكل - بنية حسنة - « لجنة إدارية » لكن إذا لم تشرك فيها من يعرفون اللغات المختلفة للحجاج ، ومن يعرفون طبيعة الناس فى البلاد المختلفة ، فلا يمكن لمثل هذه اللجنة أن تحقق أهدافها .

إن ما أكتبه الآن - حاشا لله - أن يكون تنقيصا من قدر الحكومة السعودية ، أو أن أقصد به نقدا معارضا ، أو مخالفا لها ، بل كل هدفى هو إصلاح الحال من أجل المستقبل ، مما يحقق للحجاج الراحة ، ويرفع من شأن الحكومة وسمعتها فى البلاد الإسلامية .

سقوط الأمطار وقت الانصراف من عرفات:

الوقوف بعرفة هو الركن الأهم من أعمال الحج ، حين كان الإمام ينتهى من الخطبة - وكان ذلك فى وقت العصر الأوسط تقريبا - كان ذلك وقتا عجيبا ، ملؤه السرور والفرح، فالحج اكتمل ، الحج اكتمل .. هكذا كانت الصيحات تتردد فى كل مكان ، وكل حاج كان يبارك للآخر ، وجاء المطوفون عند الخيام ، يعلمون الحجاج بعض الأدعية ، التى لا أتذكرها الآن ، ولم تمر من أمامى على صفحات أى كتاب، ثم كانوا ينالون منهم هم ووكلاؤهم وموظفوهم بعض الهبات والعطايا ..

وهكذا وصلنا فجأة إلى آخر وقت العصر ، وبدأ لون الشمس يميل إلى الصفرة ، وبدأت أوتاد الخيام تخلع ، وأطنابها تلف .. سبحان الله وبحمده .. يا لها من قدرة إلهية !

فى لحظات قليلة سوف يتحول هذا المكان العامر إلى مكان ساكن ، ليس فيه حس ولا خبر ! وهذا المكان الذى كان طول اليوم مجمعا للبشر ، لن يوجد عليه بعد حين ظل إنسان واحد ..

اليوم أيضا كما أُمرنا أن نصلى العصر قبل وقته مع صلاة الظهر ، فقد أُمرنا أيضا أن نخرج من هنا قبل صلاة المغرب ، وبدلا من أن نصليه هنا ، سوف نصليه حين نصل إلى المزدلفة فى الليل ، فنصليه مع العشاء ، وبعض الجهلة المساكين ، ينوون بسرعة لصلاة المغرب هنا ، وهم يسامحون على ذلك لجهلهم ، لكنهم يفقدون أجر السنة ، وهناك الآلاف مثل هؤلاء ، فيذهبون من هنا والنهار لا يزال فيه بقية ، مع العلم بأن وقت الذهاب المسنون هو بعد غروب الشمس ، فبعد غروب الشمس ، تخلع الخيام ..

كانت خيمتنا قد خلعت ، وفجأة وعلى غير المتوقع فى مثل هذا الجو من السنة ، ظهرت فى السماء سحابة ، وبرق البرق مرتين أو ثلاث مرات ، وفى لحظات قليلة بدأ المطر ينهمر !!

هذا كرم الكريم ، ورحمة المولى التى لا نهاية لها ، فهؤلاء المحرومون الذين كانوا يعانون من شدة الحر ، وكانوا يتوقون إلى نقطة ماء ، هم الآن بعد سقوط المطر مبتلون ، مبتلون من أولهم إلى آخرهم بالماء ، وهكذا بدأت أسمع عبارة « أمطار الرحمة » .. « أمطار الرحمة » تتردد على كل لسان ..

لقد شاهدت اليوم على الطبيعة « أمطار الرحمة » حقيقة واقعة أمامى ! وكان الناس يقولون إن هذه الأمطار لم يسبق أن نزلت فى عرفة منذ سنوات ، ويقول الشيوخ الكبار إن أمطار عرفة دليل قبول الحج ، فلو كان هذا صحيحا ، فيعلم الله ! من حبيب الله الذى كان شريكا فى هذا الحج ، ولماذا انهمر المطر علينا ؟ ! قل إنه مطر العفو والمغفرة ، فكل نقطة تنزل على الجسم كأنها تغسل سواد المعاصى والذنوب !

الهوامش

(١) انظر الحاشية رقم ١ فى (عرفات ١) .

(٢) تغيرت الأمور فيما بعد واهتمت الحكومة بتنظيم الحجاج وترتيب أماكن إقامتهم طبقا لمناطقهم الجغرافية ، بل وترتيب أماكن أهل البلد الواحد طبقا لمحافظاتهم داخل بلادهم .

(٣) تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم خدمات مجانية لا حصر لها الآن تتجاوز ما يذكره المؤلف .

(٣١)

مزدلفـــة

الطريق من عرفات إلى مزدلفة :

انتهى الركن الأعظم للحج بحمد الله ، ماذا تسأل الآن عن فرحة القلب وسعادته ، إن من خاض التجربة هو فقط الذى يستطيع أن يقدر هذا الأمر ، كانت الوجوه مستبشرة ، والسرور والانبساط يخيمان على الجميع .

على الحجاج أن يتوجهوا بعد عرفات إلى مزدلفة ، ومزدلفة ميدان واسع مشهور يقع بين منى وعرفات ، ومن منى إلى عرفات يوجد طريقان : أحدهما مستقيم ، والآخر فيه دوران ، والذهاب إلى عرفات بالطريق المستقيم هو المسنون ، وهنا لا يمر الذاهب على مزدلفة ، بينما فى العودة من عرفات يسن المضى على الطريق الآخر ، وفيه بعض الدوران ، ويمر على مزدلفة ، والمسافة من عرفات نحو سبعة أو ثمانية أميال ، والمسافة من هنا إلى منى ميلان ونصف .

يعرف هذا الميدان باسم مزدلفة ، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم باسم « المشعر الحرام » ويتضح من هذا أهمية القيام فيه :

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة ١٩٨)

ويشمل مفهوم المشعر الحرام الوادى كله ، وهناك مسجد أيضا يسمى بهذا الاسم ، ويكتب العلماء أن لفظ « مزدلفة » مشتق من الإزدلاف بمعنى الاقتراب ، وقد أطلق على هذا الميدان اسم مزدلفة ؛ لأن حضرة آدم وحضرة حواء ، التقيا هنا بعد

خروجهما من الجنة ، ويبقى الحجاج هنا الليلة بين التاسع والعاشر من ذى الحجة ، وقد كتب الفقهاء بأنه لو دخلت مزدلفة ، وكنت راجلا ومغتسلا ، فهذا أفضل . (فتح القدير)

المبيت بمزدلفة :

ولو اضطر الإنسان الضعيف أو المريض أو الشيخ إلى ترك البقاء فى مزدلفة ، فلا حرج ، لكن ترك الإقامة هنا دون عذر قوى لمجرد الراحة ، أو تجنب الزحام ، والخروج من عرفات مباشرة إلى منى غير مناسب على الإطلاق ، فقد ذكر الإمام الأوزاعى ، وبعض التابعين أن الوقوف بمزدلفة ركن من أركان الحج ، أى أنه يدخل فى فرائض الحج ، أى أن الإنسان إذا فوّت هذا الركن لم يصح حجه ، مثلما نقل القاضى ابن الرشد فى بداية المجتهد عن مذهب هذه الجماعة ، وقد كتب قاضى خان ، نقلا عن مذهب الإمام مالك ، مع أن الحنفية لا يرونه ركنا من أركان الحج ، لكنه فى مرتبة الوجوب ، وإن من ترك القيام هنا بلا عذر خاص وجب عليه الدم ، وهذه الليلة المباركة هنا هى طبقا لبيان بعض الفقهاء والمحدثين ، أعظم من ليلة القدر ، وعلى الحاج أن يقضى الليل - على قدر الإمكان - فى تلاوة القرآن الكريم ، والصلاة والدعاء والاستغفار ، ويمكن السهر ، وقضاء الوقت فى العبادة ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

فى أثناء القدوم من عرفات ، وفى الطريق يردد الحجاج : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ولا إله إلا الله والحمد لله .. ويستمر فى الدعاء والاستغفار ، ولا يوجد دعاء خاص ، منصوص عليه فى أثناء الوصول إلى مزدلفة ، وقد وردت عدة أدعية فى كتب المناسك .

فى الطريق يوجد أيضا الوادى الذى جاء منه عدو الله وعدو الكعبة « أبرهة » وكان ممثلا للإمبريالية فى زمانه ، جاء بكل قوته وعتاده ، لكنه هلك ، ويسمى هذا الوادى « وادى محشر » وقد كتب الفقهاء أنه إذا مررت بهذا الوادى ، فيجب أن تسرع بالناقة وتدعو :

« اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وتردد ألفاظ هذا الدعاء كثيرا ، وتدعو الله على أن يقضى على هذه الأمم التى تعادى الكعبة ، ورب الكعبة فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى . فهى أكثر عداوة من الأمم القديمة التى درست ، وبالرغم من أن بشرتهم بيضاء ، لكن قلوبهم المملوءة بالعداوة للحرم ، أكثر سوادا من وجوه أبرهة وأتباعه ، وهم أكثر قوة وعنادا من فيلة أبرهة ، بما يملكون من مدافع وطائرات ودبابات وغير ذلك .

مشاعر السرور فى الطريق إلى مزدلفة :

تأخرنا قليلا فى الخروج من عرفات بسبب المطر ، وبسبب سوء تنظيم المطوف ، وعلى كل حال فبعد غروب الشمس بنصف ساعة ، تحركت قافلتنا ، ونقصنا واحد ، بعد غياب العلامة الشيخ مناظر ، وهذا له أهمية كبيرة واعتبار من حيث السفر على ظهر البعير ، فلا يستقيم الشغدف ، ويثبت توازنه دون أن يكون فيه اثنان من المسافرين ، فإن كان فيه واحد ، مال الشغدف ناحيته ، وسقط على الأرض ! ولكن بفضل من الله تمكن نجل المطوف من الوصول إلى مكان العلامة الشيخ مناظر وهكذا مضت القافلة ..

كيف أعبر عن مشاعرنا فى أثناء هذا السفر ، لقد سافرت فى جزيرة العرب على ظهر البعير ، وفى السيارات وفى الشاحنات ، وسافرت فى أوقات مختلفة من الليل والنهار ، لكن مثل هذا السفر المملوء بالمتعة ، واللطف ، ومثل هذا السفر المملوء بالجاذبية ، ومثل هذا السفر المملوء بالفرحة ، لم يمر على أبدا ، وأحسبه لن يمر على فيما بعد أيضا !!

ليلة مقمرة .. وسماء صافية بعد نزول المطر ، والقمر قمر ليلة العاشر من ذى الحجة ، على صفحة السماء الصافية ، ينشر النور فى كل مكان ..

الجو معتدل ، لا حرارة ، ولا سخونة ، ولا اختناق ، لكن نسمات عليلة ، تجعل الجو لطيفا ، شعرت كأننى هناك فى الهند ، فى منطقة « يو بى » ، فى ليلة من ليالى مارس أو أكتوبر !!

كان المصريون ، وكان البدو ينشدون أناشيد الفرح والسرور ، فيتردد صدى إنشادهم بين التلال ، وفى قمم الجبال ، وبين الصخور ، وكأن التلال والجبال والصخور تشاركهم فرحتهم وسعادتهم ، كانت هناك أنوار تنبعث من المشاعل ، ومن مصابيح الغاز ، نور على نور ، من على اليمين وعلى الشمال ، ومن الخلف ومن الأمام ، وأمامنا تتراءى لنا مئات .. لا بل آلاف الجمال ، بينما إذا رفعت عينيك ، وجدت منظر السماء الجميل ، وإذا ما نظرت تحتك وجدت الأرض الصلبة التى تتحمل الأثقال ، وحيثما تجولت بناظريك ، هنا أو هناك ، وجدت سلسلة من الجبال .. تفسير رائع لآيات سورة الغاشية :﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ تفسير واضح لا يحتاج إلى شرح للفظ أو لعبارة !

كتب الفقهاء بأنه يستحسن فى أثناء المضى فى الطريق إلى المزدلفة الإكثار من التكبير والتهليل ، وحمد الله ، والثناء عليه ، فهذا وقت نادر ، يشترك فيه القلب مع اللسان فى ترديد كلمات الحمد والثناء على رب العباد ، ليس مضغة القلب فقط ، بل كل شعرة فى جسم الإنسان ، تردد شكر النعمة ، وهذه فرصة مناسبة للإنسان حتى يصبر ويتعلم الصبر ، وعلى الإنسان أن يطوى مرتبة الشكر فى هذه المناسبة ! فالشاكرون يقضون كل لحظة فى الشكر ، فهذه هى اللحظات التى تجول فيها الجاحدون أيضا إلى شاكرين .. الله أكبر ، ولا إله إلا الله ، والحمد لله .

وصف مزدلفة :

وصلنا مزدلفة فى ظرف ساعتين ، وهنا نقضى الليل فقط ، ومع ذلك ، وللأسف فكثير من الناس لا يفعلون حتى هذا القليل ، ويمضون مباشرة إلى منى ، ولهذا فلا تقام هنا خيمة ، أو غير ذلك ، فالناس يفرشون الأرض ، أو يضعون شيئا فوق الرمال ،

ويجلسون أو يرقدون داخل الشغدف ، والميدان واسع جدا ؛ يتسع للجميع ، ولا يحتاج إلى تدافع بين الناس ، ويوجد فيه مَحَالٌ الطعام بكثرة ، وهنا سوق بمعنى الكلمة ، أنوار وأضواء كثيرة ، وبحمد الله لا توجد مشكلة نقص الماء هذا العام ، ولا غلاء ، ولا زيادة أسعار ، كما أنها ماء صافية ، ومتوفرة بكثرة ، وإذا وجدت فرصة ونزلت عند جبل قزح المتصل بمسجد المشعر الحرام ، فأنت سعيد الحظ .. لكن كيف كان لقافلتنا أن تنال هذا الحظ ؟! فالمطوف يقودنا إلى حيث يشاء ، ويأمر جمّالنا بأن يحط حيثما يشاء .

لم ندر متى رفع الأذان فى المسجد ، كما لم تكن لدينا همة لنترك القافلة ونمضى نبحث عن المسجد ، فنلقى بأنفسنا فى مخاطر الضياع .. وقد صليت حين وصلنا المغرب والعشاء جمعا مع قافلتنا ، دون أن نصلى بينهما أية صلاة نفل ، كنا بملابس الإحرام نهار اليوم ، وقدمنا مزدلفة ، وصلينا ونحن فى حالة الإحرام المغرب والعشاء معا ، وفى المذهب الحنفى إذا صلى أحد المغرب فى الطريق إلى مزدلفة فإن صلاته غير صحيحة ، وذلك فى رأى الإمام أبى حنيفة ، والإمام محمد ، والواجب هو أن يصليها ثانية بعد الوصول إلى مزدلفة ، وهنا أيضا تصلى بأذان واحد وإقامة واحدة ، أى لا يوجد تكبير منفصل للمغرب والعشاء ، فتكبير واحد يكفى لصلاة المغرب والعشاء .

آراء بعض الفقهاء فى الصلاة بمزدلفة :

وعلى العموم يوجد جهل لدى البعض ، بمثل هذه المسائل ، وإذا كان لديهم معرفة بها ، فقد يهملها البعض أيضا ، وهكذا يصلى بعض الناس المغرب فى عرفات ، وهناك بعض المتعجلين يصلون العشاء فى الطريق، ولهذا فمن الأفضل إلقاء نظرة على أقوال وتصريحات بعض الفقهاء .

يكتب صاحب الدر المختار :

« وصلى العشائين (أى المغرب والعشاء) بأذان وإقامة ؛ لأن العشاء فى وقتها لم تحتج للإعلام كما لا يحتاج هنا للإمام ولو صلى المغرب والعشاء فى الطريق أو فى عرفات أعادها . »

أى أن الإمام لو صلى المغرب أو العشاء فى الطريق ، فعليه إعادة الصلاة هنا .

وهذا ما قال به شارحا الدر المختار الطحاوى والشامى ، **يقول صاحب الكنز :**

« ولم تجز المغرب فى الطريق. »

يقول شارحه صاحب الرائق :

« لم تحل صلاة المغرب قبل الوصول إلى مزدلفة . »

ويكتب صاحب بدايع الصنايع :

« ولو صلى المغرب بعد غروب الشمس قبل أن يأتى مزدلفة فإن كان يمكنه أن يأتى مزدلفة قبل طلوع الفجر ، لم تجز صلاته ، وعليه إعادتها ما لم يطلع الفجر فى قول أبى حنيفة وحمد وزفر والحسن . »

وجاء فى لباب المناسك :

« ولا يصلى المغرب ولا العشاء بعرفات ، ولا فى الطريق حتى يدخل مزدلفة ، وينزل بها .. ولو صلى الصلاتين أو إحداهما قبل الوصول إلى مزدلفة لم يجز وعليه إعادتهما بها إذا وصل . »

وجاء فى الهداية :

« ويصلى الإمام بالناس المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامة واحدة ... ومن صلى المغرب فى الطريق لم يجز عند أبى حنيفة ومحمد . »

وقد نقل اختلاف فى الرأى فقط عن الإمام يوسف ، لكن أحدا من الفقهاء لم يُفْتِ على قوله .

اقتراح للقضاء على سوء النظام فى مزدلفة :

إن أردت أن ترى نموذجا لسوء النظام والفوضى المنتشرة فى عالمنا الإسلامى فيمكن أن تراه هنا .. هذا الحشد الكبير ، ولا وجود لأى نوع من التنظيم أو التنسيق ، فوضى عارمة ، الوقت ليلا ، فى بلد غريب ، ولغة مختلفة ؛ لم يكن من الصعب أن يترك إنسان قافلته لسبب من الأسباب أو لضرورة ما ، لأن الوصول إلى المحالّ كان أمرا سهلا ، فهى مضاءة بأنوار ساطعة ، كما أنها كانت ظاهرة واضحة للأعين من بعيد ، لكن الأمر الصعب بل المستحيل هو الذهاب إليها ثم العودة إلى القافلة مرة أخرى ... لم تكن هناك علامة ما تساعد على ذلك !

كانت النسوة فى قافلتنا يشعرن بالجوع ، بعد عناء يوم كامل ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، فخرج رجلان أو ثلاثة لشراء الطعام ، وفى العودة ضلوا الطريق إلى القافلة .. وقلوبهم وحدها تشعر بما مرّ بهم من حال ، فالمنظر أمامهم واحد : آلاف من الإبل ، وآلاف من الشغادف ، منتشرة فى كل ناحية ، كأنك فى متاهة ، كان المساكين يتحركون خطوة، ثم يصيحون ، ينادون على أصحاب قافلتهم ..

قد يتساءل إنسان ، إن كانوا قد وصلوا إلى المحالّ واشتروا الحاجات ، فأية صعوبة تمنعهم من العودة ثانية!!

لكنى أتساءل أيضا .. هل هذا فوق قدرة الحكومة ، وخارج عن استطاعتها ! ألا تستطيع أن تحدد لحجاج كل بلد شوارع مؤقتة لليلة واحدة ، وتسمى هذا الشوارع بأسماء هذه البلاد ، مثلا : الشارع الهندى ، والشارع المصرى ، وغير ذلك ، ثم تقسم هذه الشوارع إلى مربعات أو قطع تضع عليها رقم المطوف ، وتكون أسماء الشوارع والأرقام فى أماكن واضحة ، ثم تعين عددا من المتطوعين المدربين لمساعدة التائهين ، وإرشادهم ، وكذلك تدرب بعض العارفين باللغات المختلفة ، وكذلك بعض الكشافة ، فلو تم فقط تدريب عدة مجموعات ، فسوف يكون فى ذلك سهولة عظيمة للغرباء المساكين ، وراحة للحجاج ..

يعلم الله هل سيقدم مستشارو الملك ، وبخاصة مستشاروه الهنود هذه المقترحات أيضا ، وهى مقترحات ترمى إلى خدمة حجاج بيت الله وضيوفه .[1]

الدعاء فى المشعر الحرام :

يكون القيام فى مزدلفة الليل بطوله ، وفى صباح العاشر يجب على إمام مسجد المشعر الحرام أن يصلى الصلاة فى أول الوقت ، أى مع طلوع الصبح الصادق فى الظلام .

يروى عن عبد الله بن مسعود فى الصحيحين أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان قد صلى الفجر اليوم قبل موعده المعتاد ، وعلماء الحنفية أيضا يؤكدون على هذا الوقت .

بعد الصلاة يجب أن تتجه إلى القبلة ، مثلما فعلت فى عرفات ، وأن تقف وتستحضر قلبك ، وتدعو الله ، فهذا مكان خاص يقبل فيه الدعاء ، وهذه ساعة خاصة يستجاب فيها الدعاء ، وبعد الانتهاء من الدعاء يجب التوجه إلى منى ، وحين الوصول إلى منى ، ترمى الجمرات ، التى تأخذها من هنا ، وهذا هو الوقت المسنون فى الأفضل ، فإذا قصدت الإقامة فى منى حتى الثالث عشر ، فخذ ٧٠ حصاة ، وإذا قصدت الإقامة حتى الثانى عشر فخذ ٤٩ حصاة ، فهى تكفى ، وإذا كانت الحصاة صغيرة فهذا أفضل ، وتكون مثل حبة الحمص ، وإذا كانت أكبر أو أصغر منها فهذا جائز أيضا ، اغسل هذه الجمرات ، وأبقها معك ، فرمى الجمرات النجسة مكروه .

عند الوقوف بالمشعر الحرام يقال هذا الدعاء وهو أفضل :

« اللهم بحق مشعر المشعر الحرام ، والبيت الحرام والشهر الحرام ، والركن والمقام بلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام .»

(١) سبقت الإشارة إلى الترتيبات التى قامت بها الحكومة فى هذا الشأن .

وبعد ذلك تقول : « الحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ثم تكرر التلبية ، وتدعو بما تحتاج وترفع يديك بالدعاء .

دعاء النبى فى مزدلفة :

إن جميع أعمال الحج كلها مظهر من مظاهر العبودية والإنابة ، وهى مظهر للرحمة والمرحمة ، فدعوة الضيف إلى البيت ، إذا كانت من شريف النفس ، كريم النفس ، فكيف تكون هذه الدعوة ؟! وكيف يكون الكرم إذن وهو من لدن أكرم الأكرمين ، وأجودهم ، هو الذى خلق الكرم ، فهل يتوانى عن أن يمطر بكرمه ورحمته ضيوف بيته ، وهل يبخل عليهم ، بما فى خزانة مغفرته ورحمته ؟!

لا .. ولا ... لقد رفع سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الدعاء من أجلنا ، وتوجه إلى ربه ، مخاطبا إياه ، رافعا إليه يديه من أجل هذه الأمة ..

استمع الآن .. حين وصل الحبيب من عرفات إلى مزدلفة ، ماذا طلب ؟ .. وماذا وجد ؟ لقد كان يدرك جيدا ، من الذى كان يطلب ؟ ومن الذى كان يعطى ويهب ؟

يروى عن عباس بن مرداس السلمى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة ، فأجيب إنى قد غفرت لهم ما خلا الظالم ، فإنى آخذ للمظلوم منه ، قال : إى رب ! إن شئت أعطيت المظلوم الجنة ، وغفرت للظالم ، فلم يجب (عشيته) ، فلما أصبح بالمزدلفة ، أعاد الدعاء ، فأجيب إلى ما سأل ، قال فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو قال تبسم ، فقال له أبو بكر وعمر : بأبى أنت وأمى إن هذه لساعة ، ما كنت تضحك فيها ، فما الذى أضحكك ؟ أضحك الله سنك ، قال : إن عدو الله إبليس ، لما علم أن الله عز وجل ، قد استجاب دعائى ، وغفر لأمتى ، أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ، ويدعو بالويل والثبور فأضحكنى ما رأيت من جزعه . (ابن ماجه)[٢]

(٢) انظر باب الدعاء بعرفة ، حديث رقم ٣٠١٣ ، موسوعة الحديث للكتب الستة ، دار السلام الرياض .

الله أكبر ! إن ما لم ننله فى عرفات ، نلناه فى مزدلفه .

هل يمكن لأحد أن يحيط بهذه الرحمة التى لا حدود لها ؟!

هل يمكن أن يقيس الكرم الذى لا حدود له ؟!

من يستطيع أن يُقدِّر عظمة المزدلفة ؟

ثم هل تكفى لفظة أو عبارة للتعبير عن عظمة رحمة ومغفرة من أجاب هذه الأدعية ؟!!

(٣٢)

الحج بعد منى (١)

زحام الطريق مثل زحام يوم الحشر :

يمكن القول بأن الوقوف بعرفات ومزدلفة ضمن سلسلة أعمال الحج هو فقط وقوف وركوب ، فالإقامة فى منى فى أثناء الذهاب إلى عرفات ، لم تكن إقامة طويلة ، لكن لا شك أنه بعد العودة من عرفات ومزدلفة ، يطول القيام فى منى بشكل خاص أى من صباح يوم العاشر إلى ليلة الثانى عشر على الأقل ، وإلا فحتى يوم الثالث عشر .

فى هذه الأيام الثلاثة أو الأربعة تؤدى مختلف الواجبات والسنن ، مثلا : رمى الجمار ، الأضحية ، الحلق وغير ذلك وخلالها من الضرورى الذهاب إلى مكة ، وطواف الفرض ، فأى طواف قبله لم يكن طواف الحج المفروض ، فطواف الحج المفروض ، يؤدى بعد العودة من الحج .

خرجنا يوم العاشر من ذى الحجة ، يوم الأحد ، وتحركنا من المزدلفة ، فوصلنا منى خلال ساعتين ونصف .. لا تسأل عن زحام اليوم ، وصراع الناس مع بعضها .. بدأت حدود منى ، فبدأنا نشعر بشدة الزحام أكثر فأكثر ، فعلى درب واحد كانت الجمال تسير ، وكانت البغال والخيل والحمير ، ويسير معهم أيضا البشر ، الذين يمشون على أرجلهم ، وأحيانا تأتى السيارات أيضا فتزاحمهم هذا الطريق الوحيد ، الذى يستخدمه الذاهبون والقادمون أيضا ، الطريق نفسه !! ولا نظام ، ولا ترتيب ! فالشرطة لا تتدخل ولا تقوم بأى دور فى تنظيم المرور ، ولا تقوم هيئة من الهيئات

بالمساعدة، لكن كل إنسان يحاول بنفسه أن يدفع الآخر ليجد لنفسه مكانا ، لا يمكن تخيل مثل هذا التدافع والصراع ..

البعير يتعارك مع البعير ، والشغدف يصطدم بالشغدف ، وكل ناقة تصرخ بقوة ! وبينما هذه الحيوانات الخرساء تصرخ ، كان الجمال أو المطوف أو وكلاء المطوف ونوابه يصيحون ويصرخون .. لا تسأل عن خوف أولئك القابعين فى الشغدف ؟! كيف كان هلعهم ؟!

كانت الرهبة تسيطر عليهم ، بينما البعض يصرخ مما أصابه من رعب شديد ، ومن هول المنظر المخيف ، فهو يظن أن شغدفه ساقط لا محالة .. وبعدها يسقط الشغدف على الأرض !

هذا بينما كان البعض يصاب بالذهول الشديد فيسيطر عليه السكوت والصمت ، وينعقد لسانه حتى عن الصراخ ! أما التراب والغبار فحدث ولا حرج ، فقد غطى الأيدى والأقدام ، وملأ العين والأنف ، وغطى الشعر ، ودخل الفم ، وباختصار نالت كل أعضاء الجسم نصيبها من التراب والغبار ، وفى ذلك الوقت فقدنا هندامنا ، وكذلك ما كنا عليه من نظافة ، لكن من ذا الذى يفكر الآن فى النظافة والطهارة.؟!

حاجة الحجيج فى منى إلى تسهيلات وخدمات :

كانت « ركوبة » عجيبة ، وكان « مركبا » صعبا ، كنا فى غاية القلق ، فإلى أين سنمضى بعد هذا ؟ وأين ذلك المنزل الذى سنصل إليه ، فننزل من على ظهر البعير ؟ لقد خضنا تجربة جيدة ، بعد أن أقمنا فى ميدان عرفات .. فأين كان من الممكن لنا أن نحمى أنفسنا من حر جزيرة العرب ، بعد أن أنعم علينا مطوفنا بخيمتين رقيقتين ضعيفتين ؟! وعلى كل حال كان الأمر مجرد قضاء عدة ساعات فقط ، وقد مضت بشكل أو بآخر ، لكننا هنا فى منى سنقيم ثلاثة أيام بتمامها وكمالها ، وسوف نقدم الأضاحى ، وبعد تقديم الأضاحى .. ترى كيف سيكون علاج تلك الأمراض الوبائية ، التى تنتشر عادة من جراء العفونة والقذارة ، التى نتسبب فيها نحن بأنفسنا ؟!

كان صدى هذه الأفكار يتردد داخل دماغي ، حين أسمعنا المطوف بشرى طيبة ، إذ قال إننا لن ننصب الخيام الآن ، بل سنقوم بنصب الخيام بعد أن نصل إلى مكان ما !!

إنا لله وإنا إليه راجعون .. اترك أمر مسألة المكان الذى سننصب فيه خيامنا ، لكن كيف سيكون هذا المكان ؟ الآن لم ننصب شيئا ، كما أننا لسنا فى عجلة من أمرنا !

من الذى لا يعرف مدير صحيفة « سچ » فى نقده للإفرنج ! لكن فى مثل هذه المناسبات ، نضطر إلى أن نقول بخجل وندم : ليت أهل أمتنا من المخلصين المتدينين يتعلمون ممن لا دين لهم !! فحيث تكون حشود «عباد الدنيا » الكبيرة أيضا، يحاول هؤلاء تهيئة سبل الراحة للضيوف ، وتهيئة سبل الراحة للغرباء ، بأسلوب حسن ، وبطريقة جيدة ، ويحاولون أن يشعروا الغرباء بأنهم فى وطنهم ، بل يهتمون بهم أكثر من اهتمامهم بمواطنيهم .

هذا صحيح تماما ، فإن أحدا لا يعترض على أن العبادة جعلت من أجل العبادة ، وليست من أجل اللذة أو من أجل المتعة ، لكن تحمل التعب والمشقة دون ضرورة ، وجعل العبادة أمرا متعبا دون سبب ، أمر لا تقبله شريعة ، ولا يجيزه القانون !

فرج من بعد كرب :

لقد عرفت اليوم قيمة المبانى الثابتة ، لقد فتحت عينى فى بلدى داخل المبانى والعمارات ، وقضيت كل عمرى فى « الظلل » والبيوت الواسعة ، فاعتبرت هذا أمرا عاديا ، وحقا طبيعيا ، فلم أعرف قدر هذه البيوت ، وهذه حال الإنسان، فهو لا يشكر الله على النعمة التى ينعم بها عليه بلا مشقة منه وبلا سعى ، بل قد يكفر بها أيضا .

حين افتقدت اليوم الظل ، ولم أتمكن من أن أستظل بسقف ! وتخيلت نفسى هنا فى شهر مايو ، وسط جزيرة العرب ، لليلة أو ليلتين مع القافلة كلها فى الخلاء الواسع ، دون أن تظلنى حتى ولو قطعة من قماش، تذكرت لأول مرة فى حياتى أن

امتلاك الإنسان لبيت ثابت هو نعمة خاصة من نعم الله تعالى ، وأن كثيرا من عباد الله يقضون طول حياتهم دون أن تتيسر لهم هذه النعمة .

البيت المشيد هنا من أجل القافلة الرسمية لحيدر آباد ، هو بيت عظيم الشأن ، كما أن مندوب الحج الرسمى لحجاج حيدر آباد ، وهو الحاج بلال رجل على خلق عظيم ، متواضع ، يكرم الضيوف ، لكن على كل حال إن الأماكن الموجودة لديهم أماكن محدودة ، ولو كان الأمر متوقفا على اثنين أو ثلاثة ، لما كان هناك أى حرج ، لكننا ستة عشر حاجا ، منهم نساء أيضا ، ومنهم عجائز ، فأين يمكنهم القيام؟ وكيف يمكن لهؤلاء الناس أن يرتبوا أمر راحتهم بشكل مناسب ؟

هكذا ظل الفكر والفؤاد معا فى حيص بيص ... بعد قليل أمر المطوف بإنزال الشغادف ، وبينما نحن كذلك إذا بى أشاهد أخت زوجتى « بيغم نواب ناظر يار جنك بهادر» القاضى بالمحكمة العليا فى حيدر آباد ، والدكتور ناظر الدين حسن (من لكهنو) ، كانت قد جاءت أيضا للحج مع زوجها وأطفالها .. من فى الدكن أو فى أوده لا يعرف زوجها !!

كانت معهم خيام واسعة جدا يقيمون فيها ، وخيام أخرى ملحقة بها تشكل أفنية واسعة ، تلحق بالخيام الأصلية ، كما كان لهم أيضا مبنى ثابت ، لكنه ليس بكبير ، فكانت هذه فرصة عظيمة ، لا تقدر ، وفى خلال نصف ساعة كان أفراد قافلتى الخاصة الثمانية قد نزلوا ضيوفا عليهم ، بينما اضطر بقية الثمانية ، للنزول فى المقرّ الخاص بالحيدر آباديين ، حيث أقاموا هناك فى راحة ويسر.

بعد أن نزل أبونا آدم من الجنة ، وحين التقى فى مزدلفة بأمنا حواء ، شعرا بسرور وسعادة ، عبرت عنها حكايات وروايات كثيرة ، كتبت فيما بعد ..

إن ما شعر به ابن آدم - كاتب هذه السطور- من سرور وفرح ، هو نموذج مصغر لذلك ، وربما كان الفرق أن ابن آدم هذا لم يكن فى مزدلفة بل فى منى ، ولم يلتق بزوجته بل التقى بأخته .. لا يجب أن يفهم القارئ هذا على أنه نكتة أو مزحة ! فهذا واقع ، وهذه حقيقة ، فإن ما وجده من راحة فى هذا المبنى لم يكن من الممكن أن يجد عشر أعشاره فى الخيمة !!

أعمال الحج يوم العيد :

اليوم العاشر من ذى الحجة .. فلو قلت هذا الدعاء عند الدخول إلى منى لكان أفضل :

« اللهم هذه منى قد أتيتها وأنا عبدك وابن عبدك أسألك أن تمن على بما مننت به على أوليائك ، اللهم إنى أعوذ بك من الحرمان والمصيبة فى دينى يا أرحم الراحمين ، الحمد لله الذى جعلنى سالما معافيا .»

العبادات الخاصة ، فى أثناء القيام بمنى أربع : رجم الشيطان الذى يطلق عليه اصطلاحا « الرمى » أو « رمى الجمرات » ، ثم الأضحية ، ثم الحلق أو التقصير ، ثم الذهاب إلى مكة لطواف الزيارة (الإفاضة).

وطبقا لترتيب هذه العبادات ، فالرمى تقدم على الجميع ، جاء فى الروايات أن إبراهيم الخليل حين أخذ فلذة كبده إسماعيل لذبحه ، التقى فى طريقه بالشيطان ثلاث مرات ، فأراد الشيطان أن يجعل الوالد يحيد عن طريق الحق ، لكنه فشل فى كل مرة ، وحتى نتذكر هذه الواقعة يتم رجم الشيطان عند هذه الأماكن الثلاثة ، ويطلق على كل حجر أو حصاة « جمرة » والجمرات أو الجمار هى جمع جمرة .

تقع الجمرات الثلاث على الشارع نفسه ، وسط السوق ، وحين المجىء من مكة إلى ناحية منى ، تكون الجمرة التى يطلق عليها جمرة العقبة ، والثانية جمرة الوسطى ، والثالثة الجمرة الأولى ، وهى التى تقع جهة عرفات والمزدلفة ، ويقول العامة الشيطان الأكبر ، والشيطان الأوسط ، والشيطان الأصغر ، ويفصل كل واحدة عن الأخرى مسافة فرسخ أو فرسخين .

صفة رمى الجمار :

يجب علينا اليوم أن نرمى جمرة العقبة فقط ، ويجب أن تكون الجمرات من جنس الأرض أى من الحجارة أو الطين ، ولو رمى أحدهم بجمرة من حديد أو ذهب

أو فضـــة ، فلا يصـــح رميه ، ويجـب ألا يـقـل عدد الحـصيات عن سبع ، ولو زاد عن ذلك فـلا حـرج ، ويتم الإمـسـاك بـكل حـصـاة بالـيـد اليـمنـى، ويرمـى بـهـا مـع التكـبير هـكذا « **باسـم الله والله أكـبر رجمـا للشيطان** » ، ومن الأفضل أيضا أن يقـول الإنسـان هـذا الدعـاء « **اللـهم اجـعل حـجـى مـبرورا ، وسـعيى مـشكورا وذنبى مغفورا** ».

ومن الأفـضل أن يأخذ الإنسـان مـعه الحـصيـات من مـزدلفـة ، فإن لم يفـعل ، فليأخذها من أى مكان آخر ، فهو صـحيـح ، لكن أخذ الجمرات التى ألقاها الآخرون عند الرمى مكروه ، وعند الأطراف الثلاثة لجـمـرة العقـبـة ، يوجد مكان منخـفض، من الأفضل الوقـوف هناك والرمى من هناك ، ولكن إذا لم يجد الإنسـان مكانا نظرا لشدة الزحام أو التـأخير ، فإن الناحـية الرابعة بها تل يمكن الرمى من فوقه أيضا ، ومن الأفضل أن تغسل الحـصى حتى لا تكون هناك شبـهة نجاسة ، وبعد رمى هذه الجمرة اليوم يتحرك الإنسان ، ولا يتوقف فهذه هى السنة .

تشـكل هـذه الجـمـار تلالا من الحـصى ، وإذا حـسبنا عدد الحـجاج ، وافـترضنا أنهم مـائة ألف ، وحـسبنا عدد جـمار كل حـا ج أى سبعة لكل حـا ج ، فاليوم فقط (دون حـسـاب الأيـام التـالـيـة) يكون قـد تجـمـع على هـذه الجـمـرة على الأقل ٧٠٠ ألف ، لكنـهـا قـدرة الله ، فـهـذه الجـمـار كـلـهـا تنتـهى ، ويصـبـح هـذا المكـان بـعـد الحـج خاليا .

والرمى يـكـون مشـيـا ، وهـذا جـائز ، لكن طبقـا لقول الإمـام أبى حنيـفة والإمـام أحـمد ، فالأفضل الرمى ركوبا ، ويرى القـاضـى خان أنه من الأفضل أن يرمى كل حاج بنفسـه ، ولكن يمكن للمرضـى والضـعـفـاء والمعـوقـين أن ينيـبوا عنهم من يرمـى لهم ، والوقت الأفـضـل والمسنـون للرمـى اليـوم هـو من طلوع الشـمـس حـتـى الزوال ، ويجـوز الرمى ، ولا كـراهـة فى ذلك بين الزوال والغروب ، وهو جـائز أيضـا بعـد الغروب وحـتـى طلـوع الصـبح الصـادق ، لكنه مكروه ، كـمـا أن التلبـيـة حـتـى الآن ضـرورية فـى كل مناسبة ، ويجب التوقف عن التلبية مع رمى الجمرة الأولى .

الهدى وذبح الأضاحى:

انتهينا بحمد الله من الرمى عند الظهر ، بعدها جاء دور الأضحية ، قررت الشريعة للأضحية ثلاثة حيوانات : الجمال والبقر والماعز أو الخراف ، ويمكن أن يشترك فى الجمل أو البقرة أو العجل سبعة أفراد ، أما الاشتراك فى الخروف أو الماعز فهو غير جائز فى المذهب الحنفى ، فيجب أن يضحى كل شخص بخروف أو ماعز ، ونظراً لكثرة الجمال ، فهى متوفرة من أجل الأضاحى ، لكن تقسيمها إلى سبعة أقسام مكلف جدا ، لكن إذا كان مع الإنسان كفاية من مال ، فمن الأفضل التضحية ببعير ، فتصريحات الفقهاء فى جانب الجمل ثم البقرة :

« أعلاه الإبل والبقر . » (در المختار) « له أعلى وهو الإبل وهو أفضله ، وأوسط وهو البقر . » (الطحطاوى) ، « عندنا أفضلها الإبل ثم البقر ، ثم الغنم . » (فتح القدير) .

وقد نقل الإمام الشافعى عن عطاء هذه الرواية : إن أقل الأضحية هو الماعز والخراف ، ولا فرق بين ثمن الماعز والخراف هنا وثمنها فى الهند فى وقت عيد الأضحى .

كان كل إنسان له مطلق الحرية من قبل فى أن يذبح أضحيته فى المكان الذى يريد ، فكان الدم واللحم والجلود كلها تلقى فى كل مكان ، وكانت منى كلها مثل المذبح ، فكان من الطبيعى أن تنتشر العفونة ، وتظهر بالتالى الأوبئة والأمراض ، ومن هذا العام ، وبفضل من الله انتهى هذا الأمر العجيب ، وتم بناء مذبح خاص يمكن للجميع الذهاب إليه وذبح الأضحية هناك ، وهكذا صار الناس فى مأمن من الأوبئة والأمراض .

كان من بين أفراد قافلتنا الشيخ مشير الزمان ، وهو رجل مخلص متفان فى خدمة الجميع ، وهو نموذج حى على الإيثار والطاعة والتعاون ، وهو الذى تولى ترتيبات أمور القافلة من بداية السفر إلى نهايته ، واليوم أيضا لم تكن لدينا همة تذكر للخروج تحت أشعة الشمس المحرقة ، لكن هذا المسكين هو الذى ذهب بنفسه وتولى أمر ذبح الأضاحى عنا نحن الثمانية .

الحلق أم التقصير :

علينا أن نتذكر أننا لا نزال بإحرامنا الذى أحرمناه فى ليلة ما بين السابع والثامن من ذى الحجة ، ولا نزال ملتزمين بشروط الإحرام وقيوده ، لقد توقفنا فقط عن التلبية ، بعد رمى الجمرة الأولى ، كنا نفكر في حل الإحرام ، بعد الانتهاء من ذبح الأضحية ، ومن أجل ذلك ، ومن الضرورى طبقا للمذهب الحنفى أن يتم الحلق أولا ، أو التقصير على الأقل ، والحلق أفضل ، وقد دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لذلك ، بينما الصحابة فى حق المقصرين ، وقد كتب الفقهاء أن الحلق مثل الغسل ، بينما التقصير مثل الوضوء .

على كل حال بدأنا البحث عن حلاق ، فوجدنا شيخا ، كان بالصدفة من مقاطعتنا ، وليس من الهند فقط ، ولم يكن الأمر كذلك فحسب ، بل كان من مركزنا (مركز باره بنكى) يبلغ من العمر نحو ثلاثين عاما أو أربعين ، ترك وطنه وجاء ليستقر هنا !

لا يجوز للمرأة حلق الرأس ، ويمكن أن تقصر بقدر عقلة الإصبع ، فهذا يكفى ، وعند الحلق يمكن لك أن تدعو ، وأن تكبر ، فهذا مستحب ، لكن حلاقنا كان مهتما بالحديث أكثر من اهتمامه بذكر الله . كان وقت العصر قد وصل إلى نهايته حين فرغنا من الحلق ، ومن الغسل ، فنزعنا عن أجسامنا الإحرام ، وارتدى الجميع ملابسه العادية !

(٣٣)

الحج بعد منى (٢)

طواف الفرض (طواف الزيارة ، طواف الإفاضة) :

ورد فى كتاب الله الكريم – عند ذكر مناسك الحج – هذا الحكم « وليطَّوفوا بالبيت العتيق » إن الركن الأصلى أى فرائض الحج ، الإحرام والوقوف بعرفة ، وطواف الكعبة ، وقد أجمع المفسرون والفقهاء على أن طواف الفرض هو هذا الطواف ، الذى يكون بعد الوقوف بعرفات أى طواف يوم العيد (١٠ من ذى الحجة) والطواف الذى قبله كان طواف العمرة ، ولم يكن طواف الحج ، وأى طواف آخر بين الأول والثانى مهما كان عدده فهو نفل .

وهكذا جاء وقت طواف الفرض ، ومن الضرورى أن نذهب من منى لنطوف هذا الطواف ، ومن الأفضل أن نعود إلى منى بعد الانتهاء منه ، ونكمل رمى الجمرات ، وقد اشتهر هذا الطواف باسم « طواف الزيارة » و « طواف الركن » و « طواف الإفاضة » وأيضا « طواف يوم النحر» وهذا الطواف يمكن أن يطاف به بعد الانتهاء من الأضحية والحلق، ويبدأ وقته من صباح يوم العاشر من ذى الحجة ، ويستمر حتى يوم الحادى عشر والثانى عشر ، لكن من الأفضل أن ينتهى منه الحاج يوم العاشر ، وقد طاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا الطواف يوم العاشر من ذى الحجة ، وقد سبق بيان طريقة الطواف ، وعليه يمكن إكمال هذا الطواف بالطريقة التى سبق ذكرها ، وهكذا يدخل الإنسان المسجد الحرام من باب السلام ، وينوى الطواف ويطوف سبعة أشواط ، ثم يسعى بين الصفا والمروة ، والخلاصة أنه مثل أى طواف آخر .

مسألة فى طواف الإفاضة :

وقد جاء بحث فى كتب الحديث والفقه أن شخصا طاف هذا الطواف فى الصباح ، وكان عليه أن يرجع إلى منى ، فأين يمكنه أن يصلى الظهر ؟ هل يصلى فى المسجد الحرام أم فى منى بعد أن يعود ؟ ، وقد وردت رواية تقول بأنه يصلى فى المسجد الحرام ، ورواية أخرى تقول بأنه يصلى فى منى متى ما رجع .

ومن اللطيف أن الروايتين مثبتتان فى صحيح مسلم ، الحديث الأول فى باب حجة النبى (صلى الله عليه وسلم) عن حضرة جابر (رضى الله عنه) ، وقد جاء فى رواية طويلة ، وفيه وردت هذه الفقرة بوضوح : « فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر » ، وفى الحديث الثانى : باب استحباب طواف الإفاضة يوم النحر عن عبد الله بن عمر أنه قال : عن نافع بن عمر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أفاض يوم النحر ثم رجع ، فصلى الظهر بمنى .

ليس هذا فقط بل ذكر نافع عن ابن عبد الله بن عمر أنه :

« قال نافع : فكان ابن عمر (رضى الله عنه) يفيض يوم النحر ، ثم يرجع فيصلى الظهر بمنى ، ويذكر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) فعله . »

وقد طابق المحدثون بين الروايتين المتعارضتين هكذا :

« ووجه الجمع بينهما أنه (صلى الله عليه وسلم) طاف للإفاضة قبل الزوال ثم صلى الظهر بمكة فى أول وقتها ، ثم رجع إلى منى فصلى بها الظهر مرة أخرى بأصحابه حين سألوه ذلك منفلا بالظهر التى بيّنا » ، وهذه عبارة العلامة النووى فى شرحه لمسلم ، وقد مال الكثيرون إلى هذا القول .

طواف الإفاضة يوم الحادى عشر :

كان هذا قرار المحدثين ، ومن بين فقهائنا رحمهم الله كتب صاحب فتح القدير ، حين تكون هناك رواية تتعارض مع أخرى ، فيتم إسقاط الروايتين ، ولما كانت صلاة

الظهر تصلى بالضرورة ، ومن الأفضل أن تصلى بمكة ، فمن الثابت فضيلة الصلاة بالمسجد الحرام ، وهذا أمر مسلم به .

حل يوم العاشر سريعا ، وصلنا بعد طلوع النهار بساعتين أو ثلاث ساعات ، ثم كان البحث عن مكان الإقامة ، وكان هناك عدد كبير من الناس يتجمعون لرمى الجمرات ، مشينا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى جمرة العقبة واخترقنا الزحام ، وانتهينا بشكل ما من الرمى ، وعدنا كما دخلنا ندفع الناس ، ويدفعوننا ، تناولنا الطعام ، وانتهينا من أمر الأضحية ، وحلقنا ، واغتسلنا ، وانتهى اليوم فى إتمام كل هذه الأمور ، ولم نتمكن من الذهاب إلى مكة للانتهاء من طواف الزيارة قبل يوم الحادى عشر من ذى الحجة .

سبق أن ذكرت أن طواف يوم العاشر أفضل ، لكن دين الفطرة فيه من التسهيل الكثير ، فالدين ليس اسما للصعوبات والمتاعب والمشقات ، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله أيضا بأنه إذا كان معك نسوة ، فيمكن دون أى حرج أن تطوف يوم الحادى عشر ، أو يوم الثانى عشر بدلا من يوم العاشر من ذى الحجة ، حين يكون الزحام شديدا ، وقد ثبت أن هذه الرخص كانت بالنسبة لنا نحن الضعفاء مثل فراشات الرحمة ترفرف من فوقنا !

حكاية العربة والبغل :

فى يوم الحادى عشر من ذى الحجة بدأنا البحث فى مسألة وسيلة الذهاب إلى مكة ، ويلاحظ أن الجمال التى استأجرناها من مكة يوم الثامن من ذى الحجة لمدة خمسة أيام ، لا تشمل أجرتها السفر بها من منى إلى مكة ، لطواف الزيارة ، على الأقل هكذا أخبرنا مطوفنا !

وعلى كل حال ، وبعد بحث ، وانتظار ، تم الاتفاق على تأجير أربع « عربيات » وكان مع قافلتنا قافلة أخرى ، هى قافلة « ناظر يار جنك » ولهذا كان علينا أن نستأجر أربع « عربيات » و« العربية » مثلها مثل العربة الصندوق التى تستخدم فى حيدر آباد ،

يركب فيها الإنسان ، ويثبت نفسه بداخلها ، وقد سبق لى تجربتها من قبل كثيراً ، واليوم أخوض التجربة من جديد ، ويمكن أن يركب فى كل « عربية » أربعة أو خمسة مسافرين ، ويقوم بسحب هذه « العربية » حصان ، وبعضها يسحبها بغل .

كنا نسمع دائما مدحا وثناء على الخيول العربية ، لكن نسل هذه الخيول انقرض على ما يبدو ، وصار نادر الوجود ، فما رأيناه يختلف تماما عما كنا قد سمعناه ! أما حال العربيات فهى أسوأ كثيرا من حال الخيول ، الله وحده يعلم ! ألا تشعر بلدية مكة بالمسئولية ، حين تمر من أمامها هذه « العربيات » التى تحمل المسافرين .

إننى أفضل الحديث فى هذا الأمر حتى ينتبه الأخوة الذين يقرءون هذه الرحلة ، فيمكنهم أن يقدروا جيدا الراحة والتعب فى كل مرحلة وفى كل مكان ، وأن يعدوا لذلك ما يناسبه ، كلٌ فى مكانه ، وكلٌ فى حينه ، فالمتاعب التى تأتى على الإنسان فجأة ، ودون توقع ، يشعر الإنسان بها أكثر .

كانت أجرة « العربية » فى الغالب أربعة ريالات سعودية (الريال ١٨ آنة هندية) ، لم نكد نطوى نصف المسافة ، حتى انقلبت « عربتنا » فجأة ، وانفصل عنها الحيوان المسكين ، وتساقط المسافرون فوق بعضهم داخل العربة ! الحمد لله ، حفظنا الله سالمين ، لكن قدم منشى (الباشكاتب) أمير أحمد علوى كاكورى (الذى سبق ذكره فى المدينة المنورة) أصيبت ، فقد جاءت تحت « عريش » العربية ، وكانت إصابة المسكين بالغة ..

أين يمكن أن نجد الآن المرهم والعلاج ؟! غسلنا قدمه بالماء ، ثم ركب المسكين ثانية ، وبدأنا مرحلة - لا أقول الشكر - بل مرحلة طى مراتب الصبر من جديد .

مشاعر القلب فى أثناء الطواف :

كانت الساعة حوالى الثامنة والنصف بتوقيت الهند حين وصلنا إلى أبواب الحرم الشريف ، كانت جنة المعلى التى مررنا عليها وقت الذهاب إلى منى يوم الثامن من ذى الحجة على طريقنا اليوم أيضا ، فكانت أمامى فرصة لمشاهدتها اليوم باطمئنان

وتمعن ، وبقدر ما شاهدتها عن قرب ، بقدر ما تحسرت وحزنت ! حسنا ربما أذكر هذا الأمر فيما بعد ..

وصلنا باب الحرم ، وحين دخلنا الحرم ، زال كل تعب وألم ، وحل السرور والفرح ، والبشاشة .. الله ! الله ! ما هذه العظمة التى أودعها صاحب البيت فى البيت ! فجميع « وصفات » و« روشتتات » الهدوء والسكينة ، وجميع وسائل الاطمئنان وهدوء البال فى ناحية ، ثم زيارة بيت من لا بيت له ، ورؤية مكان المكين الذى لا مكان له فى ناحية ، قال الشيوخ الكبار : إن أردت سكون القلب وهدوءه ، فأوجد علاقة للقلب مع الله ..

وهنا أقول إن وصل القلب بالله هو عمل أصحاب القلوب ، إن لم يكن لديك « بُراق »« الهمة » للوصول إلى الله ، فلماذا لا تصل إلى بيت الله ؟! ولتترك خيالات القلب ، وتصورات القلب ، ولماذا تتقاعس عن الحصول على ثروة الرؤية بالعين؟! أما حال جمال صاحب البيت فاسأل عنه الملائكة !! ويبقى أمر التراب الناسوتى ، فقد حُرم من حسن باب وأبواب المكان ، ذلك المكان الجذاب ، الرائع ، الجميل المحبوب ، والقلب يريد أن يزرف الدموع على حرمان هذا المسكين !

يقول الناس وهم صادقون : إن السفر للحج فيه متاعب كثيرة ، لكن ثواب أداء فريضة الحج أمر آخر ، والوقوف فى عرفة ، والمبيت بمزدلفة ، والأضحية فى منى ، هذه كلها أمر أخر ، ومجرد رؤية الكعبة بأحجارها السوداء ، وغلافها الأسود ، وجمال بقعة النور ، كل هذا فى حد ذاته نعمة كبرى ، ولو كانت قيمتها السفر والمعانة فى السفر ، ومواجهة الصعاب فى السفر ، فهذا كله ثمن رخيص.. ورب الكعبة ! رخيص جدا .. والشاعر يقول :

« متاع وصل الأحبة غال

فلو كان ثمنه الروح فلا أبالى ! »

إن ما يريده الشاعر بوصل الأحبة هو بالنسبة لنا نحن قصار النظر هو الوصول إلى باب الأحبة ، إن زيارة هذا البيت ثروة كبرى ، وهو المنتهى الأخير لهممنا وعزائمنا !

الفرح والسرور والدعاء فى طواف الإفاضة :

لقد طفنا من قبل ، لكن طواف اليوم !! ماذا أقول عن طواف اليوم .. كنا فى الصباح ، والهواء يميل إلى البرودة ، والزحام قليل نسبيا ، وبركات العودة من عرفات والمزدلفة ، والإحساس بأداء الفرض ، كل هذا أوجد بداخلى حالة عجيبة من الفرح والسرور ، ومع كل شوط فى الطواف حول البيت ، كان قلبى يدق ، يفتدى صاحب المكان ، رب البيت ، أتيحت لى فرصة الدعاء عند الملتزم اليوم أيضا ، وهو من الأماكن المخصوصة بإجابة الدعاء .

وهناك رواية لابن عباس (رحمه الله) جاء فيها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال : « **هذا هو المكان الذى أجيب فيه كل دعاء دعوت به** » ، فإذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد دعا ربه هنا ، فاستجيب دعاؤه ، فلماذا لا يقوم أبناء أمته بالدعاء هنا أيضا ، فالأمة المسكينة فى أمس الحاجة لمثل هذا الدعاء ، وقد جاء فى كتب المناسك ، أن المسلم يلتصق بالملتزم ، ويمسك بغلاف الكعبة ، ويدعو ربه ، ويطيل الدعاء مع استحضار القلب ، ولا بأس أن تنهمر الدموع ، جاء فى بعض الروايات أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: « **إن جبريل كان يلتصق بالملتزم ، ويدعو هذا الدعاء : « يا واجدُ ، يا ماجدُ ، لا تزل عني نعمة أنعمتها علي .** »

فلا تسأل عن جامعية هذه الألفاظ وبركتها ، لكن الأمر ليس موقوفا على هذا الدعاء فقط ، فيمكن أن تدعو بأى دعاء يرد على خاطرك ، لنفسك ، ولغيرك ، وتطلب كل شىء ، ولا تفكر كثيرا فى رقة القلب ، وحرقته ، فسوف يظهر كل هذا بداخلك !

دعاء من أجل أمة الإسلام :

ماذا يقول كاتب هذه السطور ، صاحب الصحيفة السوداء عما طلبه من ربه ؟!

لقد تذكرت بعض الذنوب : عشرة أو عشرين .. تذكرتها بشكل خاص ، ودعوت الله أن يغفر لى ذنوبى .. لكن من كانت حياته كلها مجموعة من الأعمال السيئة ، ومجموعة من الذنوب فأى ذنب يتذكر ؟! وأى ذنب يطلب من الله أن يغفره له ؟! لكنها

قدرة الله ، التى تجعلك تتذكر فى هذا الوقت جميع السيئات ، وجميع المعاصى ، وجميع ما ارتكبت من ذنوب ، واحدا ، واحدا ، والدعاء الذى جاء على اللسان ، والدعاء الذى خرج من القلب ، لم يكن من أجل هذا المذنب فقط ، بل كان من أجل أهله ، ومن أجل أقاربه ، ومن أجل أحبابه ، ومن أجل أصدقائه ، ومن أجل شيوخه .. وأكثر من هؤلاء جميعا ، من أجل أمته المسلمة .

فكيف هى حال المسلمين اليوم فى الهند ، وهذا الأمر ليس بمقتصر على الهند ، بل فى العالم الإسلامى كله ، إلى أية مرحلة وصل تدهور الأمة ، وزوالها ، وإدبارها ، ومصائبها ، وسوء نظامها ، ونفاقها ، واضطرابها !

يا رب الكعبة ! أبعد عن أصحاب القبلة ما هم فيه من فرقة ، وعمر قلوبهم بالإيمان ، وحسن العمل ، ونور الهداية، والاتحاد معا ، فكل هذا بيدك ، فقد وصل ذل الأمة الإسلامية إلى مداه ! ووصل الخجل إلى منتهاه ! ففى كل مكان يهزأ الخلق بذرية الخليل ،الذين صاروا مضحكة للجميع ، وصاروا مثار سخرية الجميع ... فالجميع الآن يستهزئون بأمة حبيبك !

يا رب الكعبة ! إن ذاتك منزهة عن السهو والنسيان ، إنك لا تنسى أحدا من عبيدك ، فمن ذا يقول ، وكيف له أن يقول بأنك لن تنظر بعين رعايتك ولطفك إلى من نطقوا بالشهادة ، وإلى من يطوفون حول الكعبة ؟!

(٣٤)

الحج بعد منى (٣)

الدعاء فى الحطيم :

ورد ذكر الحطيم من قبل ، وهو الصحن نصف الدائرى المتصل بالكعبة ، وهو فى المطاف ، ويعد - حكما - جزءاً من الكعبة ، والصلاة فيه مثل الصلاة بداخل الكعبة .

بعد الطواف والدعاء عند الملتزم ، وجدت اليوم فرصة لأن أقف بهدوء واطمئنان فى الحطيم ، فقد تمنيت كثيرا من أعماق قلبى أن أصلى فى هذا المكان ، وأن ألتصق بجدار الكعبة ، وأتوجه إلى الله بالدعاء ..

كم من الناس أخذوا معهم تراب الجدار ، وتراب الأرض تبركًا ، يقال إن الأولياء والأقطاب والأبدال يحضرون دائما فى المطاف ، وسوف يحضرون ، وتحتاج معرفة الولى إلى أن يتمتع الإنسان بعين أو ببصيرة الولاية ، ومن الفضول أن نتوقع إظهار هذا الرأى فى هذا الأمر من عموم الناس ، لكن على كل حال يمكن لأمثالنا ممن يفتقدون البصر والبصيرة أن يروا آثار الخشوع الشديد ، والخضوع ، وآثار التضرع الذى لا نهاية له ، والابتهال ، وآثار العبدية والإنابة على بعض الوجوه النورانية ، فهذه هى سماتهم ، وهذه هى علاماتهم ، سبحان الله !

مقام عجيب ، إغداق الرحمة على الجميع ، كم من فاجر ! وكم من مجرم ! ، وكم من عاص ! وكم من .. وكم من .. ينسوا من النجاة ، نتيجة سوء أعمالهم ، وسوء حالهم ، ثم وقفوا بجانب أولياء الله ، وقرءوا هذا الإعلان الربانى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (الزمر:٥٣ - ٥٤)

فوقفوا على باب المالك ، والسيد ، وبدءوا من جديد ، يبثون أمانيهم وأمنياتهم ، المحملة بالنجاة والمغفرة ، يتذكرون أعمالهم السيئة التى ارتكبوها فى حياتهم ، وأعمالهم الشيطانية التى تكفى لإخجال الشيطان ، يطلبون العفو والمغفرة عن كل ذنب ارتكبوه ، فيقبل الله منهم ، بعد أن يقفوا أمام ستّار العيوب ، فيذرفون دموع الندم على كل معصية ارتكبوها ، يرفعون أيديهم إلى بارئهم ، يسجدون إليه ويطيلون السجود ، فينالون النجاة والغفران من رب العباد الرحيم الرحمن .

حكاية العربة العجيبة والحصان :

لم يكن الظهر قد حان حين رجعنا إلى منى ، فلم يكن من الممكن أن تظل « العربيات » التى جئنا بها من منى فى انتظارنا هنا ، ولهذا اضطررنا إلى استئجار « عربيات » أخرى ، ولم يجد بعض رفاقنا مكانا عليها فركبوا ظهور الحمير والجمال ، وكما ذكرت تعرضنا من قبل لمتاعب هذه « العربيات » والحيوانات التى تجرها ، وكذا أصحابها ، وهنا يتكرر الشىء نفسه ، فلم نكد نقطع نصف الطريق حتى عاند حصان إحدى « العربيات » وتوقف تماما عن الحركة ، والآن بدلا من أن يجر الحصان الركاب ، نزل الركاب وبدءوا أنفسهم يجرون الحصان !

والمنظر يستحق التعليق بلا شك .. فالوقت وقت الظهيرة ، وأشعة شمس منى أشعة محرقة ، والرمال ملتهبة ، والعرق يغطينا من الرأس إلى أسفل القدم .. كان بعض النسوة مع الأطفال يركبن « العربيات » بينما كان الرجال المرافقون ، يحاولون زحزحة « العربيات » ودفعها إلى الأمام !

لم نكن ندرى أنذاك هل هنا أية بلدية يمكنها أن تحاسب « سائق » ! « هذه العربية » فتعطيه مخالفة ! كما لم نكن متأكدين هل يوجد هنا مسئول ، يمكنه أن يساعد الغرباء المساكين ، فى مثل هذه الظروف ؟!

لا شك أن هبوب الهواء الساخن كان رحمة ! فالهواء الساخن كان يضرب أجسامنا الغارقة فى العرق ، ولم يكن هذا بالأمر المؤذى بل على العكس كان يعمل على تبريد أجسامنا ، فبدا لنا أمرا طيبا ، وصار مدعاة للسرور وسط هذه الورطة غير المتوقعة ..

متى كان المشى على الأقدام من مكة إلى منى ممكنا ، فى حر الظهيرة الشديد ، وبالنسبة للمرفهين من أمثالنا ؟! ومتى كان من الممكن أن ينال أمثالنا هذه السعادة ؟ لكن حتى ننال هذه السعادة ، وجدت طريقة أخرى !! وبتدبير الخالق مشينا على الأقدام ، فصرنا ممن لهم حق فى الأجر !

إن الصبى الذى يرغب فى العلم يدرس بشوق ورغبة ، بينما هناك من يريد أن يتعلم لينال قطعة من الحلوى ، لكنه على كل حال يعد من المتعلمين أيضا !!

رمى الجمرات يومى الحادى عشر والثانى عشر:

بعد الوصول إلى منى لم يكن أمامنا أى عمل خاص سوى الرمى ، وقد سبق ذكر رمى يوم العاشر ، ففى يوم العاشر رمينا جمرة واحدة ، وفى يوم الحادى عشر والثانى عشر سنرمى الجمرات الثلاث ، والرمى يوم الحادى عشر والثانى عشر يكون بعد الزوال.

وترتيب الرمى فى هذين اليومين هكذا : أن ترمى أولا الجمرة الأولى القريبة من مسجد الخيف ، بعدها الجمرة الوسطى ، وفى النهاية جمرة العقبة ، فيرمى على كل واحدة منها سبع حصيات ، ويجب أن يكون الرمى على الأقدام ، لكن يجوز رمى جمرة العقبة ركوبا أيضا ، بل هو عند الإمام يوسف أفضل ، والرمى فى هذين التاريخين قبل

الزوال صحيح فى الفقه الحنفى ، ولو تأخر الإنسان حتى غربت الشمس فهذا وقت مكروه ، ومن السنة بعد رمى الجمرتين الأوليين ، أن يقف الإنسان موجها وجهه القبلة ، ويبقى فترة يسبح ويهلل ، ويستغفر ويناجى ربه ، ويرفع يديه بالدعاء لله، إلا أنه من لا رمى له بعد هذا ، يعنى بعد رمى الجمرة الأخيرة (جمرة العقبة) فلا يسن له الوقوف ، فيجب عليه أن يعود أدراجه فوراً .

ومكان رمى الجمرات ، من الأماكن التى يقبل فيها الدعاء، كما أن الوقت التالى لرمى الجمرات من الأوقات التى يقبل فيها الدعاء أيضا ، والرمى واجب فى العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، والرمى يوم الثالث عشر مستحب ، فإذا رجعت إلى مكة فى أى وقت من مساء الثانى عشر أو ليل الثانى عشر ، فهذا جائز تماما ، لكن إذا أقمت فى منى حتى صباح يوم الثالث عشر فلا يصح أن ترجع إلى مكة دون أن ترمى الجمرات .

الأحوال الصحية فى منى:

قضينا يوما ونصف ، يعني من ظهر الحادى عشر حتى غروب شمس يوم الثانى عشر فى منى ، فى سعادة وهناء ، كنا نسمع كل عام أن منى تظل قذرة ، عفنة جدا ، وأن الوباء ينتشر فيها بكثرة ، وأن الماء يندر ويصعب الحصول عليه ، وأن الناس يموتون بالآلاف من الكوليرا ، ومن شدة الحر .

لكن الآن بفضل الله ، لم نتعرض لأى شىء مما ذكرت ، فلم ينتشر أى وباء ، ولم يندر الماء ، أو يقل وجوده ، ولم يمت كثير من الناس نتيجة الحرارة الشديد ، ولا يمكن القول بأن العفونة أو القذارة انتشرت ، مع الأخذ فى الاعتبار هذا العدد الكبير من الناس .

ظل سوق منى لمدة ثلاثة أيام – ما شاء الله – عامراً بكل شىء ، ففى كل ناحية تشاهد الفاكهة الطازجة ، والمشترون بالآلاف ، بل بمئات الآلاف ، ولا يمكن أن ترغب فى شىء ، أو تحتاج إلى شىء ، ولا تجده هنا ، بل تجده بكثرة وبوفرة ، فاكهة

طازجة ، ثمار يانعة ، خضروات ، خضراء طازجة جدا ، خذ كما تشاء ، فهى مناسبة تماما فى هذا الفصل، بدلا من اللحم والمأكولات الجافة .

لقاء الأصحاب :

فى يوم العاشر من ذى الحجة كنا بالطبع مشغولين ، وبعد ظهر يوم الحادى عشر لم يكن أمامنا أى عمل خاص ، كنا فقط ندور هنا وهناك ، نلتقى بالأصدقاء والأحباب ، ونلبى دعوة بعض الداعين من أصحابنا الطّيبين الفكهين ، وقد لبينا أكثر من دعوة ، وحضرنا أكثر من مأدبة ، التقينا بمن انفصلنا عنهم فى عرفات ، ومزدلفة ، فالتقينا هنا بالعلامة الشيخ مناظر أحسن ، وبشخص آخر، كانا قد انفصلا عن قافلتنا ، وفى مقر قافلة حيدر آباد كان قائد القافلة مولوى فيض الدين بإرادته الحكيمة وأخلاقه الطيبة يقدم الدعوات للجميع ، ويستقبل الجميع ويكرمهم مرة بعد أخرى ، فالتقينا عدة مرات بمولوى أبى الخير خير الله ، ومولوى خير الدين (من برهنى الدكن) وابن أخت العلامة شوكت على ، وزوج ابنة عثمان على خان .. ما شاء الله ، كانوا سعداء ، فرحين ، رحبوا بنا أطيب ترحيب .

رجم شيطان النفس :

كان المطوف يرشدنا لتطبيق أحكام الرمى وشروطه فى الأيام الثلاثة ، وكنا نقوم بذلك بشكل أو بآخر ، لكن الله وحده يعلم ، كم قصرنا فى تطبيق شروط الرمى ، وفى الالتزام بآدابه الظاهرية ، وقد التزمنا على كل حال بالضوابط .

لكن هل رمى أحد منا حصاة على الخناس الموجود فى باطننا ، الموجود فى كل خلية من خلايانا ، وفى كل قطرة دم من دمائنا ؟! هل ضربه أحد؟! هل حطم أنانيته ؟ لقد رأى الجميع الحصوات وهى تلقى على العمود الحجرى ، لكن شيطان النفس الكامن المستتر خلف ستائر القلب .. هل أصيب بشىء هو أيضا ؟!

إن هـذا المردود (الشيطان) الذى حـاول ، مـرة من بعـد أخـرى إغـواء الخليل ، وابن الخليل ، يشـهد اليوم المذلة ، مرة من بعد مـرة ، بل مئات الآلاف ، بل عشرات الملايين ، على يد المؤمنين ..

لكن من يرددون اسم الخليل ، لكن عبّاد الرب الجليل ، لا يزالون فى كل حين ، يقعـون فى مصيدة بلاء هذا المؤذى .. لا بد أن ينال نصيبا من المذلة ، لا بد أن نلقى بالحصيات على جسم هذا الظالم أيضا !

قد يتساءل الجميع ، وقد يسأل الجميع أسئلة كثيرة ! لكن من يجيب ؟! ولماذا يبدأ أحد بالإجابة ، إذ كان هناك الستار الذى يستر جميع العيوب ، وطالما ارتدى كل غراب حلة الطاوس ، وطالما تحولت كل خرابة إلى روضة ، وكل جراح صارت مثل المصباح .. فمن ذا الذى يضطر إلى أن يفتح مكتبا لتلقى الشكاوى ، ثم يظل يبكى وينتحب أمام كل شخص يبثه شكواه ، ويحكى له عن سوء حظه ؟!

وصف الزحام الشديد يوم الثالث عشر :

بعد ظهر يوم الثالث عشر بدأت رحلة العودة ، والمتعجلون لم ينتظروا حتى إلى الزوال ، كان الزحام والتدافع اليوم أكثر من أى وقت ، فمنظر الصراع اليوم يستحق الرؤية ، ولا يمكن للقلم أن يعبر عنه أو يصفه ، ولا يمكن لريشة فنان أن تصور منظر هذا الهجوم ، وهذا الصراع والتدافع ! وبدلا من المثل الفارسى القائل « رمانة واحدة ومائة مريض » سمعت من الأحباب هذا المثل « شارع واحد ومائة ألف راكب » وقد رأيت تطبيق هذا المثل هنا بشكل عملى ، فهل تكفى رمانة واحدة مائة مريض !

إنهم يتدافعون ، ويهجمون ، كلٌ يحاول أن يخطف ما يستطيع ، ويقدر عليه ، هل يمكن لأحد أن يراعى الآخرين فى مثل هذه الظروف والأحوال ، كان كل إنسان مشغولا بدفع الآخر ، ورد دفع الآخرين ، ومحاولة إيجاد منفذ لنفسه يتحرك فيه ، فيتشابك مع من يحاول مثله العثور على مفرٍّ لنفسه ، ينطلق منه إلى حيث يريد ..

معاذ الله ! معاذ الله ! فقد كان من بين هؤلاء كثير من المرضى والضعفاء ، وكان من بينهم العجائز والأطفال ، كما كان من بينهم أيضا القوى المتين ، وكان من بينهم النساء الضعاف ، والرجال الأشداء ، كان منهم الحليم ، والشديد ، والجاهل .. كل أنماط البشر ، كان من بينهم من يحاول أن يتكلم ، ويتفاهم ، وكان من بينهم من يلوذ بالصمت ، والسكوت ، ويعتبر هذا ذريعة للتفاهم ، كان من بينهم من يمشى على رجله ، وكان من بينهم من يركب مطيته ، كان من بينهم من يركب البعير ، والخيل ، والبغال والحمير ، كان هناك قادمون على الطريق ، وكان هناك ذاهبون ، على الطريق نفسه ..

كل هؤلاء كانوا يتحركون فى فوضى كبيرة على طريق واحد ، على درب واحد ، على ممر واحد ، فكانت الألسنة تتحرك ، تنطق بما تشاء ، والأيدى أيضا ! لكن الشيء الذى لم يكن يتحرك هو الأرجل والأقدام !!

كانت الجمال تختلط بالجمال ، والشغدف يتعارك مع الشغدف ، والرأس تنطح الرأس ، والجمال المتوحشة تنعر بشدة ، بصوت مخيف ، وأكثر من صراخها الرهيب كان صراخ الراكبين من فوقها وصياحهم ، الذى أصيبوا بالهلع والخوف !

كانت قدرة الله عز وجل هى التى منعت وقوع مئات الحوادث قى ذلك الوقت .. لقد تعرضنا لزحام شديد وقت التحرك من مكة إلى منى ، ووقت العودة من مزدلفة إلى منى ، وفى مناسبات أخرى أيضا ، إلا أن زحام اليوم ، وهذا الهجوم الذى نشهده اليوم لم نر مثيلا له من قبل .

ولهذا أجد نفسى أتساءل : هل تنظيم مثل هذه الحشود الضخمة ، وترتيب هذا الأمر ، والعمل على راحة هؤلاء الناس أمر صعب ؟!

الجنايات أو المحظورات بين الكفارة والجزاء :

فى كتب مناسك الحج باب مفصل عن « الجنايات » أو المحظورات ، ويطلق على ما نسيه الحاج أو ما فاته أو ما قصر فيه من أعمال الحج أو ما ارتكبه من ممنوعات،

باصطلاح الفقه « جناية » أو المحظور وهذه الأمور يمكن أن تحدث بسبب عذر شرعى ، أو بلا عذر شرعى ، وأخطاء النوع الأول لها كفارة تكون عوضا عنها ، أما أخطاء القسم الثانى فقد تقرر لها جزاء ، والكفارة والجزاء كلاهما من المصطلحات الفقهية ، وللجزاء صورتان : صدقة بسيطة ، عوضا عن الخطأ البسيط ، أما الخطأ الكبير فيكفر عنه بالذبح ، وفى حالة الكفارة يمكن أن يخير الإنسان ، بين أن يتصدق أو يذبح أو يصوم .

والممنوعات على قسمين : ممنوعات الإحرام ، وممنوعات أعمال الحج ، ثم يندرج تحت كل منها عدة صور ، ولكل جناية جزاء وكفارة منفصلة ، ورد ذكرها فى كتب الفقه ، وقد كان المطوف يرشدنا إلى أمور كثيرة ، ويتحدث بكلام كبير! ويذكر أن على كل حاج أن ينتبه ، ويعرف كل شيء ، وعليه أن يحتاط جيدا ، وإلا فإذا قصر فى أمر من الأمور البسيطة ، فيمكن أن يتصدق بالقليل ، وهو ما يستطيع كل حاج أن يفعله ، كما أنه لا يوجد تشديد فيما يتعلق بالذبح ، وأفضل وقت لأداء هذه الجزاءات والكفارات هو فى أثناء الإقامة فى منى .

يعد مولوى منور الدين الدهلوى هو أفضل من تناول موضوعات الجنايات وكفاراتها ، وفصل الحديث عن الجزاءات ، وذلك فى كتابه « الحج والزيارة » (الفتاوى العثمانية المجلد السادس) وهو ليس بكاف فقط بل أكثر من كاف.

وادى المحصب :

كان وقت العصر قد حان حين خلعنا أوتاد خيمتنا ، وبدأنا فى ربط أمتعتنا .. وانتهى وقت العصر ، وكانت الشمس على وشك المغيب ، حين انتهينا من آخر الرمى عند جمرة العقبة ، وركبنا الجمال .. كان ركوب الجمال فى حد ذاته مرحلة من مراحل السفر ، لا تسأل : كيف ركبنا ؟ وماذا مر على ضعفاء القلوب فى قافلتنا ، وعلى نسائها ؟! على كل حال ، كان هذا قدراً مقدوراً أن نركب الجمال ، وأن نظل على قيد الحياة ، وأن نبقى أيضا سالمين !

فى الطريق وقبل أن تظهر مبانى مكة بقليل ، وبالقرب من جنة (مقبرة) المعلى ، يوجد مكان يقال له « وادى المحصب » كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) حسب رواية البخارى قد نزل فيه ، وهو عائد إلى مكة فى أثناء الحج ، وصلى هنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، واستراح قليلا ، ثم دخل مكة ، وقد قرر فقهاء الحنفية أن النزول فى هذا المكان والبقاء فيه مدة قصيرة والدعاء سنة ؛ لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد نزل هنا قصداً ، مع أن بعض أئمة الحديث الآخرين لا يرون أنه سنة ؛ لأنه طبقا لأقوال عائشة الصديقة وابن عباس (رضى الله عنه) ، فإن فعل النبى هذا ، لم يكن بهدف العبادة ، لكنه نزل هنا بهدف الراحة ، إلا أن بعض المحققين من صحابة رسول الله (مثلا عبد الله بن عمر) عملوا بسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . فعن نافع قال : كان ابن عمر (رضى الله) عنه ينيخ بالبطحاء التى بذى الحليفة التى كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ينيخ بها ويصلى بها . » (صحيح مسلم)

وقد كتب النووى فى شرح مسلم أن هذا كان شأن كل من الصديق (رضى الله عنه) ، وعمر (رضى الله عنه) ، وقد ورد فى كتب الحنفية بوضوح :

« إذا نفر الحاج إلى مكة ، نزل استنانا ولو ساعة بالمحصب .» (الدر المختار)

لكن ! من يعمل بهذا الآن ؟! إن كل شخص متعجل ، عجول ، يريد الوصول إلى مكة ، ولو أراد الحجاج المساكين البقاء أيضا ، فكيف يسمح لهم المطوفون بذلك ، وهل يعطونهم فرصة للعمل طبقا للسنة النبوية ، والاقتداء بما فعل الصحابة (رضوان الله عليهم) ؟!

(٣٥)

مكة المكرمة

العودة إلى رباط حيدر آباد :

زاد الزحام أكثر فأكثر ، اقتربنا من منطقة العمران فى مكة المكرمة ، لدرجة أن حركة الجمال توقفت تماما ، وصارت هناك صفوف طويلة ، لا يتحرك فيها أحد من الحيوان أو الإنسان ، وبدا أن كل كائن حى رضى ، ولا نقول طوعا ، بل كرها بالقضاء الذى نزل عليه ، وكلما وجهت نظرك ، وجدت الجميع وقد صاروا صورة مجسمة من الرضا بالقدر ..

وكان هذا « النظام البديع » و« الترتيب الجميل » أمام « بيت الحكومة » مباشرة ، وفى ظل جدار قصر ولى العهد ، وحاكم مكة ، وكأن الحكومة السعودية آلت على نفسها ألا تحرك ساكنا من أجل تنظيم الطريق ، ومن أجل راحة المسافرين – حتى لا تغضب الحجاج أنفسهم بتدخلها .

فكرت أن أذهب بنفسى مع القافلة إلى المدرسة الصولتية ، نظرا لضيق المكان فى رباط حيدر آباد ، وأن أظل هناك حتى وقت العودة ، لكن الوصول إلى المدرسة يستلزم أن نمشى نحو فرسخين ، فمن لديه هذه الهمة ؟ كان المطوف برفقتنا ، فقال : إن المشى إلى هذا المكان البعيد ، وسط هذا الزحام الرهيب مصيبة كبرى ، وعلى كل حال كتب علينا أن نحرم من كرم ضيافة مولوى محمد سليم ، واضطررنا إلى التوجه إلى « مسفلة » ، وبعد ساعتين أو ساعتين ونصف من ليلة يوم الثانى عشر من ذى الحجة ،

وصلنا للإقامة فى رباط حيدر آباد ، الذى خرجنا منه يوم الثامن من ذى الحجة لنعود إليه بعد سفر خمسة أيام بحمد الله ، بعد فراغنا من الحج .

المآثر الدينية فى مكة :

انتهينا من أداء جميع مراسم الحج ، وبقى أمامنا الآن أن نطوف طواف الوداع ، ويكون عند المغادرة والعودة ، ومن طاف من الناس طواف الفرض دون سعى ، فعليه أن يسعى، وهكذا لم يبق أمامنا من أعمال الحج سوى هذين الأمرين ، لكن كيف نجد فرصة للصلاة فى المسجد الحرام كل وقت ، ونطوف طواف النفل .

قرأت فى الكتب وسمعت من الناس أن فى مكة عدة أماكن ومقامات تستحق الزيارة ! مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، مولد على (رضى الله عنه) ، دار خديجة (رضى الله عنها) ، جبل ثور ، غار حراء ، مسجد الجن وغيرها ، والحقيقة أن كل ذرة من ذرات هذه الأرض الطاهرة ، تستحق الزيارة .. لكن .! وكما يقول الشاعر :

« هذه حكاية أخرى ، حين كانت نيران الشباب مستعرة ! »

كيف أجد فرصة لزيارة هذه الأماكن ، لكن صارت هذه الأماكن الآن حكاية من الحكايات القديمة ! فالحراس منتشرون فى كل مكان ، والعسكر يمرون هنا وهناك .. على كل حال لم أفكر فى زيارة مثل هذه الأماكن ، ولا شك أنه من الضرورى زيارة جنة (مقبرة) المعلى ، حين يمكننى ذلك ، وبأى شكل ممكن !

جنة (مقبرة) المعلى :

لا بد أن اسم « جنة المعلى » قد قرع أسماعك ، إنه اسم لمقبرة مكة المكرمة ، وهى تبعد عن المسجد الحرام مسافة ميل تقريبا ، فى طريق منى من ناحية وادى المحصب ، ميدان واسع جداً ، فى ناحية جبل ، وبقية النواحى مفتوحة ، وهناك جزء محاط بجدران أربعة ، لكن الآن جميع الجدران مهدمة تقريبا ، وفى الوسط يوجد شارع ،

لهذا لم تعد هناك حدود ، كيف لى أن أبين عن بركات هذا المكان وأنواره ، لو كان اثنان أو ثلاثة فقط من الأطهار قد دفنوا هنا لذكرتهم ، لكن هنا شموس لا تعد وأقمار لا تحصى ، قد وُورِيَتْ تحت التراب، فأى أسماء أعدد هنا ؟ ! ، وأى فضائل أذكر وإلى أى مناقب أشير ؟! أجداد النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، وطبقا لبعض الروايات هناك أم خير البشر أم المؤمنين خديجة الكبرى (رضى الله عنها) ، وهناك سيدنا قاسم بن النبى (صلى الله عليه وسلم) وهنا عبد الله بن عمر ، وهناك عبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير والإمام أبو القاسم القشيرى وخواجة عثمان هارونى والشيخ خواجة أجميرى والإمام النسفى صاحب الكنز وفخر المتأخرين ومرشد الدوران وقطب الزمان حضرت حاجى إمداد الله المهاجر المكى .. أذكر هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر .

إن كلمة جنة تستخدم فى الاستعارة العربية بمعنى مقبرة أيضا ، لكن إذا أخذ هذا المعنى لهذه البقعة من النور ، وهو المعنى المشهور والعام فى العربية والأردية ، فمن يستطيع أن ينكر هذا ؟!

بالإضافة إلى وجود هذه الشخصيات التى لها مكانة عظيمة فى تاريخ الإسلام ، فإن هناك علاقة ذاتية تربط كاتب هذه السطور بهذه الجنة الأرضية ، فبالإضافة إلى من هم فيها ، فإن الوالد المبجل المرحوم مولوى عبد القادر مع والدتى المبجلة ، وبقية الأحباب كانوا قد سافروا للحج سنة ١٣٣٠ هجرية الموافق لسنة ١٩١٢ م ، واختارا أن يكونا بجوار بيت الله ، بعد الفراغ من الحج ، وأصيبا فى وباء الكوليرا الذى انتشر فى منى فى الحادى عشر من ذى الحجة ، وفى وقت الصبح الصادق ، انتقلا إلى دار الآخرة فى مكة المكرمة ، ودفنا فى هذه المقبرة .

وصف مقبرة المعلى :

إن أى هندى مهما كان وفاؤه وحبه للحكومة البريطانية ، إذا ما سافر بالقطار فى أعلى درجة مرة أو مرتين ، ورأى سلوك المسافرين الإنجليز المرافقين له ، هل تظل

عاطفة ولائه للإنجليز قائمة على ما هى عليه ؟! وهل يظل حبه للإنجليز قائما على ما هو عليه ؟ ألن تظهر بداخل قلبه عاطفة العداء والثورة ؟!

هذه الحال نفسها تنطبق على شعور البعض منا تجاه السلطان ابن سعود ، بعد مشاهدة المعلى والبقيع ...! إن جميع بركات الأمن والأمان في العهد السعودى الحالى فى ناحية وحالة الخراب التى أصابت جنة المعلى وجنة البقيع فى ناحية أخرى !

فليس من الممكن أن يشاهد الآن أى مسلم غيور فى قلبه إحساس جنة المعلى ، بعينيه ، ثم يتمالك نفسه .. وفكرت بأن نذهب فى رفقة العلامة الشيخ شفيع الدين – مد الله ظله العالى – لزيارة جنة المعلى (فهو يذهب بعد صلاة الفجر فى الظلام إلى جنة المعلى ، ليقرأ الفاتحة على قبر الحاج المهاجر المكى) لكنه لم يأت من منى حتى صباح يوم الثالث عشر من ذى الحجة ، ولهذا اضطررنا إلى أن نذهب دون أى مرشد أو قائد ، وصلنا المقبرة ..

لا تسأل .. ماذا اضطرت العين أن ترى ..!

لقد ظننت قبلا أنه لا يمكن أن يوجد أى مكان تعرض للخراب أكثر من جنة البقيع ، لكن آه! إن ما رأته العين فى جنة المعلا كان أكثر مما رأته قبلا فى جنة البقيع ..

آه ! إن الأرض التى تضم رفات الأتقياء والصالحين، والتى يجب أن يضع الإنسان فيها القدم ، مراعيا لوازم الأدب ، والاحترام ، قد تعرضت للمهانة فى كل لحظة ، وفى كل آن .. ولم يقتصر الأمر على الإنسان الذى هو إنسان ، لكن حتى الحيوان كان طليقا هنا يمضى حيث يشاء !! فالإبل تمضى صفوفا صفوفا ، وتجعل من حدود المقبرة موقفا لها ، وكنت قد رأيت هذا منذ عدة أيام ، قبل الذهاب إلى منى، واليوم أشاهد بعر البعير وآثار بولها فى كل مكان ، كما أن الروث مع القمامة يغطى مساحات واسعة .. فلا تسأل أين القبور ؟ إذ لا يمكنك أن تعرف من المدفون هنا ، ومن المدفون هناك ! كنت قد سمعت أن والدى (رحمه الله) دفن على يمين سيدنا عبد الرحمن بن أبى بكر (رحمه الله) وكنت أريد أن أبحث عن تربته ، عن طريق هذا

العنوان الواضح ، وهنا لا يمكن أن تجد علامة تدلك على تربة عبد الرحمن رحمه الله ، فكيف يمكن أن نعرف تربة شخص عن طريق تربة شخص آخر ؟!

على كل حال حاولت ! وقدرت ! وبقيادة وإرشاد بعض العامة من الجهلة مثلى ، وقفت عند مختلف المواقع ، وقرأت الفاتحة .. وانتهى الأمر .. ليس الفاتحة فقط على أهل القبور هؤلاء ، بل قرأت الفاتحة على عقل الحكومة السعودية !

زيارة الشيخ السنوسى :

الرابع عشر من ذى الحجة ، كنت قد ذكرت اسم الدكتور عبد الرحمن البهارى ، فى أثناء الكتابة عن المدينة المنورة ، إنه يقيم هنا أيضا فى الطابق الثانى فى هذا الرباط ، وكنت قد عرفت أن الشيخ السنوسى الأعظم ، يقيم فى مكة المكرمة منذ مدة ، لكننى لم أكن أعرف أين يقيم ، ولم يخطر على بالى أبدا أن ألتقى به ، واليوم صباحا قال الدكتور عبد الرحمن إن حالة الشيخ الصحية ليست على ما يرام منذ مدة ، والشيخ السنوسى يتلقى العلاج على يد الدكتور عبد الرحمن ، حين سمعت هذا اشتقت لرؤيته على الفور ، وبعد قليل وجدت نفسى أذهب إليه فى صحبة الدكتور عبد الرحمن .

هناك تلٌّ تسمى « جبل هندى » تقع على مسافة تبعد قليلا عن الحرم ، والطريق إليها يمر من باب الصفا ، وهناك يقيم الشيخ السنوسى ، كنا فى الساعة الثامنة صباحا ، أو الثامنة والنصف ، حين خرجنا للذهاب إليه .

أخذنا نتسلق المرتفعات ، واحدا بعد الآخر ، ونصعد التلال ، حتى وصلنا إلى منزل الشيخ ، لقد كان منزله « قلعة كبيرة » ! مبنى واسع جدا ومهيب ، وضخم وفخم ! بل هو مجموعة من المبانى معا .

كنت قد سمعت اسم الشيخ فى الأخبار ليس اليوم فقط بل منذ خمس عشرة سنة أو عشرين وسمعت عن جهاده ضد الإيطاليين فى طرابلس ، ويعلم الله كم مرة سمعت اسم الشيخ ضمن سلسلة معارك جهادية ، كان قلبى يطرب ، بل يقفز من الفرح والسعادة ، فاليوم سيكون لى نصيب من رؤية أحد مجاهدى عصرنا العظام .

والشيخ السنوسى ليس من الزهاد تاركى الدنيا ، يعتزل الناس ، لكن ما شاء الله ، يقيم هنا مع خدمه وحشمه ، لديه جميع مستلزمات الحياة ، مثله مثل الملوك والحكام ، وكل شيء يمكن أن يحتاجه الإنسان موجود عنده ، لدرجة أنه يوجد مسجد ، ويوجد خدم فى جميع الطوابق والأدوار ، وهناك حرس أيضا ..

ألقينا السلام على كل واحد منهم ، ولم نجد من بينهم من يتصف بخشونة الجنود النجديين وغلظتهم ، لدرجة أننا وصلنا بسهولة إلى الطابق العلوى ، وبعد انتظار مدة قصيرة جدا ، فى حجرة منفصلة ، دعونا بسرعة لمقابلة الشيخ .

وصف لقاء الشيخ السنوسى :

كانت الغرفة خالية من كل متاع الزينة والزخارف والبهرجة ، كانت صورة للبساطة ، فى الوسط وسادة ، وهناك شيخ بلحية بيضاء فى غاية الجمال ، يرتدى ملابس بيضاء زاهية ، وجهه أبيض ، شعره أبيض ، ملابسه بيضاء، وأعظم من كل هذه الأشياء البيضاء ، نورانية الشيخ ! ونور الباطن ، ونورانية القلب علمها عند الله ، لكن نورانية الوجه كانت بدرجة غير معقولة ، بحيث يصعب أن يلتقى النظر بالنظر !

لقد سبق لى أن طويت مشوار السلوك عن طريق الولاية ، فشاهدت شيوخا طيبين كثيرين ، لكن فى هذا الوقت ، كنت أمام هذا الرجل الأسد ، الذى طوى السلوك على طريق النبوة، لقد كان لى نصيب من زيارة كثير من الشيوخ أهل التسبيح وأصحاب السجادة ، والخلقة والخرقة ، لكن اليوم أزور شيخا ، هو نموذج للصحابة الكرام ، وبخاصة الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) ، فهو صاحب قلب أيضا ، وصاحب سيف أيضا ، يجلس فى الخانقاة ، مشغولا بالذكر أيضا ، ويخرج إلى الميدان مجاهدا ، فيقاتل أعداء الله ، ويغزو فى سبيل الله أيضا !

لقد جعل الصوفية الجهاد على نوعين : الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر ، كنت فى هذه الساعة أمام هذه الذات ، التى تجمع ما بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر معا ..

قبل أن يتلفظ الشيخ بكلمة كان قلبى قد غاب عنى ، وأنا أتطلع إلى مجرد وجهه ، وحين مد الشيخ يده للمصافحة ، وتصافحنا ، سرى فى جسمى تيار كهربائى ، وبدا كأن بين العيون تبادل لشعاع كهربائى .. اغرورقت عيناى بالدموع ، وامتلأ القلب من الداخل ، وأراد القلب رغما عنى أن أضع أهدابى عند أقدام الشيخ ، وأن أبكى ، وأبكى ، وأبكى حتى أجلو الصدأ من قلبى .

كنت أقرأ منذ مدة بيتا من شعر المثنوى عن عظمة الفاروق (رضى الله عنه) :

هيبت حق است اين از خلق نيست

هيبت اين مرد صاحب دلق نيست

« إن معنى هيبة الحق » هذه قد أضاءت مرة فى الهند ، واليوم أضاءت ! إذا كانت هذه هى حال هيبة وعظمة من ينتسبون إلى الفاروق الأعظم ، فكيف يمكن لضعاف القوى فى هذا الزمان أن يقدروا هيبة الفاروق وعظمته .

لم يكن الشيخ متقدما فى العمر كثيرا ، وكان - ما شاء الله - قويا ، يغبطه الإنسان على قوته ، بارك الله له فى عمره ، وفى إقباله ، ونصر الله جنوده ، وجعل الفتح دائما من نصيبهم ، فإذا كان الجهاد الإسلامى ، والغزو الشرعى لا يزال حيا فى مكان ما على وجه البسيطة ، فى العصر اليأجوجى ، فى القرن العشرين ، فإنه من أنفاس هذا الرجل، وإلا فإن أصحابنا من أصحاب الفكر المستنير ، وأصحاب مدرسة التنوير يكتفون بالقول بأن الجهاد غير ممكن للظروف الحالية ، بل يعلنون أنه بأكمله غير ضرورى !

كان الشيخ يتحدث اللغة العربية فقط ، ولغته العربية ما شاء الله ، لغة فصيحة ، بديعة ، كان الحديث مختصرا ، لكن كل عبارة ، كانت مملوءة بالألم والتأثر ، تحدث العلامة الشيخ مناظر معبرا عن مشاعره ، ثم قام بعد ذلك بأداء مهمة الترجمة لإنسان مثلى جاهل ، ليست له القدرة على الكلام .

ماذا كان موضوع الحديث ؟ كان الموضوع نفسه .. ما وصل إليه العالم الإسلامى من انحطاط وسوء حظ ، وما وصل إليه المسلمون من انعدام الإحساس والشعور ،

وما وصلوا إليه من عجز وانعدام حيلة .. وجاء ذكر الهند ، وجاء ذكر مجاهدى الهند ، وجاء ذكر نشاط لجنة الخلافة ، وجاء ذكر نشاط محمد على وشوكت على ، وجاء ذكر خليفة شيخ الهند .

وفى النهاية حين رفع الشيخ يديه بالدعاء ، فنحن بشر أيضا من لحم ودم ، لهذا شعرنا بأن الروح قد دبت فى كل شىء فى الغرفة : الأبواب والنوافذ ، والسقف والجدران والأرض .. بكل ذراتها ، كانت تؤمن معنا على الدعاء .. آمين !

إن السلوك على طريقة النبوة ليس بالأمر الجديد بالنسبة للهند ، وليس أمرا غير معروف .. فلم يمض وقت طويل على ظهور أحد « السادة » من أسرة فى « أوده » ... خرج مجاهدا فى سبيل الله ، لمواجهة السيخ الطغاة [١]، فى المنطقة الحدودية من البلاد ، وقد كشف للدنيا كلها ، وللعالم أجمع بأن المسلم الهندى ، لا يجهل معنى الجهاد ، والغزو فى سبيل الله ، حسنا ! هذه حكاية مشهورة ، لكن جهاد شيخ الهند الديوبنى (رحمه الله)، وذوقه للشهادة ، واقع شهدته عيون الجيل الحاضر .. فمن يمكن أن ينساه ؟! وكيف يمكن أن تنسى ذكراه ؟ ثم بعد شيخ الهند ، لا تزال قيم شيخ الهند باقية فى الهند ، وبين أهل الهند ، بفضل الحى القيوم ، من يراها ، ويعرفها ، بارك الله فى بصيرته ، ومن لا يراها ولا يعرفها ، فعلى عينيه السلام !

(١) يشير إلى حركة الجهاد التى قادها سيد أحمد شهيد ورفاقه . انظر سمير عبد الحميد : الأدب الأردى الإسلامى ، ط جامعة الإمام .

(٣٦)

حج البيت

المعنى الحقيقى للحج :

انظروا ! انتهى الحج ، انتهت أركان الحج وأعماله ، وانتهينا من الطواف ، ومن الوقوف بعرفة ، وانتهينا من المبيت بمزدلفة ، ورمينا الجمرات فى منى ، وقدمنا الأضحية، وحلقنا وسعينا بين الصفا والمروة ، ولبسنا رداء الإحرام ، وتحللنا، ومن لم يحج منّا من قبل صار حاجا !!

لكن ! هل تم الحج حقا ؟! هل قمنا حقا بأعمال الحج ؟! وهل أدينا فرائض وواجبات الطواف ، والوقوف ، والسعى والرمى ، والتلبية ، والأضحية بالاسم فقط ، أم بالمعنى وبالحقيقة ؟!

هل من سجل نفسه لدى الأحباب والأصدقاء بلقب « حاج » كُتب أيضا « حاجا » فى سجل الخالق ؟ وهل ستنعته الملائكة أيضا بهذا اللقب ؟ وهل سيظل نداؤه بلقب الحاج يرن فى أسماعه أيضا ؟ وهل سيظل قلب من طاف جسمه شوارع مكة والمدينة وزقاقها كما هو ؟!

هل من جاء أخرس وأصم وأعمى نال عند عودته شيئا من قوة النطق والسمع والبصر ؟ من يمكنه أن يجيب ؟! وبأية لغة ؟!

مغزى أعمال الحج والعمرة عند بعض العلماء (أ) :

يروى الشيخ عثمان بن على الهجويرى اللاهورى « الملقب بـ داتا كنجش بخش » فى كشف المحجوب [1] أن رجلا جاء إلى حضرة جنيد البغدادى ، فقال : من أين أنت قادم ؟ فقال : أنا قادم من الحج ، فسأله : هل حججت ؟ فقال : نعم حججت ، فقال : هل نويت ترك المعاصى كلها حين تركت بيتك ، وتركت أهلك وأحبابك ؟ فقال : لا ، لم أفعل ، فقال : إذن ، أنت لم تذهب إلى الحج !

ثم قال : حين تمضى على الطريق بجسمك وتطوى منازل السفر ، فإن قلبك أيضا ينشغل بطى منازل الاقتراب من الحق ، فقال : هذا لم يحدث ، فقال له : إنك إذن لم تطو منازل السفر إلى الحج .

ثم سأله : حين نزعت عن جسمك الملابس وقت الإحرام ، فهل خلعت على نفسك فى ذلك الوقت لباس الصفات البشرية ؟ قال : لا ، لم أفعل ، فقال له : إنك إذن لم تلبس ملابس الإحرام .

ثم سأله : حين وقفت فى عرفات ، هل نلت شيئا من المعرفة ؟ فقال : هذا لم يحدث ، فقال إنك إذن لم تقف فى عرفات ، ثم سأله : حين وصلت إلى مرادك فى مزدلفة ، هل عاهدت نفسك على أن تترك كل هوى النفس ؟ قال : لا ، لم أفعل ، فقال له : إنك إذن لم تنزل بالمزدلفة .

ثم سأله : هل تراءى لك جمال صاحب البيت حين كنت تطوف بالبيت ؟ قال : هذا لم يحدث ، فقال : إذن كأنك لم تطف بالبيت .

ثم سأله : حين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت شيئا من مقام الصفا ودرجة المروة ؟ فقال : هذا لم يحدث ، فقال له : إنك إذن لم تسع .

(١) كتاب كشف المحجوب للهجويرى باللغة الفارسية وقد ترجمته الدكتورة عفاف زيدان الأستاذ بجامعة الأزهر إلى اللغة العربية وجعلته موضوعا لنيل درجة الدكتوراه فى اللغة الفارسية وآدابها من جامعة القاهرة .

ثم سأله: حين جئت منى ، هل فنيت فى جميع رغباتك وأمنياتك ؟ قال : لم أفعل هذا ؟ فقال : لا فائدة فى ذهابك إلى منى ، ثم سأله : هل أمشيت السكين على رقبة نفسك وقت تقديم الأضحية ، فقال : لم أفعل ، فقال له : كأنك إذن ما ضحيت .

ثم سأله : حين رميت الجمار، هل رميتها أيضا على جهلك وأنانيتك؟ قال : لم أفعل ، فقال له : إنك إذن ما رميت ، وبعد كل هذا الحديث قال له :

« إن حجك كأنه لم يكن ، الآن اذهب مرة أخرى ، وقم بالحج بطريقة صحيحة .»

مغزى أعمال الحج والعمرة عند بعض العلماء (ب) :

لم يكن هذا مجرد خيال أو تصورات ، فحضرة ذو النون المصرى يحكى عما رآه بأم رأسه فيقول : فى منى رأيت شابا ، منصرفا عن الجميع ، معتزلا ، وحيدا ، بينما كان الجميع مشغولين بتقديم الأضاحى ، أخذت أتطلع إليه ، لم تنزل عينى عنه ، كنت أريد أن أرى ماذا يفعل ، وفى النهاية، رأيته ، وقد بدأ يناجى ربه :

« يا إلهى ! يا خالق الخلق ، جميع خلقك مشغولون بتقديم القرابين لك ، وأنا الآن أرغب فى أن أقدم نفسى قربانا لك يا إلهى ، فاقبله .. »

قال هذا ، ورفع إصبع الشهادة ، ثم سقط على الأرض ، فاقتربت منه ، فوجدت روحه قد فارقت جسده !!

الله ! الله ! كيف يكون كلام الكبار كبيرا ! ما كل ما يتمنى المرء يدركه ! كيف يمكن أن ينال الجميع ما يناله هؤلاء ؟ ومن أين لكل أعمى بعيون تعينه على مشاهدة ما يُرى !!

انظر إلى قول أبى يزيد البسطامى : ما هى ضرورة هذه العبادة التى تعملها اليوم ، ويكون ثوابها قرضا للغد ، فمعنى طاعة الله هى أن تطيع ، ومع الطاعة تنال الثمن نقدا! وهكذا يقول عن نفسه : حين ذهبت للحج أول مرة ، لم أستطع مشاهدة

غير الكعبة ، وذهبت ثانية ، فتجلى لى البيت وصاحب البيت ، وحين ذهبت للمرة الثالثة ، تجلى لى فى جميع الأركان صاحب البيت بينما غاب عن أنظارى البيت وعتبة البيت وجدرانه !

والهجويرى الذى نقل جميع هذه الحكايات والأقوال يذكر بنفسه أن الحرم يسمى حرما لأن بداخله مقام إبراهيم ، ومقام إبراهيم على قسمين : الأول مقام الجسد ، والثانى مقام القلب ومقام الجسد هو مكة ، ومقام القلب هو تعبير عن مرتبة الخلة ، ومن كانت همته محدودة على مقام الجسد ، فيجب عليه أن يخلع ملابسه العادية ، ويرتدى ملابس الإحرام الكفنية ، وألا يصيد فى حدود الحرم ، وأن يقف بعرفة ، وأن يطوف ، وقس على هذا !

لكن من كانت همته الوصول إلى مقام قلب مقام إبراهيم ، فيجب عليه أن يعرض عن كل رغباته ، وشهواته ، وأن يترك الملذات وسبل الراحة ، وألا يأتى على لسانه ذكر غير الله ؛ لأن الالتفات إلى عالم الكون فى ذلك الوقت ممنوع ، وعليه أن يقف على عرفات المعرفة ، ومن هناك يقصد مزدلفة الألفة ، ومن هناك يجعل قلبه يطوف كل يوم طواف حرم تنزيه الحق ، ثم يرمى الجمار فى منى الإيمان ، على رغبات النفس وشهواتها ، ثم يقدم نفسه فى مذبح المجاهدات قربانا ، وهكذا يفوز بمقام « الخلة » ، فمعنى الدخول فى مقام الجسد ، هو أن يأمن العدو وسيفه ، ومعنى الدخول فى مقام القلب هو أن يحفظ نفسه من الانقطاع عن الله ونتائج ذلك الانقطاع .» (كشف المحجوب الفصل الثامن)

نماذج من حج السلف الصالح :

حين يحج أصحاب القلوب ، فإنهم يظلون من أصحاب مقام القلب فقط ، لا يفكرون فى زاد ، ولا فى مئونة ، ولا يعدون مركبا ، ولا راحلة ، ولا يصطحبون رفيقا ، أو عزيزا ، ولا يصلون إلى منازل فيقيمون فيها ، ولا يحملون معهم جراب ماء .. بل ينهضون بأنفسهم ، وحدهم ، يمضون هكذا على الطريق ، يدهم خالية من كل شىء ،

يمضون وسط هجير الصحراء ، يمشون حفاة على الرمال الملتهبة ، رءوسهم عارية ، لا يطوون المسافات ليوم أو يومين ، بل لأسابيع ، وأشهر ، يمضون يوما من بعد يوم ، يعانون الجوع من بعد جوع ، ربما أذكر واحدا أو اثنين .. فكيف لي أحصى عدد هؤلاء ؟! ومن أذكر من أسماء ؟ .

ذكر « طاوس الفقر » الشيخ نصر سراج (رحمه الله) في كتابه « اللمع » حكايات كثيرة ، وروايات عديدة ، من هذا النوع ، وذكر أن من آداب الحج عند أهل الله هؤلاء أنهم كانوا إذا وصلوا إلى الميقات ، اغتسلوا ، فغسلوا أجسامهم بالماء ، ومعها غسلوا قلوبهم في التوبة ، وحين وضعوا لباس الإحرام على بدنهم ، خلعوا من على قلوبهم لباس حب الدنيا، وحين ينطقون بالتلبية : لبيك اللهم لبيك ، فإنهم بعد أن يلبوا الحق سبحانه وتعالى ، يصبح جواب نداء الشيطان والنفس حراما عليهم ، وحين يطوفون ببيت الكعبة ، يتذكرون الآية الكريمة : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ (الزمر ٧٥) فيتصورون الملائكة وهي تطوف حول العرش الإلهي ، وحين يقبلون الحجر الأسود ، فكأنهم في ذلك الوقت يجددون بيعتهم على يد الحق تعالى ، بعدها يعتبرون أن مدّ يدهم ناحية أية رغبة أو شهوة ذنب لا يغتفر.

وحين يصعدون الصفا تتحول كدورة قلوبهم إلى صفاء ، وحين يهرولون في المسعى ، كأنهم يهربون من الشيطان ، وحين يقفون على عرفات ، يتصورون أنهم في ميدان الحشر، وحين يأتون إلى المزدلفة ، تمتلئ قلوبهم بعظمة الحق تعالى وهيبته ، وحين يرمون الجمار ، يتذكرون أعمالهم وأفعالهم ، وحين يحلقون رءوسهم ، يحلقون معها حب الجاه والتظاهر والأنانية ، وحين يذبحون الأضحية ، فإنهم يمضون بالسكين أيضا على أنفسهم .

إن من كتبوا في كتبهم عن آداب الحج هذه ، ومن عملوا بها ، ليسوا بأناس من نور ، ولم يكونوا من الملائكة التي تحلق في السماوات ، بل كانوا مثلي ، ومثلك ، خلقوا من طين ، وكانوا بشرا ، يمشون على تراب هذه الأرض !!

الغزالى ودقائق أعمال الحج :

بعد أن فصَّل الإمام الغزالى رحمه الله الأمور الفقهية لمناسك الحج فى كتابه الإحياء ، وضع بابا مستقلا مفصلا عن دقائق أعمال الحج وآدابه الباطنية ، ضمنه الأسرار الباطنية لأعمال الحج وآدابها من أولها إلى آخرها ، فذكر أنه عند القيام بهذا العمل يجب عقد النية على كذا ، وعند عمل كذا يجب أن تتصور هذا الهدف ، وعن طريق عمل كذا يجب تذكية النفس ، وأن عمل كذا يجب أن يكون وسيلة لإصلاح نفسك ، وعن طريق كذا وكذا يجب أن تعمل مجاهدات كذا وكذا ، ثم مع كل مجاهدة من المجاهدات يذكر حكايات أيضا عن الأولياء الكبار من زمن التابعين حتى زمانه ..

هل يمكن أن نتصور أن يحلم أمثالنا- نحن الذين ساءت أعمالهم - بأن نتحمل المشقات التى تحملها هؤلاء المقبولون من أجل قبول حجهم ، فننال مثل ما نالوه من قبول؟!

هل يمكن أن يجرؤ أمثالنا على القيام بالرياضات التى يقوم بها أهل الله هؤلاء من أجل الطاعة ؟! إن المعيار الذى وضعه العارفون للعبادة ، لا يمكن لأمثالنا أن يذكره ؛ لأنه لا نصيب لنا فى أية درجة من درجاته !! ثم هل كانت مشقة هذا الحج ، وما عانيناه فيه - لا قدر الله - بلا نتيجة ؟! وهل تركْنَا للوطن ، وغربتنا عنه والبعد عن أهلنا ، وإنفاق مئات الروبيات ، وتحمل متاعب جو الصيف الحار - لا قدر الله - بلا نتيجة ؟!

الحج على طريقة السنة النبوية :

لنترك كلام الكبار للكبار ، فكيف تسبق السلحفاة الأرنب؟! كيف يتجرأ المفلس الذى لا يمتلك شيئا على مسابقة أصحاب التيجان والقلنسوات الذهبية ؟! .. اتركوا أمر أسد الله على الله ! لو أن كل ما ذكرت من شروط ضرورية من أجل قبول الحج ، فأخبرونى ، ما مصيرنا نحن الضعفاء ، أصحاب الهمم الضعيفة ؟! لقد ظهر جنيد ، وأبايزيد ، والهجويرى والغزالى فى مدة مئات السنوات ، ومن بين مئات الآلاف من

الناس ظهر اثنان أو ثلاثة ، أما اليوم وسط هذه الملايين ، والملايين من الخلق فى مدة ١٣٥٠ سنة تقريبا ، فيعلم الله كم ظهر فى بقاع الأرض.. ويعلم الله مستقبلا إلى متى يستمر الخلق .. فهل يضيع تعب كل هؤلاء وهل يصبح تعبهم ، ومعاناتهم فى سفر الحج بلا نتيجة ؟! وبلا ثمرة ؟ !

لنثق برحمته عز وجل ، ولنعتمد على رحمته ، فهو أرحم الراحمين ، وهو أكرم الأكرمين ، أرسل نبيه « رحمة للعالمين » أرسله دليلا وحاكما وحكيما ومرشدا ومعلما ، فجعل من سنته أنموذجا للعمل ، وهو يزيد من همة الضعفاء أكثر من الأقوياء ، وهو يهتم بالضعفاء أكثر من الأقوياء ، ويشجع أصحاب الهمم الضعيفة أكثر من تشجيعه لأصحاب الهمم القوية ، وأكثر من هذا ، ما ورد فى كتب الفقه ، وما جاء فى تفصيل الحديث عن سفر حج ، وأعمال حج أكمل الكاملين ، وأكثرهم مقبولية فى الحج ، وهو الذى سيكون معينا لكل المحتاجين فى الآخرة ، ومساعدا لكل يائس وبائس، فمثلما يسر أمور العبادات والطاعة فى أمور الدنيا ، فقد يسر أمور معاملات الحج ، فهو (صلى الله عليه وسلم) ، الذى هو رحمة للعالمين ، يحيل يأس اليائسين إلى أمل ، ويعطى شعاع الأمل لكل يائس وبائس

(٣٧)

الوداع

المدرسة الصولتية :

ورد ذكر اسم المدرسة الصولتية من قبل ، مع نبذة مختصرة ، وهى معروفة فى جميع أنحاء الهند من قبل ، والنبذة المختصرة زادت الشوق فى القلوب ، ولا تتسع هذه الصفحات لتفصيل الحديث عنها ، كما أن هذا ليس محلَّ الحديث عنها ، لكن يمكن القول فقط – ولا حرج فى سماعكم لما أقول – إن هذه المدرسة من أقدم المدارس التى أنشأها الهنود فى جزيرة العرب ، وأشهرها أيضا .

أما مؤسسها مولانا (رحمة الله) ، فهو من مركز « كيرانه » فى محافظة « مظفر نكر » ، وهو عالم جليل اشتهر بمناظراته قبل ثورة ١٨٥٧م ضد الإنجليز ، وقد ناظر عدو الإسلام القس « فندر »[١] وغلبه فى ساحة المناظرة ، مما جعله موضع شك الحكومة البريطانية ، فهاجر وقدم إلى مكة ، وبمساعدة مالية من السيدة الكريمة ، عالية الهمة ، صولة النساء بيغم (من كلكته) قام بوضع حجر الأساس لهذه المدرسة الدينية سنة ١٢٩١ هجرية ، ومنذ ذلك الوقت والمدرسة بحمد الله تؤدى خدمات جليلة .

لا شك فى أن انقلابات الزمان عبرة لمن يعتبر ، ففى عهد السلطان عبد العزيز خان ، والسلطان عبد الحميد خان ، كان للعلامة الشيخ قدر كبير ، وكانت له مكانة عالية ، لكن ربما يُكفِّر العاملون بالمدرسة حاليا عن تلك « الأخطاء » ![٢] ومع هذا فالمدرسة حتى الآن بحالة جيدة ، وهى تتلقى فى الغالب معونة سنوية قدرها ١٢٠٠ روبية من « رئاسة (سركار) نظام » من الهند ، ومثلها من « رئاسة (سركار)

بهوبال » كما قرر « نواب تشتهارى » تبرعا للمدرسة قدره ١٨٠٠ روبية سنويا ، بالإضافة إلى التبرعات المتفرقة .

ويلاحظ أن مبانى المدرسة فخمة وواسعة ، فقد أنفق على بنائها نحو مائة ألف أو مائة وخمسة وعشرين ألف روبية ، وقد سمعت أن « سركار آصفية » تبرع بـ ٥٢ ألف روبية دفعة واحدة !

يدرس فى المدرسة تلاميذ من الحجاز ، ومن بخارا ، ومن الهند ، ومن جاوه ، ومن مراكش ، ومن قوميات أخرى، لكن للأسف عدد الحجازيين قليل .

يكون التعليم فى البداية بلغة التلاميذ الأم ، والأساتذة أيضا من مختلف البلاد ، وتصل إلى مكتبة المدرسة صحيفة « همدرد » و « سچ » وبقية صحف الهند ، وتعد المدرسة فى مجموعها مركزا طيبا للهنود ، وناظر المدرسة العلامة الشيخ محمد سعيد كيرانوى ، يقضى هذه الأيام فى إجازة ، فقد عاد إلى وطنه ، ونائبه هو مولوى محمد سليم [٢] الذى تحدثت عن كرمه وحسن خلقه ، والمدرسة بالرغم من وسائل الدخل الحالية ، فهى لا تستغنى عن تبرعات أهل الخير ومساعداتهم .

مدرسة فخر عثمانية :

« مدرسة فخر عثمانية » تنسب إلى صاحب عرش (مؤسس) « الدولة الآصفية » مير عثمان على خان بهادر آصف جاه ، وهى متصلة تماما بالحرم ، بل يجب القول بأنها فى داخل الحرم الشريف ، تقع غرفها على سطح الطابق الثانى لباب إبراهيم ، ولو صلى الإنسان فى هذه الغرف ، فكأنه يصلى فى الحرم الشريف نفسه ، ويدرس فيها الهنود والحجازيون والجاويون وغيرهم من الجنسيات الأخرى ، وهى تتلقى معونة من « حاكم (سركار) نظام » تبلغ نحو مائتى روبية شهرياً ، كما تتلقى المدرسة مبلغ ٥٢١ روبية شهرياً من بلاط بهوبال، بالإضافة إلى تبرعات مختلفة .

فى موسم الحج يؤجر مبنى المدرسة ، ونظرا لموقعها المتميز ، الذى يجعل من مبناها أفضل الأماكن للحجاج ، فإيجارها يدر عن المدرسة مبلغا طيبا ، ومن سنة ٤١ هجرية حتى سنة ٤٤ هجرية كسبت المدرسة ما يزيد عن ألفى روبية كل عام ، ويصل متوسط دخل المدرسة الإجمالى ما بين ٧ آلاف ، و٨ آلاف سنويا ، والنفقات أيضا لا تقل عن ٦ آلاف أو ٧ آلاف ، لكن الدخل انخفض كثيرا سنة ٣٤ هجرية ، مما أقلق المسئولين عن المدرسة كثيرا ، وعلى أهل الخير أن يوجهوا اهتمامهم إلى هذه المدرسة ، وقد نشر تقرير القائم على أعمال المدرسة قارى محمد إسحاق ، عن المدرسة فى مطبعة « همدرد » فى دهلى ، ويمكن من خلاله معرفة التفاصيل .

كنت قد التقيت به فى حيدر آباد ، لقاء عابرا سنة ٤٧ هجرية فى الغالب ، وهو شخص نشيط ، وعلى درجة عالية من الكفاءة ، وصاحب همة عالية ، وخدوم ، يخطط من أجل تطوير المدرسة بشكل سليم ، لكن المسكين ليس عنده مال أو عتاد ، ومن الضرورى الإشارة إلى أن مبنى المدرسة ليس مبنى مستقلا بها ، أو ملكا لها ، لكنه مؤجر ، ومعظم النفقات تصرف على إيجار المبنى ، ففى كل عام يجب دفع مبلغ ١٢٠٠ روبية أو ١٣٠٠ روبية للإيجار .

إن من يريد أن يمد يد العون للمدرسة ، من أهل الكرم فى الهند ، يمكنهم أن يرسلوا أى مبلغ إلى المدرسة ، عن طريق حاجى عبد الغفار ، كوتهى على جان مرحوم ، تشاندى تشوك - دهلى ، أو عن طريق حاجى عبد الله بهائى عبد الرحيم ، ناكدوى استريت ، بمباى .

مكة مدينة حضارية :

يوجد فى مكة المكرمة هذه الأيام - بالإضافة إلى المدرستين المذكورتين - مدارس أخرى ، لكننى لم أجد وقتا لزيارة تلك المدارس ، كما أنه ليس لدى معلومات

مفصلة عنها .

مكة المكرمة ليست مجرد مكان للعبادة فقط بل هذه مدينة واسعة ، مترامية الأطراف متحضرة ، فيها المدارس والمستشفيات ، والسيارات والدراجات ، وأضواء الكهرباء ، فيها المراوح وفيها مصانع الثلج ، فيها مطابع وفنادق مزودة بكل مستلزمات الحضارة والمدنية .

ولو صرفنا النظر عن أماكن العبادة ، ونظرنا إليها من حيث مكانتها الحضارية ، فإنه قد لا نظن أنها من مدن الحجاز ، بل يظهر لك بأنك جالس فى مدينة لكهنو أو فى مدينة كان بور ، أو فى آكره .. أسواق كبيرة ، فيها أفخم أنواع الأقمشة المستوردة ، ومحالٌ وفنادق تقدم أفضل أنواع الطعام ، وإذا ما بحثت وجدت جميع أقسام الطعام من كل ذوق ، ومن كل طعم ، وكذلك الحلوى والفاكهة والثمار ، كلها موجودة بكثرة ، بل بإفراط ..

يوجد مكتب للتلغراف ، والهاتف ، وتوجد فى الغالب محطة لاسلكى ، أما العلاج هنا فقد تحول منذ عهد الأتراك إلى الطب الغربى ؛ لهذا يندر أن تجد هنا الأطباء الذين يعالجون بطريقة الطب اليونانى ، لكن يمكنك أن تجد وأنت مطمئن تماما أدوية الطب اليونانى ، المستوردة من صيدليات دهلى .

يقيم هنا فى مكة عدد كبير من أهل دهلى ، وأوده ، والبنجاب ، والدكن ، وبمباى ، والكجرات ، وهم يذكرونك دائما بالهند ، وتهتم الحكومة الحالية أكثر بجماعة أهل الحديث ، فمن كان منتميا إلى هذه الجماعة فله مكانة طيبة لديها .

بالإضافة إلى الصحف والمجلات المصرية ، تصل هنا أيضا من الهند صحف أردية بأعداد كبيرة ، وتصدر هنا جريدة أسبوعية باسم « أم القرى » تصدر كل يوم جمعة ، ومكتبها قريب من الحرم الشريف ، وهى تقع خلف قصر ولى العهد ، ويتم تبادلها مع صحيفة « سچ » وإذا وجدت فرصة ، فسوف أذهب للقاء مديرها ، لأقف على أحوال مكتبها ، ومبنى الجريدة يبدو من الخارج فخما وعظيما ، والصحيفة شبه رسمية بل يمكن القول بأنها هى الصحيفة الرسمية ، وهى تصدر فى أربع صفحات من

القطع الكبير ، وفى كل صفحة خمسة أعمدة ، والاشتراك السنوى فى الجريدة بثلاثة ريالات فى الحجاز ، وستة ريالات فى الخارج (الريال السعودى ١٨ أنه أو أكثر قليلا) ومن يريد أن يطلع على أخبار الحج والحجاز من خلال المصادر الرسمية فمن الضرورى أن يقرأ هذه الجريدة .

الإسراع بالعودة بعد الحج :

بعد أن يفرغ الحجاج من أداء مناسك الحج يسرعون فى العموم بمغادرة مكة ، فمنهم من يرغب فى الذهاب إلى المدينة ، ومنهم من يريد العودة إلى وطنه ، وهكذا يبقى منهم عدد قليل جدا ، وعلى هذا ذكر بعض الشيوخ بأنه يجب الإسراع فى العودة بعد أداء الحج ، ولا يجب أن يقيم الإنسان فترة طويلة بعد أداء الحج ، وقد سمح الرسول (صلى الله عليه وسلم) للصحابة بأن يبقوا بعد الحج لثلاثة أيام فقط .

وهكذا كنا نحن أيضا نتعجل العودة ، فكان برنامجنا أن نعود على أول باخرة من جدة ، وكان منشى (الباشكاتب) إحسان الله خان قد أخبرنا بأن وجود أماكن على أول سفينة أمر ممكن إذا وصلنا إلى جدة يوم الثالث عشر، وبالتالى اعتقدنا أننا سوف نصل إلى جدة فى أى وقت يوم الثالث عشر ، فالسيارة تقطع الطريق فى ساعتين أو ساعتين ونصف ، ويمكن أن تتحرك فى أى وقت نشاء !!

عرفنا من التجربة أن هذا مجرد حسن ظن ، فالعودة لا يمكن أن تكون بمثل هذه السهولة ، مثلما كنا نظن من قبل ، عرفنا فى البداية أنه يمكن الحصول على سيارة ، إذا ما صدر المرسوم الملكى المتعلق بالحج ، وقبل صدور هذا الأمر الملكى ، فإن الحصول على سيارة يعنى مخالفة القانون، وبالطبع ليس من الضرورى أن يصدر المرسوم الملكى يوم الثالث عشر من ذى الحجة !!

على كل حال سهل الله لنا الأمور وصدر المرسوم الملكى الخاص بالحج يوم الرابع

عشر من ذى الحجة ، وبعدها بدأت حركات المطوف ، التى لمسناها من قبل !!

صعوبة السفر من مكة إلى جدة :

سبق أن ذكرنا الصعوبات والمتاعب التى تعرضنا لها فى الحصول على وسيلة مواصلات فى أثناء الذهاب إلى المدينة ، وظننا أن مكة هى العاصمة الملكية ، ولهذا سيكون الترتيب هنا أفضل ، والنظام أحسن ، ومن خلال التجربة ، عرفنا أيضا ، أنه لا فرق بين هذا وذاك .. إذ أن شركة الحرمين التى كانت شاحناتها تذهب من جدة إلى المدينة ، ومن المدينة إلى مكة ، قد انتهى عقدها .

علينا الآن أن نبحث عن تدبير آخر ، ووسيلة مواصلات أخرى ، وهنا يجب أن نتذكر بأن ترتيب وتدبير وسيلة السفر، يكون عن طريق المطوف ، ليس إلا ! فلا يمكن لأى حاج أن يرتب وسيلة سفره بنفسه ، وحتى لو أراد فإن من يملك وسيلة السفر ، لا يمكن أن يتحدث معه مباشرة ، فتدبير وسيلة السفر دون وساطة المطوف ، هو فى قانون الحكومة جريمة.

يوجد تاجر يدعى عبد الحميد كتبى الهندى ، كنت قد حملت خطاب تعريف له من شهبندر التجار عمر بهائى تشاند بهائى ، فى أثناء مغادرتى بومباى ، كان عنده سيارات تعمل على الطريق ، فطلبت منه المساعدة ، وطلبت ذلك منه عدة مرات ..

كان قد استقبلنى فى البداية بحفاوة ، لكن حين عرف بأننى أقابله لهذا الهدف أخذ يجيب بشكل غير واضح ، ويدور فى الكلام ، ورفض تماما طلبنا بعد أن ذهبنا إليه تحت أشعة الشمس المحرقة .

كان معى خطاب تعريف باسم الشيخ عبد الوهاب ، من جماعة حاجى على خان بدهلى ، التقيت به صباح يوم الرابع عشر ، ووعد بالمساعدة وكتب عدة رسائل لبعض أحبابه ، فقام أحدهم ويدعى فى الغالب عبيد الله ، ووعدنا بترتيب وسيلة السفر لنا ، ويعلم الله كم مرة اضطررنا إلى الذهاب إلى بيته المحترم ، وفى النهاية عرفنا أن عدم الوفاء بالوعد ليس قاصرا فقط على الهند بل يمكن أن يكون هنا أيضا ، وبسهولة كبيرة ، فى جوار بيت الله ، وعلى كل حال قضينا اليوم بأكمله دون الوصول إلى

نتيجة ، وانتهى يوم الرابع عشر ، ولم يكن هناك أى مخرج يمكننا من الحصول على وسيلة سفر ، أراد حبيب الله المسكين أن يساعدنا بإخلاص كامل ، لكنه وقف مكتوف الأيدى أمام حركات المطوف وألاعيبه !

خوف المطوف من « إحسان الله » ! :

كنا قد أرسلنا الأمتعة الزائدة إلى جدة ليلة يوم الرابع عشر من ذى الحجة ، والآن نحن هنا بأنفسنا ، نقضى الوقت من الصباح حتى المساء ، ونقضى ساعات الظهر والعصر فى السعى إلى العودة إلى الوطن ، نهرول من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا ، بحثا عن وسيلة للسفر ، ثم نعود من على كل باب ، يائسين محرومين ، كيف نفكر فى الصلوات وكيف نفكر فى الطواف ، ورءوسنا مملوءة بهذا الدوران والدوخان ؟! هل نسافر إلى جدة مشيا على الأقدام !

يوم الخامس عشر كان يوم الجمعة ، وقد جعلنا وقت الصباح لمثل هذا اللف والدوران ، وهكذا حين وصلنا فى الظهر إلى الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، لم نجد مكانا على الإطلاق ، فاليوم يمتلئ الحرم الشريف بجميع أركانه بالمصلين .. لا نتحدث عن الركوع والسجود ، إذ لا يوجد حتى مكان للوقوف .. وهكذا وجدنا أنفسنا مجبرين على ترك فكرة الدخول فى الحرم الشريف ، وصعدنا إلى غرف المدرسة الفخرية العثمانية ، التى تقع فى الطابق العلوى لباب إبراهيم ، ودبر لنا قارى إسحاق المشرف على المدرسة بلطفه وكرمه مكانا ، بشكل أو بآخر ، وقد كانت المسافة بيننا وبين الشارع الخارجى قريبة جدا ، لدرجة أن صوت الصياح والضجيج لم يكن يسمح لنا بسماع صوت تكبير الإحرام ، وهكذا قمنا بأداء الصلاة .. بشكل ما !

فى العصر كانت المدرسة ستعقد جلستها السنوية ، ولهذا كان علينا أن نأتى إلى هنا بعد العصر ، لحضور هذا الاحتفال ، وفى هذا الوقت وبعد أن عجزنا بالرغم من سعينا هنا وهناك عن تدبير وسيلة للسفر إلى جدة ، أرسلنا هذه البرقية إلى منشى

إحسان الله نائب القنصل الإنجليزى فى جدة عن طريق « قارى إسحاق » :

« بحثنا عن وسيلة للسفر منذ يوم ١٣ ، ونظرا لعدم وفاء المطوف بوعده لنا ، فنحن لا نزال محجوزين هنا. »

انظروا إلى عظمة الله ! فقسى القلب الذى لا يخاف « الله » خاف من « إحسان الله » ورتب لنا على الفور وسيلة سفر إلى جدة ، فقد جاء المطوف بنفسه ، ليخبرنا بأن الشاحنة جاهزة لتنقلنا إلى جدة ، ويمكننا التحرك فى أى وقت نشاء .

وداع بيت الله :

طفنا طواف الوداع ، وهذا آخر سلام فى حضرة ملك الملوك ، ويطلق عليه أيضا « طواف الصدر » و « طواف الإفاضة » ، وهذا الطواف بالنسبة للعائدين إلى أوطانهم واجب فى المذهب الحنفى ، ولا شك أن النساء ذوات الظروف الخاصة يستثنون من هذا الوجوب ، وهو طواف مثل كل طواف سابق ، والفرق أنه ليس فيه رمل ، وبعد الانتهاء من الأشواط السبعة ، تصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ، وتشرب من ماء زمزم ، وتقبل الحجر الأسود ، وإن وجدت فرصة ، دعوت الله عند الملتزم ، وعند الخروج من الحرم ، يدعو الإنسان عند باب الحرم ، وتتضمن بعض الكتب هذه الأدعية، ويقوم المطوف بالدعاء الذى يردده الحجاج من بعده .

ومن الأفضل أن تصل إلى باب الحرم بظهرك إذا بدأت ترك الكعبة ، فيقبل الله حجك [٤]، ومن الأفضل أن تدعو الله بأن تعود مرة أخرى للحج ، وأن تبكى على مفارقتك للكعبة ، أو على الأقل يجب أن يبكى القلب ، وحين تخرج من الحرم يمكن أن تتصدق على الفقراء والمساكين بما تجود به نفسك .

كنا قد حزمنا أمتعتنا وأعددنا العدة للتحرك ما بين العصر والمغرب .

صلينا المغرب فى الحرم ، وفرغنا من طواف الوداع ، استغرق ذلك ساعة إلا الربع ، وحين وضعنا أقدامنا خارج حدود الحرم الشريف ، كان ذلك وقتا عجيبا !

من بيننا من كان فرحا مسرورا ، ومنهم من كان حزينا مغموما ، كانت قلوب البعض عامرة بالآمال والأمانى ، بينما كانت قلوب الآخرين مملوءة بالحسرة ! ظنا منهم أنهم لن ينالوا نصيبا فى العودة مرة أخرى إلى هذا المكان ، بل والعودة أكثر من مرة !

فلو ذاق الإنسان مائة مرة مرارة الفراق ، فسوف يذوق آلاف المرات حلاوة الوصال ولذته ..

البعض حزين مغموم لأنه يفارق الكعبة ، والبعض مسرور لأن الكعبة تمضى معه ! من يدرى ماذا بداخل كل منا ؟! من يدرى نتيجته عند رب العباد ؟ من يدرى من أُستجيب لدعائه عند مالك القلوب ، ومن قُبلت هديته عند مقلب القلوب ؟!

الهوامش

(١) شاع أمر مناظرة الشيخ رحمة الله الكيرانى التى هزم فيها القس فندر . انظر الأدب الأردى الإسلامى .

(٢) ربما كان يشير إلى المعونات التى كانت تقدم إلى المدرسة ثم توقفت .

(٣) لمزيد من التفصيل عن مولوى محمد سليم انظر ما كتبه الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه المصابيح القديمة ، وانظر مقدمة الترجمة .

(٤) هذا غير ثابت ، وربما كان مبالغة فى الاحترام.

(٣٨)

جملة معترضة

مظالم المطوف عبد القادر إسكندر وغيره :

ورد ذكر مظالم المطوف عبد القادر إسكندر عدة مرات ، وربما ظن بعض القراء أن ذكر هذه المظالم ، كان بسبب الغضب ، أو كان تجنيا ، لكن الحقيقة أن ما قيل هو قليل جدا من كثير.!!

فقد ذكرت ما تعرضت له من وقائع أساسية ، لم أجد مفرا من ذكرها ، وكنت مضطرا للإشارة إليها ، ولو كتبت « الكليات » و« الجزئيات » التي تعرضنا لها ، أو رأينا الآخرين يتعرضون لها ، والتي لم تقتصر على إنسان بعينه ، بل تعرض لها الجميع ابتداء من « أمير أحمد علوى كاكورى » القاضى الكبير ، إلى أفقر فقراء الحجاج ، فلو كتبنا هذه الأشياء فإن هذه « السفرنامه » أى الرحلة لن تكون سفرنامه ، بل ستكون « سكندر نامه » أى كتاب المطوف إسكندر ، وليس إسكندر البرى أو البحرى بل « إسكندر الصحراوى » .

القراء المتفائلون يقولون فى سرّهم : يا لهذا الرجل العجيب ! يا لمسافر الحجاز العجيب ! ذهب لأداء فريضة الحج ، ثم يبكى على مظالم المطوف ! فإذا كان المطوف هكذا ظالما ، وطماعا ، وأنانيا ، وغير متعاطف ، فلماذا لم تصدر هذه الشكوى عن غيره من الحجاج ؟ لماذا هو وحده الذى يثير هذه الضجة ؟ لكن حسن ظن هؤلاء المتفائلين ليس بصحيح .. إن من تعرض لكل هذه المآسى ، لم يكن هو المسافر الوحيد إلى الحجاز ، الذى شكا وصرخ من المطوفين!

رحلة المسكين إلي البلد الأمين :

إن الشيخ محمد حسين آبادى ليس مجهولا ، أو إنسانا غير معروف ، فهو مريد حاجى إمداد وخليفته ، وهو صورة مجسمة للحب والعشق ، وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى فى أجمير ، وهو مستغرق فى العبادة والصلاة ، فاشتهرت هذه الواقعة فى عموم الهند ، فمنذ ثلاثين سنة أو أكثر ، فى عام ١٣١٨ هجرية ذهب للحج للمرة الرابعة ، وبعد عودته كتب عن رحلته كتابا مختصرا ، بأسلوب شائق جميل ، ونشر الكتاب بعنوان « رحلة المسكين إلى البلد الأمين » فقص حكاية السفر، وكأنها حكاية عشق ومحبة .

وكان الرجل يغالى فى حبه للعرب ، وعشقه لأهل الجزيرة العربية ، لدرجة أنه لم يكن يسمح لأحد أن يقول كلمة أو حرفا فى حقهم ، أو يشكو منهم ، ومع هذا وجد نفسه وهو يحكى حكايته ، مجبرا على أن يكتب ما يلى حين خرج من مكة ، فى طريقه إلى منى ، فى يوم الثامن من ذى الحجة :

« .. فى هذه السنة لم تصل الجمال إلينا إلا فى وقت متأخر جدا ، ولهذا غادرنا مكة وقت العصر ، وصلينا المغرب عند حدود منى ، ووصلنا منى وقت العشاء ، كان علينا أن نترك المكان بعد صلاة الفجر ، لكن البدو ورجال المطوف رفضوا ذلك ، وكان القيام فى منى أيضا ، بناء على إصرارى الشديد، وفى آخر الليل تحركنا إلى عرفات، فوصلنا هناك قبل طلوع الشمس ، ولما كان البدو والمطوف يأتون دائما للحج ، ليس بهدف الحج ، لكن بهدف كسب النقود من الحجاج فقط ، لهذا لم يكن هؤلاء يهتمون بالسنن أو المستحبات ، فهؤلاء المطوفون الظلمة ، وموظفوهم لا يراعونها أبدا ، كما أنهم من أجل راحتهم الشخصية ، يصيبون الحجاج بالأذى ، ويحرمونهم من الثواب .. » (الرحلة ص ٦١ - ٩٢)

ولهذا وجد العلامة الشيخ نفسه مجبرا على أن ينصح العازمين على الحج فى العام التالى ، محذرا إياهم من المطوف ، مشيرا عليهم بأن :

« عليهم أن يذهبوا من مكة مع رجل ذى علم ، فاهم .. وألا يعتمدوا على المطوفين فى أدائهم لأركان الحج .. » (الرحلة ص ٢٦)

يجوز فى الفقه الحنفى العودة من منى إلى مكة بعد زوال يوم الثانى عشر ، وهذا صحيح ، وليس قبل الزوال ، ولكن ماذا حدث لشيخنا على يد المطوفين الظلمة ؟! لنستمع إلى ما حدث على لسان الشيخ نفسه :

« بدأ رجال المطوف فى تجهيزنا للذهاب إلى مكة من صباح يوم الثانى عشر ، وبدءوا يلقنون البدو هذا الدرس ! بألا يقبلوا أبدا البقاء هنا حتى الزوال ! ربما يكون رجال المطوف على علم ببعض أمور الدين ، فقد أطلعونى على كتاب فيه رواية للإمام أبى حنيفة ، يستفاد منها جواز الرمى أيضا قبل الزوال فى ذلك اليوم ، فقلت : هذه الرواية خلاف ظاهر الرواية ، وغير مُفْتَى بها ، لكن أحدا منهم لم يوافق ، وهكذا قررنا تركهم ، وقد أخذوا كل متاعى ، وبقيت مع بعض رفاقى .. وبعد الزوال رمينا وذهبنا ، وفى الطريق ، وبصعوبة كبيرة وجدنا وسيلة سفر .. فقد ركبنا الحمير.. » (الرحلة : ص ٧٢)

كما ذكرت أن الشكوى من العرب وأهل الجزيرة العربية فى عقيدة شيخنا جرم وذنب ، فكم يا تُرى من أذى تعرض له حتى خرجت منه هذه الكلمات ، فسطرها قلمه !!

(ميرا سفر حج) أى رحلتى إلى الحج :

فى سنة ١٩٢٣ م سافر رئيس « كوركهبور» (بكاف فارسية) المعروف مولوى سبحان الله خان للحج ، وبعد عودته نشر رحلة بعنوان « ميرا سفر حج » أى « رحلتى إلى الحج » ، وهناك بعض فقرات من هذه الرحلة تستحق المطالعة ، ومولوى سبحان الله خان يعرف جيدا أن أى كلام من هذا النوع يخرج من الفم ، هو جرم كبير فى « رأى » أصحاب العقيدة الطيبة من المتفائلين ولهذا مهد بسطور قليلة قبل أن يصدر بيانه :

« .. سأكتب بعد ذلك عن أحوال المطوفين ، إلا أننى أعرف جيدا أن الناس لن يثقوا فيما أكتب ، ولو رأى أى حاج عائد من الحج كتابى هذا ، فإنه سوف يعتبرنى بكل تأكيد فاجرا غير متدين ، ويتهمنى بأنى لا أحترم ، ولا أبجل أهل الحرم .. لكنى لا أريد أن أرتكب خطأين بسبب ما يظنه هؤلاء :

الأول : أن يبقى هذا الكتاب ناقصا دون أن يكتمل .

والثانى : هو ضرورة إطلاع الناس الآخرين المسافرين للحج على تجربتى.» (الرحلة ص ٥٤ - ٥٥)

بعدها كتب عن مناقب المطوفين هكذا :

« والآن اسمعوا ! إن المطوف لن يتعاطف معكم بأية حال من الأحوال ، سوف يحاول أن يدخل السرور عليكم بكلامه اللطيف ظاهريا فيقول : أنا خادمكم .. أنا تحت أمركم .. ما يرضيكم يرضينى .. أنا رهن إشارتكم .. لكنه لن يسمح لكم بقدر الإمكان من أن تلتقوا بأحد من أهل البلد .. وقد يضطر إلى ذلك فقط بالجبر والقهر ، ويظل معكم بنفسه أو يظل موظفه الذى يطلقون عليه اصطلاحا « صبى » معكم ، فإذا تم الاتفاق على شىء فيه مصلحتكم ، فلن يسمح بهذا أبدا .. وهذا السلوك شائع مع الناس ..

وحتى فى شراء أى شىء ، وفى شراء الهدايا ، يكون للمطوف بالضرورة حق ! وهذا يتم دون أن يدرى أحد منكم، مثلما يحدث مع « دلال بنارس » أو « دلال لكهنو » ، ويتم الاتفاق على حقه بالإشارة .» (الرحلة ٥٥-٦٥)

وبعد أن يذكر نصيب أو حقوق المطوفين فى إيجار البيت وإيجار الخيمة وغير ذلك يكتب فى النهاية أن :

« هذه بعض الأمور الظاهرية التى اكتشفتها أنا ، وإلا فهم فى الأصل ، يحاولون أن ينالوا منك كل شىء بالخداع والغش ، والمنة والسماجة ، وبأى شكل ممكن . » (الرحلة: ص ٥٧)

هذه العبارات صدرت من شخص كرمه يفوق كل الحدود، وعطاؤه فى جميع أنحاء المحافظة مشهور ومعروف ، ولم تصدر عنه أية شكوى مطلقا من مطوفه .

سفر الحرمين الشريفين :

سافر خان بهادر عبد الرحيم خان النقشبندى إلى الحج سنة ١٩١١م ، وهو من سكان البنجاب ، وكان يعمل فى وظيفة محترمة فى هيئة المساحة فى مدراس ، وقد كتب كتابا بعنوان « سفر حرمين الشريفين » فى ثلاثة مجلدات ، فصل فيها الحديث عن رحلته ، وقد كتب عن أحوال المطوفين وأسرارهم الخاصة بالتفصيل ، ننقل منها بعض الفقرات :

« بالرغم من أن هذا أمرًا غير طيب ، وتعافه النفس ، كما أن إظهاره وبيانه صعب على النفس ؛ لأنه لا يتعلق بمساوئ الآخرين ، بل هو كشف لعيوب أهلنا أمام الأمم الأخرى ، لكن إخفاء هذه الوقائع ، التى تكون سببا لإيذاء الحجاج ، وسببا فى الإساءة إلى سمعة العرب ، يزيد من الأسى والألم، لهذا أجد نفسى مضطرا لأن أتكلم ، وعلى العموم فإن هؤلاء الناس أى وكلاء المعلمين يؤذون الحجاج الهنود أذى شديدا .. فحين يصل الحاج إلى جدة ، فإن هؤلاء الناس أو مطوفيهم ، يذهبون إلى جدة ، ويأخذون هؤلاء الحجاج عندهم .. ويظنون أن هؤلاء الحجاج مزرعة أو حقل ، فيبدءون فى إخراج مدخراتهم السنوية ، وكل ما يمكن إخراجه ، ويسلبون الحجاج - بقدر الإمكان - كل ما معهم ، ويجمعون منهم الأموال التى تكفيهم ليعيشوا بها طول العام ، ويصل الأمر إلى حد أن المطوفين يرون أن أمير الحج إذا ما تبقى له قطعة واحدة من ملابسه تستر جسمه ، فإن هذا يجعله ينال ثوابا أكثر ..

إن هذه حالة عامة ! وأنا لا أذكر حالات نادرة أو شاذة ، فهم يخوفونهم ، ويرهبونهم ، ويذكرون لهم أخبارا غير صحيحة ، يؤذونهم بها معنويا ، وهذا أمر عادى جدا ..

وبالنسبة للهنود الجاهلين فيكفى أن يكون المطوف « مكيا » ! وسكان مكة فى نظر الهنود معصومون ، ويجب تعظيمهم ، مهما كانت أفعالهم .. إن ما كتبته هنا هو تجربة عايشتها ، وتجربة عايشها أيضا غيرى من الحجاج .. » (الرحلة ج ١ ص ٢٣٩ - ٥٤٣) .

سفرنامه محمد شريف الإمرتسرى :

أما محمد شريف الإمرتسرى الذى سافر إلى الحج سنة ١٩٢٧م ، وكتب بعد عودته كتابا مختصرا بعنوان « سفر نامه » أى الرحلة فى ثلاثة أجزاء ، فيفهم من مطالعة كتابه أنه فطن تماما إلى هؤلاء المطوفين ، فقد كان يؤكد فى كتابه هذا على أنه بالرغم من كل ما حدث ، فإن على الحاج أن يصبر ويتحمل كل ما يتعرض له ، ويعتبر الصعوبات والمتاعب وكل الأمور السيئة التى يتعرض لها ، اختبارا من الله عز وجل ، وقس على هذا !

لكنه رغم هذه المواعظ والنصائح اضطر أن يكتب ما يلى :

« .. عموما سمعنا أن بمكة كثيرا من المطوفين الذين لا يؤدون واجباتهم على خير وجه ، مما يصيب الناس بالتعب، وقد سمعت هذه الشكاوى فى الكعبة الشريفة (الحرم) على ألسنة كثيرة من الناس .. لقد تعرضنا أيضا لمتاعب كثيرة على يد مطوفنا ، ولم نجد فى التعامل معه أى نوع من أنواع الراحة .» (الرحلة ص ٣٧)

بعدها فصل الحديث عن متاعبه ، وما تعرض له من أذى ، وهى فى معظمها المتاعب نفسها التى يتعرض لها الحجاج عادة على يد مطوفيهم ، مثلا عدم احترام الوقت ، مع وجود وعد صريح ، ووسائل الإركاب ، ومشاكل الشغدف وما شابه ذلك ، وسوء الترتيب ، وسوء التنظيم ، وسوء الخدمة ، وعدم المساعدة على الإطلاق فى ترتيب أمر الإتفاق أو إيجاد وسيلة الركوب والسفر من مكة وغير ذلك .

تذكرة الخليل للشيخ خليل أحمد :

ولو ركز السادة المطوفون على الحصول على ما يستطيعون الحصول عليه من الحجاج ، ثم ساعدوهم فى أداء أعمال الحج ، بشكل كامل وصحيح ، فلا مضايقة فى هذا ، فوسيلة معاش المطوفين هى ما يحصلون عليه من دخل من الحجاج ، لكن سبب البكاء ليس على طمعهم وجشعهم ، بل القيامة الكبرى هى فى أنهم يدعون الإرشاد والتعليم ، ثم يقومون بأعمال « قطاع الطرق » .

إن الواجب عليهم ، وما ينبغى هو أن يقوم هؤلاء بمساعدة الحجاج فى أداء حجهم بالطريقة الصحيحة ، لكن ما يحدث عموما يكون على العكس من ذلك، فعن طريق هؤلاء المعلمين ـ يترك الحجاج – والله أعلم – الكثير من المستحبات كما أنهم لا يتبعون السنن ، وتضيع ساعات ثمينة ، وأوقات غالية ، ما كان يجب أن تضيع عليهم، وبسبب هؤلاء المطوفين ، يضطرب القلب ويشوش ، ويضطر الإنسان إلى التلفظ بعبارات وألفاظ غير مناسبة ، فى وقت يجب أن يلتزم فيه بالخضوع والصفاء والنقاء ..

ولنزيدكم مثالا آخر فوق ما ذكرناه ..

فخليفة العلامة الشيخ كنكوهى (بالكف الفارسية) الشيخ خليل أحمد (رحمه الله) (شارح أبو داود) ، شيخ عظيم ، يجمع بين الشريعة والطريقة ، كان منشغلا بنوافله العادية يوم التاسع من ذى الحجة فى منى قبل طلوع الشمس ، وبينما هو كذلك جاءه المطوف ، وأخذ يصيح قائلا : يجب أن نتحرك فورا إلى عرفات ، ومع كل صياح المطوف ، ظل العلامة الشيخ على حاله منشغلا بالصلاة والتسبيح ، بكل خشوع وسكينة واطمئنان ، وبعد أن سلم وخرج من الصلاة ، قال للمطوف : لقد عيّناك مطوفا لنا ، ولم نعينك أستاذا أو شيخا ، نحن لن نتحرك من هنا قيد أنملة قبل أن تشرق الشمس .. والجمالون لهم مطلق الحرية فى أن يأخذوا جمالهم إن شاءوا ، وسوف نصل إن شاء الله إلى عرفات مشيا . » (تذكرة الخليل ص ٢٦ – ٢٧ بإيجاز)

من خلال هذه الشهادات يمكن أن نقدر ، ويمكن أن نقول إن من نال سعادة الحج سواء كان عالما أم من عامة الناس ، وسواء كان صوفيا أم حاكما لمقاطعة

أم أى أحد من الناس ، قد ذاق طعم ما قدمه له السادة المطوفون المحترمون ، وكما يقول الشاعر :

« إن من خرج من حفلك ، خرج مضطربا » .

كان هذا هو شأن طائفة المطوفين الكبار ، أما حكايات السلب والنهب التى كان يمارسها البدو قبل عدة سنوات ، فقد كانت على لسان كل إنسان ، وما يقوم به المطوفون هو حتى الآن مخفى عن الأنظار - بشكل عام - ومن الواضح أن أفراد جماعة ما ، ليسوا متشابهين ، وما يكتب هنا هو عن الأكثرية ، ويكتب بشكل عام ، وهناك بعض المطوفين يستثنون بلا شك من هذه الكلية ، فقد رأيت بنفسى مطوف ناظر يار جنك بهادر (وربما هو فى الغالب مطوف حجاج حيدر آباد) يخدم حجاجه بنفسه ، ويقوم بذلك بكل تواضع ، وقد سمعت من بعض الشيوخ الثقة ، أنه حفيد سيد أمين عاصم ، وهو سيد عقيل عطاس ، درة فريدة بين طبقة المطوفين .

(٣٩)

جدة - السفينة

تجربة مع الشرطة :

انتهت « الجملة المعترضة » ، وكانت من أجل تنبيه الحجاج فى السنوات القادمة ، حتى لا يقعوا فريسة بين مخالب المطوفين ، وكلمة « جملة » التى تضمنت أربعة أعمدة فى صحيفة « سبق » ليست مصطلحا نحويا فقط ، بل هى هنا بمعناها اللفظى أيضا كانت « معترضة » !

نعود الآن إلى الرحلة الأصلية .. انتهى وقت صلاة العشاء ، كنا قد ركبنا « العربيات » ووصلنا إلى خارج منطقة العمران ، مخلفين مكة وراءنا ، من هذا المكان ، سنستقل الشاحنات التى ستحملنا إلى جدة .

وصل المسافرون ، لكن الشاحنات لم تصل ، وهكذا قضينا الليل كله فى العراء ! قضينا بعض الوقت فى الثرثرة مع المطوف .. كيت وكيت ، وفلان وعلاّن .. ! وقضينا البعض الآخر فى النوم .

طلع الفجر ، وأشرقت الشمس ، وانتهينا من شرب الشاى ، وانتهينا من تناول طعام الإفطار ، ولا أحد يدرى أين السيارات ؟!

بعد مدة عرفنا أنها على بعد فرسخ أو فرسخين عند نقطة الشرطة ، وهكذا تم الاتفاق على أن نذهب إلى هناك ، ونرى ما هو مقسوم لنا ، فإذا كانت الشرطة

لا تستطيع أن تأتى إلى المسافرين ، فعلى المسافرين أن يذهبوا إلى الشرطة، فمن الممكن أن تساعدهم ..

من أين لنا أن ننال نصيب مرتبة التوكل ، فمنذ جئنا إلى بيت الله ، ونحن متوكلون تماما على الله ، لكن كنا مضطرين إلى الاستعانة بخلق الله .

خرجنا نحن الثلاثة من القافلة ووصلنا إلى نقطة الشرطة ، وبصعوبة كبيرة ، تمكنا من لقاء المسئول ، لقد كانت لى تجربة كافية مع عقلية أهل نجد ، ثم هذا رئيس نقطة الشرطة، ما شاء الله ، كان يحتل منصبا كبيرا ، وله سلطات كبيرة فى هيئة الشرطة ، وسواء كان نسبا نجديا أم لم يكن ، لكن من ناحية المسئولية ، فهو من أعضاء الحكومة السعودية على كل حال ، ونموذج حسن الخلق الذى شاهدناه من خلاله ، ندعو الله ألا يضطر أى حاج لمشاهدته !

لقد قدم العلامة الشيخ مناظر إلى الحجاز ، وجاهد نفسه مجاهدة عظيمة ، لكن أعظم مجاهدة على هذه الأرض كانت فى تلك الساعات الأخيرة من سفرنا ، دار حديث جعل هذا المسكين يكزّ على أسنانه ، يكظم غيظه ، متحاملا على نفسه ، وكان صبره مع قدرته على التحمل من خصاله وطبعه .

شركة « كوكب الشرق » المصرية :

كانت الساعة الخامسة صباحا ، ثم تجاوزت السابعة ، ثم الثامنة ، والثامنة والنصف ووصلت التاسعة .. عندها صار الصعب بعون الله سهلا ، ووصلت شاحنة شركة « كوكب الشرق » (وهو اسم شركة نقل مصرية) ، وحين شاهدناها ، قفز رفاق القافلة عليها ، أما أنا فوجدت مكانا فى سيارة صغيرة ، وجاء معى زوج ابنة العلامة شوكت على ، عثمان على خان ، مع صديقيه الرامبوريين ، لم يكن هناك فرق يذكر بين أجرة الشاحنة ، وأجرة السيارة الصغيرة ، لكن الفرق فى الراحة كبير جدا ، فالسيارة الصغيرة تستغرق وقتا أقل ، كما أن الاهتزازات فيها أقل بكثير من

الاهتزازات فى الشاحنة ، ومكان الجلوس فيها أكثر راحة ، لا أتذكر جيدا الأجرة ، ربما جنيه للفرد أو نصف روبية أكثر ..

حين غادرت المدينة المنورة تذكرت بومباى ، فقد غادرت المدينة فى الثالث من ذى الحجة ، وبعد انتظار ٢٧ ساعة ، تركنا بوابة المدينة ، ظهر يوم الرابع من ذى الحجة ، وهكذا غادرنا مكة المكرمة فى الخامس عشر من ذى الحجة بعد المغرب ، وبعد انتظار ١٣ أو ١٤ ساعة خرجنا يوم السادس عشر من ذى الحجة وقت الضحى من سور المدينة المقدسة ، ربما كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل حين تحركت السيارة خارج حدود مكة ...

أمنية العودة إلى الأراضى المقدسة :

وهكذا بين لحظة ، ولحظة ، انتهى زمن إقامتنا المباركة التى استمرت عدة أيام ، ستظل ذكراها باقية طول العمر .. وستظل اللهفة للقدوم هنا فى الفؤاد ، وستظل الأمنيات للعودة هنا فى الخاطر ..لا تزول !

كان المجيء هنا ، وكانت اللهفة على هذا المكان حلما ، انتهى فى غمضة عين !! والآن أواجه يقظة العمر بأكمله ، وحلم الأمانى ! لكن لماذا غلبة هذا اليأس ، ولماذا هجوم هذا القنوط ؟ إن القادر المطلق الذى مكننى من زيارة بيته دون وجه حق أو استحقاق ، ليس ببعيد على فضله وكرمه أن يأتى بى إلى هنا ، إلى هذه الأرض المباركة مرة أخرى . ولماذا مرة أخرى ، مرات ومرات .. آتى إليها ، ثم يعيدنى إليها ، وآتى ثم يعيدنى ، حتى يحشر هذا الجسم الناسوتى فى جنة البقيع أو فى جنة المعلى ، فأنام هنا نوما أبديا ..

إن الناس يتوقون إلى التفسح والتنزه فى إنجلترا ، وفرنسا وأمريكا ، وألمانيا ، لكنهم إذا بحثوا عن ملجأ فى حضن الموت ، فإنهم لا يبحثون ، ولا يطلبون إلا فى الحجاز .. هناك من يرغبون فى جنة كشمير ، وفى غيرها من جنان أوربا ، لكن من يحتاج إلى الجنة الحقيقية ، إن لم يأت هنا فإلى أين يذهب ؟!

الوصول إلى جدة :

كان السفر بالسيارة على كل حال طيبا ومريحا ، ومع أننا كنا فى الخامس والعشرين من شهر مايو ، إلا أن الجو لم يكن شديد الحرارة ، كانت السيارة جيدة ، وكان السائق المصرى طيبا ، والرفقاء الهنود كانوا طيبين ، استرحنا فى وسط الطريق فى « بحره » ، فجلسنا حول طاولة لتناول الشاى مع بعض الحجاج الجاويين ، لم نكن نعرف عن لغة الآخر شيئا على الإطلاق ، ومع هذا كان اللقاء جميلا ولطيفا .

وبعد نصف ساعة بدأت مبانى جدة ، تظهر فى الأفق ، لكن بعد دقائق توقفت السيارة فى موقف السيارات .

يتم اليوم توزيع البريد الوارد من الهند ، كان هذا أول بريد أتسلمه فى جزيرة العرب ، يصلنى منذ غادرت الوطن ! كان قلبى يريد الاطمئنان على أحوال الأصدقاء والأهل ، وعلى أحوال البلاد بشكل عام ، كنت قد كتبت عنوانى على مكتب البريد الرئيسى في جدة .

بعد أن نزلت من السيارة ذهبت مشيا وقت الظهر إلى مكتب البريد ، فعرفت أن البريد وصل ، لكنه لا يزال فى السفينة ، فأصبت باليأس ، واضطررت إلى العودة ، ووصلت إلى صالح بسيونى ، كانت هناك عشرات القوافل أتت معظمها فى هذا الوقت إلى جدة ، وكان الناس فى هذه القوافل مشغولين بحجز تذاكر العودة .

كان بيت صالح بسيونى مزدحمًا من الداخل كثيرا ، أما من الخارج فكان « مثل مولد وصاحبه غائب » ، كنا قد تأخرنا فى الوصول كثيرا بفضل المطوف المحترم ، وفى ذلك الوقت كانت جميع الأماكن على السفن المتجهة إلى الهند قد حجزت، وكانت أول سفينة متجهة إلى الهند هى سفينة شركة ترنر ماريسن ، بينما كانت السفينة رحمانى ستغادر فى الغد أو بعد الغد ، وكانت قد امتلأت هى الأخرى ، فكيف يمكن أن نجد عليها مكانا ؟!

لقد يئس أيضا وكيلنا صالح بسيونى ، وكان موظفو مكتب الشركة البحرية ، قد جاءوا بالصدفة عند منشى إحسان الله ، نائب القنصل الإنجليزى ، وكان أمر حجز

التذاكر فى أيديهم ، لكنهم كانوا قد قرروا قاعدة تمنعهم من عدم تقديم أية خدمة بطريقة سهلة لأى شخص مهما كان موصى عليه ؛ وذلك لأنهم كتبوا لكل شخص رقمه على التذكرة ، ولهذا فأى حديث معهم لم يكن منه فائدة أو رجاء !

ضياع القافلة وحريق فى الشاحنة :

كنت قد وصلت بنفسى إلى جدة .. لكن أين بقية الرفاق ؟! لقد مضى وقت طويل على وصول السيارة ، لكن الشاحنة التى تقل رفاقنا لم تظهر بعد ، فالسيارة تصل قبل الشاحنة ، لكن قبلها بساعة أو أقل من ذلك أيضا ، لا يزيد الفرق عن هذا ، لكن مضت الآن ساعة ونصف ، بل ساعتان ، ثم ثلاث ساعات ، وأربع ساعات على وصولى.

وصلت فى أول وقت الظهر ، والآن نحن فى وقت العصر الأوسط ولم يظهر للشاحنة أى أثر ، فأصابنى القلق فقمت بالاتصال عن طريق الهاتف بمكتب شركة كوكب الشرق أكثر من مرة ، ولم يأتنى أى رد من هناك ، وحين حل المساء ، بدأت أطلب النجدة ، فاتجهت إلى بيت منشى إحسان الله ، لم يكن موجودا ، لكنى وجدت هناك مولوى حاجى نثار أحمد الكانبورى الذى رحب بى أطيب ترحيب ، وهو ما شاء الله أدى الحج أكثر من مرة ، كما أنه على دراية كاملة بلغة البلاد هنا ، وجغرافيتها ، وأحوالها ، وكل شىء.

قام المسكين بمرافقتى ، تعاطفا منه ، وخرجنا نبحث عن مكتب الشركة ، وحين لم يصل هو أيضا إلى نتيجة ، لم يكن أمامنا سوى الرضا بالقضاء ، ووقفنا عند بوابة المدينة ، نتطلع وننظر بصبر ، ونظرنا بالصدفة ، فإذا بأول شاحنة نراها على البوابة هى الشاحنة التى فيها قافلتنا ..

كان ذلك عند الغروب تماما ، وكأن المسافة التى قطعتها السيارة فى ساعتين ونصف ، قطعتها هذه الشاحنة فى سبع ساعات ونصف !!

عرفنا من رفاقنا أن أموراً كثيرة حدثت فى الطريق ، بالإضافة إلى حركات سائق الشاحنة لدرجة أنه حدث ذات مرة أن اشتعلت النار فى الشاحنة بسبب سجائره ، وبدأت الملابس تحترق ، ومع هذا لم يبد هذا السائق ، شقى القلب ، أى نوع من التعاون أو التعاطف ، ولم يوقف حتى الشاحنة ، وظل شيخنا مناظر وبقية الرفاق يصيحون : النار ! النار .. الحريق ! الحريق .. واستخدموا الماء الموجود فى الجرار لإطفاء النار ، ولولا ذلك لوصل الأمر إلى حد أن تضيع الأرواح أيضا !

كانت هذه تجربة مع سيارات شركة « كوكب الشرق » ، وندعو الله ألا تتكرر مثل هذه التجربة ثانية .

العودة على السفينة « رحمانى » :

كانت السفينة « رحمانى » ستغادر جدة إلى بومباى فى الثامن عشر من ذى الحجة ، وكان اليأس من الحصول على مقاعد فيها قد أصابنا تماما ، وفكرنا فى أن ننتظر سفينة أخرى فى جدة لعدة أيام ، لكن رحمة البارى لا تتأخر فى إسعاد من أصاب اليأس قلوبهم !! وقد شاهدنا مصداق ذلك أكثر من مرة فى سفرنا هذا .

حين ذهبنا للقاء منشى إحسان الله صباح يوم السابع عشر من ذى الحجة ، عرفنا خلال لحظات أنه أوجد لقافلتنا كلها مقاعد على هذه السفينة ! وكان هذا الإحسان كله من الله ، لكن هذا الإحسان الذى نلناه ، كان عن طريق « إحسان الله » ومهما أثنيت على رعاية « منشى إحسان الله » واهتمامه بنا ، فلا يمكن أن أوفيه حقه ، وأنا أتصور أنه حين يقرأ هذه السطور ، فإنه سيستقبلها بالدموع ، بدلا من الابتسام ، لكن ما تعرض له الآخرون من تجربة ، يعرفون أن من يقوم بتقديم العون والمساعدة للآلاف من أصحاب الحاجات ، ليس من السهل عليه أن يرضى الجميع ، أو أن يرضى عنه الجميع !

هذه تجربتى فيما يتعلق به ، فقد أثبت أنه اسم على مسمى، فضلاً عن مساعدته فى الحصول على تذاكر السفر فى السفينة ، وهو الأمر الذى كان بعيد

المنال ، فقد اهتم بإكرامنا، فقدم لنا الشاى والطعام بكل ترحاب ، وجعلنا لا نشعر أبدا بأننا معارف جدد ، بل جعلنا نشعر بأننا أصدقاء قدامى له ، وأنه (وليعذرنى أهل البنجاب) ليس من أهل البنجاب ، بل هو من سكان « أوده » .

كنا قد تعرفنا من قبل ، وتعاملنا مع قاضى عزيز الدين الذى يعمل فى مكتب ترنر ماريسن ، وهو من سكان سيدن بور مركز باره بنكى ، ويمكن القول إنه « بلدياتى » ، وإذا كان هذا سلوكه مع جميع الأحبة ، فهذا بالطبع ما نتوقعه منه، عند مغادرة جدة ركبت زوجتى فى قاربه البخارى (اللنش) ، ماذا أقول عن أخلاق وكيل الشركة ، وحاكم مدينة جدة « حاجى عبد الله على زينل » : وجه نورانى ، مرآة لنور باطنه ، وهو آيةُ رحمة للغرباء ، والتقيت أيضا بالشيخ عبد الرحمن الفضل ، لا يمكن أن أنسى حبه وعطفه علينا ، وكرمه الزائد ، والشيخ نصيف ومضيفته الواسعة الفسيحة فى جدة ، التى هى نعمة وقت هجوم الحجاج وزحامهم ، وإذا لم يكن الشيخ قد أكرمنى واستضافنى فى مضيفته هذه ، فيعلم الله كيف كان يمكننى أن أقضى تلكم الليلتين !!

قضينا يوم الأحد السابع عشر من ذى الحجة ، فى لقاء الأحباب ، وترتيب متاع السفر ، وشراء بعض الحاجيات .

وصل البريد بحمد الله من الهند ، وتم توزيعه عصرا ، لكن جزءا قليلا جدا من رسائلى قد وصل ، ربطة واحدة فقط ، بها بعض أعداد الصحف ، وأظن أنها كانت خمس عشرة ربطة أو عشرين ، وحين استفسرت عرفت أن بقية البريد سيصل فى السفينة التالية .

فتركت عنوانى فى الهند عند مدير مكتب البريد ، على أن يعيد ما يصلنى من بريد هنا ، على هذا العنوان فى الهند وكنت أفكر بأنه لو وصلنى البريد هنا ، فسوف أتمتع بقراءته فى السفينة ، وأعرف أخبار الدنيا مرة أخرى قبل أن أصل إلى الهند .

صعود السفينة :

على كل حال كان الثامن عشر من ذى الحجة هو يوم الاثنين الموافق السابع والعشرين من مايو ، وفى هذا اليوم ، وضعنا أمتعتنا فى أكياس ، وأرسلناها إلى السفينة التى كانت تقف فى عرض البحر على مسافة ميلين أو ميلين ونصف ، وكان هناك عدد كبير من السفن فى ميناء جدة .

أعطينا الوكيل ما طلب ، وبعد قليل ركبت أنا وزوجتى القارب البخارى لشركة ترنر ماريسن ، ووصلنا بسرعة إلى السفينة ، كانت مرحلة الصعود من القارب إلى السفينة فى ميناء مرحلة صعبة جدا ، كان القارب يهتز ويهتز ، وأكثر من هذا أيضا تدافع الناس ، فى وقت كان سلم الصعود لا يسمح إلا بصعود شخص واحد عليه ، بالإضافة إلى القلق على تحميل الأمتعة .. على كل حال يجب على الضعفاء وكبار السن أن يحتاطوا كثيرا فى هذا الوقت .

ومع أنه بفضل من الله لم تقع عموما أية : حادثة ، لكن خطر وقوع حادثة كان متوقعا فى كل حين .

السفينة « رحمانى » من سفن شركة ترنر ماريسن الجديدة، تم بناؤها سنة ١٩٢٨م ، وهى أكبر سفن هذه الشركة على الإطلاق ، وأحسنها أيضا ، وأثقلها وزنا ، فوزنها يبلغ نحو ٥٢٩١ طنا ، وغرفها أكبر من غرف السفينة « أكبر » وأكثر منها راحة ، والدرجة الثانية مزودة بمراوح ، وتستوعب السفينة أكبر ١٥٠٠ مسافر ، بينما هذه السفينة تستوعب ١٧٠٠ مسافر ، بالإضافة إلى طاقم السفينة .

كنا قد وصلنا فى الساعة التاسعة ، وبعد خمس أو ست ساعات ، انطلقت صفارة الاستعداد للإبحار ، كان ذلك عصراً ، وبدأت السفينة تتجه بنا إلى الوطن .. « الوطن » سبحان الله فى شأنه .. مسافر الحجاز يكتب أن « الهند » « وطن » ، ويعتبر الهند هى « الوطن » هذا هو المسلم الذى يأتى أحيانا إلى الحجاز ، الذى يجرى فى عروق آبائه وأجداده الدم الحجازى .. بعد عدة قرون صار الوطن اليوم غريبا ، ودخل الوطن فى حكم الغريب ، فهو غريب بالنسبة للحجاز ، وهكذا يعتبر نفسه الآن غريبا فى جوار مكة والمدينة !

(٤٠)

السفينة - بومباى - الوطن

السفينة رحمانى :

حين سافرنا من بومباى ، سافرنا على السفينة « أكبر » فأية سفينة تكون مناسبة غير « أكبر » ليجلجل فيها صوت « الله أكبر » ؟! وفى العودة كان لنا نصيب أن نسافر على السفينة « رحمانى » .

لقد جعل الحج من الذرة شمسا ، لقد بدأ التعامل مع العائدين برحمة وتراحم ، فلماذا لا يتفاءل القلب باسم هذه السفينة « رحمانى » ولماذا لا يضيف عنوانا جديدا على الأسباب العديدة، التى لا حصر لها ، لرحمة الرحمن الرحيم ، ولماذا نعتبر « رحمانى » اسما فقط للسفينة ، ليت كل وسيلة سفر ركبناها كانت كلها « رحمانية » ، ولو اعتبرت كلها « رحمة » .. فهل رحمة الرحمن الرحيم ، وهل كرمه ببعيد ؟! ولو كبر أحد المكبرين ، لا أقول بقلبه ، بل كما يفعل الجميع ، فالجميع يكبرون بألسنتهم ، فالله الأكبر رأى عيون الجميع ، تلك العيون التى اكتحلت برؤية بيته ، فإذا كان قد عطف علينا ، ووهبنا سفينة الرحمة والمرحمة لنعبر عليها بحر القدرة ، وقت العودة ، فلماذا نتعجب ؟ ولماذا تصيبنا الحيرة؟ ولماذا نتضايق من هذا الجود والكرم ، والفضل والهبة ؟ !

كما ذكرت تعد رحمانى الآن أفضل سفن شركة ترنر ماريسن ، وأكثرها اتساعا ، وأكثرها راحة ، كما أن كبائن الدرجة الأولى مساحتها أوسع ، وأكثر راحة ، من كبائن الدرجة الأولى فى السفن الأخرى ، وبعض الكبائن تتسع لأربعة مسافرين بدلا من

اثنين ، كما أن غرف الدرجة الثانية مزودة بالمراوح ، وفى كل كابينه توجد صنابير ماء ، تردها الماء تلقائيا ، وليس كما هى الحال فى السفن الأخرى تأتيها من خزان الماء .

ذكرت فى البداية أنه فى وقت السفر على السفينة « أكبر » كان مكانى فى الطابق العلوى بجوار غرفة القبطان ، وكان هذا بفضل اهتمام العلامة شوكت على ورعايته ، فكيف يمكننى أن أتوقع أن أنال مثل هذا المكان فى أثناء العودة ، لكن بفضل الله حدث فى جدة ما حدث نفسه فى بومباى ، لكن ما حدث الآن ، لم يحدث بسبب كرم خارجى ، بل بسبب طيبة قلب الحاج عبد الله على رضا زينل وكيل شركة ترنر ماريسن وحاكم جدة ، فقد كتب رسالة أرسلها إلى القبطان ، وهكذا فحين طلعت على السفينة ، وجدت مكانا خاليا محجوزا لهذا العبد العاجز الحقير فى أعلى السفينة ، بجوار غرفة القبطان .

كان القبطان – بقدرة الله – مثل سابقه ، كان اسمه « ليك » وكان أقل درجة من القبطان « وارد » فى الطيبة ، والبشاشة ، لكنه كان أكثر كفاءة ، وقدرة على العمل ، وحسن التصرف، كما كان بقية طاقم السفينة أيضا على كفاءة عالية .

كان أكثر المسافرين عدداً – كالعادة – هم المسافرون البنغاليون ، وكان هناك أيضا حجاج بشاوريون ، ومن إقليم الحدود الغربى بكثرة ، وبالإضافة إلى قافلتنا كان من بين زملائنا القدامى : تشودهرى محمد على ردولوى ، مع صندوق أدويته ، ومع مرضه أيضا ! لكن هذه المرة كان برفقته زوجته الطيبة العطوفة الشريفة ، لقد كان قبلاً بشوشا فكها ، يحب الدعابة ، وقد صار بعد الحج أكثر بشاشة ، وحماسا لخدمة الناس ، وأكثر تعاطفا معهم ، فقد كان دائما على أهبة الاستعداد لعلاج أى مريض ، وإنقاذ أى مصاب ، ومن الرفاق الجدد « النائب » أمير أحمد علوى كاكوروى ، ومحمد أكرم خان (مدير تحرير جريدة محمدى فى كلكتا) وكانت صحبته صحبة طيبة وممتعة .

منظر البحر والشوق إلى الوطن :

نعود الآن إلى المنظر السابق نفسه لمدة أسبوع ونصف ، حيث لا نشاهد سوى البحر ، وحيث انقطعت علاقتنا باليابسة، وبكل شيء ، فلا جبال ، ولا غابات ، ولا مدن ، ولا قرى ، ولا عصفور ، ولا طائر ، ولا حديقة ، ولا بيت ، لا شجر ولا حجر ، لا شارع ولا حانوت ، فقط فى كل اتجاه عالم من المياه فى كل أوان ، من فوقنا السماء الزرقاء ، ومن تحتنا مياه البحر الزرقاء أيضا ، لا محطة للوقوف ، ولا استراحة للراحة ، حركة مستمرة ، دون توقف ، ليل نهار ، وهذه المرة لن نتوقف فى كامران ، بل سنمضى دون توقف إلى بومباى .

فى العودة لم نعد نشعر بالرهبة من البحر ، أو لنقل : قلّ شعورنا بالوحشة ، ربما كان هذا ببركة الحج ، وربما كان بسبب تعودنا على البحر ، لكن الرهبة لم تختف تماما ..

كان الشوق إلى الوطن غالبا على القلوب ، فكنا نتمنى أن نصل اليوم قبل الغد ، وكانت الساعات تمر بطيئة ، مع أن ساعات ودقائق النهار والليل هى كما هى ، لا تسرع ولا تبطئ ، لكنه إحساس المشتاق !

كنا نعيد حساباتنا فى كل يوم ، ونقدر تاريخ وصولنا بل ووقت وصولنا إلى بومباى ، ونفكر فى إرسال برقية إلى مسقط رأسى ، ونقدر وقت الوصول هناك ! وهكذا كانت الأسئلة تنهمر على القبطان ، ومن لم يكن يستطيع الوصول إلى القبطان ، كان يكتفى بسؤال العمال فى محاولة لطمأنة النفس .. الكل مشغول بحاله ، الكل يفكر ، ويخطط ، لكن تلاطم البحر كان غالبا على كل ما نخطط له ، وعواصف الهواء الشديدة كانت تقضى على كل توقع !!

الطوفان يضرب السفينة :

كان البحر يواجه موسم المطر ، وكانت عواصف هذا الموسم قد بدأت من قبل ، كان القبطان « وارد » قد أخبرنا بضرورة الوصول إلى بومباى قبل يومى الثامن

أو العاشر من يونيو ، وإلا بدأ موسم الأمطار ، ومن الجدير بالذكر أن السفر البحرى يصبح أكثر خطورة ليس فى وسط الموسم لكن مع بدايته ، وفى نهايته ، ولهذا كنا قد تعجلنا السفر من مكة ، وكان هذا من أكبر مسببات العجلة .

كان سفرنا من جدة يوم ٢٧ مايو ، ولهذا كنا مطمئنين لأننا سنصل بومباى إن شاء الله قبل وقت الخطر ، لكن ماذا يفعل الإنسان ؟ وما هى إرادة الإنسان . وما هو تقديره ؟!

كانت حالة البحر رائعة ، لثلاثة أيام أو أربعة ، بعدها بدأ هبوب الهواء العاصف ، فارتفعت الأمواج الهائلة ، وبدأت تضرب السفينة بشدة ، ولا يمكن تقدير هذه الحالة دون خوض تجربة السفر البحرى ، التجربة الذاتية ، وكأن الأمواج المرتفعة إلى عشرة أقدام ، بل إلى خمسة عشر بل إلى عشرين قدما على سطح البحر ، تحوط بنا من كل جانب ، ثم تطبق علينا ، وتهجم على السفينة ، تضربها بشدة ، فتبدأ السفينة فى الاهتزاز والارتجاج ، وكنت قد جلست فى أعلى السفينة ، فشاهدت الجانب الأيمن منها ، وقد صار بأكمله تحت الماء ! ثم بدأت أشاهد الجانب الأيمن يخرج من تحت الماء ، بينما الجانب الأيسر يغرق تحت الماء !

لنترك قلق القلب واضطرابه ، لقد انعقد اللسان ، ولم يكن يستطيع حتى أن يقول : يا ويلاه ! والأظرف من هذا أن الرءوس أصيبت بالدوخة ، فانتشر مرض الدوار بين الناس ، وتبعه القيء المتواصل ، وكان كل من نظرت إليه وجدته راقدا فى الفراش ، ومن تشجع ونهض ليمشى ، تعثرت قدماه وسقط على الأرض ، منهم من أصيب بالدوار ، ومنهم من ابتلى بالقيء ، إلا ما شاء الله ، فقد نجا من هذا بعض عباد الله .

الصلاة أفضل العبادات ، لكن بعد الصلاة يقوم الإنسان بالدعاء والاستغفار ، والصوم أفضل مجاهدة ، لكن بعد انتهاء رمضان ، لا بد أيضا من أداء صدقة الفطر ، والحج سفر مبارك ، ولهذا فأية مجاهدة اضطرارية ألطف وأفضل مما نحن فيه الآن حتى ننقى ، ونصفى ما تجمع من كثافة ووساخات حب النفس والأنانية ، وحتى ننقى

ونصفى ، بل نتلافى ما قصرنا فيه !!

مشكلة الطعام والماء فى السفينة :

مر النهار ، وقطعنا مسافة طويلة ، كنا منذ لحظات فى نواحى جدة ، عبرنا الآن من أمام كامران ، انتهى البحر الأحمر ، بدأ بحر العرب ، مررنا بجزيرة سوقطرة ، خرجنا من باب المندب ، تركنا عدن من خلفنا ، وغاب ساحل عمان أيضا عن أنظارنا ..

وهكذا صرنا فوق أعماق المحيط الهندى ، لكن كلما اقتربنا من الوطن ، كلما زاد تلاطم الأمواج ، وقد ارتفعت حرارة الجو نتيجة موسم المطر ، فتحمم الجسم بالعرق ، ولم يكن الاستحمام يهدئ من هذه المعاناة .

فى وقت الذهاب كان نظام الطعام الذى تسير عليه شركة الأغذية الإسلامية طيبا ، ولو وجد أى نوع من التقصير ، فإن حسن خلق المدير ومساعده كان كفيلا لتلافى هذا التقصير ، وهذه المرة لم نحظ بأى شىء من ذلك ، فالشىء الذى نطلبه لا يوجد فى المطعم ، فالطعام ضرورى ، ولهذا كنا نأكل ما يطعموننا إياه ، فينتهى الجوع ، لكن كيف لنا أن نجد ما نريد أن نأكل !! والسعيد من اضطر مجبرا على أن يدبر أمر طعامه من المطعم الإنجليزى ، والمسكين الذى لا يقدر على هذه النفقات ، واعتمد فقط على المطعم الإسلامى فإن ما أصابه من حسرة يستحق الترحم !

وأكثر من مصيبة الطعام ، مصيبة الماء ، فالماء البارد مثله مثل طائر العنقاء ، لا وجود له إلا فى الخيال ! فحتى ركاب الدرجة الأولى كانوا مضطرين إلى أن يشربوا الماء الفاتر ، كان هناك ثلج فى السفينة ، وهو يصنع بكميات قليلة جدا ، يمكن أن تكفى فقط الإنجليز المسئولين عن السفينة ، وهكذا كان الإنجليز والموظفون - أنصاف الإنجليز - ومن معهم من موظفين آخرين ، يشربون الماء المثلج ، ويأكلون الفاكهة واليوسفى والبرتقال وغيره طازجا مبردا ! أما الحجاج الفقراء المساكين (أكبر الحجاج وأصغرهم ، هم أمام الإنجليز فقراء مساكين) فقد كانوا على استعداد لدفع القيمة مهما بلغت ، لكن كتب عليهم العطش أيضا!!

وفيات على السفينة :

في وقت العودة حدثت وفيات كثيرة على السفينة ، وكانت نتائج عدم الاحتياط الواجب اتباعه في السفر ، والإهمال وعدم العناية ، قد بدأت نتائجها تظهر عند نهاية السفر ، وخاصة على أولئك الناس الضعفاء ، المرضى ، أصحاب الأجسام النحيلة ، وأيضا ممن لا يستطيعون أن ينفقوا كثيرا من أجل راحتهم ، فهؤلاء لا يستطيعون تحمل الزحام والتدافع، ونوعية الطعام ، وطبيعة الجو ، وغير ذلك من مصاعب ومتاعب ، وهكذا كان معظم الوفيات من بين هؤلاء الناس .

توفي على سفينتنا في الغالب ستة عشر أو سبعة عشر حاجا خلال عشرة أيام ، من بين ألف وسبعمائة حاج ، وهو عدد ليس بالكثير ، ومع هذا فقد كانت قلوبنا تدق من الخوف والاضطراب ؛ لأن هذا العدد أيضا كان يزيد عن المعتاد ، فهناك شاب من إقليم الحدود الغربية ، في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره ، مات من قلة الغذاء والضعف العام ، وكان هذا على بعد عدة أميال فقط من شاطئ بومباي .. كان الأمر محزنا ومؤلما .

وهناك تاجر من آل ميمن ، كان مسافرا بخدمه وحشمه على الدرجة الأولى ، فقد أيضا زوجته الشابة ، وكانت وفاتها سبب حسرتنا جميعا ، أم تركت طفلها الرضيع وجاءت مع زوجها للحج !

بعد أن يتوفى المسافر في السفينة تكون هناك صعوبة كبيرة في تغسيله ، فسفينة الحجاج لا توجد فيها ترتيبات معقولة للغسل والتكفين !! وهذه الصعوبة تنطبق على تغسيل الرجال ، وأكثر من هذا .. الصعوبة التي تواجه عند تغسيل النساء ..

لكن ماذا أقول عن موت هؤلاء السعداء ! إنهم أطهار من ذنوبهم ، أدوا مناسك الحج منذ لحظات ، وقفوا بعرفات ، شرفوا برؤية البيت العتيق ، موت الغرباء ، قبرهم البحر ، طريق الجنة مفتوح أمامهم ، تمنيت من كل قلبي أن أغبط هؤلاء الموتى : رجالا ونساء على حظهم الطيب ، بدلا من أن أذرف الدموع حزنا عليهم ، فإن لم تنزل عليهم رحمة الله، فعلى من تنزل ؟!

أضواء شاطئ بومباى :

كان الثامن عشر من ذى الحجة الموافق للسابع والعشرين من مايو هو يوم الاثنين ، حين تحركت بنا السفينة عصرا من جدة ، واليوم هو الثالث من شهر يونيو ، وهكذا مضى أسبوع كامل ، فنحن الآن فى يوم الاثنين ، ويزداد الشوق إلى الوطن ، شوقا على شوق ، بينما ساعات النهار وأوقات الليل تبدو دون حراك ، لا تمضى ، كأنها توقفت ، وأحيانا كان النهار يمضى ثقيلا ، وجعل الجوع والعطش حالنا أسوأ وأسوأ ، وعلى هذه الحال قضينا يوم الثلاثاء فى ترتيب الأمتعة ، وأخذنا نربط الأمتعة الزائدة ، ثم نعيد فتحها وترتيبها من جديد ، ونعيد ربطها ..

زادت حالة الطوفان أكثر يوم الأربعاء ، كانت الأمواج تتلاطم ، بينما بدأت الأمطار تهطل بغزارة ، كان منظر المطر على السفينة مخيفا ، ومرعبا ، وكان أصحاب القلوب الضعيفة مرعوبين ، خائفين ، من صوت الرعد ، ومنظر البرق ، ودوى الريح ، وصوت المطر ، والظلمة الحالكة المحيطة بنا ، بينما كانت السفينة تطلق صفارتها ، تعلن للسفن الأخرى عن وجودها ..

كانت القلوب مضطربة ، وكانت الألسن تلهج بالدعاء والاستغفار .. لكن هذا ليس الطوفان الأصلى .. فهذا نموذج مصغر جدا للطوفان .

قمت بإرسال برقية عن طريق لاسلكى السفينة ، إلى مكتب جمعية الخلافة ، أخبرهم بعودتى ، وكنت أتمنى من كل قلبى أن أذكر فى البرقية أن يعدوا لى بعض الفاكهة الطازجة !

كان مساء يوم الأربعاء مساء بديعا ، منظر السفن ! ومنظر المبانى من بعيد .. كانت قد بدأت تظهر لنا منذ العصر ، وبعد غروب الشمس بدأنا نشاهد بوضوح أضواء الشاطئ .. هذه الأضواء ليست بالجديدة أو الفريدة ، فقد رأيتها عدة مرات من قبل ، لكنى أشعر اليوم بجاذبيتها وجمالها أكثر من أى وقت مضى .

ربما كانت الساعة العاشرة ليلا ، حين ألقت السفينة بمرساها على مسافة بعيدة عن الساحل ، وفى الصباح سندخل ميناء « كودى » (بكاف فارسية) وسوف ننزل

حوالى الساعة التاسعة أو العاشرة .. من يستطيع الصبر وتحمل هذا الانتظار ! وكيف نقضى هذه الليلة ؟!!

استقبال حافل :

مرت الليلة على زائرى الحرم بعد هذه المجاهدة الأخيرة من الصبر والانتظار ، وفى فجر يوم الخميس السادس من يونيو بدأ وصول ضباط المطار والأطباء وغيرهم إلى السفينة .. طلع النهار ، وبعد قليل بدأت السفينة تتحرك ببطء ناحية « كودى » .

كان مسافرو الدرجة الثالثة المساكين يحاولون حمل أمتعتهم على أكتافهم وعلى رءوسهم ، وجاءوا على سطح السفينة بينما انتقل مسافرو الدرجة الأولى إلى الطابق الأعلى بالسفينة ، وكانت عيون الجميع صورة للشوق والاشتياق ، ثبتت ناحية الشاطئ ، ورويدا رويدا بدأ الرصيف يظهر أمامنا ، وبدأت ملامح وجوه المستقبلين تتضح لنا أكثر فأكثر .. كان المطر يسقط خفيفا ، فأمسك الكثيرون بمظلاتهم ، لحماية أنفسهم من البلل .. ماذا أقول عن السرور الذى عم القلوب فى هذا الوقت ؟!

هناك من يبحث عن عزيز أو قريب له .. وهناك من يبحث عن صديق له .. ومن ليس له قريب أو صديق كان الوطن بالنسبة له أعز من أى عزيز، وأقرب من أقرب قريب ، وأصدق من أى صديق ، ورائد الخلافة (لا أدرى لماذا بدأ الناس يتهكمون على هذا اللقب) شوكت على .. ما شاء الله ! كان يقف ممشوقا ، وسط جماعة من الناس ، يلف نفسه فى عباءة براقة ، ووجهه مبتسم ، يحرك منديلا فى الهواء .. كان هو أول من وقعت عيناى عليه ! ثم العلامة الشيخ عرفان ، والعلامة الشيخ شفيع داودى ، وشهبندر التجار عبد الله هارون ، ومولوى سيد مرتضى بهادر (من مدراس) وباختصار يمكن القول بأن جميع أعضاء جمعية الخلافة كانوا موجودين على الرصيف !

كما كان اجتماع لجنة البحث فى شئون الحج على وشك البدء فى بومباى ولهذا تجمع أيضا كل أعضائها ، وكانوا يلوحون لى ، ويشيرون ناحيتى .. كانت أيديهم تنطق

بما فى قلوبهم : جئت بالسلامة .. مبروك .. كيف الحال ؟ هذا بينما السفينة الظالمة تتحرك ، فى عناد ، ببطء شديد وكأنها تقطع بوصة من بعد بوصة !

مشاغل بومباى والعودة إلى مسقط رأسى :

نصف ساعة .. ساعة إلا ربع الساعة .. آه .. انتهت ساعات الانتظار ، كانت الساعة قد قاربت التاسعة حين وصلت السفينة إلى الرصيف ، لكن لم يسمح بعد للمسافرين بالنزول ، صعد مسئولو شركة الملاحة الكبار ، وصعد أعضاء لجنة الحج إلى السفينة ، التقيت بمستر براون وكيل شركة ترنر ماريسن فى بومباى ، وتحدثت معه عن أحوال السفر لمدة دقيقتين أو أكثر والتقيت أيضا بشوكت ، وبمولوى عرفان ، ومولوى شفيع داودى ، وكل هؤلاء الأحبة الذين شعرت فى هذا الوقت بأنهم أكثر من أحبة .

لم يكن الوقت الذى استغرقناه فى النزول بأقل من الوقت الذى استغرقناه فى الصعود إليها ، فالزحام كان شديدا ، وبالتالى كان التدافع والدفع على أشده ، وكل ما يستتبع ذلك من سقوط ووقوع وإصابات !

نزلت السيدات على الفور بفضل مساعدة العلامة شوكت على ، وركبن السيارة إلى مكتب « دار الخلافة » وبعد قليل نزلنا نحن أيضا .

عندما توقفت السفينة ، صعدت إليها جماعة كبيرة من الحمالين ، وهؤلاء أذكياء جدا ، فى طريقة تعاملهم من المسافرين ، وأكثر من هذا ، فهم مخلصون وأمناء ، وبعد الاتفاق على الأجرة يمكن أن تهبهم ما تفيض به نفسك ، وكان خادم الحجاج المشهور فى بومباى الحاج بتشو على ، قد قدم لكل حاج كيسا من الخبز مع إصبعين من الموز ، وجعل العطش الشديد والرغبة فى شرب الماء البارد من هذا الموز هدية عظيمة ، ودعا الجميع من قلوبهم لهذا المحسن ، جزاه الله خير الجزاء .

بعد النزول من السفينة بدأت مرحلة صعبة ، وهى مرحلة « الجمرك » وهى تستغرق ساعات ، فيجب أن نفتح كل شىء ليشاهده مسئول الجمرك ، وقد خرجت دون صعوبة ، وركبت مع مضيفى الأعزاء السيارة ، وتركت أمر إحضار الأمتعة إلى رفيقى

وعزيزى مشير الزمان الذى كان أفضل رفيق سفر ، وأيضا إلى مخدومى حاجى محب على الذى هوّن علىّ كل تعب فى هذا السفر ، وسهل علىّ كل صعب .. وهكذا وصلت الأمتعة بعد وقت قصير .

وصلنا دار الخلافة فى الساعة الحادية عشرة ، وبعد مدة طويلة تمكنت اليوم من الاستحمام على هواى ومزاجى ، باطمئنان وراحة !! وحين وضع الطعام أمامى ، كنت آكل مثل إنسان خارج من مجاعة .. فقدر الوطن يُعرف بعد السفر ، فقد كنت أشعر بلذة خاصة فى كل شىء ، أرسلت برقية باسم جميع الأصدقاء والأقارب ، وقضيت فى بومباى يوما ونصفًا ، أقضى بعض المشاغل بالرغم من الحر الشديد .

التقيت بشهبندر عمر بهائى تشاند بهائى فاسترجعت منه بقية الأمانات ، وحولت الجنيهات إلى روبيات ، واشتريت للأقارب والأصدقاء الهدايا ، قضيت الوقت كله فى مثل هذه الأمور .

كنت أتوق شوقا لمطالعة الصحف ، لم أكن أعرف شيئا عن انقلابات الدنيا أو وقائع الهند ، فألقيت بنظرة سريعة على ملفات الصحف فى مكتب الخلافة ، وفى السابع من يونيو ليلا ركبت قطار بشاور السريع (الإكسبريس) متوجها إلى لكهنو .. وبدأ أفراد القافلة الآخرون يتفرقون ، كل إلى وجهته ، وكل إلى هدفه ، بقى معى تشودهرى محمد على رودلوى حتى لكهنو ، عند محطة بهوبال رحب بى سيد مرتضى على الذى يعمل بالمحكمة العليا (الذى أضيف الآن مع اسمه كلمة مرحوم) ، وحيات مسئول الدعاية ، وسيد ألطاف أحمد ، وبقية الأحباب والأصحاب .

فى الساعة السادسة من صباح التاسع من يونيو وصلنا محطة لكهنو ، حيث وجدت جماعة كبيرة من الأحباب والأصحاب .. ووصلت إلى البيت .. فقبلت أقدام والدتى ! وأخذت أربت على رأس البنات الصغار! لا تسأل عن سرور الأهل والأقارب ، لكن سرور الأم مختلف تماما ، تعجز عن التعبير عنه الكلمات والعبارات .!!

أقمت فى لكهنو نحو أسبوع ، التقيت فيه بالجميع ، فى الثالث عشر من مارس غادرت دريا آباد ، وفى السادس عشر من يونيو وبعد ثلاثة أشهر كاملات رجعت إليها .. كان سفر الحج من قبل يستغرق سنوات ، ومنذ سنوات قليلة كان يستغرق ستة

أشهر ، والآن وبحمد الله يتم فى ثلاثة أشهر ، ويمكن أن يتم هذا السفر باطمئنان وراحة ، وإذا لم نضطر لانتظار ذهاب السفن ومجيئها ، واكتفينا بالإقامة فى المدينة مدة قصيرة ، فستة أو سبعة أسابيع كافية جدا للحج ..

اللهم لك حججت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، ولك أسلمت ، وإياك أردت ، فتقبل منى واغفر لى ذنوبى ، وكفر عنى سيئاتى ، واستعملنى فى طاعتك أبدا ما أبقيتنى .. اللهم إنى استودعك دينى وأمانتى وخواتيم عملى ، فاحفظها على وعلى كل مؤمن ومؤمنة إنك سميع الدعاء ، اللهم لا تجعل هذا آخر العهد من بيتك ، وارزقنى العودة إليه ، وأحسن أدبى حتى تبلغنى أجلى ، وأكفنى مؤنتى ومؤنة عيالى وجميع خلقك ، تائبون عابدون ساجدون وللرب حامدون صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

ملحق رقم (١)

حكومة الحجاز وخدمة الحجيج

الحجاز وخدمة الحجيج :

إن المكانة الأصلية الواضحة لحكومة الحجاز ، فى نظر بلدان العالم الإسلامى ، وبالخصوص فى نظر الحجاج والزائرين ، هى خدمة الحرمين ، وحاكم الحجاز هو خادم مكة والمدينة المنورة ، ويندرج ضمن أعماله الكثيرة الإشراف على مناسك الحج وآداب الزيارة ، وخدمة الحجيج، وما يلزم ذلك من أمور أخرى تتعلق بها ، وقد سبق ذكر هذه الخدمات ضمن مذكرات هذه الرحلة كلٍّ فى موضعه ، فى صفحات متفرقة ، والآن أحاول أن أضع قائمة كاملة بها فى هذا الملحق ، وإذا تمكن قراء الأردية ممن لهم مكانة ، ومنزلة لدى حكومة الحجاز الحالية ، من تقديم هذه المطالب إلى السلطان ، فإنهم سيؤدون لحكومة الحجاز خدمة جليلة ، بالإضافة إلى ما سينالونه من أجر خدمة الحجاج :

١ - ظلت منطقة الحجاز لسنوات طويلة مركزا للفوضى ، وانعدام الأمن ، حيث كانت أموال الحجاج ، بل أرواحهم معرضة للخطر فى كل وقت ، ومن بركات الحكومة السعودية أنها أمنت الطرق ، ونشرت الطمأنينة ، وجعلت من أحداث النهب والسلب التى كان البدو يرتكبونها حكاية تُحكى ، ورواية تُروى ، وكل شكر واعتراف بالجميل للحكومة الحالية على هذه الخدمة العظيمة شكر واجب .

٢ - إن أكثر ما يعانى منه الحجاج اليوم ، يتم على يد المطوفين ، فالحاج الفقير الجاهل بخاصة هو فى يد المطوف مثل اللعبة التى لا روح فيها ، ويرتكب المطوف

فى حقه ما يحلو له من مظالم ، وينهب منه ما يشاء ، ولا يهتم أبدا بشكوى هؤلاء أو حتى صراخهم ، فلو قامت الحكومة بتعيين موظفين لها ، ومسئولين من قبلها ، على أبواب الحرم الشريف ، وفى عرفات ، وفى منى ، وفى غيرها من الأماكن الشهيرة ، يكون من سلطاتهم ، تلقى الشكاوى الصادرة ضد المطوفين ، وضد السائقين ، ثم يتم الإعلان عما يرتكب هؤلاء من جرائم، فى محاكمات تعقد بشكل مؤقت (والإعلان والتشهير ضرورى جدا) فإن من شأن هذه الخطوة أن تخلص الحجاج من المتاعب الشديدة التى يتعرضون لها.[1]

٣ - إن السبب الرئيس لمعظم متاعب الحجاج يرجع إلى جهلهم وإلى غربتهم عن المكان ، فالبلد ليس بلدهم ، واللغة مختلفة عن لغتهم ، وكل شىء بالنسبة لهم غريب ، فالجمالون وغيرهم ، يأخذون منهم ما يريدون من أجرة ، وكل شخص يخدعهم كما يحلو له ، وهؤلاء المساكين ليس لديهم سبيل من الخروج من مثل هذه الورطة ، فلو قامت الحكومة بإصدار كتاب إرشادى فى موسم الحج ، يتضمن المعلومات الضرورية المفيدة عن جدة ، ومكة ، والمدينة ، وعرفات ، ومزدلفة ، ومنى وغيرها (ويتضمن عناوين المقامات المشهورة والأماكن المعروفة ، والمسافات بينها ، وأجرة النقل ، والسفر ، وقيمة الأشياء وغير ذلك) على أن يطبع من هذا الكتيب ، مئات الآلاف بلغات مختلفة (بالإضافة إلى العربية يطبع بالفارسية والأردية والتركية والبنغالية والجاوية وغيرها) ويوزع ، فإن هذا سوف يزيح عن كاهل الحجاج الكثير من المتاعب والقلق ، ويمكن طباعة هذا الكتيب بحجم كف اليد ، ويوزع على الحجاج حين يصلون إلى أرض الحجاز .[2]

وبالإضافة إلى ذلك يمكن كتابة ملصقات كبيرة تلصق فى أماكن واضحة وظاهرة فى جدة ، ومكة ، والمدينة ، ومنى وغيرها ، وأيضا عند منازل الطرق المعروفة .

٤ - فى منى طريق واحد أو طريقان (كما هو الآن) وهذا لا يكفى أبدا ، مما يمثل صعوبة كبيرة للحجاج ، وخاصة وقت العودة ، من جراء الزحام الشديد ، وتدافع الناس وتصارعهم ، فمن الضرورى تمهيد ثلاثة أو أربعة طرق فى منى ، ويحتاج الأمر الآن إلى طريقين على الأقل ، وعلى وجه السرعة ، فهذا ضرورى جدا ، ففى هذا الوقت

الحالي يوجد طريق واحد تستخدمه الجمال والبغال والخيل والحمير والسيارات والمشاة ، والقادمون والذاهبون ، والخلاصة يستخدمه الجميع من بشر وحيوانات وآلات ، وفي وقت الزحام لا يهتم الإنسان إلا بنفسه ، والكل يقول : نفسي! نفسي ! ويصبح ميدان منى صورة من ميدان الحشر .(٣)

٥ - يجب إقامة معسكرات مختلفة في عرفات ومزدلفة ، تقسم طبقا للبلاد المختلفة ، مثلا المعسكر الهندي ، والمعسكر المصري ، والمعسكر الجاوي وغيره ، وقس على هذا ، ويجب أن تقام في هذه المعسكرات أو الأحياء شوارع مؤقتة مثل الشارع الهندي والشارع المصري وغير ذلك ، حتى يمكن للتائهين الوصول إلى معسكراتهم بسهولة ، كما يجب أن يكون لكل مطوف علامة خاصة أو رقما خاصا به ، ثم توضع أرقام الخيام تحت هذا الرقم ، ففي مثل هذا الوقت ، ووسط غابة الخيام ، لا يمكن لأحد التعبير عن المصيبة التي يتعرض لها الحجاج التائهون ، سوى هؤلاء المساكين أنفسهم.(٤)

٦ - يجب إقامة أماكن ظاهرة هنا وهناك ، بالإضافة إلى مخافر شرطة الحكومة في عرفات ومزدلفة من أجل إرشاد التائهين وهدايتهم ، على أن يكون فيها موظفون يعرفون مختلف اللغات ، وأن يتصف هؤلاء بالعطف والشفقة والرحمة .(٥)

٧ - يحتاج نظام الحوانيت الحالي ، في كل من عرفات ومزدلفة إلى إصلاح ، فهناك حوانيت متعددة في كل مكان ، لا يعرف عن وجودها من هم في أماكن بعيدة ، ومن الأفضل أن يكون هناك سوق لكل معسكر ، يراعي ذوق حجاج كل معسكر وطبيعتهم .

٨ - لا بد بل من الثابت يقينا أن هناك حاليا لجنة ما ، لوضع ترتيبات الحج ، تحت إشراف الحكومة ، من الضروري توسيع دائرة خدمة هذه اللجنة ، وجعل خدماتها أكثر فائدة ، وأن يشارك فيها بعض ممثلي الحجاج القادمين من الخارج كل عام .(٦)

٩ - هناك ضرورة لإقامة مستشفيات ، وعدد من المستشفيات المؤقتة أو المتنقلة ، في منى وعرفات والمزدلفة بالإضافة إلى المنازل على الطريق بين مكة

والمدينة وجدة ، ولا بد من الإشارة إلى أن هناك ضرورة ملحة لهذه المستشفيات ، على أن تكون واضحة ومتميزة فى مبانيها ، حتى يمكن لكل شخص أن يتعرف عليها ، ويصل إليها بسهولة . (٧)

١٠- تقتضى الضرورة خفض عدد الحراس المرافقين للسلطان المعظم فى أثناء دخول الحرم والطواف ، والخلفاء الراشدون هم أسوة حسنة يمكنهم الاقتداء بهم ، فقد كانوا إذا قدموا للطواف قدموا دون حاشية أو حراس مدججين بالسلاح ، ولم يكن المطاف يخلى من أجلهم ، ولم يكونوا يميزون بين أنفسهم وبين الحجاج الآخرين. (٨)

١١- كما أنه لا ضرورة لإخلاء مساحة كبيرة من الروضة الشريفة فى المسجد النبوى يوم الجمعة ، لأمير المدينة ورفاقه ، ولا ضرورة لقيام جنود الحكومة بإجبار المصلين ومن يتلون القرآن على إخلاء أماكنهم بالقوة حتى يدخل والى المدينة مع حرسه وجنوده المدججين بالسلاح إلى المسجد النبوى فى وقت الشروع فى الصلاة ، فالسلطان المعظم - كما هو معروف - عدو للبدع ولا يمكن أن يوافق على هذا ، فأية بدعة أفضح من هذه البدعة التى ترتكب عيانا جهارا ؟ (٩)

١٢ -- إن فرش المسجد النبوى الحالى قديم ومتهالك ، كما أن الإضاءة الحالية غير كافية ، والأنوار تنطفئ فى كل حين ، وهذا لا يتفق مع عظمة المسجد النبوى ، وعلو شأنه ، فهناك ضرورة فورية لفرش المسجد بفرش جديد ، وإضاءته بشكل أطيب . (١٠)

١٣ - إن عدد صنابير المياه الخاصة بالوضوء فى المسجد النبوى قليل جدا ، وحتى الموجود منها خرب لا يعمل ، وفى بعض الأحيان يتعرض المصلون لمتاعب ومصاعب وقت الوضوء .(١١)

١٤ - إن إدخال الأحذية فى داخل المسجد النبوى ، وحول أعمدة المسجد ، وبين الصفوف ، وتكويمها لتشكل تلالا ، وهى أحذية نجسة ، تنبعث منها روائح كريهة ، هو منظر يؤذى النظر والنفس ، فيجب منع هذا الأمر تماما .

١٥ - لا يوجد هناك من يمنع المتسولين والشحاذين من دخول المسجد النبوى ، إن أيديهم الممتدة وقت الصلاة بالضبط ، أو وقت التلاوة ، أو وقت الذكر والدعاء ، وخاصة أيدى أطفالهم الصغار ، يصيب القلب بالأذى .. ويمكن تقدير هذا بعد التجربة ..

وأكثر من هؤلاء صخب المزورين ، وصياحهم ، وشوشرتهم فهم يقومون بأعمالهم تلك وأشغالهم بأصوات عالية ، مما يؤذى المصلين ، كما أنه يصدر عن المتسولين والمزورين ما يتنافى مع آداب المساجد ، وقدسيتها ، فما بالنا بالمسجد النبوى ! ويعلم الله وحده لماذا تغمض الحكومة عيونها حتى الآن ، وتتغاضى عن مثل هذه التجاوزات ؟!

١٦ - من بين أبواب المسجد النبوى ، يوجد باب يسمى باب النساء ، ويقال إنه خصص للنساء فقط ، لكن هذا الباب أيضا يستولى عليه الرجال عموما ، فلو منع دخول الرجال وخروجهم من هذا الباب ، فإن هذا سيوفر الراحة ، والسهولة للنساء وبخاصة نساء الهند الضعيفات اللواتى يتصفن بالخجل والحياء .

١٧- كل جماعة من جماعة المسلمين حرة فى أداء أركان الحج طبقا لمعتقدها ، وهذا ما كان يجب أن يكون ، لكن الضرورة تستلزم أن يكون هذا التسامح أكثر وأكثر فيما يتعلق بزيارة المدينة المنورة ، وتترك الحرية لكل جماعة لتؤدى آداب الزيارة طبقا لمعتقدها ، أو أسلوبها ، على ألا تكون هذه الحرية سببا فى إيذاء الجماعات الأخرى .[١٢]

١٨ - يجب أن يتصف الجنود والحراس المعينون فى المسجد النبوى ، والمخصصون للمقصورة الشريفة ، بحسن الخلق ، والصبر ، والتحمل ، وحلاوة اللسان ، وأن يكونوا نموذجا للخلق المحمدى ، وأن يتجنبوا أسلوب الشدة والشتم والسب وإيذاء الناس .

١٩ - إن « البقيع » و« المعلى » من أكثر مقابر العالم الإسلامى احتراما ، وتبركا ، ومشاهدة حالتها الحالية تصيب بالأذى الشديد عواطف المسلمين ، وليس

الهدف من هذا إعادة بناء القباب من جديد ، ولكن تنظيفها من الأوساخ والقاذورات ، والقضاء على كل مظهر من مظاهر التحقير ، فلتكن المقابر منخفضة ، ومساوية لسطح الأرض ، لكن معاذ الله أن تتحول قبور الصحابة الكرام والأزواج المطهرات إلى مكان لجمع القمامة. (١٣)

٢٠ - الاهتمام الفورى بتنظيم وترتيب وسائل النقل بين مكة والمدينة وجدة ، وتحديد قيمة التذاكر ، ولا حرج فى زيادة الأجرة فى موسم الحج ، لكن يجب أن تتوفر الراحة للمسافرين بعد ذلك ، لا أن يتحول الراكب إلى مركوب ! .

ملحق رقم (٢)

إرشادات عامة

١ - إن السفر حتى لو كان لعدة أميال ، فهو على كل حال سفر ، وسفر الحج هو سفر لآلاف الأميال ، وقد جربت ركوب القطار والسفينة والجمل والسيارة ، ولا شك أن الإنسان يواجه الغربة ، والجهل باللغة ، واختلاف الجو والمناخ ، ومتاعب الزحام الشديد ، فضلاً عن بعض المتاعب الأخرى ، لكن هذه المتاعب لا يمكن أن تعنى أنه غير قادر على تحملها ، فهناك متاعب خيالية أو مخاوف تخيلية ، ثبت بالتجربة أن معظمها غير صحيح ، ولتعتبروا هذا من كرامة هذا السفر المبارك ، أو أن معظم المتاعب والمصاعب تتلاشى وتنتهى فى الوقت نفسه بشكل غير متوقع ، فيجب على من فرض عليهم الحج ألا يتقاعسوا أبدا عن أداء هذا الفرض بسبب التفكير فى صعوبات السفر .

٢ - الشىء الأكبر هو عاطفة الشوق ، ووله العقيدة ، إن من يفهم أهمية الحج ، ويتوق إليه من أعماق قلبه ، لن يشعر فى أى وقت من الأوقات بأية صعوبة أو تعب ، ولن يقضى كل مراحل السفر فرحا مسرورا أو صابرا ، بل سيقضيه شاكرا ، وعلى العكس من هذا فإن من يخلو قلبه من أهمية هذا السفر ، وهو يسافر بناء على إصرار أحد الأصدقاء أو بسبب أن يكون رفيق سفر لأحد أحبابه ، فهذا هو الذى سيشعر بأكبر تعب ، ويقلق من أبسط الأمور ، حفظ الله كل مسلم من هذا البلاء !

٣- كل شىء تقريبا موجود فى الحجاز ؟ لهذا لا ضرورة على الإطلاق لحمل كل شىء من البيت ، والسفر بهذه الأمتعة الزائدة ، فأجرة الحمل والتحميل كبيرة ،

لا يمكن للإنسان العادى أن يتحملها أحيانا ، إذ يمكن شراء ما هو ضرورى من بومباى ، كما أن كثيرا من المشكلات تسهل على ظهر السفينة لو تم التفاهم مع طاقم السفينة، وفى مكة يوجد كل شىء ، كما أن فى المدينة يوجد كل ما هو ضرورى أيضا . كان الناس يحملون معهم من قبل جرار السمن البلدى ، والآن يوجد فى الحجاز أجود أنواع السمن البلدى ، ولا شك أنه يمكن حمل بعض الأطعمة الجافة ؛ لأنها تبقى فترة طويلة دون أن تخرب ، وهى تنفع وقت الشدة ، حين لا يتوفر الطعام أحيانا .

٤ - هناك عدد من الأدوية الخاصة بالحمى والإمساك وغيرها ، وهى بناء على تجربتى مفيدة جدا ، ويجب أن يحملها الحاج معه ، وقد أعد مولوى حكيم محمد مصطفى (من أهل ميرته وصاحب دار الشفا المصطفوية فى ميرته) صندوقا صغيرا باسم « شفاء الحجاج » فيه الأدوية المفيدة المجربة ، وثمنه لا يتعدى عدة روبيات .

٥ - إن المصاعب التى تواجه الحجاج فى أداء الصلاة جماعة على ظهر السفينة ، هى مصاعب فى محلها ، أضف إلى ذلك صعوبة معرفة اتجاه القبلة ولهذا يجب أن تحمل معك بوصلة ، لكن الأمر لن يحل بوجود البوصلة فقط ، فهناك أحد أهالى مدراس جزاه الله خيرا ، ألف كتابا بعنوان « رسالة فى معرفة اتجاه القبلة » وقد طبع الكتاب ويمكن عن طريقه معرفة اتجاه القبلة ، فى أثناء السفر من كراتشى إلى عدن ، وعلى الطريق ما بين مكة والمدينة ، فى جميع المنازل ، وقد حدد درجات القبلة ، والدقائق ، ويمكن الحصول على الكتاب مجانا من : مولوى محمد عبد الله أحقر ، منزل رقم ٢٤ حارة حسين الملك ، برانا باغ ، مكتب بريد روداى بيت المدار ، ومن مدير مظفر كمبنى ، مينار والى مسجد ، بومباى.

٦- إن مستوى الراحة ، والضروريات والمستلزمات يختلف من شخص لآخر ، ولهذا لا يمكن تقدير المصروفات اللازمة لكل شخص ، لكن إذا قلنا إن المسافر على الدرجة الثالثة فى السفينة ، والمسافر على الجمل فى الحجاز يحتاج إلى ٧٠٠ روبية ، فربما لا يجانبنا الصواب فى هذا التقدير ، كما أن المسافر على الدرجتين الثانية والأولى فى السفينة ، ومن يسافر بالسيارة فى الحجاز يحتاج إلى ألف روبية ، فهذا

التقدير يأخذ فى الاعتبار أقل ما يمكن أن ينفقه الفرد فى المتوسط ، لكن نحن بفضل الله توفرت لنا سبل راحة غير عادية ، ولا يمكن لكل شخص أن تتوفر له مثلها ، فقد يتعرض الإنسان إلى ظروف تحتم عليه زيادة الإنفاق نتيجة عدم المعرفة أو الجهل بالأمور ، ولو أن الإنسان سبق له أداء الحج أو كان على معرفة بالحجاز ، فإن المبلغ الذى ذكرته كاف جدا ، ولو اشتركت مجموعة من الناس معا فى السفر والمصروفات فإن هذا سيوفر عليهم الكثير .

٧ - إن بركات مرافقى السفر واضحة وظاهرة ، فلو وجدت شخصا مجربا ، عارفا بأمور السفور ، فرافقه فى سفر الحج ، فإن هذا سيوفر الكثير من النفقات ، كما سيجنبك الكثير من متاعب السفر ومشقاته ، لكن رفقة هذا السفر رفقة لها خصوصيتها ، يجب ألا ترافق أى شخص هكذا بسهولة ويسر ، فكثيرا ما تنفصم عرى الصداقة والمحبة بين الناس خلال هذا السفر ! وقد رأينا هذا وسمعناه أيضا ، إن الأمر لا يمكن أن يمضى على مجرد الاعتماد على الإخلاص والصداقة والوفاء ، يجب أن يوضع معيار الطاعة ونفى الذات من أجل رفقة السفر والمشاركة فى السفر ، كما أن أمور الطعام والشراب كلما كانت منفصلة كل على حدة ، كان ذلك أفضل !

٨ - الجنيه عملة مفيدة جدا فى الحجاز ؛ ولهذا يجب أن تأخذ معك من بومباى الجنيه بدلا من النقود الورقية أو الروبيات ، والجنيه مفيد جدا فى أوقات التعامل ، وعند دفع أجر الجمال ، ومطالب المطوف وأجرة السيارة ، وبلا شك يجب أن يكون معك أوراق نقدية من فئة الروبيات ، تصرف منها فى أثناء ركوبك السفينة ، كما يجب أن يكون معك عدد معقول أيضا من العملات الصغيرة فى كل وقت ، كما أن العملات المعدنية الفضية تستخدم فى الحجاز بسهولة ، وهناك صعوبة فيما يخص العملات المعدنية النيكل !

٩ - يقيم الحجاج عادة فى بومباى فى استراحات المسافرين ، وهناك ثلاث استراحات مشهورة ، استراحة شهبندر إسماعيل حبيب فى بهندى بازار ، وبهندى بازار سوق كبير ، يمكن أن تجد فيه كل شىء بسهولة ، وهذه استراحة عامة للمسافرين ، يمكن أن يقيم فيها الحجاج وغيرهم ، وهناك استراحة خاصة بالحجاج ،

وهى مسافر خانه دارى بندر ، وهى قريبة من الساحل ، ويملكها شهبندر سليمان ، والاستراحة الأخرى للحجاج هى استراحة حاجى صابو صديق (يرحمه الله) ، وهى فى شارع كرناك بالقرب من المحطة ، وهى مجاورة تماما لسوق « كرافرد ماركيت » حيث توجد جميع بضائع الدنيا ، وهى استراحة كبيرة جدا تتكون من عدة طوابق ، تضم إحدى وثمانين غرفة ، كلها واسعة ، وجيدة التهوية ، وتتسع الغرفة الواحدة لعشرة مسافرين ، وعلى سطح الاستراحة يوجد فناء يقوم مقام المنتزه ، فالمنظر منه بديع ، وفى كل طابق من طوابق الاستراحة يوجد مرحاض مع أربعة حمامات ، وصنابير مياه ، كما تتوفر الإضاءة الكهربائية أيضا ، ويوجد فى كل طابق مطبخان واسعان ، وفى سنة ١٩١٢م حين سافر والدى للحج ، أقمت معه بالصدفة فى هذه الاستراحة لعدة أيام ، وقد تجولت فيها والمسئول عنها مولوى حضرت الله ما شاء الله – نور على نور ، كما أن نائبه منشى عبد الستار رجل خدوم يؤثر الجميع على نفسه.

١٠- هناك ثلاث شركات بحرية تقوم على نقل الحجاج أكبرها « مغل لاين » وهى بشكل عملى خاضعة لشركة « ترنر ماريسن كمبنى » وهى لا تراعى راحة الحجاج مثلما هى الحال فى سفنها الذاهبة إلى أوربا ، وطبقا للظروف الحالية فإن ترتيبات ترنر ماريسن هى الأفضل ، ويجب أن تعتبر غنيمة ! وقد بنت الشركة حديثا سفينتين هما « رحمانى » و« رضوانى » وهما أكثر السفن راحة بشكل نسبى ، ويليهما « أكبر » و« جهانكير » .

١١- إن معظم متاعب المسافرين تكون نتيجة تعجلهم وقلقهم واضطرابهم وعدم تذرعهم بالصبر ، فلو تذرعوا بالصبر قليلا ، وقت صعود السفينة أو وقت النزول منها ، ولو لم يحاولوا دفع بعضهم دون سبب ، متسببين فى الزحام الشديد ، من أجل الحصول على مكان أطيب ، فإن الجميع سوف يجد فى النهاية مكانا ، وفى النهاية هناك مكان للجميع ، ولن يبقى أحد دون مكان ، والأمر يلزمه فقط القليل من الصبر والتحمل .

١٢- لو أخذنا فى الاعتبار الراحة ، والرغبة فى النجاة من مصائب الزحام ، فمن الضرورى ألا يكون السفر فى « عز موسم الحج » ، بل يجب أن يكون قبل موسم الحج بقليل ، وألا تكون العودة بعد نهاية الحج مباشرة ، بل يمكن الانتظار قليلا ، فإن المتاعب والمصائب والغلاء فى مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وجدة ، إنما يكون فى الوقت الذى يصل فيه الزحام إلى مداه !

١٣ - إن تجربة التعامل مع المطوف تجربة ضرورية ، ويمكن القول إن كل إنسان مضطر لخوضها ، يجب أن يكون المطوف مسرورا طول الوقت ، لكن يجب ألا يُعتمد عليه كثيرا على الإطلاق ، ومن له دراية باللغة العربية ، لن يجد نفسه أبدا محتاجا إلى المطوف ، فيما يتعلق بمسائل الحج ، وأفضل وأحسن مرشد لمسائل الحج والزيارة هو كتاب الشيخ منور الدين الدهلوى الضخم المفصل « كتاب الحج والزيارة » باللغة الأردية ، أما بالنسبة للمسائل الضرورية ، فإن كتاب الشيخ عبد الرشيد أحمد كنكوهى المختصر الصغير « زبدة المناسك » يكفى ، وهناك عشرات الكتب باللغة العربية .

* * *

ملحق رقم (٣)

منازل بين جدة والمدينة المنورة

ورد في يوميات الرحلة ذكر المنازل التى توقفت عندها السيارات فى الطريق بين جدة والمدينة المنورة ، وقد حدث خطأ فى كتابة بعضها ، وفيما يلى ثبت بجميع المنازل بأسمائها الصحيحة ، مع الإشارة إلى المسافة الفاصلة بينها ، والمسافة هنا بالكيلوميترات ، والكيلو متر يساوى تقريبا خمسة فراسخ :

- ٥٢ ك م جدة - ذهبان
- ٤٣ ك م ذهبان - تول
- ٥٠ ك م تول - القضيمة
- ٥٠ ك م القضيمة - رابغ
- ٤١ ك م رابغ - مستورة
- ٥٨ ك م مستورة - أبيار بن حصان
- ٣٥ ك م أبيار بن حصان - شيفه
- ٣٣ ك م شفيه - مسيجيد
- ٨ ك م مسجيد - بئر الراحة
- ٢٨ ك م بئر الراحة - قريش

- ٤٠ ك م قريش – أبيار على

- ٨ ك م أبيار على – المدينة

المجموع ٤٢٠ كيلو مترا تقريبا أى ٢٦٢ ميلا

الهوامش

(١) تشكلت لجنة لتلقى شكاوى الحجاج ، وكان الملك عبد العزيز يتلقى بنفسه شكاوى الحجاج والمقترحات التى تقدم من أجل تحسين الخدمات المقدمة لضيوف الرحمن ، وقد تقرر أن تصل البرقيات والرسائل التى ترد باسمه إليه شخصيا لتلقى شكاوى الحجاج (انظر ص ٦٩٤ المجلد الثانى بحوث مؤتمر الملك عبد العزيز ، ويدل على ذلك اهتمام الحكومة المتزايد بشئون الحج والحجاج وإقامة وبناء المشاريع فى الأراضى المقدسة والمشاعر المتعددة الجوانب ويمكن الرجوع لصحيفة أم القرى للوقوف على هذه المعلومات.

(٢) من المعروف أن المسئولين شرعوا فى تلك الفترة توجيه الاهتمام إلى طباعة كتيبات إرشادية باللغات المختلفة ، وتطور الأمر فيما بعد حين تأسست أول مديرية عامة للحج تتولى تقديم الخدمات إلى ضيوف الرحمن ، انظر المجلد الثانى من بحوث مؤتمر الملك عبد العزيز ص ٦٧٨ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

(٣) منذ تولى الملك عبد العزيز الحكم اهتم كثيرا بأمر إنشاء الطرق فى المملكة ، وفيما يتعلق بمنطقة المشاعر وجه الملك عبد العزيز فى نفس العام الذى حج فيه كاتب الرحلة بإنشاء طريقين فى منطقة المشاعر كما أشارت إلى ذلك صحيفة أم القرى فى أعدادها الصادرة فى شهر ذى الحجة من ذلك العام .

(٤) انظر حواشى الفصل الخاص بعرفات ، حيث ذكر أن الحكومة السعودية من خلال وزارة الحج تقوم بتنظيم بل تخصيص أماكن محددة لحجاج كل دولة ، ويتم تقسيم منطقة كل دولة طبقا للمحافظات الخاصة به ، وهو أمر مشاهد اليوم بوضوح.

(٥) قامت الحكومة بإنشاء مراكز لإرشاد من ينفصل عن مجموعته ، كما أقامت مراكز لإيواء المفقودين لحين تسليمهم إلى مطوفهم أو الهيئة المسئولة عنهم ، ويتكاتف فى سبيل ذلك رجال الشرطة وشباب الكشافة وبعض المتطوعين من شباب الجامعات وغيرهم ممن يعرفون لغات البلدان الإسلامية المختلفة.

(٦) هناك لجنة مشكلة تبدأ عملها للترتيب لموسم الحج التالى فورا بعد انتهاء موسم الحج مباشرة .

(٧) بدأ الملك عبد العزيز فور دخوله الحجاز الاهتمام بأمور الصحة وصدر أول أمر ملكى بإنشاء مديرية الصحة والإسعاف فى ٨/٢٧ /١٣٤٤ الموافق ١٦٢٦/٣/١١م وبدأ الاهتمام بإنشاء المستوصفات والمستشفيات وقد أشارت أم القرى إلى المستشفيات المتنقلة التى أمر الملك عبد العزيز بإنشائها فى منطقة المشاعر وعلى الطريق إلى المدينة المنورة .

(٨) يبدو أن المؤلف لم يكن على دراية بأحوال الحجاز والظروف السياسية ، فقد تعرض الملك عبد العزيز بعد بضع سنوات إلى الاعتداء فى أثناء الطواف رغم وجود الحرس ، فكيف يمكن للحاكم أن يطوف

دون حراسة؟! انظر يابانى فى مكة لسوزكى تاكيشى الذى ذكر حادثة الاعتداء ؛ لأنه شاهد عيان عليها .
سوزوكى تاكشى ، يابانى فى مكة ، ترجمة : سمير عبد الحميد وسارة تاكاهاشى ، ط مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض

(٩) انظر الصفحات المتعلقة بهذا الأمر فى الرحلة (روضة الجنة) والتعليق عليها .

(١٠) كان هذا فى الفترة التى دخل فيها الملك عبد العزيز الحجاز ، وقد تغير الأمر فقد بدأت الحكومة السعودية توجه عنايتها إلى المسجد النبوى ، وتشهد جهود التوسعة التى بدأت منذ زمان الملك عبد العزيز واستمرت إلى عهد الملك فهد بمدى الاهتمام الشديد بالمسجد النبوى ، انظر : د محمد العوفى فى كتابه عن توسعة المسجد النبوى ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود .

(١١) تم القضاء على هذه المشكلات فى الأعوام التالية مع بدء مشروعات التوسعة فى عهد الملك عبد العزيز .

(١٢) يجنح المؤلف إلى مثالية يصعب تحقيقها دون ضبط وربط ، فالشرطة عادة ما تحاول بكافة الطرق حفظ النظام بحيث لا يتعارض عملها هذا مع جلال المسجد ، لكن الأمر يرجع إلى جهل بعض المسلمين بأمور دينهم ، وتجاوز حدود الشرع فى كثير من الأمور.

(١٣) اهتمت الحكومة بذلك فقامت بتنويرها وتنظيفها وعمل سور للحفاظ على حرمات القبور ، انظر التعليقات الخاصة بذلك فى « روضة الجنة ».

تمت الترجمة بعونه تعالى بمدينة الرياض فى غرة شهر رمضان الكريم سنة ١٤٢٣ هجرية الموافق للسادس من نوفمبر ٢٠٠٢ م ، وتمت مراجعتها للمرة الثانية فى غرة المحرَّم سنة ١٤٢٤ هجرية / ٣ من أبريل ٢٠٠٣ م ، وانتهت المراجعة النهائية فى ٢٠ من رمضان الكريم سنة ١٤٢٤ هجرية / ١٤ من نوفمبر ٢٠٠٣ م .

المؤلف

العلامة عبد الماجد الدريابادى

ولد العلامة عبد الماجد الديابادى فى بلدة دريا آباد الهندية سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٢ م ، وهو من علماء الهند الكبار ، ومن أدبائها العظام ، وكان مديرا لتحرير جريدة (سچ) (أى الصدق) الأدبية ، التى صدرت أيضا بعنوان (صدق) و (صدق جديد) كما أسهم فى حركة الخلافة وحركة تحرير الهند ، كتب تفسيرا للقرآن الكريم بالأردية وآخر بالإنجليزية ، وبرع فى علم النفس والفلسفة ، ومن أبحاثه بشرية الأنبياء فى القرآن ، حضارة الإسلام تتحدث ، فلسفة الاجتماع وغيرها ، وكان ينشر مقالاته فى Indian Telegraph التى كانت تصدر فى لندن و East and West التى كانت تصدر فى بومباى و Muslim Herald التى كانت تصدر فى إله آباد .

المترجم

سمير عبد الحميد إبراهيم

أستاذ اللغات الشرقية وآدابها

تخرج فى كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٧ م وعمل بها حتى ١٩٨٢ م ، ثم انتقل بعد ذلك للعمل بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود فى طوكيو باليابان حتى عام ١٩٨٦ م ، ثم انتقل للعمل بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض حتى عام ٢٠٠٣ م ، وقد دعته جامعة دوشيشة اليابانية فى كيوتو للعمل أستاذا زائرا عام ٢٠٠٤/٢٠٠٥ م .

شارك فى العديد من المؤتمرات والندوات الدولية ، وله عدد كبير من المؤلفات والترجمات والبحوث نشرت فى الباكستان ومصر واليابان والسعودية منها : الإسلام والأديان فى اليابان ، يابانى فى مكة (ترجمة عن اليابانية بالاشتراك) ، معجم الألفاظ العربية فى الأردية ، اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية فى باكستان ، الجزيرة العربية فى أدب الرحلة الأردى .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوربيسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ديتا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد علي
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدعيمي	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسي سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبري محمد عبد الغني
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعي
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلي
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومي

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف ماري مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمى سيبروك	فخزى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتازار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
-٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
-٢٦٦	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
-٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
-٢٦٨	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
-٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
-٢٧٠	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
-٢٧١	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
-٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
-٢٧٣	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
-٢٧٤	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
-٢٧٥	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
-٢٧٦	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
-٢٧٧	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
-٢٧٨	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
-٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
-٢٨٠	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
-٢٨١	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
-٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
-٢٨٣	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
-٢٨٤	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
-٢٨٥	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
-٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
-٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
-٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
-٢٨٩	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
-٢٩٠	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
-٢٩١	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
-٢٩٢	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
-٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	مجدى توفيق وآخرون
-٢٩٤	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
-٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
-٢٩٦	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
-٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
-٢٩٨	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
-٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
-٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
-٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
-٣٠٢	أقدم لك: فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١- مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥- جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتري اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩- تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	ألان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية) — سنيل باث — جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة — جونتر جراس — شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة — ر. ل. تراسك — رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان — بهاء الدين محمد إسفنديار — أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر) — محمد إقبال — سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال — سوزان إنجيل — إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية) — محمد على بهزادراد — يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى — جانيت تود — ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر) — چون دن — بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر) — سعدى الشيرازى — محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى — نخبة — سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى — إم. فى. روبرتس — عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية) — مايف بينشى — منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية — فرناندو دى لاجرانجا — عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق — ندوة لويس ماسينيون — زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون — بول ديفيز — هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية) — إسماعيل فصيح — سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك — تقى نجارى راد — محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه — لورانس جين وكيتى شين — إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر — فيليب تودى وهوارد ريد — إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى — ديفيد ميروفتش وآلن كوركس — إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية) — ميشائيل إنده — باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات — زياودن ساردر وآخرون — ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج — ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت — ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان) — توبور شتورم وجوتفرد كولر — عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى — ديفيد إبرام — ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية) — أندريه جيد — حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ — مانويلا مانتاناريس — جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه — مجموعة من المؤلفين — طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر — جوان فوتشركنج — عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة — برتراند راسل — إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن — كارل بوبر — الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى — جينيفر أكرمان — أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢) — ليفى بروفنسال — بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر) — ناظم حكمت — محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب — باسكال كازانوفا — أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية) — فريدريش دورينمات — أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر — أ. أ. رتشاردز — محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هورووكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ع. پ. ماك إيڤوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	چونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذى حدث فى «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين سارداروبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب في زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤- مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥- الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدري عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أبومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محيي الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيرر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت أبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدي
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	علي عبدالتواب علي وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبري السوربوني	مجدي عبدالحافظ وعلي كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أماني فوزي
٥٩٥- الحكم والسياسة في أفريقيا (جـ٢)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية في العالم	روبرت ديجاريليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي علي قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوي
٦٠٠- الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢- ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافي	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق علي منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦- قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوچية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	النوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس براموِن	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم